

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
شعبة اللغة العربية و الدراسات القراءانية
بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربية و
الدراسات القراءانية

النفس في القرآن الكريم دراسة بيانية لآيات النفس الإنسانية

تحت إشراف:
الدكتور : عبد الحميد بوكعباش

إعداد الطالب :
خالد بن عميور

السنة الجامعية
١٤٣١ - ١٤٣٢ هـ
٢٠١٠ - ٢٠١١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

الباب الأول مباحث نظرية

الباب الأول: مباحث نظرية

الفصل الأول:

المباحث اللغوية :

مصطلحات و مفاهيم

الفصل الثاني:

المباحث التاريخية :

الدراسات البيانية لآيات النفس الإنسانية عبر التاريخ

الباب الأول

الفصل الأول

المباحث اللغوية : مصطلحات و مفاهيم

- ١ _ النفس
- 2 _ الإنسان
- 3 _ البشر
- ٤ _ الفطرة
- ٥ _ الروح
- ٦ _ القلب
- ٧ _ الفؤاد
- ٨ _ العقل
- ٩ _ الهوى

قبل أن نخوض في آيات النفس الإنسانية و دلالاتها، و جماليات أسلوب القرآن الكريم في التعبير عن مختلف مظاهر هذه النفس، يجدر بنا أن نتتبع المعاني اللغوية و الأصول التاريخية للكلمات التي عبر بها القرآن الكريم عنها. فالقرآن الكريم قد نزل في بيئة العرب، و استعمل كلماتهم، و عبّر بأساليبهم، لذلك كان الاعتماد في فهمه متوقفا على فهم طريقة العرب في أداء المعاني و استعمال الألفاظ سواء بمعانيها الظاهرية أو المجازية. "و البحث في دلالات الألفاظ من القضايا الدلالية البالغة الأهمية لما تؤديه من دور خطير في فهم النصوص فهما صحيحا." (١)

لكل هذا فقد خصصت هذا المبحث لتتبع معاني كلمة " النفس " وجميع الكلمات التي تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي لها، و المستعملة في القرآن الكريم و هي: " الروح "، " الإنسان "، " البشر "، " الفطرة "، " العقل "، " القلب "، " الهوى ".

و سأعتمد في هذا المبحث على قاموس "لسان العرب" لابن منظور الإفريقي

(630 - 711 هـ)، باعتباره موسوعة ضخمة جمع فيها صاحبها التراث المعجمي للغة العربية الذي ورد عند معظم من سبقوه من أهل المعاجم، حيث كان همه الاستقصاء و الترتيب. و أهم ما سأقوم به هو محاولة الترتيب لما ورد في مداخله، فترتيبه الذي وعد به إنما يتعلق بالأبواب و الفصول، أما مواده فهي تعج بالفوضى التي لا نلومه عليها كثيرا لكثرة المادة العجمية عنده، و ضخامة المشروع الذي تصدى له المؤلف.

فسأحاول تتبع معاني الكلمات حسب المنهج التاريخي، باحثا عن المعاني الأصلية لها، مقتفيا التغيرات الدلالية التي طرأت عليها بفعل الاستعمال اليومي للإنسان العربي، و الاستعمال الفني و المجازي الذي تفرضه جماليات التعبير سواء في الشعر أو الحديث الشريف، أو القرآن الكريم ذاته.

١ - النفس:

١.١ - في أصل اللغة:

كلمة "نفس" في أصل اللغة مشتقة من الجذر الثلاثي " ن ف س " . و الأصل فيها التأنيث، و يرى أكثر اللغويين تذكيرها إذا جمعت، على اعتبار أنها

(١) عيسى شحاته، العربية و النص القرآني، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط: ٢٠٠١م، ص: ٤٠٧.

إذا ألحقت بالعدد أنت العدد. قال: " اللحياني (٢): العرب تقول: رأيت نفسا واحدة فتؤنث، وكذلك رأيت نفسين. فإذا قالوا: رأيت ثلاثة أنفس و أربعة أنفس ذكروا، وكذلك جميع العدد. قال: وقد يجوز التذكير في الواحدة و الاثنين و التأنيث في الجمع. قال: حكى جميع ذلك عن الكسائي. و قال سيبويه: و قالوا: ثلاثة أنفس. يذكرونه لأن النفس عندهم إنسان فهم يريدون به الإنسان. ألا ترى أنهم يقولون: نفس واحد فلا يدخلون الهاء. قال: وزعم يونس عن روبة أنه قال: ثلاث أنفس على تأنيث النفس، كما تقول: ثلاث أعين، للعين من الناس، و كما قالوا: ثلاث أشخص في النساء، و قال الحطيئة:

ثلاثة أنفس و ثلاث نود لقد جار الزمان على عيالي

وقوله تعالى: (الذي خلقكم من نفس واحدة) (٣) يعني آدم عليه السلام و (زوجها) يعني حواء. ويقال: ما رأيت ثم نفسا أي ما رأيت أحدا" (٤) و أقول أن الأصل في الجمع كذلك أن تكون كلمة "نفس" مؤنثة فتقول: " أنفس و نفوس كثيرة " و لا تقول: " أنفس أو نفوس كثير " و عليه فأنا أرجح التأنيث في الأفراد و الجمع.

و لقد استعملت هذه الكلمة في اللغة العربية بعدة معاني منها :
أ – التنفس:

و لعل هذا هو أبسط استعمال لها، و منه "النَّفْس"، " و التنفس: استمداد النفس، و قد تنفس الرجل و تنفس الصعداء... و كل ذي رئة متنفس" (٤٥)

و لقد ربط اللغويون بين "النفس" و "التنفس"، "قال الزجاج لكل إنسان نفسان إحداهما نفس التمييز و هي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها يتوفاها الله كما قال الله تعالى، و الأخرى نفس الحياة، و إذا زالت زال معها النفس. و النائم يتنفس... و قال أبو بكر بن الأنباري... و سميت النفس نفسا لتولد النفس منها و اتصاله بها" (٦) و في الحديث: «بعثت في نفس الساعة» (٧) أي بعثت و قد حان قيامها و قرب إلا أن الله أخرها قليلا فبعثني في ذلك النفس، و أطلق النفس على القرب. و قيل معناه أنه جعل للساعة نفسا كنفس الإنسان" (٨).

ب – الذات:

(٢) علي بن المبارك اللحياني أبو الحسن (كان حيا قبل ١٨٩ هـ = ٨٠٥ م)، أخذ عن الكسائي، و أخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام. و له كتاب النوادر. عن: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:، س:، ج: ٧، ص: ١٧٤.

(٣) سورة النساء الآية: 1.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 1، س:، ج: 6، ص: 237.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ج: 6، ص: 235.

(٧) أخرجه الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت... رقم: 2214، و قال: غريب.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: 6، ص: 236.

فقد تأتي كلمة نفس كذلك بمعنى "الذات" ، سواء تعلق الأمر بذات الإنسان أو ذات غيره. فـ " نفس الشيء ذاته و منه ما حكاه سيبويه من قولهم نزلت بنفس الجبل و نفس الجبل مقابلي و نفس الشيء عينه يؤكد به يقال: رأيت فلانا نفسه و جاءني بنفسه" " و النفس عين الشيء وكنهه وجوهره" (٩) فـ " معنى النفس [هنا] معنى جملة الشيء و حقيقته، تقول: قتل فلان نفسه و أهلك نفسه أي أوقع الإهلاك بذاته كلها و حقيقته" (١٠) و لعل هذا الاستعمال هو من أقدم الاستعمالات في اللغة العربية إذ نجد في نقش النمارة: "تي نفس مر القيس بر عمرو ... " أي: هذه نفس امرئ القيس بن عمرو...

و يعود هذا النقش إلى حوالي سنة 328 للميلاد. (6) و لعل هذا التغير في الدلالة من معنى "التنفس" الأسبق إلى معنى "الذات" كان باعتبار أن التنفس هو علامة الحياة ، و من لا نفس له فلا نفس له، و وجود ذات الإنسان مرتبط بحياته. و لعل هذا المفهوم قد استمر في ذاكرة الإنسان حتى مع موت الذات بعد ذلك. فيقال: الميت نفسه، أي ذاته، مع أنه لا نفس و لا نفس له!

ج - الرُّوح:

كما استعملت كلمة " نفس " بمعنى " الروح " التي بها قوام حياة الإنسان. قال في اللسان: " النفس الروح [تقول] خرجت نفس فلان أي روحه... و منه قولهم فاضت نفسه و قال الشاعر:
كادت النفس أن تفيض عليه إذ
ثوى حشو ربيعة (1) و برود
و نجد هذا المعنى كثيرا عند الفلاسفة المسلمين، فقد ورد في التعريفات للجرجاني: " النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة و الحس و الحركة و الإرادة ، و سماها الحكيم: " الروح الحيوانية " (2).

د - الدم:

و قد تستعمل " النفس " كذلك بمعنى "الدم"، و يبدو أن العربي قد قرن بين الدم و الروح، فخرجها غالبا ما يكون مصحوبا بخروجه، و لذلك أطلق

(٩) المصدر نفسه، ج: 6، ص: 237.

(١٠) المصدر نفسه، ج: 6، ص: 233.

(6) حفني ناصف، حياة اللغة العربية، مكتبة الثقافة الدينية، المدينة: /، البلد: /، الطبعة الأولى، 1423 هـ = 2002 م، ص: 74 - 75.

(1) يقال فاض إذا مات، بالطاء، ولا يقال فاض، بالضاد (لسان العرب، ج: 7، ص: 211). و الرِّبِيْطَةُ: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة. (لسان العرب، ج: 7، ص: 307).

(2) الجرجاني علي بن محمد بن علي الزين، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 1400، ص: 312.

كلمة "نفس" على الدم من باب التلازم، قال ابن خالويه: "و النفس الدم"، قال ابن بري: "و أما النفس الدم فشاهده قول السمؤال:

تسيل على حد الطببات نفوسنا وليست على غير الطببات تسيل وإنما سمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه." و قال الزجاج: "و النفس الدم" و في الحديث: "ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه".⁽³⁾

و روي عن النخعي⁽⁴⁾ أنه قال: "كل شيء له نفس سائلة فمات في الإناء فإنه ينجسه" أراد كل شيء له دم سائل. و في "النهاية" عنه: "كل شيء ليست له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا سقط فيه. أي دم."⁽⁵⁾

هـ - النفاس:

و تطلق كذلك "النفس" على النفاس، و لعل هذا الإطلاق كان من باب أن النفاس يؤدي إلى ولادة نفس جديدة، و كذلك لأن النفاس في ذاته دم، و قد سبق أن رأينا الرابط بين النفس و الدم. و يلحق كذلك بالنفاس الحيض، فقد يسمى كذلك نفاساً لنفس السبب، ف "النَّفَاسُ: ولادة المرأة إذا وضعت، فهي نَفَسَاءٌ. والنَّفَسُ: الدم. ونُفِسَتِ المرأة ونُفِسَتْ، بالكسر، نَفَسًا ونَفَاسَةً ونَفَاسًا وهي نَفَسَاءٌ و نَفَسَاءٌ و نَفَسَاءٌ: ولدت. وقال ثعلب: النُّفَسَاءُ الوالدة والحامل والحائض، والجمع من كل ذلك نُفَسَاوَاتٌ ونِفَاسٌ ونُفَاسٌ ونُفَسٌ؛ عن اللحياني، و نُفَسٌ و نُفَاسٌ؛ قال الجوهري: و ليس في الكلام فَعَلَاءٌ يجمع على فعالٍ غير نُفَسَاءٍ و عَشْرَاءٍ، و يجمع أيضاً على نُفَسَاوَاتٍ و عَشْرَاوَاتٍ؛ و امرأتان نُفَسَاوَانٌ، أبدلوا من همزة التانيث واواً. و في الحديث: أن أسماء بنت عميس نُفِسَتْ بمحمد بن أبي بكر أي وضعت؛ و منه الحديث: "فلما تَعَلَّتْ من نِفَاسِهَا أي خرجت من أيام ولادتها"⁽¹⁾. و حكى ثعلب: نُفِسَتْ ولداً على فعل المفعول. وورث فلان هذا المال في بطن أمه قبل أن يُنْفَسَ أي يولد. الجوهري: وقولهم ورث فلان هذا المال قبل أن يُنْفَسَ فلان أي قبل أن يولد؛ قال أوس بن حجر يصف محاربة قومه لبني عامر بن صعصعة:

وإنا و إخواننا عامراً على مثل ما بيئنا نائماً
لنا صرخة ثم استكاته كما طرقت بنفاس بكر

أي يولد. وقوله لنا صرخة أي اتهتاجة يتبعها سكون كما يكون للنفساء إذا طرقت بولدها، و التطريق أن يعسر خروج الولد فتصرخ لذلك، ثم تسكن حركة

⁽³⁾ الحديث، بحثت عنه و لم أجده و لعله من أقوال إبراهيم النخعي، تسرب إلى كتب المعاجم كقول فقهي، و ظنه البعض بعد ذلك حديثاً نبويًا و هو ليس كذلك.

⁽⁴⁾ إبراهيم النخعي: تابعي، محدث و فقيه العراق، توفي سنة 95هـ. أنظر: محمد بن طاهر القيسراني، تذكرة الحفاظ، دار الصميعي، الرياض، المملكة ع س، ط: 1، 1415، ج: 1، ص: 73.

⁽⁵⁾ ابن منظور، لسان العرب، ج: 6، ص: 235.

⁽¹⁾ رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا.

المولود فتسكن هي أيضاً، وخص تطريق البكر لأن ولادة البكر أشد من ولادة
الثيب

والمنفوس: المولود. وفي الحديث: ما من نفس منفوسة إلا وقد كتبت مكانها
من الجنة

والنار، وفي رواية: إلا: كتبت رزقها وأجلها؛ منفوسة أي مولودة. قال: يقال
نفست ونفست، فأما الحيض فلا يقال فيه إلا نفست، بالفتح. وفي حديث عمر،
رضي الله عنه:

أنه " أجبر بني عم على منفوس " (1) أي ألزهم إرضاعه وتربيته. وفي
حديث أبي هريرة: أنه " صلى على منفوس " (2) أي طفلاً حين ولد، والمراد أنه
صلى عليه ولم يعمل ذنباً. وفي حديث ابن المسيب: لا يرث المنفوس حتى
يسنهل صارخاً أي حتى يسمع له صوت.

و قالت أم سلمة: "كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في الفراش
فحضت فخرجت و شددت علي ثيابي ثم رجعت، فقال: أنفست؟ " (3)
أراد: أحضت؟ يقال: نفست المرأة تنفس، بالفتح، إذا حاضت. " (4)

و – الرّوح و الفرج:

فقد تستعمل كذلك " النفس " بمعنى الروح و الفرج، و ذلك لما قد تتسبب
فيه المصائب من ضيق النفس و الحرج، فإذا انجلت المصيبة عن الإنسان
فكأنما قد ردت إليه روحه و نفسه بعد أن كادت تفارقه، فسمي لذلك الفرج بعد
الضيق نفساً.

قال في اللسان: " و النفس: الفرج من الكرب، و في الحديث " لا تسبوا
الريح فإنها من نفس الرحمن " (5) يريد أنه بها يفرج الكرب و ينشئ السحاب
وينشر الغيث و يذهب الجذب و قيل معناه أي مما يوسع بها على الناس و في
الحديث أنه قال: " أجد نفس ربكم من قبل اليمين " (6) و في رواية " أجد نفس
الرحمن " (7) يقال إنه عنى بذلك الأنصار لأن الله عز وجل نفس الكرب عن
المؤمنين بهم و هم يمانيون لأنهم من الأزدي و نصرهم بهم و أيدهم برجالهم و
هو مستعار من نفس الهواء الذي يرده التنفس إلى الجوف فيبرد من حرارته و
يعدلها أو من نفس الريح الذي يتنسمه فيستروح إليه أو من نفس الروضة و هو

(1) رواه البيهقي عن سعيد بن المسيب: " أن عمر بن الخطاب حبس بني عم علي منفوس كلاله بالنفقة".

(2) رواه أبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1399 هـ... عن يحيى

بن سعيد بن المسيب قال " رأيت أبا هريرة رضي الله عنه صلى على منفوس لم يعمل خطيئة قط"

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب: النوم مع الحائض في ثيابها.

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج: 6، ص: 239.

(5) رواه الحاكم في مستدرکه عن أبي بن كعب تحت رقم: 3075 .

(6) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة تحت رقم: 10991

(7) رواه أبو القاسم الطبراني في مسند الشاميين عن أبي هريرة، تحت رقم: 1083.

طيب روائحها فينفرج به عنه وقيل النفس في هذين الحديثين اسم وضع موضع المصدر الحقيقي من نفس ينفس تنفيسا و نفسا كما يقال فرج يفرج تفريجا و فرجا.

كأنه قال أجد تنفيس ربكم من قبل اليمن وإن الريح من تنفيس الرحمن بها عن المكروبين والتفريج مصدر حقيقي والفرج اسم يوضع موضع المصدر وكذلك قوله: "الريح من نفس الرحمن أي من تنفيس الله بها عن المكروبين وتفريجه عن الملهوفين." (3)

ز - العين :

و أطلقوا كذلك "النفس" على العين، و ذلك لأن العائن إنما يدفعه إلى الحسد نفسه التي تتوق إلى ما تراه عند غيره، فتتمنى زوال تلك النعمة عن الآخرين، و رجوعها إليها.
قال في اللسان: " و النفس العين و النافس العائن و المنفوس المعيون و النفوس العيون الحسود المتعين لأموال الناس ليصيبها. وما أنفسه أي ما أشد عينه. هذه عن اللحياني.

ويقال: أصابت فلانا نفس و نفسته بنفس إذا أصبته بعين و في الحديث: " نهى عن الرقية إلا في النملة والحمة و النفس" (4) [فهنا] النفس: العين، هو حديث مرفوع إلى النبي عن أنس .

و منه الحديث: " أنه مسح بطن رافع فألقى شحمة خضراء. فقال: إنه كان فيها أنفس سبعة" (5) يريد عيونهم. و منه حديث ابن عباس: " الكلاب من الجن فإن غشيتكم عند طعامكم فألقوا لهن فإن لهن أنفسا" (6) أي أعينا و يقال: نفس عليك فلان ينفس نفسا و نفاسة أي حسداك" (7)

ح - التسابق:

و بما أن النفوس تتهافت على الخير ، و تدفع أصحابها إلى المسارعة إليه، فإن هذا يؤدي إلى التسابق فيما بينها، لذلك اشتقوا للتسابق من النفس لفظا فقالوا: " التنافس".
" قال الشاعر

وإن قريشا مهلك من أطاعها تنافس دنيا قد أحم انصرامها

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج: 6، ص: 237.

(4) لم أجد في كتب الحديث، و لا ندرى من رفعه كما زعم ابن منظور و غيره من أهل المعاجم، و لكن قال عنه ابن قتيبة أنه من حديث ابن سيرين. انظر: ابن قتيبة، غريب الحديث، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، س: /، ج: 2،

ص: 620

(5) لم أجد في كتب الحديث.

(6) لم أجد في كتب الحديث. و يبدو أنه قول لابن عباس رضي الله عنهما .

(7) ابن منظور، لسان العرب، ج: 6، ص: 237.

فإما أن يكون أراد تنافس في دنيا وإما أن يريد تنافس أهل دنيا، ... و تنافسنا ذلك الأمر وتنافسنا فيه تحاسدنا وتسايقنا وفي التنزيل العزيز {و في ذلك فليتنافس المتنافسون} أي و في ذلك فليترأغب المترأغبون و في حديث المغيرة "سقيم النفاس" أي أسقمته المنافسة و المغالبة على الشيء و في حديث إسماعيل عليه السلام أنه تعلم العربية و أنفسهم أي أعجبهم و صار عندهم نفيسا و نافست في الشيء منافسة و نفاسا إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم و تنافسوا عليه أي رغبوا و في الحديث أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها هو من المنافسة الرغبة في الشيء والانفراد به." (1)

ط - السبق و الفضل:

و من التنافس و التسابق يعرف الأفضل و الأنفس، فاشتقوا له من النفس اسما، فقالوا: " الأنفس"، أي الأفضل.
قال في اللسان: " و شيء نفيس أي يتنافس فيه ويرغب و نفس الشيء بالضم نفاسة فهو نفيس و نافس رفع و صار مرغوبا فيه و كذلك رجل نافس و نفيس و الجمع نفاس.
و أنفس الشيء صار نفيسا وهذا أنفس مالي أي أحبه وأكرمه عندي و قال اللحياني: النفيس و المنفس المال الذي له قدر و خطر ثم عم فقال: كل شيء له خطر وقدر فهو نفيس و منفس قال النمر بن تولب:
لا تجزعي إن منفسا أهلكته فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي.

ي - معان آخر:

و لكلمة " نفس" مشتقات و معان آخر، و نذكر منها:
الضن: أي البخل، و منه: " مال نفيس، مضمون به." (1)
الرغبة: و منه: " أمر منفس فيه مرغوب" (2)
السعة: و منه: " دارك أنفس من داري أي أوسع" (3).

(1) المصدر السابق، ج: 6، ص: 238.

(1) المصدر السابق، ج: 6، ص: 238.

(2) المصدر السابق، ج: 6، ص: 238.

و مهما تعددت مشتقات و معاني هذه الكلمة، إلا أنها لا تخرج عن الحقل الدلالي الواسع لها، الذي يزيده سعة حيوية اللغة العربية و مطاوعتها لحاجات الإنسان اليومية و العملية و الجمالية الفنية. فلا تكاد جميع هذه المعاني و المشتقات تخرج عن هذا المعنى المشترك فيما بينها و المتمثل في معنى : الإنسان و معنى الحياة و مختلف أشكال و مظاهر التفاعل بينهما. و بعد هذه الجولة اللغوية في أشهر معجم في اللغة العربية، يجدر بنا أن نبحث عن هذه الكلمة في القرآن الكريم، و ذلك ما يفرضه علينا عنوان بحثنا هذا.

١. ٢ - في القرآن الكريم:

مع كثرة المعاني التي استعملت بها كلمة نفس في اللغة العربية، إلا أن القرآن الكريم قد استعمل هذه اللفظة بأسلوب انتقائي إبداعي، فقد اختار من المعاني أكثرها انتشاراً - كما سنرى- و كان الإبداع بأن حملها معاني جديدة لم يكن العرب يفكرون فيها. و نبدأ أولاً بتتبع هذه اللفظة في القرآن الكريم بدراسة إحصائية تحليلية، ثم دراسة دلالية

1. ٢. 1 - الدراسة الإحصائية:

وردت لفظة " نفس " بمشتقاتها في استعمال القرآن الكريم 298 مرة، و استعمل منها ثلاثة مشتقات فقط، هي: "تنفس"، "تنافس"، "نفس"، و ذلك كما يلي، و كما هو موضح في الجدول التالي (في الصفحة الموالية).
أ - " تنفس " ^(١): ورد هذا الفعل مرة واحدة في جميع القرآن الكريم، بصيغة الزمن الماضي، و قد سبق أن زعمنا أن هذا هو أبسط استعمال لمشتقات كلمة " نفس " في اللغة العربية. و كذلك ورد هذا الفعل مرة واحدة في جميع

(٣) المصدر السابق، ج: 6، ص: 237.

(٤) سورة التكويد، الآية: ١٨.

القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع " يتنافس " ⁽²⁾، و قد جاء بدلالة الأمر لاتصاله بلام الأمر. و هو ذو دلالة نفسية، كما سبق الذكر، فالتنافس ينتج عن حب النفس للخير، لكن القرآن وجه هذه الصفة توجيهها إيجابيا، بأن قصرها على الرغبة في النعيم الدائم، و ما يستلزم ذلك من العمل الصالح.

ب - "المتنافسون" ⁽³⁾: و هذا اسم فاعل للفعل السابق الذكر و قد ورد كذلك مرة واحدة في جميع القرآن الكريم، و لنا أن نقول عنه نفس ما قلناه سابقا عن فعله.

ج - "نفس" : أما كلمة " نفس " مع لواحقها فقد وردت في كتاب الله ٢٩٥ مرة،

و هذا يدل على اهتمام القرآن الكريم بموضوع النفس الإنسانية، إذ نستطيع أن نقول بأنه الموضوع الجوهرى الذى نزل القرآن لأجله، فقد نزل الكتاب { ليقوم الناس بالقسط } ⁽⁴⁾. و لا يقوم الناس بالقسط حتى يصلحوا أنفسهم.

⁽²⁾ سورة المطففين، الآية: ٢٦.

⁽³⁾ الآية نفسها.

⁽⁴⁾ سورة الحديد، الآية: 25.

الكلمة بصيغة الجمع على أنفس	الكلمة بصيغة الجمع على نفوس	الجمع	الكلمة مفردة	الكلمة دون المشتقات	كلمة نفس و مشتقاتها مع لواحقها
/	/	/	/	/	تنفس: 1
/	/	/	/	/	يتنافس: 1
/	/	/	/	/	المتنافسون: 1
/	/	/	61	61	نفس: 61
/	/	/	14	14	نفسا: 14
/	/	/	10	10	نفسك: 10
/	/	/	40	40	نفسه: 40
/	/	/	2	2	نفسها: 2
/	/	/	13	13	نفسي: 13
/	1	1	/	1	النفوس: 1
/	1	1	/	1	نفوسكم: 1
6	/	6	/	6	الأنفس: 6
49	/	49	/	49	أنفسكم: 49
3	/	3	/	3	أنفسنا: 3
91	/	91	/	91	أنفسهم: 91
4	/	4	/	4	أنفسهن: 4
153	2	1 55	140	295	المجموع = 298 مرة

تكرار كلمة "نفس" و مشتقاتها في القرآن الكريم⁽¹⁾

(1) انظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط: / ،
1422=2001 ،
ص: 803 ، 807 .

و قد وردت كلمة "نفس" مفردة 140 مرة ، و وردت جمعا 155 مرة، و هما نسبتان متقاربتان، يدل ذلك على اهتمام القرآن بالفرد قدر اهتمامه بالمجتمع، فلا صلاح للمجتمع الذي هو غاية القرآن الكريم إلا بصلاح الفرد . و في صيغة الجمع وردت كلمة "نفس" بصيغة جمع الكثرة "نفوس" مرتين فقط، ووردت بصيغة جمع القلة "أنفس" 153 مرة ! ، و لعل السياق هو الذي فرض ذلك،

فقد وردت صيغة "نفوس" في معرض يتطلب التعبير عن الكثرة، و ذلك في قوله تعالى: { وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }⁽¹⁾ و كفى بأرض المحشر كثرة في عدد النفوس، تتطلب التعبير عنها بهذه الصيغة. و الموضوع الثاني هو قوله تعالى: { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا }⁽²⁾، و هنا السياق في معرض بيان علم الله الواسع بالنفوس و ما تخبئه في طياتها، فالله عالم بها جميعها على كثرتها.

و عليه فإن هذا الاستعمال بصيغة جمع الكثرة إنما يرجع إلى قضايا اعتقادية غيبية، و العقائد أمور محدودة معدودة و محصورة في الإسلام، هذا الدين العملي الذي يركز على ما يجري في عالم الشهادة، و ما الإيمان فيه إلا منطلقات نظرية تتجسد في الواقع، و لذلك لا نستغرب قوله p: «الإيمانُ بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وسِتونَ شُعْبَةً، فأفضلُها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»⁽³⁾ فلم يعد الإيمان مجرد اعتقاد فقط بل هو : أقوال، و أفعال، و أخلاق.

إذا فعالم الشهادة استعمل له القرآن الكريم جمع القلة "أنفس" بحسب ما يراه الإنسان و يقدر على تصويره. و قد استعملت هذه الصيغة -كما رأينا- 153 مرة، و ذلك -كما قلنا- لاهتمام القرآن الكريم بهذا العالم، و تركيز انتباه الإنسان عليه.

١ . ٢ . ٢ - دراسة دلالية:

وردت كلمة "نفس" في القرآن الكريم بمعاني و دلالات متعددة ومن

أهمها:

أ - الذات الإلهية:

(١) سورة التكوير ، الآية:7.

(٢) سورة الإسراء ، الآية: 25.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة ، ج: 1، ص: 63، باب بيان عدد شعب الإيمان.

و ذلك في قوله سبحانه: (وَ يُحَدِّثُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)⁽¹⁾
و قوله: (قُلْ لَمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ)⁽²⁾
و قوله كذلك: (وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)⁽³⁾

ب - الجنس و النوع :

و ذلك في قوله عز و جل: (وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)⁽⁴⁾
و قوله: (وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)⁽⁵⁾

ج - آدم ن:

و ذلك في قوله عز و جل: (هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ
مُسْتَوْدَعٌ)⁽⁶⁾
و قوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ
إِلَيْهَا)⁽⁷⁾

و قوله كذلك: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)⁽⁸⁾
و هنا أشير إلى أن كلمة " نفس " إذا وردت في القرآن بمعنى " آدم " ن
فإنها تكون مقرونة دائما بكلمة " واحدة " .

د - الروح:

و ذلك في قوله تعالى: (وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ
الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ)⁽¹⁾
و قوله سبحانه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي
مَنَامِهَا)⁽²⁾

هـ - القلب:

و ذلك في قوله جل ثناؤه: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)⁽³⁾

(1) سورة آل عمران، آ: 30 .

(2) سورة الأنعام، آ: 12 .

(3) سورة طه، آ: 41 .

(4) سورة النحل، آ: 72 .

(5) سورة الروم، آ: 31 .

(6) سورة الأنعام، آ: 97 .

(7) سورة الأعراف، آ: 189 .

(8) سورة الزمر، آ: 6 .

(1) سورة الأنعام، آ: 93 .

(2) سورة الزمر، الآية: 42 .

فالهوى في الأصل من أعمال القلوب.

و - الإنسان:

و ذلك في قوله سبحانه: (وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ)⁽⁴⁾
و قوله كذلك: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)⁽⁵⁾

و قوله: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)⁽⁶⁾
* و أريد أن أقول و أنبه أن هذا التصنيف لهذه الآيات إنما كان بحسب دلالة كلمة " نفس " في السياق الذي وردت فيه في القرآن الكريم، و أنني لم أقصد في هذه الدراسة الدلالية الاستقصاء لجميع الآيات و لا لجميع الدلالات، فذلك يتطلب الرجوع إلى كتب التفسير التي زخرت باستنباطات كثيرة لدلالات هذه الكلمة في القرآن الكريم، و لعلي - بل لا بد لي - من أن أعود إلى هذه الدلالات فيما سيستقبل من بحثي هذا . و الله المستعان، و عليه التكلان.

⁽³⁾ سورة النجم، آ : 23.

⁽⁴⁾ سورة البقرة، آ : 48.

⁽⁵⁾ سورة البقرة، آ : 286.

⁽⁶⁾ سورة المائدة، آ : 32.

١. ٣ - في اصطلاح الفلاسفة:

اهتم الفلاسفة بدراسة النفس اهتماما كبيرا باعتبارها جوهر الإنسان، و قد افترضوا أن معرفة الوجود و الكون يتطلب معرفة الإنسان بنفسه أولا و لذلك قال أرسطو: " كل معرفة فهي في نظرنا شيء حسن جليل، و مع ذلك فنحن نؤثر معرفة على أخرى، إما لدقتها ، و إما لأنها تبحث عما هو أشرف و أكرم. و لهذين السببين كان من الجدير أن نرفع دراسة النفس إلى المرتبة الأولى. و يبدو أيضا أن معرفة النفس تعين على معرفة الحقيقة الكاملة، و بخاصة علم الطبيعة، لأن النفس على وجه العموم مبدأ الحيوانات." (١١)

و لقد قام جدل كبير بين الفلاسفة في تحديد طبيعة النفس و حقيقتها و تعريفها، خصوصا بين الفلاسفة اليونان.

فمنهم من قال " إن النفس أولا و قبل كل شيء المحرك، حيث أنهم ذهبوا إلى أن ما لا يتحرك لا يستطيع أن يحرك غيره. فقد اعتقدوا أن النفس من نوع الأشياء المتحركة، و لذلك قال ديمقريطس: إن النفس نوع من النار و الحرارة" (١٢)

أما " أنكساجوراس فيؤكد أن النفس هي العلة المحركة." (١٣)

" و يذهب ديوجين إلى أن النفس هي الهواء، ذلك لأنه ظن أن الهواء اللطيف الأجسام و أنه هو المبدأ.

... و يجعل هيراقليطس أيضا النفس مبدأ لأنها عنده البخار الذي تنشأ عنه الأشياء." (١٤)

و من الفلاسفة " من قال بأن النفس ماء مثل هيبيون. و علة هذا الرأي على ما يظهر هو الاعتقاد بأن البزر [أو البذر] في جميع الحيوانات رطب... و هكذا لقيت جميع العناصر من يؤيدها باستثناء الأرض فلم يقل بها أحد، اللهم إلا ذلك الذي زعم أن النفس تتركب من جميع العناصر أو أنها جميع العناصر" (١٥)

أما أرسطو فقد عرفها بأنها " كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة." (١٦) و يعني ب " كمال أول" أي فعل أول إذ " يفرق أرسطو بين درجات

(١١) أرسطو طاليس، النفس، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، مصر، ط: ٢، ١٩٦٢. ص: ٣.

(١٢) نفسه، ص: ٩.

(١٣) نفسه، ص: ١٠.

(١٤) نفسه، ص: ١٤.

(١٥) نفسه، ص: ١٥.

الكامل، فكمال أول Primus Actus ، و كمال ثان. و هو يقصد في هذا التعريف الكمال الأول، أو الفعل الأول. يعني أول درجات تحقيق الوجود.^(١٧) و قوله: " لجسم طبيعي آلي " يقصد أن الجسم الطبيعي يقابل الجسم الصناعي، و يتميز عنه بأن حركته ذاتية و ليست قسرية. أما " آلي " فيعني أنه جسم توفرت له جميع الشروط التشريحية أي اكتملت آلاته أو أعضاؤه ليكون قادرا على تأدية وظائف النفس.

"ذي حياة بالقوة" يفيد أن هذا الجسم الكامل تشريحيًا يقتضي أيضا توفر الشروط الفيزيولوجية. أي أن يتم لهذا الجسم الآلي الاستعداد الضروري لأداء النشاط الحيوي ليؤدي الوظائف الفيزيولوجية التي تؤديها النفس في الكائن الحي. فلو كانت جثة كملة من الجهة التشريحية فلا يكفي لكي تمارس وظائف النفس. و يمكن نلاحظ أن وجود الحياة بالقوة صفة ذاتية في الجسم... [و] وظيفة النفس هي إخراج الحياة من القوة [أي القدرة] إلى الفعل في الجسد المعين.^(١٨)

١ . ٤ – في اصطلاح علماء النفس:

إنه لمن الغريب أن نقول أن علماء النفس لحد الآن غير متفقين حول تعريف دقيق للنفس التي هي موضوع دراستهم! " فعلماء الكيمياء [مثلا] لا يختلفون في تحديد فلز أو عنصر من عناصر بحثهم... أما علماء النفس فيختلفون فيما يعتبرونه موضوعا لدراساتهم..."^(١٩) و الواقع أن الباحثين في علم النفس يتهربون من إشكالية تعريف " النفس " إلى الاهتمام بتجلياتها في الواقع. فنجد مثلا الدكتور أحمد فائق يستغرق فصلا كاملا لمحاولة تعريف " النفس " دون أن يقدم تعريفا واضحا جامعا مانعا لها، و

^(١٧) نفسه، ص: ٤٢، ٤٣.

^(١٧) أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، مكتبة كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، مصر، ط: ٢، ١٩٦٨. ص: ٣٢٤.

^(١٨) نفسه، ص: ٣٢٥.

^(١٩) أحمد فائق، مدخل إلى علم النفس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٦٦. ص: ٣.

خلاصة كلامه الطويل أن النفس هي: الإنسان من حيث سلوكه المركب بعيداً عن جانبه الحيوي. (٢٠*)

و حاول بعضهم تعريفها بأنها: " مصدر الحياة، أو مصدر الحياة العقلية بنوع خاص، أو الحياة العقلية ذاتها (متضمنة عملياتها الشعورية و غير الشعورية)، أو تستعمل كمرادف للعقل. " (٢١)

و منه يتأكد لنا أن البحث في جوهر النفس و كنهها لم يعد - اليوم - من اهتمامات علماء النفس، و لكن جهودهم مركزة على البحث في الوظائف و العمليات و الظواهر النفسية الصادرة عن الفرد.

١ . ٥ - استنتاج :

من كل ما سبق نستطيع أن نستنتج أن " النفس " هي مجموع الجسم و الروح معا.

[الجسد + الروح = النفس .]

فبحلول الروح في الجسد يحدث التفاعل و التنازع بين المكون الروحي و المكون الجسدي للإنسان، بين الأرضي و السماوي، بين أشواق الروح و بين متطلبات الأرض، فيبرز للوجود هذا الكائن الفريد الذي هو الإنسان. هذا الكائن الذي يقف في الوسط بين الملائكة و الشياطين! فلا هو ملاك سماوي و لا هو شيطان مارد، و لكنه يستطيع أن يميل إلى أي الطرفين بفعل سلوكه و إرادته. فالجسد وحده لا يمكن أن نتصور له حياة و لا شخصية، كما أن الروح لا تقوم وحدها دون هذا الجسد الذي يجسدها ، لكن مع التقاء الروح مع الجسد تبدأ الحياة، و ينطلق التفاعل بين الجانبين، فيكسب الجسد الحياة، و تكسب الروح التجسد. و من هنا تولد النفس بمتطلباتها الأرضية، و أشواقها السموية، كما تبرز الخصائص الفردية لهذه النفس انطلاقاً من نوعية التربة التي صيغ منها الجسد، و طبيعة الروح التي نفخت فيه.

(*) أنظر المرجع السابق من ص: ١٠٣ إلى ص: ١٢٢.

(١) وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس و الطب العقلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٩٧٦، ص: ٣٥٤، ٣٥٥.

فأدم لم يستحق معنى الوجود و لم يستحق السجود إلا بعد أن سواه الله و نفخ فيه من روحه. أي تسوية الجسد و معه النفخ من الروح. لذلك فإنه لا وجود لنفس في جسد بغير روح كما أنه لا وجود لنفس في روح بغير جسد.

و بعد أن عرفنا معاني كلمة: "نفس" في أصل استعمال العرب، و عرفنا المعاني التي استعملها بها القرآن الكريم، فسنبحث فيما يلي في الكلمات التي استعملها القرآن الكريم ذات المعاني القريبة من كلمة نفس، و هي " الإنسان"، " البشر"، " الفطرة"، " الروح"، " القلب" و " الفؤاد"، " العقل"، " الهوى".

2 - الإنسان:

١.٢ - في أصل اللغة:

لعل كلمة إنسان مشتقة من الأنس فهي مشتقة من الجذر الثلاثي " أن س " فـ"الأنسُ: خلاف الوحشة، وهو مصدر قولك أنستُ به، بالكسر، أنساً و أنسة؛ قال: وفيه لغة أخرى: أنستُ به أنساً مثل كفرت به كُفراً. قال: والأدسُ والاستتناس هو التأنسُ، و قد أنستُ بفلان." (٢٢)

"و الإنسان أصله إنسيانٌ لأن العرب قاطبة قالوا في تصغيره: أنيسيانٌ، فدلّت الياء الأخيرة على الياء في تكبيره، إلا أنهم حذفوها لما كثر الناسُ في كلامهم. وفي حديث ابن صيَّاد: قال النبي، صلى الله عليه وسلم، ذاتَ يوم: "انطلقوا بنا إلى أنيسيانٍ قد رأينا شأنه" (٢٣)؛ و هو تصغير إنسان، جاء شاذاً على غير قياس، و قياسه أنيسانٌ، قال: و إذا قالوا أناسينُ فهو جمع بينٌ مثل بُسْتانٍ و بساتينَ، و إذا قالوا أناسي كثيراً فخففوا الياء أسقطوا الياء التي تكون فيما بين عين الفعل و لامه مثل قَراقريرَ و قَراقريرَ، و يُبينُ جواز أناسي، بالتخفيف، قول العرب أناسيةٌ كثيرة، و الواحدُ إنسيٌّ و أناسٌ إن شئت...

و الجمع الناس، مذكر؛ وقد يؤنث على معنى القبيلة أو الطائفة، حكى ثعلب: جاءتك الناسُ، معناه: جاءتك القبيلة أو القطعة." (٢٤)

والإنسُ: البشر، الواحد إنسيٌّ و أنسيٌّ أيضاً، بالتحريك. ويقال: أنسٌ و أناسٌ كثير...

و يقال للمرأة أيضاً إنسانٌ و لا يقال إنسانة، و العامة تقوله.

(٢٢) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٦، ص: ١٢.

(٢٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير باب الزاي عن زيد بن حارثة ج: ٣. بلفظ: " انطلقوا بنا إلى إنسان..."

(٢٤) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٦، ص: ١٠.

و الإنسانُ أيضاً: إنسان العين، و جمعه أناسيُّ. وإنسانُ العين: المِثال الذي يرى في السّواد. و إنسان السيف و السهم حدهما و إنسي القدم ما أقبل عليها و وحشيتها ما أدبر منها و إنسي الإنسان و الدابة جانبهما الأيسر. و إنسي القوس ما أقبل عليك منها و قيل إنسي القوس ما ولي الرامي و وحشيتها ما ولي الصيد. و أنس الشيء أحسه و أنس الشخص و استأنسه رآه و أبصره و نظر إليه^(٢٥)

٢.٢ - في القرآن الكريم:

وردت لفظة " إنس " بمشتقاتها في استعمال القرآن الكريم مرات كثيرة، و استعمال من مشتقاتها : " إنس " : ١٨ مرة، " إنسان " : ٦٥ مرة ، " إنسيا " : مرة واحدة ، " أناسي " مرة واحدة ، " أناس " خمسة مرات " الناس " اثنين و ثمانين و مئة ١٨٢ مرة، إضافة إلى فعل: " أنس " : ٤ مرات، و " استأنس " : مرة واحدة، و كذلك الصفة: " مستأنسين " : مرة واحدة. و قد وردت كلمة " إنسان " في القرآن الكريم بمعاني و دلالات متعددة و من أهمها:

أ - الكافر: و منه قوله عز وجل: {و كان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلاً} ^(٢٦)؛ عنى بالإنسان هنا الكافر، و يدل على ذلك قوله عز وجل: {و يُجادلُ الذين كفروا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحقَّ} ^(٢٧)؛ هذا قول الزجاج، فإن قيل: و هل يُجادل غير الإنسان؟ قيل: قد جادل إبليس و كل من يعقل من الملائكة، و الجنُّ تُجادل، لكن الإنسان أكثر جدلاً. ^(٢٨)

ب - خلاف الحيوان : و ذلك في قوله سبحانه : { الرَّحْمَنُ } { ١ } عَمَّ القرآن { ٢ } { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } { ٣ } { عِلْمَهُ الْبَيَانَ } { ٤ } ^(٢٩). و البيان من خصائص الإنسان، و به اختلف عن الحيوان، فحتى الأبيكم من الإنسان له بيانه الخاص به! ج - خلاف الجن: و ذلك كقوله عز و جل: { وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } ^(٣٠) فقد قابل سبحانه بين الجن من جهة و الإنس من جهة أخرى

^(٢٥) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٦، ص: ١٥، ١٤.

^(٢٦) سورة الكهف، الآية: ٥٤.

^(٢٧) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

^(٢٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٦، ص: ١٠.

^(٢٩) سورة الرَّحْمَنُ، الآية: ١...٤.

^(٣٠) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

د – الإنسان مناط المسؤولية: قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ
كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {٧٢} (٣١)
فالأمانة مسؤولة يسأل عنها صاحبها، و هي هذا "التكليف و... الأوامر
والنواهي بشرطها و هو أنه إن قام بذلك أثيب و إن تركها عوقب" (٣٢)

٣ _ البشر:

١.٣ - في أصل اللغة: " البَشْرُ: الخَلْقُ يقع على الأنثى والذكر والواحد
والاثنين والجمع لا يثنى ولا يجمع؛ يقال: هي بَشْرٌ وهو بَشْرٌ وهما بَشْرٌ وهم
بَشْرٌ. [و قوله: " الخلق " كلام غامض و أوضح منه قول [ابن سيده: البَشْرُ
الإنسان. [و لعله مشتق من " البشرة"، قال [ابن بزرج: و البَشْرُ جمع بَشْرَةٍ و
هو ظاهر الجلد.
[و منهم من جمعه، قال ابن سيده]: و جمعه أيضاً أبشارٌ، قال: وهو جمع
الجمع.

(٣١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ٣، ص: ٥٢٣.

والبَشْرُ: بَشْرُ الأَديم. وبَشَرَ الأَديم يَبْشُرُهُ بَشْرًا وأَبْشَرَهُ: قَشَرَ بَشْرَتَهُ التي يَنبَت عليها الشعر، وقيل: هو أن يأخذ باطنه بِشْفَرَةٍ. ابن بزرج: من العرب من يقول بَشَرْتُ الأَديم أَبْشِرُهُ، بكسر الشين، إذا أخذت بَشْرَتَهُ. والبُشَارَةُ: ما بُشِرَ منه. وأَبْشَرَهُ؛ أظهر بَشْرَتَهُ. وأَبْشَرْتُ الأَديم، فهو مُبْشَرٌ إذا ظهرت بَشْرَتُهُ التي تلي اللحم.

[و من خصائص صفات البَشْرِ البشر [البَشْرُ: الطَّلَاقَةُ، وقد بَشَرَهُ بالأمر يَبْشُرُهُ، بالضم، بَشْرًا وبُشُورًا وبَشْرًا، وبَشْرَهُ به بَشْرًا؛ كله عن اللحياني. وبَشْرَهُ وأَبْشَرَهُ فَبَشِرَ به، وبَشَرَ يَبْشُرُ بَشْرًا وبُشُورًا. يقال: بَشْرَتُهُ فَأَبْشَرَ واستَبْشَرَ وتَبَشَّرَ وبَشِرَ: فَرَحَ. و في التنزيل العزيز: { فاستبشروا ببئكم الذي بايعتم به } (٣٣) ؛ وفيه أيضاً: { وأبشروا بالجنة } (٣٤). وقوله تعالى: { يا بشراي هذا غلامٌ }؛ كقولك عَصَاي... و البُشَارَةُ المُطْلَقَةُ لا تكون إلا بالخير، و إنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى: { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٣٥) ...

[كما أن من خصائص صفات البَشْرِ الجمال قال] ابن الأعرابي: المَبْشُورَةُ الجارية الحسنة الخلق واللون، وما أَحْسَنَ بَشْرَتَهَا. والبَشِيرُ: الجميل، و المرأة بَشِيرَةٌ. و البَشِيرُ: الحَسَنُ الوجه. و أَبْشَرَ الأمرُ وَجْهَهُ: حَسَنَهُ و نَضَّرَهُ؛ و عليه وَجَّةٌ أبو عمرو قراءَةٌ من قرأ: ذلك الذي يَبْشُرُ اللهُ عِبَادَهُ؛ قال: إنما قرئت بالتخفيف لأنه ليس فيه بكذا إنما تقديره ذلك الذي يُنْضِرُ اللهُ به وَجُوهَهُم. " (٣٦)

٢.٣ - في القرآن الكريم:

تكررت لفظة " بشر " بمشتقاتها في استعمال القرآن الكريم ٣٦ مرة و جاءت بصيغة المثني مرة واحدة. و من المعاني لتي وردت بها في الكتاب:

البشر خلاف الملائكة: فقد ذكر الله اعتراض الكفار على القرآن فقال: { وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } (٣٧) و إنما كان مقصودهم أن الله لا ينزل شيئاً إلا على ملاك ! و يؤكد هذا قوله كذلك: { قَالُوا إِن أَنُتْمُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } (٣٨)

(٣٣) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣٤) سورة، فصلت الآية: ٣٠.

(٣٥) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

(٣٦) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٤، ص: ٥٩ - ٦٤.

(٣٧) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٣٨) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

و قد ورد هذا المعنى بصريح العبارة في قوله عز و جل: { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } (٣٩)

خصوصية الطعام لدى البشر: و هذا المعنى تابع للمعنى السابق قال تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَثَرَفْنَا هُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } (٤٠).

خصوصية الممارسة الجنسية لدى البشر: فالإنسان ككل الكائنات فوق الأرض يتزاوج و يتكاثر، قال تعالى: { قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا } (٤١)

ف "البشر" في استعمال القرآن الكريم هو الإنسان البيولوجي الذي يأكل و يشرب و يتزاوج مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات في البرية، و هذا المعنى من خصوصيات القرآن الكريم الذي اعترف للإنسان بحاجياته البشرية، و لم يكلفه فوق طاقته.

(٣٩) سورة المؤمنون، الآية : ٢٤ .

(٤٠) سورة المؤمنون، الآية : ٣٣ .

(٤١) سورة مريم، الآية : ٢٠ .

٤ - الفطرة:

٤.١ - في أصل اللغة: الفطرة مشتقة من الفعل فطرَ و "فطرَ الشيءَ يَفْطُرُهُ فَطْرًا فَافْطُرَ وفَطَّرَهُ: شقّه. وتَفَطَّرَ الشيءُ: تشقق. والفَطْر: الشق، وجمعه فُطُور. وفي التنزيل العزيز: { هل ترى من فُطُور }^(٤٢)؛ ومنه قوله تعالى: { إذا السماء انْفَطَرَتْ }^(٤٣)؛ أي انشقت. وفي الحديث: (قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى تَفَطَّرَتْ قدماه)^(٤٤) أي انشقتا. يقال: تَفَطَّرَتْ و انفطرت بمعنى؛ منه أخذ فِطْرُ الصائم لأنه يفتح فاه. وأنشد ثعلب:

شَقَقَتِ الْقَلْبَ ثَم دَرَرَتْ فِيهِ هَوَاكِ، فَلِيْمَ، فَالْتَأَمَ الْفُطُورُ
وكذلك تَفَطَّرَ. وتَفَطَّرَتِ الْأَرْضُ بِالنبات إذا تصدعت، والفَطْرُ أيضاً:
جنس من الكَمْء أبيض عظام لأن الأرض تَنْفَطِرُ عنه، واحدته فُطْرَةٌ.
وفَطَّرَ اللهُ الخلق يَفْطُرُهُم: خلقهم وبدأهم. والفِطْرَةُ: الابتداء والاختراع.

وفي التنزيل

العزيز: { الحمد لله فاطر السموات والأرض }^(٤٥)؛ قال ابن عباس - رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما فاطرُ السموات والأرض حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرْتُها أي أنا ابتدأت حَفْرَها. وذكر أبو العباس أنه سمع ابن الأعرابي يقول: أنا أول من فَطَّرَ هذا أي ابتدأه. والفِطْرَةُ، بالكسر: الخِثَّة.

و الفِطْرَةُ: ما فَطَّرَ اللهُ عليه الخلق من المعرفة به. وقد فَطَّرَهُ يَفْطُرُهُ، بالضم، فَطْرًا أي خلقه... وقوله { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }^(٤٦)؛ فهذه فِطْرَةُ فُطِرَ عَلَيْهَا المؤمن. قال: وقيل فُطِرَ كُلُّ إنسان على معرفته بأن الله ربُّ كلِّ شيءٍ و خالقه... و قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ)^(٤٧)، معناه أن الله فَطَّرَ الخلق على الإيمان به.^(٤٨)

٤.٢ - في القرآن الكريم:

(٤٢) سورة الملك، الآية: ٣.

(٤٣) سورة الانفطار، الآية: ١.

(٤٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب إكثار الأعمال، والاجتهاد في العبادة. عن المُغْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ.

(٤٥) سورة فاطر، الآية: ١.

(٤٦) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٤٧) أخرجه مسلم في القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٤٨) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٥، ص: ٥٩، ٥٥.

وردت كلمة " فطرة " في القرآن الكريم بهذه الصيغة مرة واحدة، أما مشتقاتها و صيغها الأخرى، فقد استعمل القرآن الكريم منها فطور: مرة واحدة، فاطر: ٦ مرات، فطر: مرتين، فطرني: ٣ مرات، فطرنا: مرة واحدة، فطركم: مرة واحدة، فطرهن: مرة واحدة، انفطرت: مرة واحدة، يتقطن: مرتين، منفطر: مرة واحدة. و من معانيها في القرآن الكريم:

الشَّقُّ و الاشتقاق و الخلق: فنجد معنى الشق في استعماله لألفاظ: **فطور، انفطرت، يتقطن، منفطر.**

أما معنى الاشتقاق و الخلق فنجده في الفعل: فطر، فطرني، فطرنا، فطركم، فطرهن.

الخلقة المبنية على التوحيد و الإسلام: و ذلك في قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ فَاقِّمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (٤٩) قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "و الفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله: { لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } و المعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد و دين الإسلام غير نائين عنه و لا منكرين له لكونه مجاباً للعقل مساوفاً للنظر الصحيح حتى لو تركوه لما اختاروا عليه ديناً آخر و من غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس و الجن. منه

قوله p: (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه) (٥٠)، {لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } : أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغيير. فإن قلت: لم وحد الخطاب أولاً ثم جمع قلت: خوطب رسول الله p أولاً و خطاب الرسول خطاب لأُمَّته مع ما فيه من التعظيم لإمام ثم جمع بعد ذلك للبيان و التلخيص. " (٥١)

٥_ الروح

١.٥ - في أصل اللغة:

لعل أصل " الروح " مشتقة من الريح، فقد قال الأزهري في " التهذيب: الرِّيحُ يَأُوْهُهَا وَ او صِيْرَتْ يَاءً لَانْكَسَارَ مَا قَبْلَهَا، وَتَصْغِيرَهَا رُوْبِحَةً، وَجَمْعُهَا رِيَاخٌ وَأَرْوَاخٌ. قال الجوهرى: الرِّيحُ وَاحِدَةُ الرِّيَّاحِ، وَقد تَجْمَعُ عَلَى أَرْوَاخٍ لِأَنَّ أَصْلَهَا الْوَاوُ وَإِنَّمَا جَاءَتْ بِالْيَاءِ لَانْكَسَارَ مَا قَبْلَهَا، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى الْفَتْحِ عَادَتْ إِلَى الْوَاوِ كَقَوْلِكَ: أَرْوَحَ الْمَاءُ وَتَرَوَّحْتُ بِالْمَرْوَحَةِ."

و لعل هذا الاشتقاق إنما كان لما للريح من فضل عظيم على الإنسان يضاهي فضل الروح عليه، فمن دلالات الريح : الرحمة " وفي الحديث: (الرِّيحُ

(٤٩) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٥٠) رواه مسلم باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، و لم نجد بهذا اللفظ إلا عند ابن حزم، المحلى، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ١٠، ص: ١٥٢.

(٥١) الزمخشري، الكشاف، مكتبة مصر، القاهرة، جمهورية مصر، ط: /، س: /، ج: ٣، ص: ٥١٠.

من رَوْحِ الله) ^{٥٢} أي من رحمته بعباده. و منه [اشتقت] "الراحة" و هي في الأصل الجلوس في الظل قال "الأزهري: قال أبو زيد سمعت رجلاً من قَيْسٍ وآخر من تميم يقولان: فَعَدْنَا فِي الظل نلتمس الراحة؛ والرَّوِيحَةُ والراحة بمعنى واحد. وراحَ يَرِاحُ رَوْحاً: بَرَدَ وطاب؛ وقيل: يومٌ رَائِحٌ وليلةٌ رائحةٌ طيبةُ الريح؛ يقال: رَاحَ يَوْمُنَا يَرِاحُ رَوْحاً إِذَا طَابَتْ رِيحُهُ؛ ويومٌ رِيحٌ." و كذلك "الرَّيْحَانُ: كُلُّ بَقَلٍ طَيِّبِ الرِّيحِ، واحدته رَيْحَانَةٌ؛ وقال: بَرَيْحَانَةٌ مِنْ بَطْنِ حَلِيَّةٍ نَوَّرَتْ لَهَا أَرْجٌ، مَا حَوْلَهَا، غَيْرُ مُسْنِتٍ... و قوله تعالى: { فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ } ^(٥٣)؛ أي رحمة و رزق وقال الزجاج: معناه فاستراحة و بَرْدٌ، هذا تفسير الرُّوحِ دون الريحان.

والرُّوحُ، بالضم، في كلام العرب: النَّفْخُ، سمي رُوحاً لأنه ريحٌ يخرج من الرُّوحِ؛ ومنه قول ذي الرمة في نارٍ اقْتَدَحَهَا وأمر صاحبه بالنفخ فيها، فقال: فقلتُ له: ارفَعْها إِلَيْكَ، وأحيها برُوحِكَ، واجعله لها قِيئَةً قَدْرًا

والرُّوحُ: النَّفْسُ، يذكر ويؤنث، والجمع الأرواح. التهذيب: قال أبو بكر بن الأَنْبَارِيِّ: الرُّوحُ والنَّفْسُ واحد، غير أن الروح مذكر و النفس مؤنثة عند العرب. و في التنزيل: {يسألونك عن الرُّوحِ قل الروح من أمر ربي} ^(٥٤)؛ و تأويلُ الروح أنه ما به حياةُ النفس. ^(٥٥)

^(٥٢) رواه أبو داود في باب ما يقول إذا هاجت الريح، وابن ماجه في باب النهي عن سب الريح، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله.

^(٥٣) سورة الواقعة، الآية: ٨٩.

^(٥٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

^(٥٥) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٢، ص: ٤٥٥، ٤٦٨.

٢.٥ - في القرآن الكريم:

لفظة "روح" _ بضم الراء _ لفظة جامدة، و قد استعملها القرآن الكريم مجردة أو مع لواحق أخرى، و من ذلك: روح: ١٥ مرة، روحنا: ٣ مرات، روحه: مرة واحدة، روعي: مرتين.

و من المعاني التي جاءت بها هذه اللفظة في القرآن الكريم:
_ **الوحي:** قال تعالى: { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }^(٥٦)

_ **جبريل U:** و ذلك إذا كانت اللفظة مقرونة بلفظة "القدس" قال تعالى: { وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }^(٥٧)، أو مقترنة بنون العظمة: قال جل جلاله: { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }^(٥٨)، أو مقترنة بلفظة "الأمين" قال سبحانه: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ }^(٥٩)

_ **عيسى U:** كما في قوله جل جلاله: { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ كَلَّمْنَاهُ آفَاقًا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ }^(٦٠)
- **ملك من الملائكة:** و ذلك في قوله تعالى: { نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ }^(٦١)

_ **ما به حياة الإنسان:** كما في قوله تعالى: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي }^(٦٢). و هو الجانب الغيبي و الأساسي في الذات الإنسانية، فالجسم الإنساني في تغير مستمر بفعل ما يتبدل منه، فخلايا الجسم في تبدل مستمر،

^(٥٦) سورة النحل، الآية: ٢.

^(٥٧) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

^(٥٨) سورة مريم، الآية: ١٧.

^(٥٩) سورة الشعراء، الآية: ٩٣.

^(٦٠) سورة النساء، الآية: ١٧١.

^(٦١) سورة القدر، الآية: ٤.

^(٦٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

موتا و ولادة، ففي كل يوم يموت من جسم الإنسان جانب ثم يعاد بناؤه في نفس الوقت، لكن الشيء الثابت في الإنسان هو روحه التي هي قوام شخصيته الثابتة. و لو كان الإنسان جسدا فقط لتغيرت شخصيته بتغير جسمه، إلا أن الإنسان مهما نَمى أو هَرَم أو تجدد فإنه يبقى بذاته و شخصيته التي ولد بها. و الذي يحافظ على كل ذلك هي الروح.

و لعل الروح هنا هو الجانب الملائكي من الإنسان، و لذلك نسبه الله إليه كما في قوله سبحانه: { فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } (٦٣)

ف "إضافته إلى نفسه إضافة مُلك و تخصيصه بالإضافة تشريفا له و تعظيما كقوله: { وَ طَهَّرَ بَيْتِي } (٦٤)، و { يَا عِبَادِيَ } (٦٥) و سمي أشرف الملائكة أرواحا نحو: { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا } (٦٦) " (٦٧) و قد قيل: " الإنسان تحفة معجونة من أصل ملائكي و آخر حيواني " (٦٨)

٦ - القلب:

٦.١ - في أصل اللغة:

قال في اللسان: "و القلبُ: مُضْعَةُ مِنَ الْفُؤَادِ مُعَلَّقَةٌ بِالنِّيَاطِ. ابن سيده: القلبُ الْفُؤَادُ، مُدْكَرٌ، صَرَّحَ بِذَلِكَ اللَّحْيَانِي، و الجمعُ: أَقْلَبٌ و قُلُوبٌ، الْأُولَى... و قوله تعالى: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } (٦٩)؛ قال الزجاج: معناه نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَيْكَ، فَوَعَاه قَلْبُكَ، و تَبَّتْ فَلَا تَنْسَاهُ أَبَدًا. و قد يعبر بالقلب عن العقل، قال الفراءُ في قوله تعالى: { إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ } (٧٠)؛ أي عقلٌ. قال الفراءُ: و جائزٌ في العربية أن تقول: ما لك قلبٌ، و ما قلبك معك؛ تقول: ما عقلك معك، و أين ذهب قلبك؟ أي أين ذهب عقلك؟ و قال غيره: لمن كان له قلبٌ أي تفهُمٌ و تدبُّرٌ.

(٦٢) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٦٤) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٦٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

(٦٦) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

(٦٧) الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، سورية، ط: /، س: /، ج: ١، ص: ٤٢١.

(٦٨) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ترجمة و تحقيق رفيق العجم و آخرين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٦، ج: ١، ص: ٨٧٨.

(٦٩) سورة الشعراء الآية: ١٩٣.

(٧٠) سورة ق، الآية: ٣٧.

وَرُوي عن النبي، p، أنه قال: (أَتَاكُم أَهْلُ الْيَمَنِ، هُم أَرْقُ قُلُوبًا، وَ أَلَيْنُ أُفِيدَةُ^(٧١))، فَوَصَفَ الْقُلُوبَ بِالرَّقَّةِ، وَ الْأَفِيدَةَ بِاللَّيْنِ. وَ كَأَنَّ الْقَلْبَ أَخَصُّ مِنَ الْفُؤَادِ فِي الْاسْتِعْمَالِ، وَ لَذَلِكَ قَالُوا: أَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ، وَ سَوِيْدَاءَ قَلْبِهِ... وَ قِيلَ: الْقُلُوبُ وَ الْأَفِيدَةُ قَرِيْبَانِ مِنَ السَّوَاءِ... وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ الْقَلْبُ قَلْبًا لِتَقَلُّبِهِ؛ وَ أَنْشَدَ: مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ، * وَ الرَّأْيُ يَصْرَفُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارًا وَ رُوي عن النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: (سُبْحَانَ مَقَلَّبِ الْقُلُوبِ!)^(٧٢) وَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: { وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ }^(٧٣).

قال الأزهري: وَ رَأَيْتُ بَعْضَ الْعَرَبِ يُسَمِّي لَحْمَةَ الْقَلْبِ كُلَّهَا، شَحْمَهَا وَ حِجَابَهَا: قَلْبًا وَ فُؤَادًا، قَالَ: وَلَمْ أَرَهُمْ يَفْرُقُونَ بَيْنَهُمَا؛ قَالَ: وَ لَا أَنْكُرُ أَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ هِيَ الْعَلَقَةُ السُّودَاءُ فِي جُوفِهِ"^(٧٤)

٢.٦ - فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

"القلب" لفظة جامدة، وَ قَدْ اسْتَعْمَلَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَجْرَدَةً أَوْ مَعَ لُوحَاقٍ أُخْرَى، وَ قَدْ وَرَدَتْ فِي اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٣٢ مَرَّةً، وَ اسْتَعْمَلَ مِنْ مَشْتَقَاتِهَا وَ صِيغَتِهَا:

قَلْبٌ ٦ مَرَاتٍ، قَلْبِكَ ٣ مَرَاتٍ، قَلْبِهِ ٨ مَرَاتٍ، قَلْبَهَا مَرَّةً ١، قَلْبِي مَرَّةً ١، قَلْبَيْنِ مَرَّةً ١، قَلُوبٌ ٢١ مَرَّةً، قَلُوبِكُمْ ١٥ مَرَّةً، قَلُوبِكَمَا مَرَّةً ١، قَلُوبِنَا ٦ مَرَاتٍ، قَلُوبَهُمْ ٦٨ مَرَّةً، قَلُوبَهُنَّ مَرَّةً ١.*

وَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ مَلَاْحَظَتُهُ هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي عَمُومِهِ لَا يَقْصِدُ بِالْقَلْبِ الْجَانِبَ الْجِسْمَانِيَّ مِنْهُ، بَلِ الْجَانِبَ الْمَعْنَوِيَّ.

ف- " لَفْظُ الْقَلْبِ... يَطْلُقُ لِمَعْنِيَيْنِ أَحَدُهُمَا اللَّحْمُ الصَّدَنُوبِيُّ الشَّكْلُ الْمَوْدَعُ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنَ الصَّدْرِ، وَ هُوَ لَحْمٌ مَخْصُوصٌ، وَ فِي بَاطِنِهِ تَجْوِيفٌ، وَ فِي ذَلِكَ التَّجْوِيفِ دَمٌ... وَ لَسْنَا نَقْصِدُ الْآنَ شَرْحَ شَكْلِهِ وَ كَيْفِيَّتِهِ، إِذْ يَتَعَلَّقُ بِهِ غَرَضُ الْأَطْبَاءِ وَ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَغْرَاضُ الدِّينِيَّةُ. وَ هَذَا الْقَلْبُ مَوْجُودٌ لِلْبَهَائِمِ، بَلِ هُوَ مَوْجُودٌ لِلْمَيْتِ. وَ نَحْنُ إِذَا أَطْلَقْنَا لَفْظَ الْقَلْبِ... لَمْ نَعْنِ بِهِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قِطْعَةٌ لَحْمٍ لَا قَدْرَ لَهُ، وَ هُوَ مِنْ عَالَمِ... الشَّهَادَةِ إِذْ تَدْرِكُهُ الْبَهَائِمُ بِحَاسِدَةِ الْبَصَرِ فَضْلًا عَنِ الْآدَمِيِّينَ. وَ الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ لَطِيفَةُ رَبَّانِيَّةِ رُوحَانِيَّةِ لَهَا بِهِذَا الْقَلْبُ الْجِسْمَانِيَّ تَعَلَّقُ. " ^(٧٥)، وَ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِيِ الَّتِي اسْتَعْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَهَا لَفْظَةَ " قَلْبٌ " :

^(٧١) رواه الطبراني في الكبير، و الإمام أحمد في مسند الشاميين كلاهما عن عقبة بن عامر.

^(٧٢) لم أجد في كتب الحديث، و قد ورد مقطوعاً عند ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، س: /، ط: /، ص: ١٦٣.

^(٧٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

^(٧٤) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١، ص: ٦٨٧.

^(*) انظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٦٥٨ - ٦٥٩.

^(٧٥) محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الجزائر، الجمهورية الجزائرية، ط: ١، ١٤١١ = ١٩٩١، ج: ٣، ص: ١١٣.

أداة التبصر:

قال الله عزوجل: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } { ٤٦ }^(٧٦).

قوله تعالى: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } { ٧ }^(٧٧)

قوله جل جلاله: { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } { ٢٣ }^(٧٨)

ففي هذه الآيات الكريمات و مثلها يقترن ذكر القلب بذكر السمع و البصر، في معرض التعقل و التبصر، فكأن السمع و البصر أدوات استقبال و القلب أداة تحليل و تركيب و لاستنتاج.

كما ورد في صريح القرآن الكريم أن القلب وسيلة تبصر و تعقل كما في قوله سبحانه: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } { ٤٦ }

مقر الإيمان:

كما في قوله تعالى: { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَ لَكِن مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } { ١٠٦ }^(٧٩)

و في قوله جل جلاله: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لِمَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا قُلُوبُهُمْ } { ٤١ }^(٨٠)
و في قوله سبحانه: { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ نُؤْمِدُوا وَ لَكِن قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ }^(٨١)

ففي هذه الآيات صرح سبحانه بأن الإيمان مقره القلب. فالقلب آلة الاطمئنان بالإيمان، و من لم يؤمن فلأن قلبه خال منه، و من أسلم فليس بالضرورة أن يكون الإيمان قد استقر في قلبه.

مقر العاطفة:

^(٧٦) سورة الحج، الآية: ٤٦.

^(٧٧) سورة البقرة، الآية: ٧.

^(٧٨) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

^(٧٩) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

^(٨٠) سورة المائدة، الآية: ٤١.

^(٨١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

كقوله جل جلاله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } { ١٥٩ } ^(٨٢)

فقد نسب سبحانه الغلظة و عدم الرحمة إلى القلب. و عليه فإن مصدر الرقة و اللين و عاطفة الرحمة مصدرها من القلب.
و كذلك قوله سبحانه: {سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا أَوْاهُمُ الدَّارُ وَ دِئْسَ مَدْوَى الضَّالِّمِينَ } { ١٥١ } ^(٨٣)
فقد جعل الله القلب هنا مقرا لعاطفة الخوف و الرعب.

مصدر الإرادة

كما جاء في قوله سبحانه: {وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } { ٢٨٣ } ^(٨٤) فكتمان الشهادة إنما هو إثم في اللسان الراض للنطق بها، لكن الله نسب الإثم إلى القلب الذي كان مصدر هذه الإرادة الآثمة.
و في قوله تعالى: {وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا } { ١٤ } ^(٨٥) كان مصدر العزم و الإرادة من قلوبهم التي ربط الله عليها.

و كذلك قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَعُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفُورَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ } { ٣ } ^(٨٦) فغضهم لأصواتهم أمام رسول الله إنما كان لاتصاف قلوبهم بالتقوى.

^(٨٢) آل عمران ، الآية: ١٥٩.

^(٨٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

^(٨٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

^(٨٥) سورة الكهف، الآية ١٤.

^(٨٦) سورة الحجرات، الآية: ٣.

7 - الفؤاد:

٧-١ - في أصل اللغة:

الفؤاد مشتق من الفعل (فَادَ) و " فَادَ الخبزة في الملة يَفَادُهَا فَادًا: شواها. و في التهذيب فَادَتِ الخُبْزَةَ إِذَا مَلَّتْهَا وَ خَبَزَتْهَا فِي المَلَّةِ. وَ الفَيْدُ مَا شَوِيَ وَ خَبِزَ عَلَى النارِ وَ إِذَا شَوِيَ اللحمُ فَوْقَ الجَمْرِ فَهُوَ مُفَادٌ وَ فَيْدٌ وَ الأَفْوُودُ المَوْضِعُ الَّذِي تُفَادُ فِيهِ وَ فَادَ اللحمُ فِي النارِ يَفَادُهُ فَادًا وَ افْتَادَهُ فِيهِ شَوَاهُ وَ المِفَادَةُ السَّفُودُ وَ هُوَ مَنْ فَادَتِ اللحمَ وَ افْتَادَتَهُ إِذَا شَوَيْتَهُ وَ لَحْمٌ فَيْدٌ أَي مَشْوِيٌّ وَ الفَيْدُ الخَبِزُ المَفْوُودُ وَ اللحمُ المَفْوُودُ...

وَ المِفَادُ مَا يُخْتَبَرُ وَ يُسْتَوَى بِهِ قَالَ الشاعِرُ [الحَطيئة]
يَظَلُّ العُرَابُ الأَعْوَرَ العَيْنُ رَافِعًا مَعَ الذَّنْبِ يَعتَسَانُ نارِي وَ مِفَادِي
... وَ الفؤادُ القَلْبُ لِتَفْوُودِهِ وَ تَوَفُّدِهِ مَذْكَرٌ لَا غَيْرَ صَرَحَ بِذَلِكَ اللحياني يَكُونُ ذَلِكَ لِنوعِ الإنسانِ وَ غَيْرِهِ مِنْ أنواعِ الحيوانِ الَّذِي لَهُ قَلْبٌ قَالَ يَصِفُ ناقَةَ كَمِثْلِ أَتَانِ الوَحْشِ أَمَا فُؤادُهَا فَصَعْبٌ وَأَمَا ظَهْرُهَا فَرَكَوبٌ وَ الفؤادُ القَلْبُ وَقِيلَ وَسَطُهُ وَقِيلَ الفؤادُ غِشاءُ القَلْبِ وَ القَلْبُ حَبْتُهُ وَ سَوِيْدَاؤُهُ وَ قَوْلُ أَبِي ذؤيبِ

رَأَى الفؤادُ فَاسْتَضَلَّ ضَلالَهُ نِيافاً مِنَ البِيضِ الحِسانِ العِطائِلِ
رَأَى ههنا مِنْ رَؤيةِ القَلْبِ وَ قَدْ بَينَهُ بِقَوْلِهِ رَأَى الفؤادُ. " وَ الجَمْعُ أَفئِدَةٌ قَالَ سيبويه: وَ لَا نَعْلَمُهُ كَسْرًا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَ فِي الحَدِيثِ: " أَتَاكُمُ أَهْلُ اليَمَنِ هُمُ أَرَقُّ أَفئِدَةً وَ أَلْيَنُ قُلُوبًا " (٨٧). وَ فادَهُ يَفَادُهُ فَادًا أَصَابَ فؤادَهُ. وَ فَيْدٌ فَادًا شَكَا فُؤادَهُ وَ أَصَابَهُ داءٌ فِي فؤادِهِ فَهُوَ مَفْوُودٌ وَ فِي الحَدِيثِ: أَنَّهُ عادَ سَعْدًا وَ قَالَ: " إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْوُودٌ " (٨٨). المَفْوُودُ الَّذِي أَصِيبَ فؤادُهُ بِوَجْهِهِ. وَ فِي حَدِيثِ عطاءِ قَيْلٍ لَهُ: " رَجُلٌ مَفْوُودٌ يَنْفُتُ دَمًا أَحَدَتْهُ هُوَ؟ قَالَ: " لا. " (٨٩) أَي يُوجِعُهُ فُؤادُهُ فَيَنْفَتُ دَمًا وَ رَجُلٌ مَفْوُودٌ وَ فَيْدٌ لَا فُؤادَ لَهُ. " (٩٠)

٧-٢ - في القرآن الكريم:

(٨٧) البخاري، عن أبي هريرة ر، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن.
(٨٨) الطبراني في المعجم الكبير عن سعد بن أبي رافع ر، باب السين.
(٨٩) أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣.
(٩٠) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٣، ص: ٣٢٨ - ص: ٣٢٩.

وردت كلمة " فؤاد " في القرآن الكريم ستة عشر (١٦) مرة. فجاءت بصيغة " الفؤاد " ثلاث (٣) مرات، و " فؤادك " مرتين (٢) ، و " أفئدة " ثمان (٨) مرات، و " أفئدتهم " ثلاث (٣) مرات.* و من المعاني التي وردت بها:

مركز الإرادة و اتخاذ القرار:

إذ عبر سبحانه عن جبن الكفار بفراغ الفؤاد و ذلك في قوله تعالى: { وَ أَفئِدْتُهُمْ هَوَاءَ }^(٩١) فهم في أرض المحشر ذاهلون مسلوبو الإرادة لا يدرون ما يقولون و لا ما يفعلون.

و كذلك عبر عن خوف و فزع أم موسى الذي أوشك أن يوقعها في خطأ مميت بفراغ الفؤاد في قوله تعالى: { وَ أَصْبَحَ فؤَادُ أمِّ مُوسَى قَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُبْذِي بِهِ لَوْ لَأَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } { ١٠ }^(٩٢) فالقرار الحازم يحتاج إلى فؤاد قوي.

مركز تحليل المعلومات:

فكثيرا ما يقترن ذكر الفؤاد بالسمع و البصر في القرآن الكريم، فكأن السمع و البصر أدوات استقبال للمعلومات بينما القلب أداة لتحليلها و الاستفادة منها و استخلاص العبر منها

و ذلك في قوله عز و جل: { وَ لَوْ لَمْ تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } { ٣٦ }^(٩٣)

و في قوله تعالى: { وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَمْ أَبْصَارُهُمْ وَ لَمْ أَفئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } { ٢٦ }^(٩٤) و قوله سبحانه: { وَ نُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } { ١١٠ }^(٩٥) فهم لم يستفيدوا من الآيات و بقيت قلوبهم مترددة أمامها غير قادرة على الاستفادة منها .

و كذلك في قوله سبحانه: { مَا كَذَّبَ الْفؤَادُ مَا رَأَى } { ١١ }^(٩٦) ففؤاد الرسول ﷺ كان يقظا مدركا لما يحدث حوله من عظام الأمور حين الإسراء و المعراج فلم يذهل لذلك و لم ينفطر لهول ما يرى و استوعب الموقف و كان أهلا له.

استنتاج: مما سبق نستنتج أن الفؤاد هو مركز القلب و سويداؤه، و يؤكد ذلك في قوله جل جلاله: { الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفؤَادِ } { ٧ }^(٩٧) "يعني أنها تدخل في

(*) انظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٦٢١ - ٦٢٢.

(٩١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣ .

(٩٢) سورة القصص، الآية: ١٠ .

(٩٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦ .

(٩٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦ .

(٩٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٠ .

(٩٦) سورة النجم، الآية: ١١ .

(٩٧) سورة الهمزة، الآية: ٧ .

أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم و تطلع على أفئدتهم ، و هي أوساط القلوب " (٩٨)

٨_ العقل

٨-١- في أصل اللغة:

أصل العقل من الفعل: "عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلاً وَمَعْقُولاً... مأخوذ من عَقَلْتُ البَعِيرَ إِذَا جَمَعْتَ قَوَائِمَهُ، وَ عَقَلَ البَعِيرَ يَعْقِلُهُ عَقْلاً وَ عَقَلَهُ وَ اعْتَقَلَهُ: ثَنَى وَظَيَّفَهُ مع ذراعه و شدَّهما جميعاً في وسط الذراع، و كذلك الناقة، و ذلك الحبلُ هو العَقَالُ، و الجمع عُقُلٌ. وَ عَقَلْتُ الإبلَ من العَقْل، شُدِّدَ للكثرة؛ و في الحديث: (الفرآنُ كالإبلِ المَعْقَلَةِ) أي المشدودة بالعقال، و التشديد فيه للتكثير.

و قيل: العاقِلُ الذي يَحْبِسُ نفسه و يَرُدُّها عن هَوَاهَا، أُخِذَ من قولهم قد اعْتَقَلَ لِسَانَهُ إِذَا حُبِسَ وَ مُنِعَ الكَلَامَ. وَ المَعْقُولُ: مَا تَعَقَلَهُ بِقَلْبِكَ. وَ المَعْقُولُ: العَقْلُ، يُقَالُ: مَا لَهُ مَعْقُولٌ أَيْ عَقْلٌ، وَ هُوَ أَحَدُ المَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى مَفْعُولٍ كالمَيْسُورِ وَ المَعْسُورِ... وَ العَقْلُ: التَّنَبُّهُ فِي الأُمُورِ. وَ العَقْلُ: القَلْبُ... [فـ [سُمِّيَ العَقْلُ عَقْلاً لِأَنَّهُ يَعْقِلُ صَاحِبَهُ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي المَهَالِكِ أَيْ يَحْبِسُهُ. وَ عَقَلَ الدَّوَاءُ بَطْنَهُ يَعْقِلُهُ وَ يَعْقِلُهُ عَقْلاً: أَمْسَكَهُ، وَ قِيلَ: أَمْسَكَهُ بَعْدَ اسْتِطْلَاقِهِ، وَ اسْمُ الدَّوَاءِ العَقُولُ... وَ اعْتَقَلَ لِسَانَهُ امْتَسَكَ. الأَصْمَعِيُّ: مَرَضَ فُلَانٌ فَاعْتَقَلَ لِسَانَهُ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الكَلَامِ؛ قَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

وَ مُعْتَقَلَ اللِّسَانَ بَعِيرٍ خَبَلٍ يَمِيدُ كَأَنَّهُ رَجُلٌ أَمِيمٌ
وَ اعْتَقَلَ: حُبِسَ. وَ عَقَلَهُ عَنِ حَاجَتِهِ يَعْقِلُهُ وَ عَقَلَهُ وَ تَعَقَلَهُ وَ اعْتَقَلَهُ: حَبَسَهُ.
وَ العَقْلُ: الدِّيَّةُ. وَ عَقَلَ القَتِيلَ يَعْقِلُهُ عَقْلاً: وَدَّاهُ، وَ عَقَلَ عَنْهُ: أَدَّى جِنَايَتَهُ،
وَ ذَلِكَ إِذَا لَزِمَتْهُ دِيَّةٌ فَأَعْطَاهَا عَنْهُ. [ذَلِكَ لِأَنَّ القَاتِلَ يَرْبِطُ وَ يَحْبِسُ حَتَّى يُوَدِّي
الدِّيَّةَ]

[و خلاصة القول في العقل]: هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، ويقال: لفلان قلبٌ عَقُولٌ، ولسانٌ سَوُولٌ، وقلبٌ عَقُولٌ فَهْمٌ؛ وعَقَلَ الشيءَ يَعْقِلُهُ عَقْلًا: فَهَمَهُ. ويقال أعَقَلْتُ فلانًا أي أَلْفَيْتُهُ عَاقِلًا. وعَقَلْتُهُ أي صَيَّرْتُهُ عَاقِلًا. وتَعَقَّلَ: تَكَلَّفَ العَقَلَ كما يقال تَحَلَّمَ وتَكَيَّسَ. وتَعَاقَلَ: أَظْهَرَ أَنَّهُ عَاقِلٌ فَهْمٌ وليس بذاك. وفي حديث الزُّبْرُقَانَ: أَحَبُّ صَبِيَانِنَا إِلَيْنَا الأَبْلَهُ العَقُولُ؛ قال ابن الأثير: هو الذي يُظَنُّ بِهِ الحُصْقُ فَإِذَا فُتِّسَ وَجِدَ عَاقِلًا، والعَقُولُ فَعُولٌ مِنْهُ للمبالغة. (٩٩)

٨-٢ - في القرآن الكريم:

وردت لفظة " عقل " بمشتقاتها في استعمال القرآن الكريم ٤٨ مرة، و
استعمل من مشتقاتها :

عقلوه: ١ مرة	يعقلها: ١ مرة	يعقل: ون: ٢٢ مرة	تعقل: ون: ٢٤ مرة
--------------	---------------	------------------	------------------

و "لم يرد لفظ "العقل" كمصدر في القرآن الكريم إطلاقاً، ولكن ورد الفعل "عقل" بعدة اشتقاقات، وكلها تدل على عنصر التفكير في الإنسان" (١٠٠)، و مثال ذلك قوله تعالى: { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِدُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } {٧٥} (١٠١) و قد جاء العقل هنا مناطاً للمسؤولية، فالأصل فيمن يعقل كلام الله أن يتبعه، لا أن يحرفه، فتحريفهم له بعد عقله دليل إدانة لهم بأنهم لا يرجي منهم خيراً! و يلاحظ أن الفعل " عقل " غالباً ما يأتي في القرآن الكريم مسبوقةً بعبارة: " أفلا " كقوله سبحانه: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {٤٤} (١٠٢)، أو بعبارة: " لعلكم " أو بعبارة: " إن كذتم " و كلها عبارات تؤدي معنى التحضيض و الحث و التأكيد على استعمال العقل. و لذلك لا نستغرب أن يكتب العقاد كتاباً يعنونه ب " التفكير فريضة قرآنية " و لقد دار بين أهل الكلام كلامٌ طويل حول طبيعة العقل و حقيقته، قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (١٠٣) " اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم و لا معدوم لأنه لو كان معدوماً لما اختلف بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض و إذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه، إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى على ما يأتي بيانه في هذه السورة و غيرها إن شاء الله تعالى. و قد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف في البدن ينبث شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت يفصل به بين حقائق

(٩٩) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٤٥٩.

(١٠٠) سيد عبد الحميد مرسي، النفس البشرية، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٨٢، ص: ٤٤.

(١٠١) سورة البقرة، الآية: ٧٥.

(١٠٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(١٠٣) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

المعلومات و منهم من قال إنه جوهر بسيط أي غير مركب. ثم اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس، و قالت طائفة أخرى محله القلب لأن القلب معدن الحياة و مادة الحواس و هذا القول في العقل بأنه جوهر فاسد من حيث إن الجواهر متماثلة فلو كان جوهر عقلا (*) لكان كل جوهر عقلا. و قيل إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني و هذا القول و إن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي و العقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا و مشتھيا. و قال الشيخ أبو الحسن الأشعري و الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني و غيرهما من المحققين العقل هو العلم بدليل أنه لا يقال عقلت و ما علمت، أو علمت و ما عقلت. و قال القاضي أبو بكر العقل علوم ضرورية بوجود الواجبات و جواز الجائزات و استحالة المستحيلات، و هو اختيار أبي المعالي في الإرشاد. و اختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم و اعترض على مذهب القاضي و استدل على فساد مذهبه و حكي في البرهان عن المحاسبي أنه قال العقل غريزة. و حكي الأستاذ أبو بكر عن الشافعي و أبي عبد الله بن مجاهد أنهما قال: العقل آلة التمييز. و حكي عن أبي العباس القلانسي أنه قال العقل قوة التمييز. و حكي عن المحاسبي أنه قال العقل أنوار و بصائر ثم رتب هذه الأقوال و حملها على محامل فقال: و الأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعي و لا عن ابن مجاهد فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة و استعمالها في الأعراض مجاز وكذلك قول من قال إنه قوة فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة. و القلانسي أطلق ما أطلقه توسعا في العبارات وكذلك المحاسبي. و العقل ليس بصورة و لا نور و لكن تستفاد به الأنوار و البصائر. (١٠٤)

و مهما يكن هذا الجدل، إلا أننا نوكد ما سبق ذكره من أن العقل هو آلة التفكير و الإدراك. و لا حاجة لنا في البحث عن طبيعته و مكانه. فالقرآن الكريم ذاته لم يتحدث عن هذه التفاصيل، بما يدل على أن البحث فيها ليس بذي فائدة عظيمة، أو على الأقل ليس من الأولويات التي يجب البحث فيها. فهذه إن احتاجت إلى تصنيف فهي من الترف الفكري الذي لا طائل من ورائه.

(*) لعله يقصد: لو كان العقل جوهرًا.

(١٠٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: /، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ج: ١، ص: ٣٧٠، ٣٧١.

٩_ الهوى

٩-١- في أصل اللغة:

"الهواء...: الجوّ ما بين السماء والأرض، و الجمع الأهوية، و أهلُ الأهواء واحدها هَوَى، وكلُّ فارغ هَواء. و الهَواء: الجَبَانُ لأنه لا قلب له، فكأنه فارغٌ، الواحد و الجمع في ذلك سواء. و قلب هَواء: فارغٌ، و كذلك الجمع. و في التنزيل العزيز: { و أفئدَتُهُم هَواء }؛ يقال فيه: إنه لا عَقُولَ لهم. أبو الهيثم: و أفئدَتُهُم هَواء قال كأنهم لا يَعْقِلُونَ من هَوْلِ يومِ القيامة، و قال الزجاج: و أفئدَتُهُم هَواء أي مُنحرفة لا تُعي شيئاً من الخَوفِ، و قيل: نُزعتْ أفئدَتُهُم من أجوافِهِم؛ قال حسان:

ألا أبلغُ أبا سُفيانَ عَنِّي فأنتَ مُجَوِّفٌ نَخِبُ هَواه

و الهَواء و الخَواء واحد. و الهَواء: كلُّ فُرْجَةٍ بينَ شَيْئَيْنِ كما بَيَّنَّ أسَقَلَ البَيتِ إلى أعلاه و أسَقَلَ البئرَ إلى أعلاها. و يقال: هَوَى صَدْرُهُ يَهْوِي هَواء إذا خلا... [و الفعل] هَوَى يَهْوِي هَويَاناً، و رأيتهم يَتَهَاوُونَ في المَهَواةِ إذا سقط بعضهم في إثر بعض. الجوهري: و المَهْوَى و المَهَواةُ ما بينَ الجبلين و نحو ذلك. و تَهَاوَى القَوْمُ من المَهَواةِ إذا سَقَطَ بَعْضُهُم في إثر بعض. و هَوَتْ... وهَوَى وأهْوَى و انْهَوَى: سَقَطَ ...

و الهوى، مقصور: هَوَى النَّفْسَ، و إذا أضفته إليك قلت هَوَايَ. قال ابن بري: و جاء هَوَى النَّفْسِ ممدوداً في الشعر؛ قال:
 و هَانَ عَلَى أَسْمَاءَ إِنْ شَطَّتِ النَّوَى نَحْنُ إِلَيْهَا، و الهَوَاءُ يَثُوقُ
 ابن سيده: الهوى العشق، يكون في مداخل الخير و الشر.. و هوى النفس:
 إرادتها، و الجمع الأهواء. التهذيب: قال اللغويون الهوى محبة الإنسان الشيء
 و غلبته على قلبه؛ قال الله عز و جل: { وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }^(١٠٥)؛ معناه
 نهاها عن شهواتها و ما تدعو إليه من معاصي الله عز و جل. الليث: الهوى
 مقصور، هوى الضمير، تقول: هوي، بالكسر، يهوى هوى أي أحب.^(١٠٦)

٩-٢ - في القرآن الكريم:

وردت لفظة "هوى" بمشتقاتها في استعمال القرآن الكريم ستة مرات، فقد
 استعمل
 من مشتقاتها الفعل "هوى" : مرتين، و الاسم المعرف بالألف و اللام "الهوى" :
 أربع مرات.

و من المعاني التي قصدتها القرآن الكريم بهذه اللفظة:

السقوط و الأفول: كما ورد في قوله تعالى: { وَ النَّجْمُ إِذَا هَوَى

{ ١ }^(١٠٧) فهو - سبحانه- هنا يقسم بهذا النجم إذا سقط في السماء، و هو

استعمال للكلمة بمعناها اللغوي الأصلي.

الظلم: و ذلك في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
 شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ
 أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَلِنَّ اللَّهُ كَانَ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيرًا { ١٣٥ }^(١٠٨) فقد جاءت القوامة بالقسط مقابلة للهوى، إذ أمر
 سبحانه بالعدل في الشهادة، و قابلها بالنهي عن الظلم فيها باتباع الهوى.

الهلاك: كما في قوله جل جلاله: { كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا
 فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى }^(١٠٩) فمن حل
 به غضب الله تعالى فقد هلك.

حظوظ النفس الباطلة: كما جاء في قوله سبحانه: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
 خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

^(١٠٥) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

^(١٠٦) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١٥، ص: ٣٧٤.

^(١٠٧) سورة النجم، الآية: ١.

^(١٠٨) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

^(١٠٩) سورة طه، الآية: ٨١.

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ
{٢٦} (١١٠)

و نفس المعنى نجده في قوله سبحانه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ} (٣) (١١١)
و قوله كذلك: {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ} (١١٢)

خاتمة الفصل:

مما سبق نستنتج أن مختلف المصطلحات المستعملة في القرآن الكريم سواء: "النفس"، "الروح"، "الإنسان"، "البشر"، "الفطرة"، "العقل"، "القلب"، "الفؤاد"، "الهوى". كلها تجليات للنفس الإنسانية في مختلف مكوناتها وأقسامها ومستوياتها، وأوضاعها المختلفة. وقد استعمل القرآن الكريم لكل مقام المقال والمصطلح المناسب له الذي لا يغني عنه مقال آخر أو مصطلح

(١١٠) سورة: ص، الآية: ٢٦.

(١١١) سورة النجم، الآية: ٣.

(١١٢) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

قلباتها، و التذبذبه على خطورة
ية التعامل معها.
للفاظ و المصطلحات القارلة سديتعملة
الأنفس ذرا لإعدها نذرية التداخل إلى:
يظ فالي لمسلتلعممة لة الفعير بايلة لغة العربةية
ما هي الألفاظ المستعملة في هذه
عدير عن الألفاظ والألفاظ غالباً سهدياً من
الظديولوفلشد بوئياة إديوان الذي يعيش في
أيلكفوانظوهام عفلي ماهدان فسل لم يدان دقيقة،
ن صعوبة في فهم المصطلح النفسي
صال لقارلآتلهير يخي التالي حيث سجد
الأنفس و الروح شهيداً وخطأ. مذهبي
دلقورآن دفالفكريلم. لقرآن الكریم و إن
في اللغة العربةية.
ن يرخلال لقارلآتلهير بالكل عن الجزء،
بالتلجل لسيدانق اولكال. لمقام، و خصوصاً
انزية المعبر عنها.
للالأنفس اللإفسس اللإفسس كالن يفتكامل يعمل
ع و لوط فلام اي موكن عوقه لنأهدال، لندني لده يابة العمالية
هذه النفس عن الفجانء سلالألخر يسلكه
للإكودة نهلولا تفكير، و عاطفة، و
من تغصلال دأتي جنصدية.. أو مكن للإنسان
ليقظ هرنافعالاس في الواقع.
انزية هي نظرة متكاملة و ليست
ج لجل نذفيسة. في القرآن الكریم.

الأول الفصل الثاني

الآليات التي يدخل فيها الإنسانية عبر التاريخ:

لم يحدث عصا لأول: لنزول
بالحث والحث ما نوي: التابوعين
بحدثا لعطشرا لثبوع باسي
بحدث - لعطشرا مع: الضعف
محدث - اعطشرا مس: لنهضة

تمهيد:

الإنسان في القرآن
ما تكسبه هذه الآيات الكريمة
من حيث عددها، أو مضمونها، أو
التي تقر أن لا نأفلس كما يلام الإنسانية
، و لذلك لا نعجب من اهتمامه
لدارسين بهذه الآيات اهتماما
دقيقا من منظور التحصيل خاصة لهذه الآيات
التي تهتم بمعرفة دلالة هذه الآيات
تحليل الفلسفي لها، إضافة إلى
دراسة أصحاب التحليل النفسي
و التنموية أول ببشهر لم ينهوا ولا إلهنا
لنفذنا لدراسة السجدة لمالية لهذه الآيات من
أسس البيانانية.
يخبرنا لهذا الاهتمام ابتداء من
إلى يومنا هذا.

صدر النزول:

فيه لوهلة الأولى أن الأنفس لم
كان فيه في
واقعة كما في أطول من ذي سلم في دخل في
بعضهم أن يصل إلى أولئك حلال... لهم
من نفق لياتقها كذا تكثرت الحمد يكثر اوقات نفسية
والإذافار قوه و نزلا عن تلك
روا عليها أشد الحسرة.
نظرة سوا لسا لله صلى الله عليه و سلم قال:
يا فبوا أن يفرق حالك: نظرة؟ ناقفاً: لك: نظرة لينة يا حي: ان
ما تنقوا لثنا؟ عظاماً: ليت: سا لله صلى الله عليه و سلم قال: ما
خرجنا من عند رسول الله صلى الله
واج والأولاد و فليس فينا لك ثأر واد. بكر:
ولنا بلفهوى، الله بك: لى هذا لنا على رسول الله
ناصفق لى يحه لثنا لدة فقم: ليتن رسول الله صلى الله
ليه ووسملا م "لثنا لك و لثنا! نأردك. و الجنة.
نألف، ما عرا فبوا: لأزواج والأولاد و
قالا لثنا لثنا و لثنا لثنا و لثنا لثنا: "نفسية
و في يداه! ذكر، لصا فذكر الملائكة

على فرشكم و في طرركم. و لكن، يا حنظلة! ساعة و ساعة" ثلاث
مرات)) (١١٣)

فكانت سلامة الأنفس، و كان خلوها من الأمراض حائلا أمام الغوص العميق
في دراسة كنه النفس، أو البحث في أمراضها أو التنقيب عن الدواء لها... بله
الخوض في الآيات القرآنية التي تحدثت عنها. زيادة على ذلك فقد كان وجود
الرسول ﷺ بين أظهرهم يبين لهم حقيقة أوضاعهم النفسية، و يفسر لهم ما ورد
في الكتاب العزيز عن هذا الأمر من الآيات حائل آخر أمام الخوض في تفسيرها
أو دراستها.

لكن ذلك الصفاء لم يخل من كدر فقد كان المنافقون وسط هذا المجتمع يعانون
الأمراض النفسية الخطيرة و المتعددة، فكان القرآن الكريم ينتزل لتشخيص هذه
الأمراض و وصف الأدوية الملائمة لها. كما كان الرسول ﷺ يتولى شرح ما
ورد في القرآن من تشخيصات و من أدوية، و يفصل الحديث عنها. و من حديثه
عن هذه الأمراض ما رواه الصحابي أبو هريرة ر عن النبي ﷺ أنه قال: ((آية
المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا أوّتمن خان.)) (١١٤)

و من حديثه عن تلك الأدوية ما رواه الصحابي أنس ر، عن النبي صلى الله عليه
و سلم قال: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب
إليه مما سواهما، و أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، و أن يكره أن يعود في الكفر
كما يكره أن يقذف في النار)) (١١٥)

فالرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف يتحدث عن جانب من الحياة الوجدانية
للإنسان المسلم، و هو تذوق حلاوة الإيمان، و بين لنا فيه الوسائل الضرورية
للوصل إلى هذه الحالة النفسية الرفيعة.
كما كان القرآن الكريم يشرح حقيقة النفوس الكافرة و يبيّن للناس أمراضها و
أسباب كفرها و إصرارها على هذا الكفر. و يحذر المؤمنين من كل ما قد
يجرهم إليه فكانوا يلتزمون وصايا قرآن الكريم و أوامره بشكل عملي بعيدا عن
كل تأويل أو محاولة تجاوز الدلالة التطبيقية له.
إذن فلم يكن الصحابة في هذا العصر يكلفون أنفسهم عناء البحث و الاجتهاد في
معرفة أحوال النفس و تجلياتها، و ما ورد في الكتاب العزيز عنها. ناهيك عن
البحث في جماليات هذه الآيات، و أسلوبها الخاص في التعبير عنها. و إنما كان

(١١٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور
الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات، والاشتغال بالدنيا.

(١١٤) رواه الإمام البخاري في صحيحه، باب: علامة المنافق.

(١١٥) رواه الإمام البخاري في صحيحه، باب: حلاوة الإيمان.

همهم التدبر في كتاب الله بغرض الالتزام والعمل والإخلاص في كل ذلك، دون الغوص في الدقائق و التفاصيل. و كل ذلك تنفيذا لقوله تعالى: {فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} ^(١١٦)، وقوله أيضاً: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَا كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ^(١١٧)، وقوله سبحانه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا} ^(١١٨) فقد كان التدبر و الفهم همًا أساسيا لدى الصحابة σ ، و ذلك لأن الفهم أساس العمل الصالح. و كم كان الصحابة يحرصون على تتبع أعمال الرسول ρ لأنها تمثل التطبيق العملي الصحيح للقرآن الكريم، و يحرصون على تتبع أقوال الرسول ρ لأنها تمثل الشرح الصحيح لكتاب الله تعالى.

فهم لم يكونوا يعملون بالقرآن من تلقاء أنفسهم حسب فهمهم الخاص إلا في حالة غيابهم عن الرسول ρ و بعدهم عنه، فيضطرون إلى الاجتهاد في الفهم والعمل ثم يعرضون ذلك على الرسول ρ للإقرار أو التوجيه و التصحيح.

و عليه يمكن القول أنهم كانوا في هذا العصر يعتمدون على الرسول ρ في فهم الآيات، كمبدأ أول، لكن كان الاجتهاد منهم واردا كمبدأ ثان، لكن متوقف على إقرار الرسول ρ وتصويباته.

عصر الصحابة و التابعين:

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تولى الصحابة رضي الله عنهم عملية إيضاح و بيان معاني القرآن الكريم، لكن على تحرج كبير من كثير منهم،

^(١١٦) سورة النساء، الآية: ٧٨.

^(١١٧) سورة النساء، الآية: ٨٢.

^(١١٨) سورة محمد عليه الصلاة و السلام، الآية: ٢٤.

فهذا أبو بكر الصديق يسأل عن قوله تعالى : { وَفَاكِهَةٌ وَأَبَا }^(١١٩) فيقول : " أي سماء تظلني و أي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ "^(١٢٠) لكن هذا لا يمنع وجود بعض الصحابة تميزوا بالجرأة في تبیین معاني الكتاب كابن عباس الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له بقوله: ((..اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل))^(١٢١) و علي بن أبي طالب الذي كان يقول: "سلوني عن كتاب الله، فو الله ما من آية إلا و أنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل. " ^(١٢٢)

فكان لصغار الصحابة خصوصاً أقوالهم الشهيرة في تفسير القرآن الكريم، بل و أصبحت لهم مدارس في التفسير كما هو معلوم، و كان لآيات النفس الإنسانية حظها لديهم من الاهتمام كباقي آيات القرآن الكريم.

و مما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم في تفسير آيات النفس الإنسانية ما روي " عن رفاعة بن رافع قال: جلس إلى عمر و علي و الزبير و سعد و نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فتذاكروا العزل. فقال: لا بأس به. فقال رجل: إنهم يزعمون أنها الموءودة الصغرى. فقال علي رضي الله عنه: لا تكون موءودة حتى تمر على التارات السبع. تكون سلالة من طين ثم تكون نطفة ثم تكون علقة ثم تكون مضغة ثم تكون عظاماً ثم تكون لحماً ثم تكون خلقاً آخر. فقال عمر رضي الله عنه: صدقت أطال الله بقاءك " ^(١٢٣)

فمن هذا الأثر يتبين لنا اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بآيات النفس الإنسانية و تتبعهم لها و جمعهم بينها على تفرقها في ثنايا القرآن الكريم. و قد كان ذلك خصوصاً بعد وفاة الرسول ρ ، و توليهم - رضي الله عنهم - مهام الرسول ρ في بيان الكتاب و الدفاع عنه، فهم ورثة الرسول ρ بحق، ذلك لأن ((العُلَمَاء هم وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَ لَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ.))^(١٢٤)

إلا أن التدوق الجمالي في هذا العصر كذلك لم يتعد الجانب الفطري و التعظيم والاحترام الديني لكتاب الله تعالى جملة.

أما التابعون و قد عاش معظمهم في العصر الأموي فقد اعتمدوا على سلفهم، فلم

^(١١٩) سورة عبس، الآية: ٣١.

^(١٢٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج: ٧ - ص: ١٢٠.

^(١٢١) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، و أبو عبد الله الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، في كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم.

^(١٢٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج: ٢ - ص: ١٢٠.

^(١٢٣) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨، ج: ١، ص: ٤٩.

^(١٢٤) رواه الترمذي عن أبي الدرداء τ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة.

يزيدوا عليهم كثيرا، فهذا عكرمة يقول : " كل شيء أحدثكم في القرآن الكريم فهو عن ابن عباس ". و من أشهر المفسرين من التابعين: الحسن البصري و عطاء بن أبي رباح، وأبو العالية، و الضحاك بن مزاحم و قتادة (١٢٥)

لكن هذا لا يعني أنه لم يكن في التابعين مجتهدون في هذا الميدان، خصوصا و قد بدأت في عصرهم بذور التصوف، إذ أنه يروى أن " أول من سمي بالصوفي " (١٢٦) هو أبو هاشم الصوفي (تو ١٠٥)، لكن للأسف الشديد فلم يصلنا عنه شيء يذكر في تفسير آيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم. كما نجد أبا سعيد الحسن بن يسار البصري (٢١ - ١١٠ هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م). الذي كان إمام أهل البصرة، و حبر الأمة في زمنه. و هو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. و قد ولد بالمدينة، و شب في كنف علي بن أبي طالب، ... و عظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة. وكان غاية في الفصاحة، تتصيب الحكمة من فيه. (١٢٧) و له أقوال ماثورة كثيرة، نذكر منها تفسيره لبعض آيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم.

منها قوله في تفسير قوله عز و جل: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (١٢٨) " قال الحسن البصري: عنى بذلك قلب المؤمن وضيء التوحيد، " (١٢٩) فهذا بيان فريد لمعاني الآية الكريمة، يعكس لنا اهتمام الحسن البصري بالجانب النفسي السلوكي في دلالات آيات القرآن الكريم. فمع أن ظاهر الآية لا يوحي بأي مضمون نفسي إلا أن اهتمام المفسر بالموضوع جعله يفهم من الآية مفاهيم أخرى من وراء ظاهر النص.

و في قوله تعالى: { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } (١٣٠) قال: " كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، و نشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. " (١٣١) فهو هنا بصدد آية من القرآن تتحدث عن نموذج من

(١٢٥) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، ج ٢ - ص : ١٩٠ .

(١٢٦) الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م. ج: ٢، ص: ٣٦٧ .

(١٢٧) خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (المتوفى : ١٣٩٦ هـ) الأعلام، تحقيق زهير فتح، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة ١٩٨٠، ج: ٢، ص: ٢٢٦ .

(١٢٨) سورة النور، الآية: ٣٥ .

(١٢٩) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التستري (المتوفى : ٢٨٣ هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م، ج: ٢، ص: ٤٩ .

(١٣٠) سورة الذاريات، الآية: ١٨ .

(١٣١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٧، ص: ٤١٧ .

المؤمنين، و نرى توجيهه لتفسيرها أن هؤلاء لا يتحنون السحر للاستغفار كما هو المدلول الظاهري للآية و لكن المعنى على المجاز، فهو مجاز مرسل علاقته الغائية، فهم يستغفرون طول الليل إلى غاية السحر. و هو توجيه بياني جميل. و ممن اشتهر كذلك بالاهتمام بالجانب النفسي في هذا العصر **عون ابن عبد الله** (توفي قبل ١٢٠ هـ). (١٣٢) و كان قد لقي أبا هريرة و صلى خلفه.*

روي عنه " أنه كان يقول ... ويحي بأي شيء لم أعص ربي؟! ويحي إنما عصيته بنعمته عندي. ويحي من خطيئة ذهب شهوتها وبقيت تبعثها عندي في كتاب كتبه كتاب لم يغيبوا عني. و سواتاه لم استحيم و لم أراقب ربي ويحي نسيت ما لم ينسوا مني. ويحي غفلت و لم يغفلوا عني لم استحيم و لم أراقب و سواتاه ويحي حفظوا ما ضيعت مني ويحي طاوعت نفسي و هي لا تطاوعني ويحي طاوعتها فيما يضرها و يضرني ويحها ألا تطاوعني فيما ينفعها وينفعني. أريد إصلاحها و تريد أن تفسدني ويحها إني لأنصفها و ما تنصفي أدعوها لأرشدتها وتدعوني لتغويني ويحها إنها لعدو لو أنزلتها تلك المنزلة مني ويحها تريد اليوم أن ترديني و غدا تخاصمني. رب لا تسلطها على ذلك مني. رب إن نفسي لم ترحمني فارحمني رب إني أعذرهما ولا عذرتي انه إن يك خيرا أخذها و تخذلني و إن يك شرا أحبها و تحبني رب فعافني منها و عافها مني حتى لا أظلمها و لا تظلمني و أصلحني لها و أصلحها لي فلا أهلكها و لا تهلكني و لا تكني إليها و لا تكلمها إلي... " (١٣٣)

و روي عنه أنه كان يقول: " مجالس الذكر شفاء القلوب " و كذلك: " ذكر الله صقال القلوب " (١٣٤)

و كان يقول: " ويحي كيف أغفل عن نفسي و ملك الموت ليس يغفل عني ! ؟ ويحي كيف أزعج أن معي عقلي و أنا مضيع من الآخرة حظي ! ؟ " (١٣٥)

و مثل هذه الأقوال، و إن لم يربطها صاحبها بكتاب الله إلا أنها لا غرو صادرة عن تأمل القرآن الكريم و الاجتهاد في العمل به، و خصوصا الآيات النفسية التي تدعو إلى إصلاح النفس و الحذر من مكايدها.

و عليه فإن اعتماد التابعين على من كان قبلهم من الصحابة، " بما ظهر من أفكار الجبر والاختيار و قضايا الخروج و التشيع و الإرجاء و مختلف القضايا الفقهية التعبدية و المعاملاتية " (١٣٦) و كذلك انشغالهم بالفتوحات

(١٣٢) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: /، س: /، ص: ٥٢٠.

(*) أنظر: المزي جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الرابعة ١٤٠٦ - ١٩٨٥ م. ج: ٢٢، ص: ٤٥٦.

(١٣٣) الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى (المتوفى: ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ. ج: ٤، ص: ٢٥٥.

(١٣٤) نفسه، ج: ٤، ص: ٢٤١.

(١٣٥) المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق ج: ٢٢، ص: ٤٥٨.

(١٣٦) أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: ١٠، ١٩٦٩ م. ص: ١٩٥ - ٢٠٨.

الإسلامية في مختلف أصقاع الأرض، كل ذلك صرفهم عن دراسة الفن و البيان و مختلف أساليب التعبير. فلم تظهر في هذا العصر دراسات متخصصة في الجانب البياني للقرآن الكريم، و خصوصا آيات النفس الإنسانية منه، إنما بدأ الاهتمام بالجانب البياني من القرآن الكريم بعد هذا العصر، و بالضبط مع بداية العصر العباسي و ذلك ما سنراه في ما يلي.

- العصر العباسي: ١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م

شهد هذا العصر بروز علماء و دارسين اهتموا بالجوانب النفسية للإنسان، كما تميز هذا

العصر بانتشار حركة الترجمة التي من خلالها اطلع المسلمون على الأفكار الروحية الهندية*، و المؤلفات اليونانية و خصوصا الفلسفية منها ككتاب "النفس" لأرسطو.

و كان هناك اهتمام كبير، بهذه الفلسفة فظهر لها شراح مشهورين كابن سينا و الفارابي و ابن رشد.

و قد انعكس هذا على دراسة الآيات النفسية في القرآن الكريم فظهرت تفاسير جديدة هم أصحابها الأكبر هو محاولة تفسير القرآن على ضوء هذه الفلسفات، فظهر منها التفسير الكبير للرازي الذي قيل فيه: " فيه كل شيء إلا التفسير " و غيره مما سنذكره لاحقا.

كما بدأ في هذا العصر الاهتمام بالجانب البياني للقرآن الكريم. فقد توسعت فيه الدولة الإسلامية بما دان لها من الأقاليم في مختلف أصقاع الأرض بفضل الفتوحات، فتوسعت دائرة الإسلام لتشمل شعوبا و أقواما مختلفين من فرس و روم و غيرهم، لا يحسنون من العربية - مهما تعلموها - ما يبسر لهم و يعينهم على فهم القرآن الكريم الفهم الصائب و خصوصا ما تعلق فيه بالأساليب غير المباشرة في التعبير، و لذلك فقد انبرى جمع من العلماء و الباحثين لتيسير ذلك، فكان هذا من أهم أسباب نشأة الدراسات اللغوية العربية من نحو و بلاغة و غيرها، و الدراسات البيانية للقرآن الكريم خصوصا.

و من أشهر الدارسين للآيات النفسية في القرآن الكريم في هذا العصر:

١- أبو عليّ الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧ هـ = ٧٢٣ - ٨٠٣ م) : شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصالحاء.^(١٣٧) و قد رويت عنه تفاسير لآيات كثيرة من كتاب الله تعالى، نذكر منها بعض ما تعلق بالجانب النفسي:

(*) انظر صابر طعيمة، التصوف و التفلسف، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص: ٧٦ - ٧٧.

فقد روى عنه أنه تلا قوله تعالى: { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } (١٣٨) فقال: "أخلصه و أصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه و أصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، و إذا كان صواباً و لم يكن خالصاً، لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. و الخالص إذا كان لله عز و جل. و الصواب إذا كان على السنة." (١٣٩) فالسلوك الصحيح لا بد له من مراعاة الجانب الشكلي الظاهري، و الجانب الباطني. و هذه مسألة قد تبدو لنا بديهية، لكنها جوهرية في حقيقتها فيها ضل اليهود و النصارى، فاليهود يركزون على الشكليات، و لا تهمهم البواطن أما النصارى فيبالغون في الاهتمام بالباطن دون اهتمام بالشكليات. و على هذه المسألة يختلف – للأسف الشديد – كثير من المسلمين اليوم، فتجد بعضهم لا هم لهم إلا الشكليات و يبالغون في أهميتها، كما تجد آخرين لا هم لهم إلا الجانب الباطني و يبالغون في أهميته كذلك. لكن الصحيح هو الوسط، حرص على سلامة الباطن، و حرص على صحة العمل الظاهر.

و في قوله تعالى: { فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ورد عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال: { إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } أي محسنون بربكم الظن. (١٤٠) و هذا كذلك يدل على اهتمام الفضيل بالمعاني النفسية في القرآن الكريم، فحسن الظن بالله من أهم ما جاء القرآن الكريم به لتقويم سلوك الإنسان سواء حين محياه، و حتى حين مماته. فالشيطان لا يترك الإنسان و لا يوقف وسوسته له و تحرشه به حتى الرمق الأخير له.

و في تفسيره لقوله جل جلاله: { لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } (١٤١) ، و قوله سبحانه: { وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا } (١٤٢) قال الفضيل بن عياض: "على حب الله" (١٤٣) فحب الله تعالى من المسائل النفسية التي أولاها الفضيل اهتماما كبيرا. فمع أن الظاهر هو حب الطعام و اشتهاؤه، إلا أن الاهتمام بالحب الإلهي من طرف الفضيل بن عياض جعله فهم هذا الفهم الدقيق.

و من الآيات النفسية التي اهتم بها الفضيل كذلك قوله جل جلاله: { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } قال: "الكنود" الذي أنسته الخصلة، الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من

(١٣٧) الزركلي، الأعلام، ج:٥، ص: ١٥٣.

(١٣٨) سورة الملك، الآية: ٢.

(١٣٩) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني (المتوفى : ٧٢٨هـ)، دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (مختارات)، تحقيق: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤، ج: ٢، ص: ١٧٠.

(١٤٠) البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود [تو: ٥١٦ هـ]، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر و آخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م. ج: ١، ص: ١٥٤.

(١٤١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(١٤٢) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(١٤٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، القاهرة، جمهورية مصر، ط: ٢٠٠٠م، ج: ٤، ص: ٥١٤.

الإحسان، و"الشكور": الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال
الكثيرة من الإساءة." (١٤٤)

و كذلك قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (١٤٥) قال: "لا
تغفلوا عن حظ أنفسكم فمن غفل عن حظها فكأنما قتلها." (١٤٦)

- **بشر الحافي المروزي أبو نصر** (١٥٠ - ٢٢٧ هـ = ٧٦٧ - ٨٤١ م) أبو
نصر بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، المعروف بالحافي:
من كبار الصالحين.

له في الزهد و الورع أخبار، و هو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) (*)
سكن بغداد و توفي بها. قال عنه المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي
منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث." (١٤٧)

على شهرة بشر الحافي في الميدان النفسي، إلا أننا خلال بحثنا لم نجد له تناولاً
مباشراً للآيات النفسية في القرآن الكريم، لكن كل ما ورد عنه من أقوال و أخبار
هي لا محالة صادرة في أصلها عن القرآن الكريم. فقد نقل الإمام الغزالي عنه
في كتاب أسرار الصلاة ومهماتا قوله: "من لم يخشع فسدت صلاته." (١٤٨) و
هو في هذا صادر عن قوله عز و جل: { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ
{٢} (١٤٩)

و روي عنه أنه كان يقول: "سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من
المعاصي." (١٥٠) و هو هنا يحذر من داء الغرور و العجب، و قد أكد القرآن
الكريم على خطورة هذا الداء، إذ قال تعالى: { فَلَا تَعْرَتَكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا
يَعْرَتَكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ } {٣٣}

و قال بشر الحافي كذلك: " لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه "
(١٥١) و قد أورد ابن كثير هذا القول حين تفسيره لقوله تعالى: { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ

(١٤٤) البغوي، معالم التنزيل، ج: ٨، ص: ٥٠٩.

(١٤٥) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(١٤٦) ابن الجوزي جمال الدين عبد الرحمن بن علي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي،
بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤، ج: ٢، ص: ٦٢.

(*) مرو الشاهجان: مرو العظمى أشهر مدن خراسان و قصبته... و النسبة إليها مروزي على غير قياس و الثوب مروزي
على القياس و بين مرو و نيسابور سبعون فرسخاً. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /،
ج: ٥، ص: ١١٣،

(١٤٧) الزركلي، الأعلام، ج: ٢، ص: ٥٤.

(١٤٨) محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الجزائر،
الجمهورية الجزائرية، ط: ١، ١٤١١ = ١٩٩١، ج: ١، ص: ٢١٣.

(١٤٩) سورة المومنون، الآية: ٢.

(١٥٠) ابن عجيبة أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن المهدي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت،
لبنان، الطبعة الثانية: ٢٠٠٢ م = ١٤٢٣ هـ، ج: ٣، ص: ٢٨٩.

(١٥١) ابن كثير ج: ٢، ص: ١١٠.

اللَّهِ قِيَامًا وَفُجُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا
مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ { ١٩١ } (١٥٢)
وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: " البلاء كله في هواك والشفاء كله في
مخالفتك إياه " (١٥٣)

- **ذو النون المصري** (؟.. - ٢٤٥ هـ = ؟.. - ٨٥٩ م) ثوبان بن إبراهيم
الأخميمي المصري، أبو الفيض: أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر.
نوبي الأصل من الموالي. كانت له فصاحة و حكمة و شعر. و هو أول من تكلم
بمصر في (ترتيب الأحوال و مقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد
الحكم. و اتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه و سمع كلامه. ثم
أطلقه، فعاد إلى مصر. و توفي بجيزتها (١٥٤).
لم نعثر له على كتب مطبوعة، (*) لكن أقواله منثورة في كتب غيره من تفسير
و تاريخ و تصوف و غيرها.

و مما ينقل عنه في آيات النفس الإنسانية قوله في تفسير قوله عز و جل: { وَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } { ٤ } (١٥٥)
قال ذو النون المصري: " اليقين داع إلى قصر الأمل و قصر الأمل يدعو إلى
الزهد و الزهد يورث الحكمة و الحكمة تورث النظر في العواقب. " (١٥٦) فهو هنا
يتحدث عن فضل " اليقين " على صنف المؤمنين و ما يورثه لهم من نتائج
نفسية و عقلية و عملية جليلة.

و في قوله تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } { ٢٧ } (١٥٧)، قال: " إن كان هو [أي
الشیطان] يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله
عليه فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً. " (١٥٨) و هذا إدراك سليم لحقيقة الشيطان و

(١٥٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(١٥٣) ابن القيم الجوزية (المتوفى : ٧٥١هـ)، روضة المحبين و نزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، الطبعة: /، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣ م، ص: ٤٧٨.

(١٥٤) الزركلي، الأعلام، ج، ٢، ص: ١٠٢.

(*) في مكتبة الإسكندرية مجموعة مخطوطات (شرائط مصورة) منسوبة إليه هي: " رسالة في اسم الله الأعظم "، " مقالة
في الإكسير "، " رسالة في تدبير الحجر الكريم "، " رسالة في الصنعة ".

(١٥٥) سورة البقرة، الآية: ٤.

(١٥٦) إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (المتوفى : ١١٢٧هـ) روح البيان في

تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ١، ص: ٢٩.

(١٥٧) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(١٥٨) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق (المتوفى : ٤٢٧هـ)، الكشف و البيان عن تفسير القرآن، تحقيق : أبي

محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢ م، ج: ٤، ص: ٢٢٧.

علاقته بالإنسان، فليس للإنسان الخوف أو التوجس منه، كما هو حال البعض اليوم الذين يرتعون من ذكر الجان و الشياطين إلى درجة الإصابة بالوسواس المرضي. فالشيطان أضعف ما يكون، و كلمة واحدة تُقال بصدق و إيمان تقضي على كل مكره، و هي الاستعاذة بالله منه. فالحمد لله الذي دلنا على نقطة ضعفه و مقتله.

و في تفسير قوله تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } ١٩ {^{١٥٩}} قال: " الهلوع و الكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع و إذا مسه الخير منوع."^(١٦٠)

و في قوله تعالى: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا } ٣٧ {^{١٦١}} قال ذو النون المصري: " أي: سخر لك المكوّنات أجمع، و ما جعلك مسخرًا لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر و قلبك بالعقل و روحك بالمعرفة و مدك بالإيمان و شرفك بالأمر و النهي، و فضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً."^(١٦٢)

و من أقواله كذلك: " الصبر هو الاستعانة بالله تعالى."^(١٦٣) و هو بهذا يفرق بين صبر المؤمن الذي يستعين فيه بالله تعالى و بين صبر المضطر الذي ليس له حيلة إلا الاستكانة إلى مصابه.

- سهل التستري (٢٠٠ - ٢٨٣ هـ = ٨١٥ - ٨٩٦ م) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية و علمائهم و المتكلمين في علوم الإخلاص و الرياضات و عيوب الأفعال.

له كتاب في (تفسير القرآن) مختصر، و كتاب (رقائق المحبين) و غير ذلك^(١٦٤)

سئل سهل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، فقال: يعني علم الحال . قيل: وما علم الحال؟ قال: من الباطن الإخلاص ، و من الظاهر الاقتداء ، فمن لم يكن ظاهره إمام باطنه ، و باطنه كمال ظاهره فهو في تعب من البدن . قيل: و ما تفسير ذلك؟ قال: إن الله قائم عليك في سرّك و علانيتك و حركاتك و سكونك لا تغيب عنه طرفة عين ، كما قال: { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد : ٣٣] . و قال: { مَا

^(١٥٩) سورة المعارج، الآية: ١٩.

^(١٦٠) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (المتوفى: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن الكريم دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: /، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م. ج: ٢٠، ص: ١٦١.

^(١٦١) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

^(١٦٢) الرازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر ، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠ م، ج: ٣١، ص: ٧٤.

^(١٦٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ٢، ص: ١٧٤.

^(١٦٤) نفسه، ج: ٣، ص: ١٤٣.

يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ { [المجادلة : ٧] الآية ، و قال : { وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [ق : ١٦] و هو العرق الذي في جوف القلب،

فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق. فإذا علمت ذلك، ينبغي أن تستحي منه، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس. فذكرَ العبدُ قيامَ الله عزَّ وجلَّ عليه، فتركه إلا دخل قلبه من علم حاله ما لو قسم ما أعطى ذلك العبد على أهل المدينة لسعدوا جميعاً و فازوا به. و قد أشار إليه مالك بن أنس رضي الله عنهما حيث قال : ليس العلم بكثرة الرواية. إنما العلم نور يجعله الله في القلب. قيل له: كيف يعرف الرجل الحال و العلم به؟ فقال: إذا كنت تتكلم فحالك الكلام، و إذا سكت فحالك السكوت، و إذا قمت فحالك القيام، و إذا قعدت فحالك القعود، و العلم به أن تنظر أن هذا الحال لله أو لغيره، فإن كانت لله استقرت عليها، وإن كانت لغيره تركتها، و هو المحاسبة التي أمر بها عمر رضي الله عنه حيث قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا. و قد كان عمر رضي الله عنه يضرب نفسه بالدرة في المحاسبة. " (١٦٥)

- " الجنيد بن محمد البغدادي (؟.. - ٢٩٧ هـ = ؟.. - ٩١٠ م) أبو القاسم بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز. صوفي، من العلماء مولده و منشأه و وفاته ببغداد.

و عرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأيت عيناى مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه و الشعراء لفصاحته و المتكلمون لمعانيه. و هو [من أوائل] من تكلم في علم التوحيد ببغداد. و قال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. له (رسائل) منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، و منها ما هو في التوحيد و الألوهية، و الغناء، و مسائل أخرى. و له (دواء الأرواح). و عده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب و السنة، و لكونه مصوناً من العقائد الذميمة...سألما من كل ما يوجب اعتراض الشرع. " (١٦٦)

فقد كان اهتمام الجنيد بإصلاح النفوس منطلقاً من القرآن الكريم، فهاهو يصرح قائلاً: " علمنا مضبوط بالكتاب و السنة ، فمن لم يقرأ القرآن و يتعلم الحديث لا يُقتدى به في هذا

الشأن. " (١٦٧) و مما وصلنا عنه تفسيره لقوله سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } { ١٠١ } (١٦٨) " قال الجنيد : سبقت لهم من الله

(١٦٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ١، ص: ٢١٠.

(١٦٦) الزركلي، الأعلام، ج: ٢، ص: ١٤١.

(١٦٧) الأصبهاني أبو نعيم ، حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، ج: ١٠، ص: ٢٥٥.

العناية في البداية فظهرت الولاية في النهاية. " (١٦٩) و في قول الله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} " قال الجنيد : سمي خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى. " (١٧٠) كما روي عنه أنه " قال: سمي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، بدليل قوله - عليه الصلاة و السلام : « إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » . " (١٧١)

و فسر قوله سبحانه و تعالى: {وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} {٦٩} بقوله: " جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا و الأنس بنا. " (١٧٣)

- الحكيم الترمذي (؟..- نحو ٣٢٠ هـ = ؟..- نحو ٩٣٢ م)

محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي: باحث، صوفي، عالم بالحديث و أصول الدين.

من مؤلفاته: (الرياضة و أدب النفس) و (بيان الفرق بين الصدر و القلب و الفؤاد و اللب) رسالة طبعت سنة ١٩٥٨ م صدرت بترجمة حسنة لمؤلفها وبأسماء ٥٧ كتاباً أو رسالة من تصنيفه، و (العقل و الهوى) " (١٧٤)

و يتبين لنا من خلال مؤلفاته اهتمامه الكبير بالجانب النفسي بمختلف مكوناته، فلم يحصر اهتمامه في بيان كيفية التحكم في النفس و ترويضها، كما هو واضح في عنوان كتابه " الرياضة و أدب النفس " لكنه امتد في بحثه و دراسته إلى محاولة معرفة المصطلحات القرآنية في هذا الميدان، و ذلك بارز في عنوان رسالته " بيان الفرق بين الصدر و القلب و الفؤاد و اللب " .

و مما ينقل عنه في تفسيره للآيات النفس الإنسانية حديثه عن جواب القسم في قوله تعالى: { وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا } { ١ } وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا } { ٢ } وَ السَّابِقَاتِ سَبْحًا } { ٣ } فَالسَّابِقَاتِ سَبْحًا } { ٤ } فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا } { ٥ } قال محمد بن علي الحكيم الترمذي : الجواب: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } { ٢٦ } " (١٧٥). فكأن هذا القسم بالنازعات و الناشطات و السابقات و المدبريات، إنما هو قسم على أن قصة موسى و فرعون فيها عبرة لمن يخشى. و إنها عبرة حقا. فهذا فرعون قد بلغ من القوة ما بلغ، لكن كان مصيره في النهاية الغرق. فلا حاجة لأحد أن يغتر

(١٦٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(١٦٩) الثعلبي أبو إسحاق، الكشف و البيان عن تفسير القرآن، م ج: ٦، ص: ٣١٠.

(١٧٠) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم. ج: ١٨، ص: ٢٢٧.

(١٧١) سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عادل (المتوفى: ٧٧٥هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م، ج: ١٩، ص: ٢٧٠.

(١٧٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(١٧٣) ابن عجيبة البحر المديد، ج: ٥، ص: ٣٢٦.

(١٧٤) الزركلي، الأعلام، ج: ٦، ص: ٢٧٢.

(١٧٥) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود و آخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م. ج: ٨، ص: ٤١٢.

بقوته مهما بلغت بعد ذلك. لكن لا يدرك هذه العبرة حق الإدراك و لا يستفيد منها حق الاستفادة إلا من اتصف في نفسه بصفة الخشية.

- أبو طالب المكي (؟..- ٣٨٦ هـ = ؟..- ٩٩٦ م) محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ زاهد، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد و واسط) نشأ واشتهر بمكة.

ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال. و سكن بغداد فوعظ فيها، إلى أن توفي بها. له (علم القلوب) (*) و (قوت القلوب) في التصوف، مجلدان، قال الخطيب البغدادي: ذكر فيه أشياء منكرة مستشعنة في الصفات (١٧٦) و لم يبين حقيقة ما يقصده بقوله. أما ابن تيمية فيقول عنه: "و أما كتاب قوت القلوب و كتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب مثل الصبر و الشكر و الحب و التوكل و التوحيد و نحو ذلك. و أبو طالب أعلم بالحديث و الأثر و كلام أهل علوم القلوب من الصوفية و غيرهم من أبي حامد الغزالي و كلامه أشد و أجود تحقيقاً و أبعد عن البدعة مع أن في "قوت القلوب" أحاديث ضعيفة و موضوعة و أشياء مردودة كثيرة." (١٧٧)

و الجميل في هذا الكتاب أن صاحبه يصدر معظم فصوله بذكر الآي المتعلقة بالفصل، و قد يكون الفصل كله آيا فقط. فمثلا يعقد "الفصل الأول في ذكر الآي التي فيها ذكر المعاملة"، [و]... "الفصل الثاني في ذكر الآي التي فيها أورد الليل و النهار." (١٧٨)

و قد عقد الفصل الخامس والعشرين ل " ذكر تعريف النفس و تصريف مواجيد العارفين " فذكر أهم ما تتصف به النفس الإنسانية و هو العجل فأورد الآيات الدالات على ذلك كقوله تعالى: { وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } (١٧٩) { خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } (١٨٠) ثم قال: { سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ } (١٨١) قال: { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } (١٨٢) ثم علق على ذلك بقوله: " فأخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمره بتركها للبلوى، فإن نزلت السكينة و هي مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن منفسها و إن حجب القلب بالغفلة و هي علامة على الافتقار و التضرع تحركت النفس بطبعها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنة و الفضل و إن تحركت بوصفها فبالابتلاء و العدل، فأول البلاء اختلافها و أول اختلافها خلافها و

(*) مشكوك في نسبه إليه، أنظر: أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب و وصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، تح: محمود إبراهيم، مكتبة دار التراث، ط: ١، ١٤٢٢ = ٢٠٠١، ج: ١، ص: ١٣.

(١٧٦) الزركلي، الأعلام، ج: ٦، ص: ٢٧٤.

(١٧٧) ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني، الفتاوى الكبرى تحقيق: حسين محمد مخلوف دار

المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ج: ٢، ص: ٢٢٩.

(١٧٨) أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج: ١، ص: ٩، ١٠.

(١٧٩) الإسراء: ١١

(١٨٠) الأنبياء: ٣٧

(١٨١) الأنبياء: ٣٧

(١٨٢) النحل: ١

مقدمته الهمة و بابه السمع و هو طريق إلى الكلام و النظر و القول طريق إلى الشهوة و الشهوة مفتاح الخطيئة و الخطيئة مقام من النار حتى يزحزح عنها الجبار بالتوبة في الدنيا و العفو في العقبي " (١٨٣) و الكتاب في معظمه على هذا المنوال تحليل لأعراض النفس و أحوالها انطلاقاً من آيات القرآن الكريم معززة بأحاديث الرسول p.

أما عن التعليقات التي دارت حول هذا الكتاب و النقد الذي وجه له فإننا نقول أن لكل فارس كبوة و لكل سيف نبوة، و كل يؤخذ منه و يرد إلا صاحب ذلك القبر p.

_ النيسابوري (؟.. - ٤٠٦ هـ = ؟.. - ١٠١٦ م) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب النيسابوري: أديب، واعظ، مفسر، صنف في القراءات و التفسير و الأدب. ^{١٨٤} أما تفسيره غرائب القرآن و رغائب الفرقان " فقد كان يبدأ فيه الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول قال أهل الإشارة أو يقول التأويل ثم يسوق المعنى الإشاري لتلك الآية أو الآيات... مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى: { وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبُحُوا بَقَرَةً } (١٨٥) الآيات قال: " التأويل ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية. فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، و هو الجهاد الأكبر... إنها بقرة نفس تصلح للذبح بسيف الصدق لا فارض في سن الشيخوخة فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية... و لا بكر في سن شرح الشباب يستهويه سكره. عوان بين ذلك لقوله تعالى: { حتى إذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة } (١٨٦). بقرة صفراء إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات. فاقع لونها يريد أنها صفرة زين لا صفرة شين فإنها سيما الصالحين. لا ذلول تثير الأرض لا تحتل ذلة الطمع و لا تثير بألة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها و مشتبهاتها. و لا تسقى الحرث و لا يسقى حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق و بماء وجاهته عند الخالق، فيذهب ماؤه... " (١٨٧)

- ابن سينا: (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م)
هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب و المنطق و الطبيعيات و الإلهيات. أصله من بلخ، و مولده في إحدى قرى بخارى. و نشأ و تعلم في بخارى، و طاف البلاد، و ناظر العلماء، و اتسعت شهرته، و تقلد الوزارة في همذان، و ثار عليه عسكرها و نهبوا بيته، فتوارى.

(١٨٣) أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج: ١، ص: ١٥٢.

(١٨٤) الزركلي، الأعلام، ج: ٢١٣.

(١٨٥) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(١٨٦) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(١٨٧) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٦، ج: ٢، ص:

ثم صار إلى أصفهان، و صنف بها أكثر كتبه. و عاد في أواخر أيامه إلى همدان، فمرض في الطريق، و مات بها.

[و شهرته الطب] يقال: كان الطب معدوما فأوجده بقراط، و كان ميتا فأحياه جالينوس، و كان متفرقا فجمعه الرازي، و كان ناقصا فأكمله ابن سينا. " (١٨٨) و له في النفس قصيدته المشهورة التي ذكرها في كتاب "النجاة":

هبطت إليك من المقام الأرفع :: و رقاء ذات تعزز وتمنع (١٨٩)

و قد بسط آراءه في النفس الإنسانية في كتابه: "رسالة في معرفة النفس الناطقة و أحوالها" و فيه قسم النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام:

١- إما أن تكون النفس كاملة في العلم والعمل.

٢- إما أن تكون النفس ناقصة في العلم والعمل.

٣- إما أن تكون النفس كاملة في أحدهما، ناقصة في الآخر.

و هو يرى أن هذا التقسيم متفق مع ما ورد في القرآن الكريم: { وَ كُنْتُمْ أَرْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) }. (١٩٠)

فالكاملون في العلم و العمل هم السابقون ...

أما أصحاب الميمنة فهم الكاملون في العمل، الناقصون في العلم.

أما أصحاب الشمال فهم الناقصون في العلم و العمل. أو الكاملون في العلم الناقصون في العمل. " (١٩١)

و هذه نظرة فلسفية مثالية من ابن سينا في تقسيم الأنفس. إذ لا أحد يستطيع الوصول إلى الكمال في العلم أو العمل إلا الله سبحانه و تعالى. و لا ينسب الكمال البشري إلا لنبي الله محمد p.

كما أنه لا يمكننا أن نتصور - عقلا و لا شرعا - عملا كاملا بغير علم. فالجهل لا يهدي إلا إلى الضلال.

و في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن يقول: " و إلى هذا المعنى أشار في الكتاب الإلهي بقوله: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي

(١٨٨) الزركلي: ج: ٢، ص: ٢٤١

(١٨٩) ألبير نصري نادر، النفس البشرية عند ابن سينا، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط: ١٩٦٨، ص: ١١٣، ١١٤.

(١٩٠) سورة الواقعة، الآيات: ٧ - ١٢.

(١٩١) ألبير نصري نادر، النفس البشرية عند ابن سينا، ص: ٢٤ - ٢٥.

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ { ٢٩ } ^(١٩٢) فالتسوية هي جعل البدن بالمزاج الإنسي مستعداً لأن تتعلق به النفس الناطقة ^(١٩٣)

و في حديثه عن بقاء النفس بعد بوار البدن يقول: " فإذا مات البدن و خرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن، فإذا كان كاملاً بالعلم و الحكمة و العمل الصالح، انجذب إلى الأنوار الإلهية و أنوار الملائكة و الملا الأعلى، انجذب الإبرة إلى جبل من المغناطيس، و فاضت عليه السكينة، و حقت له الطمأنينة، فنودي في الملا الأعلى: { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) } ^(١٩٤) ^(١٩٥)

و مهما كان ابن سينا يستشهد على آرائه في النفس الإنسانية بالآيات القرآنية إلا أنه لم يستطع التخلص من الفكر الأرسطي الذي يقسم العالم إلى عالمين: عالم الاستحالة و التغيير و الفساد و هو عالم الأرض، و عالم المثل و الكمال و هو عالم الأفلاك. إذ يقول: " و أصحاب اليمين ... يرتفعون عن عالم الاستحالة و يتصلون بنفوس الأفلاك، و يتطهرون من دنس عالم العناصر و يشاهدون النعيم الذي خلقه الله في السموات... " ^(١٩٦)

- ابن حزم الظاهري (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الظاهري، عالم الأندلس في عصره، و أحد أئمة الإسلام.

ولد بقرطبة. و كانت له و لأبيه من قبله رئاسة الوزارة و تدبير المملكة، فزهد بها و انصرف إلى العلم و التأليف، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظاً يستنبط الأحكام من الكتاب و السنة، بعيداً عن المصانعة. و كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه، يقال لهم " الحزمية ". و انتقد كثيراً من العلماء و الفقهاء، فتمالأوا على بغضه، و أجمعوا على تضليله و حذروا سلاطينهم من فتنته، و نهوا عوامهم عن الدنو منه، فرحل إلى بادية ليلة فتوفي فيها.

رووا عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخطه أبيه من تأليفه نحو ٤٠٠ مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. و كان يقال: لسان ابن حزم و سيف الحجاج شقيقان.

^(١٩٢) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

^(١٩٣) ألبير نصري، النفس البشرية..، ص: ٣٢.

^(١٩٤) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

^(١٩٥) ألبير نصري، النفس البشرية..، ص: ٣٢.

^(١٩٦) نفسه، ص: ٣٤.

أشهر مصنفاته " الفصل في الملل و الأهواء والنحل " وله " المحلى " في ١١ جزءاً، فقه، و " جمهرة الأنساب " و " الناسخ والمنسوخ " و " حجة الوداع " ، و " ديوان شعر " (١٩٧)

و في موضوع بحثنا له رسالة صغيرة في " معرفة النفس بغيرها و جهلها بذاتها " و هي رسالة سجل فيها خلاصة تأمله في ذاته، فجاءت على شكل حوار بينه و بين نفسه. فيخطبها سائلاً: " أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد: الست التي قد عرفت صفات جسدك الذي واليت تدبيره، و حققتها و ضبطتها ؟ " ثم يسألها عن مدى معارفها: " : الست التي تجاوزت جسدك المضاف تدبيره إليك، فخلص فهمك وبحثك إلى سائر ما يليك من الأرض و الماء و الهواء و سائر الأجرام، ثم إلى ما لم يلك من الأجرام، فميزت أجناس كل ذلك و أنواعه و أشخاصه، و حققت صفات كل ذلك... " (١٩٨) ثم يسألها: " ألسنت التي لم يكفك هذا كله حتى تجاوزت العالم بما فيه، و طفرته من جميع نواحيه، فشاهدت الواحد الأول، و وقفت إلى الحق الأول المبدع للعالم بكل ما فيه؟ " (١٩٩) و في الأخير يخلص إلى السؤال العجيب: " هل عرفت مائيتك، و هل دريت كيفيتك، و هل وقفت على أي شيء أنت، و ما جوهرك و هل أشرفت على حملك لصفاتك، كيف حملتها؟ "

و منه يستنتج عظمة الخالق و ضعف المخلوق فيقول: " فتدبرت هذا فأيقنت أنه لو كان علمها ما علمت بقوتها و طبيعتها، دون مادة من غيرها، لكان المعجز لها مما جهلته أسهل عليها من الممكن لها مما علمت. فاعترفت بان لها مدبراً علمها ما علمت من البعيدات فعلمته، و جهلت ما لم يطلعها طلعه من القريبات فجهلته. " (٢٠٠)

و الرسالة عموماً تعتمد على منج الاستبطان و التأمل العقلي المجرد، لذلك لا نجد فيها استشهاداً بآيات من القرآن الكريم. كما له كتاب: " الأخلاق و السير في مداواة النفوس " و هو رسالة يتتبع فيها صاحبها بعضاً من الأمراض النفسية محاولاً إيجاد العلاج لها. و هو في كتابه هذا معتمد على المعاني النفسية التي جاء بها القرآن الكريم، إذ غالباً ما يستدل على أفكاره بآيات من الكتاب العزيز. ففي حديثه عن العقل يقول: " حد العقل استعمال الطاعات و الفضائل، و هذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي و الرذائل. و نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل. قال تعالى حاكياً عن قوم: { وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا

(١٩٧) الزركلي، الأعلام، ج: ٤، ص: ٢٥٤.
(١٩٨) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٠. ج: ١، ص: ٤٤٣.
(١٩٩) نفسه، ج: ١، ص: ٤٤٤.
(٢٠٠) نفسه، ج: ١، ص: ٤٤٦.

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ { (٢٠١) ثم قال مصدقا لهم: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} " (٢٠٢) (٢٠٣)

كما يتحدث فيه عن داء حب الشهرة و المجد فيعرفه ثم يقدم الدواء له من صيدلية القرآن الكريم، فيقول: "و أما من علق وهمه و فكره بأن يبعد اسمه في البلاد، و يبقى ذكره على الدهر، فليتكفر في نفسه...كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء و الرسل - صلى الله عليهم و سلم- الذين لم يبق لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسم و لا رسم...فهل ضر من كان فاضلا منهم ذلك؟..قال تعالى: { وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ } (٢٠٤) و قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ } " (٢٠٥) (٢٠٦)

- أبو حامد الغزالي: (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م)

أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف.

مولده و وفاته في الطابران (قصبه طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، و عاد إلى بلده. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزاة (من قرى طوس).

من كتبه (إحياء علوم الدين) أربع مجلدات، و (تهافت الفلاسفة) و (محك النظر) و (معارج القدس في أحوال النفس) و (الفرق بين الصالح و غير الصالح) و (مقاصد الفلاسفة) و (الوقف والابتداء) في التفسير، و (المعارف العقلية) و (المنقذ من الضلال) و (بداية الهداية) و (جواهر القرآن) و (فضائح الباطنية) ، و (الولدية) رسالة أكثر فيها من قوله: أيها الولد، و (منهاج العابدين) قيل: هو آخر تأليفه، و (إلجام العوام عن علم الكلام) ، و (الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة) (٢٠٧)

(٢٠١) سورة الملك، الآية: ١٠.

(٢٠٢) السورة نفسها، الآية: ١١.

(٢٠٣) ابن حزم الظاهري، الأخلاق و السير في مداواة النفوس، تح: أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة ، مصر، ط: ١، ١٤٠١ ص: ١٨٣.

(٢٠٤) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

(٢٠٥) سورة: إبراهيم، الآية: ٩. و لا نرى وجهها للاستدلال بهذه الآية في هذا الموضع لأنها جاءت في قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم، و لا فضل لهؤلاء حتى يكون لهم ذكر.

(٢٠٦) ابن حزم الظاهري، الأخلاق و السير، ص: ٢٤٦.

(٢٠٧) الزركلي، الأعلام، ج: ٧، ص: ٢٢.

و منها نأخذ كتابه " معارج القدس في مدارج معرفة النفس " و قد بدأه ببيان أهمية التفكير في خلق الله تعالى و منه خلص إلى أن " أظهر الآثار التي يرى فيها جلال ذات الحق و كمال صفاته إنما هو معرفة النفس، كما قال تعالى :
 { سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) }^(٢٠٨)، و قوله: { وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) }^(٢٠٩).

ثم عرج على أنواع النفس من مطمئنة و أمارة بالسوء مستدلا بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) } و قوله: { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }
 ثم ذكر مراتب العقل مستخرجا إياها من قوله تعالى: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٣٥} }^(٢١٠)

و في موضوع بقاء النفس استدل بقوله تعالى: { وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ {١٧٠} }^(٢١١)

ثم عرج على أمهات الفضائل و على رأسها الحكمة مستدلا بقوله تعالى: { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَ مَا يَدَّكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {٢٦٩} }^(٢١٢)

ثم الشجاعة لقوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }^(٢١٣). ثم ختم حديثه عن أمهات الفضائل بحديثه عن العفة و العدالة.

و في آخر الكتاب تحدث عن أخطر جانب في النفس الإنسانية و هو القلب انطلاقا من قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَسْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا {٧٢} }^(٢١٤)

^(٢٠٨) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

^(٢٠٩) سورة الذاريات، الآية: ٢٠ - ٢١.

^(٢١٠) سورة النور، الآية:

^(٢١١) سورة آل عمران، الآية:

^(٢١٢) سورة البقرة، الآية:

^(٢١٣) سورة الفتح، الآية:

^(٢١٤) سورة الأحزاب، الآية:

ففيه " إشارة إلى أن له خاصية يتميز بها عن السموات و الأرض و الجبال، بها صار مطبقاً لحمل أمانة الله " (٢١٥)

أما كتابه " إحياء علوم الدين " فهو موسوعة كبيرة لإصلاح النفس الإنسانية، و قد جعله في أربعة أقسام، قال: " و قد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات و ربع العادات و ربع المهلكات و ربع المنجيات. " (٢١٦) و نكتفي بالحديث عن كتابه " معارج القدس " لأنه خاص بمعرفة النفس دون الاستطراد لمواضيع أخرى، و ذلك لأن غرضنا هنا هو التمثيل، لا الاستقصاء. - **فخر الدين الرازي:** (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ - ١٢١٠ م) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، ، فخر الدين الرازي.

أوحد زمانه في المعقول و المنقول و علوم الأوائل. و هو قرشي النسب. أصله من طبرستان، و مولده في الري و إليها نسبته، و يقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم و ما وراء النهر و خراسان، و توفي في هراة. من تصانيفه (مفاتيح الغيب) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى و الصفات) و (معالم أصول الدين) و (محصل أفكار المتقدمين و المتأخرين من العلماء و الحكماء و المتكلمين) و (المسائل الخمسون في أصول الكلام) و (الآيات البينات) ، و (الإعراب) و (أسرار التنزيل) في التوحيد، و (المباحث المشرقية) و (أنموذج العلوم) و (أساس التقديس) رسالة في التوحيد، و (المطالب العالية) في علم الكلام، و (المحصول في علم الأصول) و (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) بلاغة، و (الأربعون في أصول الدين) و (نهاية العقول في دراية الأصول) و (الخلق و البعث) و (الفراسة) و (البيان و البرهان) و (تهذيب الدلائل) و (الملخص) في الحكمة، و (النفس) رسالة، و (النبوات) رسالة، و (كتاب الهندسة) و (شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا) و (لباب الإشارات) تهذيبه، و (شرح سقط الزند للمعري) و (مناقب الإمام الشافعي) و (شرح أسماء الله الحسنى) و (تعجيز الفلاسفة بالفارسية، و غير ذلك. و له شعر بالعربية و الفارسية. (٢١٧) و لقد بحثنا عن كتابه " النفس " و لم نجده لكن وجدنا كتابه: " النفس و الروح و شرح قواهما " و هو كتاب في أكثر من منتي صفحة، و قد قسمه صاحبه إلى قسمين: قسم في حقيقة الإنسان و طبيعة النفس و الروح في اثني عشر فصلاً، و قسم في السلوك و الأخلاق و كيفية علاج أمراض النفس في عشرين فصلاً.

(٢١٥) أبو حامد الغزالي، " معارج القدس في مدارج معرفة النفس، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: ٤، ١٩٨٠، ص: ٩٦.

(٢١٦) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج: ١، ص: ٢.

(٢١٧) الزركلي، ج: ٦، ص: ٣١٣.

و لم يخرج الكاتب عن ثقافة عصره، فنجده يورد آراء و أقوالاً لجالينوس و أرسططاليس، و إنما يذكرها فيما يتعلق بالطبيعيات و التشريح و النفسانيات. كما استفاد من المؤلفين المسلمين السابقين له و خصوصاً الغزالي (*) لكن الكتاب كله يسير تحت ضلال آيات الكتاب العزيز، فمثلاً في تقسيمه للنفوس يقول: فإذا عرفت هذا ظهر أن النفس على ثلاثة أقسام: فأعلاها درجة المتوجهون إلى العالم الإلهي المستغرقين في تلك الأنوار الصمدية و المعارف الإلهية، و هم المسمون في القرآن تارة بالسابقين، حيث قال: { وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) }^(٢١٨) و تارة بالمقربين، حيث قال: { فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ }^(٢١٩). و الدرجة الوسطى هي النفوس التي لها التفات إلى العالمين، فتارة تترقى إلى العالم الأعلى بالعبودية و الخضوع، و تارة تنزل إلى العالم الأسفل بسبب التدبير و التصرف، و هم أصحاب الميمنة و المقتصدون. و الدرجة الثالثة هم المتوجهون إلى العالم الأسفل، المتوغلون في طلب لذاته، و هم أصحاب الشمال و الظالمون. " (٢٢٠)

أما كتابه " مفاتيح الغيب " " فإن ما ورد فيه مفرقا من الحديث عن النفس، يوشك أن يؤلف كتابا في بابها [و هذا التفسير هو] خلاصة حياة علمية خصبة حافلة لرجل تميز بسعة الأفق و القدرة على التحصيل و الاستظهار [و لذلك] فقد ازدحم تفسيره بثتى صنوف المعارف ... فدخلت فيه المباحث اللغوية و الكلامية و الفقهية و الفلسفية و غيرها " (٢٢١)

و قد شمل هذا التوسع في التفسير آيات النفس الإنسانية كغيرها من آيات الكتاب العزيز.

و مثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: { لا أُفَسِّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } { ١ } و لا أُفَسِّمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } { ٢ }^(٢٢٢) حيث تناول في الآيتين ثلاث مسائل: المسألة الأولى في لفظ { لا } و ذكر فيها ثلاثة أوجه: الأول أنها زائدة. قال: " و هذا القول عندي ضعيف من وجوه أولها أن تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً و الإثبات نفياً و تجويزه يفضي إلى أن لا يبقى الاعتماد على إثباته و لا على نفيه... " و " لا " للابتداء و التوكيد، ويعضده أنه في مصحف عثمان بغير ألف قال: " و اعلم أن هذا الوجه أيضاً ضعيف لأن هذه القراءة شاذة. "

(*) أنظر آراءه فيما سبق من هذا المبحث.

(٢١٨) سورة الواقعة، الآية: ١٠ - ١١.

(٢١٩) سورة الواقعة، الآية: ٨٨.

(٢٢٠) فخر الدين الرازي، النفس و الروح و شرح قواهما، تح: محمد صغير حسن المعصومي، مطبوعات معهد الأبحاث الإسلامية، إسلام آباد، باكستان، ط: ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م. ص: ٢٦.

(٢٢١) عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط: ١، ص: ٦٧ - ٦٨.

(٢٢٢) سورة القيامة، الأيتان: ١ - ٢.

و "لا" للنفي. كأنه قال لا أقسم عليكم بذلك اليوم و تلك النفس و لكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك و هذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح.

المسألة الثانية أنهم ذكروا في معنى النفس اللوامة و جوهاً خمسة: أحدها كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت برة أو فاجرة وثانيها أن النفس اللوامة هي النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة، ثالثها أنها هي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها،

و رابعها أنها نفس آدم لم تنزل تلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة، و خامسها المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها، و سادسها أن الإنسان خلق ملولاً فأى شيء طلبه إذا وجده مله فحينئذ يلوم نفسه.

المسألة الثالثة أن في الآية إشكالات أحدها ما المناسبة بين القيامة و بين النفس اللوامة؟ و ثانيها المقسم عليه هو وقوع القيامة فيصير حاصله أنه تعالى أقسم بالقيامة على وقوع القيامة و ثالثها لم قال: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} و لم يقل: " و القيامة " كما قال في سائر السور و الطور، و الذاريات، و الضحى؟

و أجاب على هذه التساؤلات بوجهه، قال: " و الجواب عن الأول من وجوه أحدها أن أحوال القيامة عجيبة جداً ثم المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوامة أعني سعادتها و شقاوتها فقد حصل بين القيامة و النفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة "

و أما السؤال الثاني فالجواب عنه ما ذكرنا أن المحققين قالوا القسم بهذه الأشياء قسم بربها و خالقها في الحقيقة فكأنه قيل أقسم برب القيامة على وقوع يوم القيامة

و أما السؤال الثالث فجوابه أنه حيث أقسم قال وَ الطُّور، وَ الذَّارِيَاتِ. و أما هاهنا فإنه نفي كونه تعالى مقسماً بهذه الأشياء فزال الإشكال و الله تعالى أعلم. (٢٢٣)

و هكذا نجد الرازي قد طبق منهجه الموسوعي الشامل في دراسة آيات النفس الإنسانية و وفق فيه توفيقاً كبيراً، لولا تأثره بالفلسفات اليونانية. و هو معذور في ذلك، باعتبار أن هذه الفلسفات كانت تشكل جانباً من ثقافة عصره.

عصر الضعف: ٦٥٦ - ١٢١٣ هـ / ١٢٥٨ - ١٧٩٨ م

من الناحية التاريخية يبتدى هذا العصر من سقوط بغداد في ٦٥٦ هـ على يد هولوكو، و ما نتج عن ذلك من سقوط الخلافة العباسية و تحول الأمة إلى مجموعة من الدويلات هنا و هناك و قد أثر هذا سلبا على الجانب الثقافي و العلمي و الأدبي .

و قد تمثل ذلك في تدمير جانب كبير من تراث الأمة من طرف المغول، و كذلك ما ظهر بعد ذلك من التنادي بغلق باب الاجتهاد، كل هذا ساهم في عرقلة الدراسات البيانية للقرآن لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما، إذ اقتصر هم الباحثين على شرح كتابات الجرجاني و من بعد تلخيص كتابات السكاكي، و الرازي، ثم انتهت التلخيصات إلى حواش و الحواشي إلى تقارير، إلى أن صارت تلك الشروح المادة الأساسية لتعليم البلاغة في كل البيئات المعنية بالعربية على اختلاف الأفكار و تفاوت الأمصار" (٢٢٤).

إلا أن هذا لم يقض تمام القضاء على الدراسات البيانية للقرآن الكريم، و خصوصا ما تعلق منها بآيات النفس الإنسانية، فقد شكل الاهتمام بالجانب الروحي في هذا العصر ملجأ للأمة لتجاوز الشعور بالهزيمة العسكرية النكراء التي حلت بالأمة، و لمحاولة تداركها بالرجوع إلى النفس و إصلاحها لإعدادها لمواجهة هذا العدو النازل عليها بكله، و رغبة في التقرب إلى الله أكثر، عسى أن يرفع عن الأمة شيئا مما حل بها من البلاء.

و لذلك كانت أهم ميزة تميز بها هذا العصر في هذا الجانب هو الاهتمام الصوفي بالقرآن الكريم، و شيوع التفسير الإشاري الذي حاول أصحابه من خلاله توجيه آيات القرآن الكريم توجيها صوفيا روحيا مهما كان ظاهرها يوحى بغير ذلك.

و فيما يلي سنذكر طائفة من العلماء الباحثين في الدراسات البيانية الذين برزوا في هذا العصر منتبعين فهمهم لآيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم:

(٢٢٤) منير سلطان :إعجاز القرآن ، ص:٤٩.

ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، تقي الدين الإمام، شيخ الإسلام.

ولد في حران و تحول به أبوه إلى دمشق فنبغ و اشتهر. و طلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، و نقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، و اعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ و أطلق، ثم أعيد، و مات معتقلا بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته.

كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين. آية في التفسير و الأصول، فصيح اللسان، قلمه و لسانه متقاربان.

أما تصانيفه ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة^(٢٢٥)، و في فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد^(٢٢٦)، منها (السياسة الشرعية) و (الفتاوى) خمس مجلدات، و (الإيمان) و (الجمع بين النقل والعقل) و (منهاج السنة) و (الفرقان بين أولياء الله و أولياء الشيطان) و (الواسطة بين الحق و الخلق) و (الصارم المسلول على شاتم الرسول) و (مجموع رسائل) فيه ٢٩ رسالة، و (قاعدة) في العقود و (تلخيص كتاب الاستغاثة) يعرف بالرد على البكري، وكتاب (الرد على الإخنائي) و (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) رسالة، و (شرح العقيدة الأصفهانية) ، و (القواعد النورانية الفقهية) و (مجموعة الرسائل و المسائل) ، و (التوسل والوسيلة) و (نقض المنطق) و (الفتاوى) و (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) و (مجموعة أخرى اشتملت على أربع رسائل: الأولى "رأس الحسين" و الثانية "الرد على ابن عربي و الصوفية"، و الثالثة "العقود المحرمة"، و الرابعة "قتال الكفار"^(٢٢٧).

و للوهلة الأولى يظن الباحث أن ابن تيمية هو أبعد الناس عن دراسة آيات النفس الإنسانية باعتبار أن شهرته أنه عالم فقه و فروع، و أنه كان شديد الإنكار على الصوفية و الفلاسفة.

^(٢٢٥) العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ) ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م، ج: ١، ص: ١٨٥ .

^(٢٢٦) محمد بن شاكر الكتبي، (٦٨٦ هـ - ٧٦٤ هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٣ م. ج: ١، ص: ٧٥.

^(٢٢٧) الزركلي، أعلام، ج: ١، ص: ١٤٤.

إلا أن المحقق في تراث ابن تيمية يجد له اهتماما كبيرا بشؤون النفس الإنسانية ونظرة القرآن الكريم إليها. و أول ما يفاجننا في ذلك كتابه: " أمراض القلب و شفاؤها "

و قد بدأه بذكر الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر مصطلح " المرض "، و منها قوله تعالى: " عن المنافقين في سورة البقرة: { في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً } { ١٠ } و قال تعالى في سورة الحج: { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ } { ٥٣ } و قال في سورة الأحزاب : { لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لئحرقنهم لئن لم نجاورونك فيها إلا قليلاً } { ٦٠ } و قال في سورة المدثر : { و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون و ليقول الذين في قلوبهم مرضٌ و الكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا } { ٣١ } و قال تعالى في سورة يونس : { قد جاءكم موعظة من ربكم و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين } { ٥٧ } و قال في سورة الإسراء: { و نزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً } { ٨٢ }

و قال في سورة التوبة: { و يشف صدور قوم مؤمنين } { ١٤ } و يذهب غيظ قلوبهم } { ١٥ } " (٢٢٨)

ثم عقد مقارنة بين مرض البدن و مرض القلب، معرفا هذا الأخير بقوله: " مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره و إرادته " (٢٢٩)
ثم قدم الدواء لأمراض القلب و هو القرآن الكريم إذ يقول: " القرآن شفاء لما في الصدور و من في قلبه أمراض الشبهات و الشهوات. ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم و التصور و الإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه . و فيه من الحكمة و الموعظة الحسنة بالترغيب و الترهيب و القصص التي فيها عبرة، ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه و يرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد " (٢٣٠)

ثم عقد فصلا في أمراض القلوب و ذكر منها: الحسد. فعرفه ثم ذكر الفرق بينه و بين الغبطة. و من الآيات التي ذكرها في هذا الفصل قوله تعالى في حق اليهود في سورة البقرة: { و د كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق } { ١٠٩ } ثم قال: " يودون أي يتمنون ارتدادكم حسداً. فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود، من بعد ما تبين لهم الحق لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم وكذلك في الآية الأخرى { أم يحسدون الناس على ما آتاهم

(٢٢٨) ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني، أمراض القلب و شفاؤها، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ. ص: ٣.

(٢٢٩) نفسه، ص: ٤.

(٢٣٠) نفسه، ص: ٥.

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا { ٥٤ }
 فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا { ٥٥ } النساء (٢٣١)
 كما تناول فيه مرض الشهوة و العشق فعرفه و ذكر أسبابه و علاجه. و مما
 ذكره حول هذا الداء من الآيات قوله تعالى: { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي
 فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ { ٣٢ } الأحزاب. قال: " و من في قلبه مرض الشهوة و إرادة
 الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض و الطمع يقوى الإرادة و الطلب
 يقوى المرض بذلك بخلاف ما إذا كان آيسا من المطلوب فإن اليأس يزيل الطمع
 فتضعف الإرادة فيضعف الحب فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه
 فلا يكون مع الإرادة عمل أصلا بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو
 نظر و نحو ذلك" (٢٣٢)

و مما سبق نجد أن ابن تيمية يهتم بآيات النفس الإنسانية من باب الجمع و
 التفسير الموضوعي إلا أنه ليس له اهتمام كبير بالجانب البياني و البلاغي. إذ أن
 همه الكبير هو الفتوى و بيان الأحكام الشرعية المتضمنة فيها.

ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ، ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م): أبو عبد الله محمد بن أبي
 بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، شمس الدين. من أركان الإصلاح
 الإسلامي، و أحد كبار العلماء. مولده و وفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن
 تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر
 عنه. و هو الذي هذب كتبه و نشر علمه، و سجن معه في قلعة دمشق، و أهين
 و عذب بسببه، و طيف به على جمل مضروبا بالعصي. و أطلق بعد موت ابن
 تيمية. و كان حسن الخلق محبوبا عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها
 عددا عظيما، و كتب بخطه الحسن شيئا كثيرا. و ألف تصانيف كثيرة منها (
 إعلام الموقعين) و (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و (شفاء العليل في
 مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعليل). و (مدارج السالكين بين إياك نعبد
 و إياك نستعين) و (طب القلوب) و (الروح) و (الفوائد) و (روضة المحبين)
 و (التبيان في أقسام القرآن) (٢٣٣)

كما له كذلك كتاب " طب القلوب " و لعله استلهم هذا العنوان من شيخه ابن
 تيمية و "كتابه أمراض القلب و شفاؤها " السابق الذكر. و هو كتاب مفقود، و قد
 حاول الباحث صالح أحمد الشامي أن يجمعه من مختلف كتب ابن القيم. فألف
 في ذلك كتابا مستقلا و عنونه ب " طب القلوب " و نسبه لابن القيم. و يعتبر هذا
 العمل أمرا مضللا لمن لا يقرأ مقدمة المؤلف، فيظن أنه هو نفسه كتاب " طب

(٢٣١) نفسه، ص: ١٩.

(٢٣٢) نفسه، ص: ٢٣.

(٢٣٣) الزركلي، أعلام، ج: ٦، ص: ٥٦.

القلوب " لابن القيم. و كان الأولى به أن يضع له عنوانا آخر ينبئ عن حقيقة المؤلف. (*)

و من مؤلفاته التي عنيت بالجانب البياني في القرآن الكريم كتابه " الأمثال في القرآن " و قد تتبع فيه الأمثال التي وردت في القرآن الكريم بالدراسة و البيان. و معظم الأمثال التي وردت في القرآن الكريم إنما جاءت لتصور لنا نماذجاً من النفوس البشرية.

و من هذه الأمثال قوله تعالى : { كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة } (٢٣٤) حيث يشير إلى اختيار القرآن للفظ المناسبة للدلالة على المعنى المناسب، و أثر التصريف عليها إذ قال : " و تحت " المستنفرة " معنى أبلغ من النافرة فإن للاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد" (٢٣٥).

و كما يهتم ابن القيم بالدراسة البلاغية الجزئية للآيات فله دراسات كلية موضوعية و منها ما نجده في دراسته لقوله جل جلاله: { وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْبًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } { ٣٩ } أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } { ٤٠ } النور فقد قام ابن القيم بتحليل المثليين الواردين في الآيتين الكريمتين تحليلاً عميقاً، و أحسن ما فعل بعد ذلك هو أنه ربطهما بمثل سابق في نفس السورة هو مثل النور، فأصبح لديه مثل النور، و مثل السراب و مثل الظلمات، و كلها أمثال مشتركة في الطبيعة فهي أمثال بصرية متعلقة برؤية الإنسان للوجود، و تفاعل النفس الإنسانية مع ما تبصره. و هذا تحليل موضوعي تمكن من خلاله ابن القيم من إبراز واحد من جماليات القرآن الكريم. و هو التناسق الموضوعي. يقول ابن القيم:

" ذكر سبحانه للكافرين مثليين مثلاً بالسراب و مثلاً بالظلمات المتركمة و ذلك لأن المعرضين عن الهدى و الحق نوعان أحدهما من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه و هذه حال أهل الجهل و أهل البدع و الأهواء الذين يظنون أنهم على هدى و علم فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء و أن عقائدهم و أعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب يرى في أعين الناظرين ماء و لا حقيقة له و هكذا الأعمال التي لغير الله عز و جل و على غير أمره يحسبها العامل نافعة له و ليست كذلك و هذه هي الأعمال التي قال الله تعالى فيها { وَ قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا

(*) أنظر: ابن القيم الجوزية، طب القلوب، جمع و ترتيب صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، سورية، ط: ٤، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧ م.

(٢٣٤) سورة المدثر، الآية: ٥١.

(٢٣٥) ابن القيم : الأمثال في القرآن، تحقيق سعد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ط : ٣، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ هـ، ص : ٢١٢-٢١٣ .

{ ٢٣٦ } و تأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة و هي الأرض الخالية القفر من البناء و الشجر و

النبات و العالم فحمل السراب أرض قفر لا شيء بها و السراب لا حقيقة له و ذلك مطابق لأعمالهم و قلوبهم التي أقفرت من الإيمان و الهدى. و تأمل ما تحت قوله يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً و الظَّمَانُ الذي اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئاً بل خانه أحوج ما كان إليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل عليهم الصلاة و السلام و لغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظماً ما كانوا إليها فلم يجدوا شيئاً و وجدوا الله سبحانه ثم فجازاهم بأعمالهم و وفاهم حسابهم... و هذه حال كل صاحب باطل فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له و هو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق و لا حق كان متعلقه باطلاً و كذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعامل لغير الله عز و جل أو على غير أمره بطل.

النوع الثاني أصحاب مثل الظلمات المتراكمة و هم الذين عرفوا الحق و الهدى و آثروا عليه ظلمات الباطل و الضلال فتراكمت عليه ظلمة الطبع و ظلمة النفوس و ظلمة الجهل حيث لم يعلموا بعلمهم فصاروا جاهلين و ظلمة اتباع الغي و الهوى فحالهم كحال من كان في بحر لحي لا ساحل له و قد غشيه موج و من فوق ذلك الموج موج و من فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر و ظلمة الموج و ظلمة السحاب و هذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجها الله منها إلى نور الإيمان و هذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة و هو الماء و الظلمات المضادة للنور نظير المثليين اللذين ضربهما للمنافقين و المؤمنين و هما المثل المائي و المثل الناري و جعل حظ المؤمنين منهما الحياة و الإشراف و حظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور و الموت المضاد للحياة فكذلك الكفار في هذين المثليين حظهم من الماء السراب الذي يغمر الناظر فيه و لا حقيقة له و حظهم الظلمات المتراكمة و هذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار و أنهم عدموا مادة الحياة و الإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد و يجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار و أن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم و لا بصيرة بل على جهل و حسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا. و أصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى و آثروا الباطل على الحق و عموا عنه بعد إذ أبصروه و جحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم و الأول حال الضالين و حال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ } إلى قوله: { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } { ٣٨ } فتضمنت الآيات

أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم و هم أهل النور و الضالين و هم أصحاب السراب و المغضوب عليهم و هم أهل الظلمات المتراكمة و الله أعلم . فالمثل الأول من المثليين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع فأولئك أصحاب العمل الباطل و هؤلاء أصحاب العمل الذي لا ينفع و الاعتقادات الباطلة و كلاهما مضاد للهدى و دين الحق و لهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك و الشبهات و العلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه و أنها أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم. و هكذا أمواج الشكوك و الشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكت عليها سحب الغي و الهوى و الباطل فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين و ليطابق بينهما و بين المثليين يعرف عظمة القرآن و جلاله و أنه تنزيل من حكيم حميد و أخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور^(٢٣٧) .^(٢٣٨)

إسماعيل حقي: (؟.. - ١١٢٧ هـ = ؟.. - ١٧١٥ م)

هو " إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، متصوف مفسر. تركي مستعرب. ولد في آيدوس ((Aidos)) و سكن القسطنطينية، و انتقل إلى بروسة، و كان من أتباع الطريقة (الخلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، و أودي. و عاد إلى بروسة فمات فيها. له كتب عربية و تركية. فمن العربية (روح البيان في تفسير القرآن) أربعة أجزاء، يعرف بتفسير حقي، و (الرسالة الخليلية) تصوف، و (الأربعون حديثا) و (الفروقات) في موضوعات مختلفة."^(٢٣٩)

^(٢٣٧) مقتبسة من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

^(٢٣٨) ابن القيم : الأمثال في القرآن ، ص: ١٩١ - ١٩٩ .

^(٢٣٩) الزركلي، أعلام، ج: ١، ص: ٣١٣ .

و من منطلق الكتاب يتبين توجهه الصوفي، إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }^(٢٤٠): " و الحمد عند الصوفية : إظهار كمال المحمود و كماله تعالى صفاته و أفعاله و آثاره. قال الشيخ داود القيصري : الحمد قولي و فعلي و حالي. أما القولي: فحمد اللسان و ثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه على لسان أنبيائه عليهم السلام و أما الفعلي: فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات و الخيرات ابتغاء لوجه الله تعالى و توجهاً إلى جنابه الكريم لأن الحمد كما يجب على الإنسان باللسان كذلك يجب عليه بحسب كل عضو بل على كل عضو كالشكر و عند كل حال من الأحوال كما قال النبي عليه السلام : "الحمد على كل حال" و ذلك لا يمكن إلا باستعمال كل عضو فيما خلق لأجله على الوجه المشروع عبادة للحق تعالى و انقياداً لأمره لا طلباً لحظوظ النفس و مرضاتها و أما الحالي : فهو الذي يكون بحسب الروح و القلب كالإتصاف بالكمالات العلمية و العملية و التخلق بالأخلاق الإلهية لأن الناس مأمورون بالتخلق بأخلاق الله تعالى بلسان الأنبياء عليهم السلام لتصير الكمالات ملكة نفوسهم و ذواتهم."^(٢٤١)

و لحقي تخريجات بيانية لطيفة في تفسيره، و من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : { وَمَا أَبْرَأْتُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥٣} قال: " و الاستثناء من النفس ، أو من الضمير المستتر في أمانة كأنه قيل: إن النفس لأمانة بالسوء إلا نفساً رحمها ربي، فإنها لا تأمر بالسوء. أو بمعنى الوقت، أي هي أمانة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي و عصمته لها، و دل على عموم الأوقات صيغة المبالغة في أمانة يقال في اللغة أمرت النفس بشيء فهي أمره و إذا أكثر الأمر فهي أمانة. إن ربي غفور رحيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها رحيم مبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك."^(٢٤٢)

كما استعمل حقي في تفسيره منهج التفسير الإشاري و هو معتمد في معظم ذلك على غيره مثل " التأويلات النجمية " لنجم الدين داية، و علاء الدولة السمناني و تفسير القشيري . و مثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثُمُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } {٢٦٠} ^{٢٤٣}

قال: " قال القشيري طلب إبراهيم عليه السلام بهذه حياة قلبه فأشير إليه بذبح الطيور. و في الطيور الأربعة أربعة معان هي في النفس: في الطاووس زينة. و

^(٢٤٠) سورة الفاتحة الآية: ١.

^(٢٤١) إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (المتوفى : ١١٢٧هـ)، روح البيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ص: ٩ - ١٠.

^(٢٤٢) نفسه، ج : ٤ ص : ٢٧٣.

^(٢٤٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

في الغراب أمل . وفي الديك شهوة. و البط حرص فأشار إلى انه ما لم يذبح نفسه بالمجاهدة لم يحي قلبه بالمشاهدة... قال في التأويلات النجمية الطيور الأربعة هي الصفات الأربع التي تولدت من العناصر الأربعة التي خمرت طينة الإنسان منها وهي التراب و الماء و النار و الهواء فتولدت من ازدواج كل عنصر مع قرينه صفتان فمن التراب و قرينه الماء تولد الحرص و البخل و هما قرينان حيث وجد أحدهما وجد قرينه و من النار و قرينها الهواء تولد الغضب و الشهوة و هما قرينان يوجدان معا و لكل واحدة من هذه الصفات زوج خلق منها ليسكن إليها كحواء و آدم و يتولد منها صفات أخرى فالحرص زوجه الحسد، و البخل زوجه الحقد، و الغضب زوجه الكبر و ليس للشهوة اختصاص بزوج معين بل هي كالمعشوقة بين الصفات فيتعلق بها كل صفة، و لها منها متولدات يطول شرحها فهي الأبواب السبعة للدركات السبع من جهنم منها يدخل الخلق جهنم التي لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم يعنى من الخلق فمن كان الغالب عليه صفة منها فيدخل النار من ذلك الباب فأمر الله خليله بذبح هذه الصفات و هي الطيور الأربعة طاووس البخل فلو لم يزين المال في نظر البخيل كما زين الطاووس بألوانه ما بخل به و غراب الحرص و هو من حرصه أكثر في الطلب، و ديك الشهوة و هو بها معروف، و نسر الغضب و نسبته إليه لتصرفه في الطيران فوق الطيور و هذه صفة المغضب فلما ذبح الخليل بسكين الصدق هذه الطيور و انقطعت منه متولداتها ما بقي له باب يدخل منه النار فلما القي فيها بالمنجنيق قهرا صارت النار عليه بردا و سلاما.

و الإشارة بتقطيعها بالمبالغة و نتف ريشها و تفريق أجزائها و تخليط ريشها و دمائها و لحومها بعضها ببعض إشارة إلى محو آثار الصفات الأربع المذكورة و هدم قواعدها على يدي إبراهيم الروح بأمر الشرع و نائب الحق و هو الشيخ. و الأمر بتقسيم أجزائها و جعلها على كل جبل جزأ فالجبال الأربعة هي النفوس التي جبل الإنسان عليها . أولها النفس النامية و تسمى النفس النباتية. و ثانيها النفس الأمارة و تسمى الروح الحيواني. و ثالثها قوة الشيطنة و تسمى الروح الطبيعي. و رابعها قوة الملكية و هو الروح الإنساني فطيور الصفات لما ذبحت و قطعت و خلطت أجزاء بعضها بعض و وضع على كل جبل روح و نفس و قوة منها جزء بأمر الشرع تكون بمثابة أشجار و زروع تجعل عليها التراب المخلوطة بالزبل و القاذورات باستصواب دهقان ذي بصارة في الدهقنة بمقدار معلوم و وقت معلوم ثم يسقيها بالماء ليتقوى الزرع بقوة التراب و الزبل و تتصرف النفس النامية النباتية في التراب المخلوطة الميتة فتحياها بإذن الله تعالى كقوله تعالى: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} {٥٠} (٢٤٤) فذلك الصفات الأربع و هي الحرص و البخل و الشهوة و الغضب مهما كانت كل واحدة منها على حالها غالبية على الجوهر الروحاني تكرر

صفاءه و تمنعه من الرجوع إلى مقامه الأصلي و وطنه الحقيقي فإذا كسرت سطوتها و وهنت قوتها و أميتت شعلتها و محيت آثار طباعها بأمر الشرع و خلطت أجزاءها المتفرقة بعضها ببعض ثم قسمت بأربعة أجزاء و جعل كل جزء منها على جبل قوة أو نفس أو روح فيتقوى كل واحد من هؤلاء بتقويتها و يتربى بتربيتها فيتصرف فيها الروح الإنساني فيحييها و يبذل تلك الظلمات التي هي من خصائص تلك الصفات المذمومة بنور هو من خصائص الروح الإنساني و الملكي فتكون تلك الصفات ميتة عن أوصافها حية بأخلاق الروحانيات." (٢٤٥)

و لعمرى إن هذه التأويلات بعيدة عن مقتضى النص القرآني بعد النجوم عن الأرض، فهي لم تراع السياق الذي وردت فيه الآيات، و هو سياق إحياء الموتى حقيقة لا مجازاً، فقد جاءت هذه الآيات الكريمت بعد الحديث عن {الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ...} (٢٤٦) و عن {الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...} (٢٤٧). و لا بد في التفسير من مراعاة السياق الذي وردت فيه الآيات. كما نلاحظ على هذه التأويلات التأثير بالفلسفة الأرسطية التي تقول أن أصل الكون هي العناصر الأربعة: التراب و الماء و الهواء و النار. و إن كنا نقول اليوم هذا كلام عفى عليه الزمن، فإنه في عصر أصحاب هذه التأويلات هو كلام لا دليل عليه لنعتمده في تفسير القرآن الكريم. و مع كل هذا إلا أننا لا نجادل هؤلاء المفسرين في ما قد يفهمونه من الإشارة إلى إحياء الأنفس الميتة، لكن ما في القرآن الكريم عن هذا الموضوع غنية عن تحميل سائر الآيات معاني قد تذهل القارئ عن المعنى الأصلي الذي جاءت من أجله.

(٢٤٥) إسماعيل حقي، روح البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ص: ٤١٦ - ٤١٧.

(٢٤٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢٤٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

* و هكذا يمر عصر الضعف ساحبا ذيله على هذه الدراسات البيانية للآيات النفسية، فلا نكاد نجد تجديدا كبيرا في ميدانها ، بل أكثر ما وصلنا هو نقل لأقوال السابقين.

لكن ما يحسب لهؤلاء الباحثين هو فكرهم الموسوعي الذي يجمع الآراء المختلفة في القضية الواحدة و يقارن بينها ويستخرج رأيا أصيلا لصاحبه .

كما أن لهذا النقل و إعادة الصياغة فائدة كبيرة في الحفاظ على تراث الأمة الذي كان مهددا بالزوال في ذلك العصر.

و من النماذج السابقة يمكن أن نصنف الاهتمام بالآيات النفسية في هذا العصر إلى ثلاث أصناف رئيسة، هي:
الاتجاه الفقهي ممثلا خصوصا في ابن تيمية الحراني، فهم أصحاب هذا الاتجاه هو بيان الأحكام الشرعية التي يمكن استنباطها من هذه الآيات.
و الاتجاه البياني ممثلا في تلميذه ابن القيم الجوزية، حيث لا يكتفي أصحاب هذا الاتجاه بالدلالة الفقهية للآيات و إنما يتجاوزونها إلى الجوانب الجمالية فيها.

و الاتجاه الإشاري ممثلا في إسماعيل حقي، الذي يحاول أصحابه أن يعطوا لكل آية من القرآن الكريم مدلولات نفسية صوفية. مع التأكيد على طغيان هذا الاتجاه الأخير في هذا العصر على حساب الاتجاهات الأخرى، و ذلك لشيوع التصوف في هذا العصر، و توظيف رواده للدراسات القرآنية في خدمة اتجاههم تبريرا و تعزيزا له بآيات الكتاب الكريم.

- عصر النهضة:

زاد الاهتمام في هذا العصر بقضايا النفس الإنسانية ، و ذلك بسبب تأثر المسلمين بفورة الدراسات النفسية عند الغرب، و خصوصا النظرية الفرويدية بوجه التحديد و سائر النظريات النفسية الأخرى التي شكلت تحديا للفكر العربي الإسلامي.

زيادة على ذلك ظهور الاتجاه الروحاني في أوربا و ما صاحبه من ادعاء البعض لقدرتهم على تحضير الأرواح. و لقد تجلّى هذا الاهتمام على مستوى الدراسات النفسية عامة فظهر بعض الدارسين المهتمين بعلم النفس كعلم قائم بذاته. كما ظهر الاتجاه النفسي في النقد، و على رأس القائلين به أمين الخولي في كتابه "مناهج التجديد في الأدب و البلاغة و التفسير و النحو " بل و حتى من يؤيد فكرة تحضير الأرواح التي رأوها تأييدا لما جاءت به الرسائل السماوية و غيرها من حديث عن الروح. و اعتبروا ذلك ردا مفحما على المادية التي بدأت تجد لها أنصارا وسط المجتمع المسلم. بينما ظهر من يرفض فكرة إمكانية تحضير الأرواح رفضا مطلقا ، باعتبارها تتناقض مع صريح القرآن الكريم، و من أمثلتهم الشيخ محمد الغزالي الذي رأى أن ما يفعله هؤلاء الوسطاء الروحانيين لا يعدو الاتصال بالقرناء من الجن الذين كانوا ملازمين لأصحاب هذه الأرواح التي يزعم هؤلاء تحضيرها، فيوحي هذا الجني للوسيط ما كان يعلمه عن الإنسي أشياء تجعل أهل الميت يقتنعون أن الحاضر معهم هو روح قريبيهم الميت! كما ظهرت دراسات إسلامية تحاول إعطاء البديل للنظريات النفسية الغربية، بتقديم نظرية إسلامية خاصة في الدراسات النفسية من خلال القرآن الكريم خصوصا و السنة النبوية التي هي شارحة له. و فيما يلي تفصيل لمواقف و اتجاهات الدارسين لآيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم في هذا العصر:

الاتجاه التفسيري:

فحركة تفسير القرآن الكريم لم تتوقف يوما منذ انطلقت في عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا، و هي مستمرة إلى قيام الساعة. ففي كل عصر تظهر مستجدات و قضايا تحتاج إلى بيان موقف القرآن الكريم منها، كما تتغير مفاهيم الناس للحياة و الوجود و طرق تعبيرهم و حديثهم، كل هذا و غيره دافع لتقديم فهم جديد و تفسير جديد لكتاب الله تعالى. و آيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم هي من الآيات ذات الأولوية في الفهم لتعلقها بذات الإنسان، و عمق مفاهيمها و دلالاتها. لكل هذا كان لها نصيبها من الاهتمام في كتب التفسير في هذا العصر على وجه الخصوص. و من المفسرين الذين أولوا لها اهتماما خاصا في تفاسيرهم:

الألوسي الكبير (١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ = ١٨٠٢ - ١٨٥٤ م) محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده و وفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ. و عزل، فانقطع للعلم. ثم سافر (سنة ١٢٦٢ هـ) إلى الموصل، فالأستانة، و مر بماردين و سيواس، فغاب ٢١ شهرا وأكرمه السلطان عبد المجيد. و عاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي.

من كتبه (روح المعاني) في التفسير، تسع مجلدات كبيرة " (٢٤٨) " و هذا التفسير من أجل التفاسير و أوسعها و أجمعها نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة و ألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة و ما يفهم بطريق الإشارة رحمه الله و تجاوز عنه " (٢٤٩) " و مما قاله في التفسير الإشاري بعد أن فسر قوله تعالى {وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {٥٥} ...بعدها قال ما نصه " و من مقام الإشارة في الآيات: و إذا قلتم يا موسى القلب لن تؤمن الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة و العيان فأخذتكم صاعقة الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي و أنتم تراقبون أو تشاهدون ثم بعثناكم بالحياة الحقيقة و البقاء بعد الفناء لكي تشكروا نعمة التوحيد و الوصول بالسلوك في الله عز وجل. و ظللنا عليكم غمام تجلي الصفات لكونها حجبت شمس الذات.. " (٢٥٠) الخ ما قال

مثال ثان قال بعد تفسير قوله تعالى {وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {٦٣} قال ما نصه: " و إذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل بتوحيد الأفعال و الصفات و رفعنا فوقكم طور الدماغ للتمكن من فهم المعاني و قبولها، أو أشار سبحانه بالطور إلى موسى القلب و برفعه إلى علوه و استيلائه في جو الإرشاد و الشرائع لكي تنتقوا الشرك و الجهل و الفسق ثم عرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك. فلولا حكمة الله بأمهاله و حكمه بإفضاله لعاجلتكم العقوبة و لحل بكم عظيم المصيبة. إلى الله يدعى بالبراهين من أبي فإن لم يجب بادته بيض الصوارم " (٢٥١)

(٢٤٨) الزركلي، ج: ٧، ص: ١٧٦.

(٢٤٩) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٦، ج: ٢،

ص: ٦١

(٢٥٠) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، دار إحياء

التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ١، ص: ٢٦٩

(٢٥١) نفسه: ج: ١، ص: ٢٨٢.

و بهذين المثالين يتبين لنا منهج الألوسي في التفسير، فهو يحمل الآيات القرآنية مهما كان ظاهرها معاني نفسية. فكأنه يعتبر جميع القرآن الكريم جاء بدلالات نفسية، و ما على القارئ إلا أن يستنبطها و يستخرجها منها بالتأويل. و هذا المنهج فيه تحميل للآيات أكثر مما تحتمله. و إن كان يصدق و يصيب أحيانا، إلا أنه ينبو عن الصواب أحيانا أخرى.

_ سيد قطب: (١٣٢٤ - ١٣٨٧ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٧ م) سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موثا) في أسيوط. تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) و عين مدرسا للعربية، فموظفا في ديوان وزارة المعارف. كتبه كثيرة مطبوعة متداولة، منها (النقد الأدبي، أصوله ومناهجه) و (العدالة الاجتماعية في الإسلام) و (التصوير الفني في القرآن) و (مشاهد القيامة في القرآن) و (كتب وشخصيات) و (أشواك) و (الإسلام ومشكلات الحضارة) و (السلام العالمي و الإسلام) و (المستقبل لهذا الدين) و (في ظلال القرآن) و (معالم في الطريق).^(٢٥٢)

صدر كتابه " التصوير الفني في القرآن " قبل ١٩٤٧^(٢٥٣)، و فيه حاول أن يضع نظرية في كيفية تعبير القرآن الكريم عن مراد الله تعالى من خلال الصور التي يرسمها للقارئ بشكل جميل و متناسق.

و قد حاول سيد قطب في "الظلال" أن يطبق نظريته في التصوير الفني التي شرحها في كتابه " التصوير الفني في القرآن " و كانت آيات النفس الإنسانية مجالا خصبا لتطبيق هذه النظرية بوجه الخصوص. و مثال ذلك تفسيره للآيات الأولى من سورة البقرة، إذ يقول معللا طول الحديث عن المنافقين في أول السورة: " و لعلنا نلمح أن الحيز الذي استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة قد جاء أفسح من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى و الصورة الثانية .. ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، و فيه بساطة على معنى من المعاني ..

الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة في اتجاهها ، و الصورة الثانية صورة النفس المعتمة السادرة في اتجاهها. أما الصورة الثالثة فهي صورة

^(٢٥٢) الزركلي، الأعلام، ج:٣، ص:١٤٧.
^(٢٥٣) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن الكريم ، دار الشروق، بيروت، لبنان القاهرة، مصر، ط : ١، س: /، ص : ٢٦٦. و ذكر صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه نظرية التصوير الفني في الفهرس أن الطبعة الأولى غير مؤرخة ، بينما الطبعة الثانية صادرة سنة ١٩٤٩م.

النفس الملتوية المريضة المعقدة المقلقة. و هي في حاجة إلى مزيد من اللمسات ، و مزيد من الخطوط كما تتحدد و تعرف بسماتها الكثيرة .." (٢٥٤)

و في تفسيره لقوله تعالى: {وَ إِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى . كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (٢٥٥) يستخلص سيد قطب صورة النفسية اليهودية المتمردة على فضل الله تعالى، إذ يقول: " إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة .. أم لعله التعنت و المعاجزة .. و الآيات الكثيرة ، و النعم الإلهية ، و العفو و المغفرة .. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، و التي تظل مع ذلك تجادل و تماحل و لا تستجيب إلا تحت وقع العذاب و التنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضاها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا. و ليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، و الذي يحطم فضائل النفس البشرية، و يحلل مقوماتها، و يغرس فيها المعروف من طباع العبيد : استخذاء (٢٥٦) تحت سوط الجلال، و تمرد حين يرفع عنها السوط، و تبطر حين يتاح لها شيء من النعمة و القوة .. و هكذا كانت إسرائيل، و هكذا هي في كل حين .. و من ثم يجدفون هذا التجديف. و يتعنتون هذا التعنت " (٢٥٧)

فعلى هذا المنهج سار سيد قطب في جميع تفسيره "في ظلال القرآن" محاولا استخراج الصور الفنية في القرآن الكريم بمختلف أشكالها سواء كانت صورا محسوسة أو متخيلة أو حتى مسموعة من خلال جرس ألفاظ القرآن الكريم.

الاتجاه الصوفي التربوي

مع ما كان للصوفية من صخب فكري في العصر العباسي، و عصر الضعف، إلا أن هذا العصر الذي يسمى بعصر النهضة لم يخل من اجتهادات في هذا الاتجاه، و قد يعنون له أصحابه بعنوان التصوف، و إن كان في كثير من الأحيان يتخذ صورا و عناوين أخرى كالتربية و التزكية و الجانب العاطفي من الإسلام، و غيرها من التسميات.

و ميزة هذا الاتجاه في هذا العصر هي محاولة تجنب الجوانب المثيرة للجدل في التصوف، و خصوصا الجوانب النظرية منه. و الاتجاه في المقابل إلى

(٢٥٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، بيروت، لبنان، ط: ١٠، ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م. ج: ١، ص: ٤٥.

(٢٥٥) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٢٥٦) "خذأ خذئ له و خذأ له يخذأ خذأ و خذءا و خذءوا خضع وانقاد له" ابن منظور، لسان العرب، ج: ١، ص: ٦٤.

(٢٥٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٧٢.

الجوانب السلوكية العملية، من أخلاق و عبادات و وجدانيات. و ممن برز في هذا الاتجاه في هذا العصر :

_ سعيد حوى: و له في هذا المجال عدة مؤلفات منها كتاب "**المستخلص في تركية الأنفس**": و قد جعله مؤلفه مستخلصا لكتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام محمد الغزالي. فنزع منه " ما هو مثار أدنى جدل... و ما هو أقرب إلى التعقيد و التطويل و... الحديث الضعيف و... ما كان حديثا عن الغيوب... إذا لم يكن أصلها موجودا في الكتاب أو السنة الصحيحة و... ما يمكن أن يكون محل إنكار من بعض أهل التحقيق. [كما حرص فيه أن يقدم] نظرية متكاملة في التزكية مبنية على كلام الغزالي. فاقترضى هذا [منه] تبويبا و ترتيبا و تقدما و تأخيرا للأبواب و الفصول و لبعض الفقرات... و كتابة لبعض الموضوعات ليخرج الكتاب كلا متكاملًا." (٢٥٨) و أو لما بدأ به من وسائل التزكية: الصلاة. إذ أن " الفطرة البشرية قابلة لأن تتمرغ بالنجاسات المعنوية كالشرك، قال تعالى: { **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** } (٢٥٩) ، و لأن تتمرغ بأحوال الشهوانية الخاطئة { **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** } (٢٦٠) و لأن تتمرغ بأنواع من أخلاق الحيوان التي لا تصلح للإنسان: { **إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** } (٢٦١).. من هنا كانت الوسيلة الأولى في زكاة النفس هي الصلاة.

_ محمد الغزالي: له كتاب "**الجانب العاطفي من الإسلام**" و هو بحث في الخلق و التصوف و السلوك و إصلاح النفس. و قد عقد فيه فصلا في "الكمال لنفسي"، يتحدث فيه عن النكسة النفسية التي أصابت الناس اليوم، إذ يقول: " السمة الملحوظة لأهل زماننا أنهم راضون عن أنفسهم مسارعون في أهوائها، و هم يرون أن رغباتهم المادية و المعنوية ينبغي أن تجاب، و أن تزال من أمامها العوائق. و على ضوء هذا الرأي يرسلون أحكامهم على الأشخاص و الأشياء، و تتكون مذاهبهم الاجتماعية و السياسية. و قد أسهمت بحوث علم النفس في سوق الجماهير إلى هذا الاتجاه خشية ما يسمونه " بالعقد ". فشاع تدليل الطفولة في ميدان التربية، و شاع بعد ذلك ترك الغرائز المختلفة تتلمس طريقها في الحياة دون حرج أو دون رهبة. و لانت الشرائع أمام هذا السلوك المقتحم الماضي في طريقه لا يلوي على شيء..! و تغيرت مفاهيم الأدب و ضوابط الخلق في أرجاء شتى كي تتجاوب مع لون هذه الحياة الجديدة. " (٢٦٢)

(٢٥٨) سعيد حوى، المستخلص في تركية الأنفس، دار السلام و الملكية للإعلام و النشر و التوزيع، الجزائر، الجمهورية الجزائرية، ط: /، ١٩٩٢.

(٢٥٩) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢٦٠) سورة مريم، الآية: ٥٩.

(٢٦١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢٦٢) محمد الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام، دار الشهاب، باتنة، الجمهورية الجزائرية، ط: /، س: /، ص: ١٣٠ - ١٣١.

ثم يقدم الدواء من كتاب الله لهذه النفوس المريضة فيقول: "...في مقدمة ما يكفل للنفوس صلاحها أداء العبادات التي افترض الله عليها مهما شقت. فالصلاة مثلا عمل رتيب موصول متجدد ما بقي الليل والنهار، و هو عمل ينبغي له قهر كل عذر، و ترك كل شغل. و هذا يثقل على أحلاس اللهو و عشاق الحياة، فإن الصلاة بين الحين و الحين تنزعهم انتزاعا مما يأنسون إليه من متاع و مرح أو مما يغرقون فيه من كدح و احتراف. و لذلك قال الله في وصفها: { وَ إِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } { ٤٥ } الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاغِبُونَ } { ٤٦ }، و مجاهدة النفس لأداء هذه الصلوات الموقوتة أساس متين للكمال المنشود و كذلك القيام بجميع الطاعات التي أمر الإسلام بها، فإن هذه الطاعات مدارج الكمال المنشود، و مراحل الطريق إلى سمو الروح، و رضوان الله." (٢٦٣)

الاتجاه النفسي:

مع التطور الكبير الذي أحرزه علم النفس في القرن العشرين، و انبهار كثير من المسلمين به، رأى البعض الآخر منهم أننا في حاجة إلى بناء علم نفس جديد خاص ينطلق من خصوصية الفرد و المجتمع المسلم، يراعي مبادئ الإسلام، أو على الأقل لا يصطدم معها. و من هنا ظهرت دراسات نفسية جديدة منطلقها من القرآن الكريم و السنة النبوية. نذكر من روادها على سبيل المثال لا الحصر:

محمد قطب : الذي حاول تقديم نظرية إسلامية خاصة حول النفس الإنسانية، و قد أصدر في ذلك سلسلة كتب، أولها كتابه: " **الإنسان بين المادية و الإسلام** " سنة ١٩٥١م (٢٦٤)، إذ يقول عنه: " هذا الكتاب هو أول كتبي... " (٢٦٥)، و فكرة هذا الكتاب هي أنه " قد يلتقي الإسلام في نظرتة للنفس الإنسانية ببعض النظريات الأخرى ، أو يختلف عنها في التفاصيل و الفروع. و لكنه يبقى بعد ذلك مستقلا عنها قائما بذاته، و له نظرتة الخاصة التي ينبغي أن تدرس على هذا الأساس." (٢٦٦)

كما أصدر ضمن هذه السلسلة كتابه " **في النفس و المجتمع** " الطبعة الثانية سنة: ١٩٦٢ و " **منهج التربية الإسلامية** " سنة ١٩٦٠ و " **دراسات في**

(٢٦٣) نفسه، ص: ١٣١.

(٢٦٤) محمد قطب، الإنسان بين المادية و الإسلام، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٢، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م،

ص: ٨.

(٢٦٥) نفسه، ص: ٧.

(٢٦٦) نفسه، ص: ٩.

النفس الإنسانية ١٩٧٩، فقد خطر له يوماً " أن للإسلام نظرية معينة في النفس الإنسانية تنبئ عليها كل توجيهاته و تشريعاته، و طريقة معالجته لهذه النفس، و طريقة تربيتها و تقويمها، و أن هذه النظرية لا بد أن تكون موجودة في القرآن... و هذا الكتاب [الأخير] محاولة في هذا السبيل." (٢٦٧) فمع أن " القرآن ليس كتاب نظريات... نفسية أو علمية أو فكرية... و لكنه يحوي التوجيهات الكاملة الكافية لإنشاء هذه النظريات... و قد كان هذا طبيعياً في كتاب مهمته الأولى هي التربية و التوجيه... كتاب يخاطب النفس و يوجهها" (٢٦٨)

محمد عز الدين توفيق: أصدر سنة ١٩٩٨م الموافق ل ١٤١٨هـ كتابه:

"التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية". و هو في الأصل رسالة علمية نال بها صاحبه درجة الدكتوراه. (٢٦٩) و هذا يدل على أن الدراسات النفسية في الإسلام في هذا العصر لم تعد مجرد دعاوى على المنابر، و إنما قد بلغت من النضج مستوى الدراسات العلمية الأكاديمية الموثقة.

فقد " طرح علم النفس نفسه في الغرب بديلاً للدين و ليس مسانداً له... فاستنجد المجتمع بالعلم الوضعي ليملاً كرسي الدين، و اقتسمت العلوم الوضعية الموضوعات التي كانت تحتكرها الإجابة الدينية، و كان لعلم النفس نصيبه، من هذه القسمة... و نحن في بيئتنا العربية و الإسلامية لا يمكن أن تطرح العلوم الاجتماعية و الإنسانية نفسها بديلاً عن الدين، و لكنها يجب أن تكون مسانداً له تتقاسم معه التعريف بالظاهرة الإنسانية، فالجانب الذي لا يعرف من هذه الظاهرة عن طريق العقل البشري و البحث التجريبي نأخذه من مصادر الوحي المنزل من عند الله" (٢٧٠)

و لقد " وجه القرآن الكريم نظر الإنسان إلى نفسه، كما وجه نظره إلى ما حوله، فمرة يأمره بذلك مباشرة، مثل قوله تعالى: { وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } { ٢٠ } وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } { ٢١ } (٢٧١) و مرة يوجه نظره عن طريق الإقسام بهذه النفس، تنبيهاً إلى ما فيها من آيات مثل قوله تعالى: { وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا } (٢٧٢) ... و سواء كان النظر إلى آيات الله في النفس بهذا الأسلوب أو ذلك، فإن الغاية هي أن يتبين الإنسان الحق الذي قام عليه وجود السموات و الأرض. { سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

(٢٦٧) محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة: ٩، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م، ص: ٦ -

(٢٦٨) نفسه، ص: ٨ - ٩.

(٢٦٩) محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة: ٢، ١٤٢٣هـ،

٢٠٠٢م، ص: ٢.

(٢٧٠) نفسه، ص: ١٠.

(٢٧١) سورة الذاريات، الآية: ٢٠ - ٢١.

(٢٧٢) سورة الشمس، الآية: ٧ - ٨.

{٥٣} (٢٧٣) غير أن هذه الغاية البعيدة للنظر في آيات الآفاق و الأنفس و هي الاعتبار، لا تمنع غاية أخرى قريبة هي الانتفاع بتلك الآيات و تسخيرها^(٢٧٤)

الاتجاه الفني البلاغي:

مع كل هذا الاهتمام الكبير بآيات النفس الإنسانية إلا أنه لم يخصها أحد بالدراسة البيانية في كتاب واحد. و لعل دراستنا هذه هي من أوائل الدراسات التي تحاول أن تفرد هذه الآيات بالتحليل البياني لحد الآن حسب ما وقع في يدي من الدراسات، و إن كنا نجد بعض المفسرين يتناولون الآيات النفسية ببعض التحليلات و التخريجات البيانية في معرض تفسيرهم للقرآن الكريم ، و لعلنا سنستفيد من هذه الدراسات الجزئية السابقة بأن نحاول جمع شملها و الإضافة عليها في بحثنا هذا. و منهم :

_ أمين الخولي : (١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م)
" من أعضاء المجمع اللغوي بمصر. ولد في قرية شوشاي بالمنوفية وتعلم بالأزهر تخرج بمدرسة القضاء الشرعي. وعين للشؤون الدينية في السفارة المصرية برومة فأحدث أزمة حملت حكومة إيطاليا على طلب نقله، فنقل إلى برلين، وأثار أزمة أخرى، فدعته حكومته إلى مصر.
و عين أستاذا في الجامعة المصرية (القديمة) ثم كان وكيلا لكلية الآداب إلى سنة ١٩٥٣ فمديرا للثقافة العامة بوزارة التربية و التعليم إلى سنة ١٩٥٥ و بها أحيل إلى المعاش و مثل مصر في عدة مؤتمرات. وتوفي بالقاهرة. له (البلاغة العربية) (محاضرة، و (كناش في الفلسفة) (الأول منه، و (فن القول) و (مالك بن أنس) (ثلاثة أجزاء، و (المجد دون في الإسلام) (الأول منه، آخر كتبه، و (الأزهر في القرن العشرين) رسالة، و (الأدب المصري) و (الجندي في الإسلام) و (من هدي الرسول) و (مشكلات حياتنا اللغوية)^(٢٧٥)
يعد أمين الخولي مدرسة قائمة بذاتها، و له تلاميذ مشهورين ساروا على منهجه و على رأسهم تلميذته عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي و الدكتور عز الدين إسماعيل...

(٢٧٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢٧٤) محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص: ٦٧.
(٢٧٥) الزركلي، الأعلام، ج: ٦، ص: ١٦.

و له اهتمام كبير بالجانب النفسي للإنسان " ففي مقالة "البلاغة و علم النفس" التي نشرها سنة ١٩٣٦م يحاول أن يربط بين الإعجاز البلاغي و الإعجاز النفسي في القرآن الكريم".^(٢٧٦) و قد عقد فصلا عنونه ب " البلاغة و علم النفس" ^(٢٧٧) في كتابه الشهير "مناهج تجديد في النحو و البلاغة و التفسير و الأدب" الذي صدرت الطبعة الأولى منه في سبتمبر ١٩٦١. و في الفصل الخاص بالتفسير تحدث عن " المنهج الأدبي في التفسير " ^(٢٧٨) إذ اعتبر أن القرآن الكريم كتاب العربية الخالد، و تنحيته في مجال الدرس الأدبي قصور و تقصير معا. كما قرر أن الدراسة الأدبية للنص القرآني يجب أن تسبق الدراسات الأخرى، حيث أنها الأجدر باسم التفسير.

فالدافع لتفسير النص القرآني عند أمين الخولي هو بيان المآثر الأدبية فيه، و بيان أثرها في نفوس المتلقين حتى يمكن الوقوف على المقاصد المرجوة منه، و قد أشار إلي ذلك بقوله: " و هذه هي نظرنا إلي التفسير اليوم و هذا غرضنا منه، على هذا الأساس نقصد لبيان طريقة تناوله و منهج درسه " ^(٢٧٩)

كما دعا إلى التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم، باستخراج الآيات المشتركة في الموضوع الواحد و جمعها و التأليف بينها بما يعطي في النهاية مقالا قرآنيا واحدا في كل قضية من القضايا التي تناولها القرآن الكريم بشكل مفرق في مختلف سوره.

و على هذا فإننا نعتبر الخولي من رواد التجديد في الدراسات البيانية في القرآن الكريم في هذا العصر، و خصوصا في محاولة ربطه بين علم البلاغة و علم النفس. لكنه لم يغص في الآيات النفسية للقرآن الكريم بشكل خاص غوصا عميقا، و إن كان قد مهد الطريق لمن حاولوا ذلك من بعده من تلاميذه الذين سيرد ذكرهم لاحقا.

عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: تلميذة أمين خولي و زوجته، و لها في هذا الميدان:

و من مؤلفاتها كتاب "القرآن و قضايا الإنسان" و القسم الأول منه مستخلص من كتابها السابق "مقال في الإنسان" دراسة قرآنية " الصادر سنة ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م ^(٢٨٠)

^(٢٧٦) نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط: ٢، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م. ص: ٢٢٥.

^(٢٧٧) أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو و البلاغة و التفسير و الأدب، دار المعرفة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٩٦١، ص: ١٧٧.

^(٢٧٨) نفسه، ص: ٣٠٧.

^(٢٧٩) نفسه، ص: ٢٣١.

^(٢٨٠) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، القرآن و قضايا الإنسان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٦٩م. ص: ١١ و هامش ص: ١٣.

و قد بدأت بالحديث عن الفرق بين معاني "الإنسان" و "البشر" و "الناس" و "الإنس" في القرآن الكريم، مستعملة في ذلك منهجها الاستقرائي الإحصائي.

ثم بدأت بسورة العلق باعتبارها أول ما نزل من القرآن الكريم. مستخلصة منها السمات المجملة للإنسان، ف" قد تكرر ذكره في هذه السورة الأولى ثلاث مرات:

إحداها : تلفت إلى آية خلقه من علق.

و الثانية: تشير إلى اختصاصه بالعلم.

و الثالثة: تحذر مما يتورط فيه من الطغيان، حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه." (٢٨١)

ثم تتبعت الآيات التي " تتابعت بعد ذلك تزيدها جلاء و بيانا، بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح و خفي النوازع" (٢٨٢) من سورة الطارق، و عبس، و الإنسان ... إلخ لتستخلص أن " آيات خلق الإنسان جاءت كلها في سياق العظة و الاعتبار، لافتة إلى أطوار الجنين البشري التي يدركها الناس بأيسر ملاحظة و انتباه. و يبدو في الآيات العمد الواضح إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث" (٢٨٣)

و على هذا المنهج سارت بنت الشاطي في كتابها هذا تركز على الدلالة البيانية للآيات التي تحدثت عن طبيعة الإنسان متجنبه كل دلالة علمية، و لعلها في ذلك متأثرة بمقولة أن القرآن كتاب هداية و ليس كتاب علم. (٢٨٤*) إلا أننا لا نسلم بذلك إذ أن إدراك مراحل الجنين مثلا لا يمكن أن يدركها الناس بأيسر ملاحظة و انتباه، بل هي في حاجة إلى دراسة علمية متأنية عميقة و وسائل تقنية دقيقة.

- عز الدين إسماعيل: من تلاميذ أمين الخولي، فقد انضم إلى " جماعة الأماناء التي التفت حول أمين الخولي سنة ١٩٤٩م " (٢٨٥)، و لعل هذا الانتماء هو الذي غذى فيه الاهتمام بالجانب النفسي في الأدب، ثم في القرآن الكريم، حيث أصدر سنة ١٩٦٢ كتابه: " قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر"، و " الفن و الإنسان" سنة ١٩٧٢، ثم " نصوص قرآنية في النفس الإنسانية" سنة ١٩٧٥. (٢٨٦) و قد وضعه لما أنيطت به مهمة "تدريس مادة النصوص القرآنية لطلبة قسم اللغة العربية بجامعة بيروت العربية" (٢٨٧) و قد قسمه إلى بابين: باب في المناهج، و باب في النصوص و المباحث.

(٢٨١) نفسه، ص: ٢٠.

(٢٨٢) نفسه، ص: ٢١.

(٤) نفسه، ص: ٢١.

(*) انظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١ هـ =

٢٠٠٠م. ص: ٣٨٥.

(٢٨٥) محمد عبد المطلب، عز الدين إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٩٩١. ص: ١٦.

(٢٨٦) نفسه، ص: ٢٤ - ٢٥.

(٢٨٧) عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، ص: ٩.

و قد تناول في الباب الأول منهج التفسير بالمأثور ممثلا في الطبري، ثم منهج التفسير بالرأي ممثلا في الزمخشري، ثم المنهج الذي يجمع بين المنهجين السابقين و يمثله الفخر الرازي، مقدا لنماذج من تفسير الآيات النفسية على طريقة كل منهج.

أما الباب الثاني من الكتاب فقد ضمنه دراسته الشخصية لأربعة مجموعات من آيات النفس الإنسانية، و استخلص منها فصلين هما:

الفصل الأول: في طبيعة النفس، فتحدث عنها من حيث هي كل، أي من حيث طبيعتها. إذ إن " القرآن يدعونا ... إلى التأمل في أنفسنا ... { وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } { ٢١ } (٢٨٨) (٢٨٩) فتحدث عن أصل النفس البشرية و وحدة هذا الأصل ثم ازدواجيته، إلى أن خلص إلى الحديث عن مصيره. (٢٩٠)

الفصل الثاني: في ظلم النفس و تركيتها، " فمن السهل في التصور أن يقع الظلم من إنسان على آخر... لكن هناك معنى آخر للظلم هو ظلم النفس، أي ظلم الإنسان لنفسه، و هذا المعنى يبدو ... بعيدا عن التصور... لكن يبدو عند التأمل أن النفس كثيرا ما تكون ظالمة لنفسها. " (٢٩١)

خاتمة الفصل:

من خلال هذه الدراسة التاريخية لمسار اهتمام المسلمين بالدراسات النفسية في القرآن الكريم، يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:

- أن اهتمام المسلمين بالجانب النفسي للإنسان كان اهتماما كبيرا انطلاقا من أهمية هذا الجانب بالنسبة للإنسان.

- لم يكن اهتمام المسلمين بالجانب النفسي للإنسان مقتصرًا على علاج الأمراض كما هو الحال في علم النفس الحديث الذي يركز على علم النفس العلاجي، و علم نفس الشواذ الذي لا يستفيد منه إلا المرضى، و الذي يعطي انطبعا خاطئا بتعميم الحالات الشاذة و جعلها قاعدة تحفظ و تقاس عليها الحالات العادية. لكنه اهتمام متكامل بالنفس الإنسانية انطلاقا من الاهتمام المتكامل للقرآن الكريم بالإنسان. فبالإضافة إلى الاهتمام بعلاج أمراض النفس الإنسانية، فهو يهتم قبل ذلك بالوقاية من هذه الأمراض. و فوق ذلك فهو يهتم بترقية المستوى النفسي للإنسان السوي.

- تعدد تخصصات المهتمين بآيات النفس الإنسانية، منهم المفسرون و منهم الفقهاء و منهم المحثون، و منهم الفلاسفة...

(٢٨٨) سورة الذاريات الآية: ٢١.

(٢٨٩) عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، ص: ١١٨ - ١١٩.

(٢٩٠) نفسه، ص: ١٢٦ - ١٢٧.

(٢٩١) نفسه، ص: ١٤٩.

- تعدد توجهات المهتمين بآيات النفس الإنسانية، فمنهم الصوفي و منهم المعتزلي، و منهم المرجئة، و من مختلف الاتجاهات الأخرى .
- المهتمون بآيات النفس الإنسانية كانوا من مختلف جهات الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها، من خراسان حتى الأندلس مرورا بكل الحواضر الإسلامية في هذا العصر.
- و هذا التنوع في المهتمين أدى إلى تنوع طرق تناول آيات النفس الإنسانية.
- كما كانت آيات النفس الإنسانية مصدر إلهام لكثير ممن أثرت عنهم أقوال و مواقف على مر التاريخ الإسلامي. إذ أننا نجد في ترجمة كثير من الأعلام حديثا عن مواقف إنسانية رائعة صدرت عن أصحابها دون أن يربطوها بآيات الكتاب، لكنها لا محالة صادرة عنها. و كذلك نجد أقوالا ماثورة صدرت عنهم لكنها في حقيقتها إنما هي انعكاس لآيات الكتاب على ألسنتهم.
- لم تظهر الدراسات البيانية للآيات النفسية في القرآن الكريم إلا مع مجيء العصر العباسي، حيث بدأ فيه الاهتمام بالجانب الإعجازي في القرآن الكريم، كرد على الشبهات التي كان يطرحها الشعوبيون و المشككون في القرآن الكريم، فكانت هذه الردود و الشروح نواة لبيان فصاحة و بلاغة بيان القرآن الكريم التي لا يمكن لأحد مجاراتها، فكانت الآيات النفسية تدرس ضمن سائر الآيات دون تمييز في هذا الإطار.
- و قد استمر هذا الاهتمام البياني في ما يسمى عصر الضعف، فرغم ما أصاب الأمة في هذا العصر إلا أن الدرس البياني لم يتوقف، و إن تعثر بعض الشيء بسبب الاهتمام المفرط من طرف بعض الدارسين بالتقسيم و التبويب و التقعيد الجاف.
- لكن الاهتمام بآيات النفس الإنسانية في القرآن الكريم تأثر تأثرا بالغا بالفلسفات الهندية و الإغريقية، و إن حاول " البعض أن يكون له نظر مستقل، فإنه سرعان ما يطغى عليه الفكر اليوناني." (٢٩٢)
- أما في العصر الحديث فنشهد عودة للدراسات البيانية و محاولات لإحيائها من جديد و بعث الروح فيها، مع ميل إلى دراسة الجانب الجمالي للنصوص إجمالا، و محاولة فهم أسلوب القرآن الكريم في التعبير دون الإغراق في النظرة التجزيئية القديمة التي كانت لدى البلاغيين القدامى.
- و هذا لا يعني الانتقاص من جهود القدامى، فقد كانت لهم إسهاماتهم العظيمة في دراسة هذا الجانب من القرآن الكريم، لكن " من إعجاز القرآن الكريم أن يظل معروضا على الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل، و هو رحب المدى

سخي المورد. كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغاً، امتد الأفق بعيداً وراء كل
مطمح، و فوق كل طاقة " (٢٩٣)
إلا أننا لم نعثر على من يحاول أن يخصص الآيات النفسية على حدة في جميع
القرآن الكريم بدراسة بيانية متكاملة. و هذا ما سنحاوله في الباب التالي إن شاء
الله تعالى.

الباب الثاني مباحث تطبيقية

النفس و صيغ الإعجاز البياني في القرآن الكريم

الفصل الأول : خلق الإنسان في تعابير القرآن
الفصل الثاني : خصائص النفس الإنسانية في تعابير القرآن

(٢٩٢) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، الإعجاز البياني و مسائل ابن الأزرقي، دار المعارف، مصر، ط: /، ١٩٧١، ص:

الفصل الثالث : أمراض النفس الإنسانية في تعابير القرآن
الفصل الرابع : علاج النفس الإنسانية في تعابير القرآن

الباب الثاني

الفصل الأول

خلق الإنسان في تعابير القرآن

- ١- أطوار خلق الإنسان
- ٢- أصل خلق الإنسان
- ٣- عالم الذر
- ٤- النطفة
- ٥- الخلق الآخر
- ٦- مرحلة الشباب
- ٧- مرحلة الشبيبة
- ٨- الموت
- ٩- البعث

١ - أطوار خلق الإنسان

"بادئ ذي بدء خلق الله سبحانه و تعالى الإنسان ليكون خليفة عنه في الأرض ليقوم الحق و يهدم الظلم، و ينشر الفضيلة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً... و قدرة الله عز و جل لا حدود لها، ففي مقدوره أن يخلق الكائن دون أن يمر بمراحل أو يتنقل بين أطوار، لكنه جعل الخلق يمر بعدد المراحل حتى يربط الأسباب بالمسببات، و ليعلمنا التوادة و التمهّل في أعمالنا حتى تخرج في أبهى صورة و أتم إتقان و اكتمال." (٢٩٤)

و مما ورد في كتاب الله تعالى من آيات في ذكر أطوار خلق الإنسان:
قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنكُمْ مَّن يُوَفَّىٰ وَ مِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } { ٥ }
سورة الحج

و قوله سبحانه: { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ } { ١٢ } ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } { ١٣ } ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } { ١٤ } ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } { ١٥ } ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } { ١٦ }
سورة المومنون

و قوله عز و جل: { خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُصْرَفُونَ } { ٦ } سورة الزمر.
و قال سبحانه: { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَحْيَاءُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ } { ٣٢ } ... وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ } { ٤٥ } مِّن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ } { ٤٦ } وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّسَاءَ الْأُخْرَىٰ } { ٤٧ } سورة النجم.

و قال عز و جل: { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنَىٰ } { ٣٧ } ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ } { ٣٨ } فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ } { ٣٩ } سورة القيامة
كما قال تعالى: { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } { ١٣ } وَ قَدْ خَلَقْكُمْ أَطْوَارًا } { ١٤ }

سورة نوح .

(٢٩٤) رشاد علي عبد العزيز، علم نفس الدعوة بين النظرية و التطبيق، المكتب العلمي للكمبيوتر و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، ط: ١، ١٩٩٩م، ص: ٩٩.

و من خلال استقراء هذه الآيات الكريمت نجد أن الله سبحانه و تعالى ذكر مراحل خلق الإنسان إجمالاً في آيات، و فصل هذه المراحل في آيات أخر.

و لعل أعجب ما في القرآن الكريم من حديث عن مراحل خلق الإنسان هو استعماله لأسلوب الاستفهام حين طرح هذا السؤال الكبير في أول سورة الإنسان: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا } { ١ }؟! و إن هذا السؤال العجيب ليحدث في نفس سامعه لأول مرة فعل الصدمة التي ترجه رجا! فالولادة إذا ليست حكرا على الإنسان كفرد، بل حتى النوع البشري ذاته كله كانت له نقطة بداية في الوجود! و هذه مسألة لا أظن أن الإنسان يمكن أن يفكر فيها من تلقاء نفسه لولا أن الكتب السماوية قد نزلت تذكر بها، فالنظرة الاستعلائية المتأصلة في الإنسان تجعله يتصور نفسه كائنا أزليا لا بداية له، بل و لا نهاية له كذلك!. و لولا الكتب السموية التي جاءت لتعلم الإنسان التواضع لما فكر في أصله و مصدره و بدايته. و لقد جاء العلم الحديث بعد ذلك بكثير ليخوض فيها محاولا تقدير عمر الإنسانية فوق الأرض.

و لكن القرآن الكريم إذ يثير هذا التساؤل العظيم في نفس الإنسان إنما يقصد إلى تذكيره بالخالق سبحانه و تعالى الذي نقله من العدم حيث { لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا }، إلى الوجود بعد ذلك. و في ذلك مئة عظيمة من الله تعالى واجبة الشكر.

و تتمثل مراحل خلق الإنسان إجمالاً في سبعة مراحل هي:

- ١- تراب، ٢- نطفة، ٣- علقة، ٤- مضغة، ٥- عظام، ٦- لحم، ٧- طفل.

و لقد روي " عن رفاعة بن رافع قال: جَلَسَ إِلَى عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَذَاكَرُوا الْعَزَلَ فَقَالُوا لَا بَأْسَ بِهِ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ الْمَوْءُودَةُ الصُّعْرَى ، فَقَالَ عَلِيٌّ لَا يَكُونُ مَوْءُودَةً حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْهِ النَّارَاتُ السَّبْعُ حَتَّى يَكُونَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ تَكُونُ نُطْفَةً ثُمَّ تَكُونُ عَلَقَةً ثُمَّ تَكُونُ مُضْغَةً ثُمَّ تَكُونُ عَظْمًا ثُمَّ تَكُونُ لَحْمًا ثُمَّ تَكُونُ خَلْقًا آخَرَ ، فَقَالَ عُمَرُ صَدَقْتَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ " (٢٩٥)

و فيما يلي تفصيل ذلك...

٢ - أصل خلق الإنسان

قال تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } { ٥٩ } الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } { ٦٠ } . سورة آل عمران .
و قال سبحانه: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ } { ٢ } سورة الأنعام
و قال عز وجل: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } { ٢٠ }

سورة

الروم

و قال عز من قائل: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا } { ١١ }

سورة

فاطر

و قال جل جلاله: { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } { ٢٦ } وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارِ السَّمُومِ } { ٢٧ } وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } { ٢٨ } سورة الحجر
و قال كذلك: { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } { ١٢ } سورة المؤمنون

و قال تعالى: { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } { ٧ }
ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ } { ٨ } ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } { ٩ } السجدة
و قال سبحانه: { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ } { ١١ } سورة الصافات

في هذه الآيات الكريمات تحدث الله سبحانه و تعالى عن بداية خلق الإنسان. و قرر سبحانه أن هذا الخلق قد بدأ من تراب.
و الهدف الأساس الذي من أجله ذكّر الله سبحانه و تعالى بهذه الحقيقة هو أن يسوي بين جميع البشر في الأصل فلا يفخر أحد على أحد.

و إن هذا الحديث عن أصل الإنسانية كلها، لهو مظهر من مظاهر عالمية القرآن الكريم، فهو كتاب لكل البشر دون استثناء، فليس هو للعرب خصوصاً، و لا لسكان جزيرتهم، و لا هو محصور بزمن نزوله، بل هو أوسع و أشمل من ذلك بكثير. و ليس الأمر كما يريد أن يروجه بعض المستشرقين و المستغربين من انحسار القرآن الكريم في البيئة العربية يوم نزوله بزعمهم، فهو فوق الزمان و فوق المكان، و حتى إنه ليتعدى الأبعاد البشرية المحدودة، ليصل إلى عوالم لا يمكن للحس البشري أن يطالها!

قد عبر عنه القرآن الكريم عن هذا الأصل بعدة تعابير منها: " تراب، طين، طين لازب، حمأ مسنون، صلصال كالفخار."

و لا تعارض بين هذه الألفاظ و لا تناقض، كما أنه لا خلاف بين العلماء في كونها تعبر عن مراحل جزئية في المرحلة الأولى لخلق الإنسان. فالأصل فيه أن الله خلقه من تراب، ثم زاده الله ماء فأصبح طينا، و هذا يتناسق مع قوله تعالى: { وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {٤٥} (٢٩٦)، و كثر ماء هذا الطين فأصبح لازبا، ثم ترك فترة فتغيرت رائحته فأصبح حمأ مسنونا، ثم جف الطين فأصبح صلصالا، ثم نفخ فيه من روحه فكان آدم ن.

و هذه المرحلة خاصة بأول إنسان: آدم عليه السلام. و إلى ذلك أشار الله سبحانه بقوله: { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } {٧} ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } {٨} (٢٩٧) و هذا لا يعني أن سائر الناس مبرؤون من مرحلة الطين، إذ يقول سبحانه: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } {٥٩} (٢٩٨) فكل إنسان أصله من تراب و إنما اختلفت صفة التكوين ، فأدم خلق من تراب مباشرة، و سائر الناس خلقوا من تراب بشكل غير مباشر، فالجنين إنما ينمو في رحم أمه مما تأكله أمه. و أمه إنما تتغذى مما أصله من تراب الأرض من نبات و حتى حيوان. فتشبيهه عيسى ن هنا بأدم إنما هو تشبيه مع الفارق، فإذا كان خلق عيسى من أم فقط عجيب، فأعجب منه خلق آدم من غير أب و لا أم.

لقد جاءت هذه الآية كتتويج و خاتمة لقصة آل عمران في هذه السورة المسماة باسمهم. فبعد سرد مشاهد امرأة عمران و ولادة مريم عليها السلام، ثم مشهد زكريا ن و ولادة يحيى ن، ثم ولادة المسيح ن، جاء هذا التعليق ليؤكد أصل كل البشر دون استثناء: { خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون }.

(٢٩٦) سورة النور، آ: ٤٥.

(٢٩٧) سورة السجدة، الآية: ٧ - ٨.

(٢٩٨) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

و لفظة "خلقه" تدل على الإيجاد من العدم، و على الابتداء من زمن معين، و هذا ما ينفي عنه صفة الألوهية المزعومة، فالإله إنما هو الأول الذي لا شيء قبله.

و نسبة الخلق من تراب لعيسى ن تجعل هذا الأصل الترابي شاملا لكل البشر دون استثناء، مَن خُلِقَ منهم بغير أب و لا أم، أو من خُلِقَ منهم بأم دون أب، أو من خُلِقَ منهم بأبٍ دون أم. أو غيرهم ممن خُلِقَ الخلقة العادية المعروفة لدى جميع البشر: من أب و أم.

الطين:

هذا الطين اللزج الذي يعاف لمسسه الكثير من البشر المستكبر اليوم، يقرر القرآن أنه أصل خلق الإنسان، و تعد هذه المرحلة الثانية في الخلق بعد التراب، فالتراب إذا مزج بالماء صار طينا، لكن الطين غالبا ما ينسى أو يتناسى أنه طينٌ حقيقٌ، فيتمادى في التكبر، بل و يجادل في الله العظيم : {ثم أنتم تمترون}، و لكن إلى أي مدى سيماري و سيتماري هذا الطين؟ فكل شيء بمقدار عند الله تعالى {وأجل مسمى عنده} فقبل أن يبدأ بالتماري كان الأجل قد حدد، فإلى متى الجدل العقيم يا ابن آدم؟ و هل من الواجب أن يدركك الغرق لتنتبه إلى نفسك؟ فسارع إذا إلى الحق قبل أن تدركك سكرة الموت بالحق! و ما أجمال - هنا- كلمة "تمترون"، فالتاء الزائدة هنا بدل الألف (الأصل: تمارون) تعبر بحق عن واقع هذا الطين الذي يتمسك بأدنى قشة ليجادل في الله تعالى، الذي صدق إذ وصف هذا الإنسان فقال: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} (٢٩٩)

٣ - عالم الذر

قال تعالى: {وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف (١٧٢)

هذا حديث إلهي عن عالم الذر، و هو عالم غيبي لم يشهد الله عليه البشر، و لكن تشهد عليه فطرة الإنسان المقررة لله بالربوبية و الوحدانية. فهذه مرحلة مهمة من مراحل الخلق في منطق القرآن الذي لا يستعرض هذه المراحل بغرض الإخبار فقط و لكن لغرض تقرير ربوبية الله و وحدانيته، من أجل أن يحث الإنسان على التفنيس في باطن فطرته و اتباع ما تمليه عليه من حقائق المنطق المركوزة فيه. و هذه المرحلة - إن شئنا - هي وقت مستقطع في مراحل الخلق السبعة السابقة الذكر.

فكأن الله سبحانه و تعالى، قبل أن يكمل عملية الخلق أراد أن يأخذ العهد على بني آدم أن لا يخرجوا عن ما هو مطلوب منهم من الإيمان بالله الواحد.

و قد عرض القرآن الكريم هذه المرحلة المستقطعة من مراحل الخلق في صورة مشهد حي تموج فيه ذرية بني آدم أمام الخالق سبحانه و تعالى، فيسألها سؤالاً قد يكون غريباً عنها في تلك اللحظة: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟} و لكنه سؤال من يعلم بما سيكون بعد ذلك من الكفر و الإلحاد! و قد جاء هذا السؤال في صيغة استنكارية {أَلَسْتُ} منزلاً إياهم منزلة من ينكر ربوبية الله تعالى، و ذلك باعتبار ما سيكون من هؤلاء البشر من الإنكار و التكذيب.

فيأتي جواب الغافلين قبل أن تتمرغ أنفسهم في حماة المجتمع الإنساني المتصارع على الدنيا بالعبارة الساذجة المعبرة عن الحقيقة الباهرة البسيطة {بلى}

لقد جاء هذا الحوار العجيب في خلال " مشهد كوني رائع باهر ، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها الماثورة ! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى ، وهي تجمع وتقبض . وهي تخاطب خطاب العقلاء - بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع - وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب !

و إن الكيان البشري ليرتعث من أعماقه و هو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد، هو يتمثل الذر السابح. و في كل خلية حياة . و في كل خلية استعداد كامن . و في كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء و الظهور في الصورة المكونة له في ضمير الوجود المجهول ، و يقطع على نفسه العهد و الميثاق ، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم !

و قد أخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال: " مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . . . فأخذ موثيقهم ، و أشدهم على أنفسهم: (ألسنت بربكم ؟ قالوا: بلى) " . . و روي مرفوعاً و موقوفاً على ابن عباس.

ف " هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة . . فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده. أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، و يميل بها عن فطرتها " (٣٠٠).

و يؤكد ذلك أن هذا الحديث عن هذا المشهد إنما جاء بين الحديث عن قصة موسى مع فرعون و بني إسرائيل و ختمه بمشهد ندق الجبل فوق بني إسرائيل { وَ إِذْ نَنفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } { ١٧١ }

و بين الحديث عن { الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا } و القضية كلها هي قضية عهود و موثيق لا يلتزم بها الإنسان إلا ما دمت عليه قائماً!

فالكلام هنا متناسق مع بعضه و ليس الأمر كما رأى بعض المفسرين مثل الطاهر بن عاشور الذي قال: " هذا كلام مصروف إلى غير بني إسرائيل ،

فإنهم لم يكونوا مشركين" (٣٠١) فالحديث هنا إنما جاء في باب الوفاء بالعهد مع الله تعالى، و معظم بني إسرائيل قد نكثوا عهدهم مع الله، قال تعالى: {وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَآسَهِدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } {٨١} (٣٠٢) كما قال سبحانه: {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا كُلُّكُمْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ قَرِيقًا يَقْتُلُونَ } {٧٠} (٣٠٣)

و سؤال قد يطرح هنا، و هو لماذا قال سبحانه: "بني آدم"، و لم يقل: "آدم"؟

أقول: إن آدم قد أخذ عليه العهد و الميثاق من قبل فنسي {وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } {١١٥} و الآن لا بد من أخذ العهد على بني آدم. فأقول لو كان هذا الكتاب من عند بشر لنسي ما قاله من قبل، و لم يراعه في سائر كلامه، و لكن هذا كلام العلي القدير الذي لا يضل و لا ينسى!

و قد دار بين المفسرين نقاش حول هذا الحدث، هل هو حدث حقيقي، أم هو مثل ضربه الله تعالى لبني آدم؟

فمنهم من قال أنه على الحقيقة، و أنه أمر خارق للعادة. و منهم من قال أن "الكلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات و أعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس إلى تصورها بالكُنه، لأنها وراء المعتاد المألوف، فيراد تقريبها بهذا التمثيل، و حاصل المعنى: أن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوجدانية، و جعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك، و تحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها." (٣٠٤)

و نرى أن الأمر على الحقيقة، إذ أن الأصل في الكلام الحقيقة حتى تصرفه قرينة من القرائن إلى المجاز، و لا نرى قرينة صارفة لهذا الكلام من الحقيقة إلى المجاز، فالله لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء، و هذا حدث من أحداث الغيب التي لا نملك فيها إلا التسليم، فما أشهدنا الله خلق السموات و الأرض و لا خلق أنفسنا، حتى نقول في ما يقصه الله لنا من أحداث الغيب رأياً.

(٣٠١) محمد الطاهر بن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، تحرير المعنى السديد و تنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (التحرير و التنوير من التفسير)، دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس، الجمهورية التونسية، ١٩٩٧ م، ج: ٩، ص: ١٦٥.

(٣٠٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣٠٣) سورة المائدة، الآية: ٧٠.

(٣٠٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ج: ٩، ص: ١٦٨.

كما أن الأمثال في كتاب الله إنما تؤخذ من الواقع و ليس من الخيال، فإن كان هذا مثل ضربه الله لنا على حقيقة الفطرة فهو مأخوذ من وقائع حدثت عند الله في غيبه، و ليس لنا إلا أخذ العبرة منها، و هذا الذي تعبدنا به لا غير.

٤ - النطفة

قال تعالى: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَا بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن نُّرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّأَكَ رَجُلًا } { ٣٧ } لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } { ٣٨ }
سورة الكهف

و قال سبحانه: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } { ٤ } . سورة النحل و قال عز من قائل: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } { ٥ } سورة الحج
و قال عز وجل: { ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِن سَلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ } { ٨ } سورة السجدة
و قال جل جلاله: { أَلَمْ يَكُنْ نُّطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى } { ٣٧ } سورة القيامة
و قال كذلك: { قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ } { ١٧ } { مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } { ١٨ } من نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ } { ١٩ } سورة عبس

المرحلة الثانية للخلق:

كما قرر الله سبحانه و تعالى أصل الإنسان و أنه خلقه من تراب، يأتي هنا ليحدثنا عن المرحلة الثانية للخلق و هي مرحلة النطفة، و الغرض ك ذلك من هذا التقرير هو بيان ضعف الإنسان و حاجته إلى الخالق سبحانه، فكلمة " نطفة " تُشعر بالضعف الإنساني، و الأصل المهين لخلقته، كما تُشعر بمنة الله العظيمة على الإنسان.

النطفة تنفي الصدفة:

و التقرير بالخلق من نطفة و جعلها في القرار المكين تؤكد أنه لا مجال للصدفة في الخلق فالصدفة عمياء و لا يمكن أن تخطط للخلق المزدوج: الذكر و الأنثى، ثم جعل الخلق بعد ذلك مرتبطا باللقاء بينهما، فلو كان الأمر متروكا للصدفة لاقتصر على أبسط طرق التكاثر و هو التكاثر اللاجنسي باعتباره أبسط طرق التكاثر في الوجود، فخلق الإنسان من الذكر و الأنثى معا يحتاج إلى برمجة و تخطيط مسبق و وضع لحواجز تدفع إلى اللقاء بينهما، و حواجز تجعل الأنثى - خصوصا - ترضى بهذا اللقاء و تقبل بتبعاته، و هذا لا يكون إلا من خالق مدبر سبحانه.

النطفة تستلزم الشكر لا الكفر:

و لكل هذا نجد الحديث عن النطفة دائما يأتي في معرض التذكير بعظمة الخالق للإنسان الجاحد لفضل الله عليه، و ذلك ما نجده في سورة الكهف: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا}!؟

فقد جاء الحديث عن النطفة هنا في سياق حوار المؤمن مع الكافر، فنجد رد المؤمن يبتدئ بصيغة الاستفهام الإنكاري بحرف الهمزة القصير الذي يؤدي السؤال في سرعة كبيرة تعبر عن صدمة النفس من هذا السلوك المشين الذي هو الكفر! ثم يأتي حرف الباء ليؤدي معنى الشعور بالأسف لكون الكفر تعلق بالخالق سبحانه و تعالى، ثم يأتي حرف "من" ليحدد أصل هذا الكافر الجاحد " تراب"، بعده يأتي حرف " ثم " متكررا مرتين ليرخي العنان للفكر ليتفكر و يعيد التفكير في هذا الأصل و ما آل إليه من الفضل الإلهي " سواك رجلا"، و لذلك لم يكن هناك بعد هذا القول الفصل رد من هذا الكافر ليبرر أفعاله فهو الآن على بينة من أمره، فهو ظالم لنفسه لا محالة!

و في سورة النحل كذلك جاء الحديث عن النطفة في سياق التذكير بقدره الله العظيمة و نعمه الجليلة على الإنسان الذي قليلا ما يشكر، فقد ذكر سبحانه النطفة مباشرة بعد ذكر خلق السموات و الأرض، فلا منة أعظم على الإنسان بعد تهيئة الكون لاستقباله إلا خلقه هو ذاته: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } { ٣ } خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ { ٤ }، و بعد استعراض مشاهد المخلوقات العجيبة يأتي تقرير الحقيقة العظيمة في صيغة استفهام إنكاري كذلك: { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } { ١٧ } وَ إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ { ١٨ }

النطفة و البعث:

أما في سورة الحج فقد جاء الحديث عن النطفة في معرض التذكير بيوم البعث، فالذي خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة، ثم أتبعها سائر المراحل قادر على أن يكرر تلك المراحل يوم البعث حين يعيد الله الأرض كما كانت من قبل

في أول الخلق، و يعيد خلق الإنسان كما خلقه من قبل من تراب، إذن فلا ريب في البعث. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ }

و لنا أن نسجل هنا تنكير لفظة: {نُرَابٍ} و لفظة: {نُطْفَةٍ}، فالغرض من ذلك إنما هو التأكيد على الأصل الوضيع لهذا الإنسان الذي لا كرامة له إلا بتكريم الكريم سبحانه.

كما أن هذا التنكير يدل على بساطة أصل خلق الإنسان، فما هو بالأمر العظيم الذي يُعجز الله العظيم، الذي هو أصلا لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء.

حركة النطفة:

إنها تنسل وسط السائل المذوي: "الماء المهين" - أي السائل المذوي الذي تنتجه غدة البروستاتا - انسلا لا بواسطة الحركة الدووية للسوط الذي يحركها و الهرمونات التي تحفزها. و لذلك عبر عنها بلفظين يدلان على الانسلا: { جَعَلَ نَسْلُهُ مِّن سُلَالَةٍ }.

و نلاحظ في هذا السياق كذلك تكرر حرف الجر "مِنْ" { ثُمَّ جَعَلَ نَسْلُهُ مِّن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ } فهذا الحرف المتكرر إنما هو هنا للتبعيض و بذلك فهو يؤكد لنا هذه الحركة التسلية التي تقوم بها النطفة وسط "الماء المهين" بين سائر النطاف إلى أن تقوم بمهمة التسلل الأخيرة داخل الببيضة لتقوم بمهمة تلقيحها.

و الذي يؤكد لنا أن حرف الجر "من" هنا هو للتبعيض قوله سبحانه في سورة القيامة { أَلَمْ يَكْ نطفة مِّن مَّني يميني }، فقد جعل سبحانه هنا بصريح العبارة النطفة جزءا من المني و بعضا منه.

و ما يؤكد أن المقصود بالنطفة هنا هي النطفة الذكرية المتحركة، و ليس الببيضة هو قوله سبحانه بعد ذلك: { ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى { ٣٨ } فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى { ٣٩ }، فقد تقرر علميا أن تحديد جنس المولود من ذكر أو أنثى إنما هي مهمة النطفة الذكرية و ليس الببيضة! فكأنه سبحانه يرفع عن المرأة الحرج فيما تأتي به من ذكر أو أنثى، و يبرؤها مما كان يلصقه بها الجهلة من الرجال من المسؤولية في ذلك!

فإذا كانت هذه هي حقيقة أصل الإنسان، و إذا كان هذا هو فضل الله تعالى عليه، ثم يأتي ربه كافرا، فهو أبعد ما يكون عن استحقاق رحمة الله تعالى { قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره } فهو أحق باللعن، و العذاب، و الطرد من رحمة الله تعالى. فما أعجب كفره، و ما أغربه!

و لم ترد "ما" في القرآن تعجبية إلا في هذا الموضع و في موضع آخر هو قوله سبحانه {أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} (٣٠٥) (*)

و هذا من تناسق القرآن الكريم، فمن كان أمره عجيبا بهذه الصفة، فأعجب به صبره على النار التي هو آيل و صائر إليها.

و في علم القراءة تقرأ " ما " في الآيتين الكريمتين ممدودة حركتين أو أربعا أو ستا و الأفضل أربعة حركات. و هذا المد الزائد إنما هو تعبير عن هذا التعجب من حالة هؤلاء الكفار في الدنيا و الآخرة.

٥- الخلق الآخر

قال سبحانه: {و نَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} {٥}

سورة الحج.
و قال جل جلاله: { ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } {١٤}
سورة المؤمنون

بعد أن تحدث القرآن الكريم عن مراحل تكون الجنين في بطن أمه، انتقل إلى الحديث عن المرحلة الأخيرة في الخلق، و هي مرحلة الخلق الآخر و الخروج إلى الحياة.

و تستوقفنا هنا كلمة "نقر" التي تدل على الاستقرار الذي ينعم به الجنين في رحم أمه، فأول الإقرار يبدأ بالتفاعل بين النطفة الملقحة و البيئة التي تستقبلها أو ترفضها، ثم يأتي دور الهرمونات التي تقوم بتثبيت الجنين على جدار الرحم، ثم تتولى المشيمة هذا التقرير و التثبيت بمد الشعيرات الدموية التي ستشكل الحبل السري، ثم يأتي السائل الأمنيوسي الذي يسبح فيه الجنين و الأغشية التي تحيط به كلها تضمن له الاستقرار و القرار و الحماية.

(٣٠٥) سورة البقرة، آ: ١٧٥.

(*) انظر : السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (المتوفى : ٩١١هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط: ٤، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤ م. ج: ١، ص: ٢٨٨.

فهو لم يقل: " نضع " في الأرحام. لأن الوضع هنا هو مهمة الذكر، لكن الإقرار مهمة إلهية خارجة عن طوع المخلوقات، و يدرك معنى هذه اللفظة جيدا كل من سقط له جنين قبل التخلق و الوضع النهائي.

و حتى في حالة التلقيح الخارجي الاصطناعي أو ما يسمى عند الغرب بـ "أطفال الأنابيب"^{(٣٠٦)*}، لا تتجح عملية تثبيت البويضة الملقحة على جدار الرحم دائما، و قد تتكرر العملية مرات عدة لينجح الإقرار، و قد لا ينجح أبدا. و نسبة احتمال النجاح لا تتجاوز ٢٠ %^(٣٠٧). و لذلك غالبا ما تتم تجربة مجموعة من البويضات دفعة واحدة في التلقيح الاصطناعي لضمان أكبر احتمال لنجاح التلقيح، و قرار البويضة الملقحة في الرحم.

ولذلك وصف سبحانه الرحم في سورة المومنون بالقرار المكين إذ قال: { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ { ١٣ } }
و جاءت لفظة " الأرحام " بصيغة الجمع لتدل على عظمة المتحدث سبحانه، فهو يسيطر على جميع الأرحام دون استثناء، كما نفهم منها أن أصل البويضة من خارج الرحم فتأتي إليه ثم تستقر. و هذا ما أثبتته العلم الحديث، فالبويضة إنما أصلها من المبيض ، ثم تخرج منه فتمر عبر قناة فالوب و هناك يكون التلقيح و بعد ذلك تنزل إلى الرحم فتستقر فيه بإذن الله تعالى.

كما جاءت لفظة " ما " لتشمل كذلك كل " ما " يقع في الرحم من البويضات التي يعلم الله وحده مصيرها بعد ذلك. و كأن في هذه اللفظة إشارة إلى " ما " سيضعه الإنسان في هذه الأرحام بعد ذلك من بويضات ملقحة خارج الرحم، بل و حتى بويضات من أمهات آخر تستأجر لها الأرحام لتحملها بدلا عن صاحببتها، فكأن الله يقول لهؤلاء: ضعوا ما شئتم في الأرحام أما التثبيت و الإقرار فيها فبيدي وحدي!

ثم من عجائب الخلق التي تنبه إليه الآية الكريمة: أن الطفل إذ يخرج إلى الحياة يختلف تماما عن حالة الجنين التي كان عليها، فهو خلق آخر، يختلف عن

(*) لعل هذه التسمية: "أطفال الأنابيب" أو « bébé-épreuve » فيها كثير من التجاوز و التطاول و التمويه على عامة الناس، فكأن الغرب بهذه التسمية يتحدى الإرادة الإلهية و يقول: ها قد خلقت البشر في أنبوب اختبار! و ما خلقوا شيئا، و إنما قاموا بتسهيل عملية التلقيح فقط، ثم تعاد البويضة الملقحة سراعا إلى قرارها المكين " الرحم".

انظر: Claire Allouine et autres, **Encyclopédie bordas**, encyclopédies bordas, Paris, France, édition: /, 1998, volume: 2, p: 584.

(307) أنظر: "Microsoft Corporation." **Microsoft® Encarta® 2006** [CD]. Microsoft Corporation, Redmond, État de Washington, U.S.A, version:15, 2005 , مادة : fécondation in vitro (FIV)

الخلق الأول في التنفس و في التغذية، و في أشياء كثيرة أخرى، فبعد أن كان يتغذى و يتغذى عن طريق المشيمة و الحبل السري، ها هو ذا يتنفس عن طريق الفم ثم الرئة التي لم يكن لها دور في الرحم، و ها هو ذا يتغذى الآن عن طريق الفم ثم باقي الجهاز الهضمي . ناهيك كيف كان نطفة فإذا هو اليوم خصيم مبین!! فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ،... إن كان هناك من يزعم أنه يخلق كخلق الله تعالى.

٦ - مرحلة الشباب

قال تعالى: { ثُمَّ لِنَبْلُغْهُنَّ أَشُدَّهُنَّ.. } { ٥ } سورة الحج
و قال سبحانه: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ
قُوَّةً } { ٥٤ }

سورة الروم

جاء قوله تعالى: { ثُمَّ لِنَبْلُغْهُنَّ أَشُدَّهُنَّ.. } { ٥ } في سورة الحج، في سياق الحديث عن البعث.

و جاء قوله سبحانه: { ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً } { ٥٤ } في سورة الروم بين الحديث عن نعم الله و بين الحديث عن البعث . كما جاء في آخرها تذكير بعلم الله و قدرته سبحانه، و لذلك ختمها بقوله: { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } .

و قد جاءت هذه الآيات لتتحدث عن أهم مرحلة من مراحل حياة الإنسان، مرحلة مهمة حرجة خطيرة، فهي أولا مرحلة تتجلى فيها أهم نعم الله على الإنسان، فهي مرحلة القوة و الشدة، التي يمارس فيها الإنسان أهم أعماله في حياته من خير أو شر.

و لقد عبر عنها القرآن الكريم بمرحلة القوة بين ضعفين، بين ضعف الطفولة، و ضعف الشيخوخة.

و نلاحظ أنه سبحانه " لم يقل خلقكم ضعيفا، أو في حالة ضعف إنما قال: (خلقكم من ضعف) كأن الضعف مادتهم الأولى التي صديغ منها كياناتهم . . والضعف الذي تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى في تكوين هذا الإنسان . إنه ضعف البنية الجسدية المتمثل في تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين. ثم في الجنين و أطواره و هو فيها كلها واهن ضعيف . ثم في الطفل و الصبي حتى يصل إلى سن الفتوة و ضلعة التكوين .

ثم هو ضعف المادة التي ذرأ منها الإنسان: الطين. الذي لولا نفخة من روح الله لظل في صورته المادية أو في صورته الحيوانية، و هي بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة .

ثم هو ضعف الكيان النفسي أمام الذوازع و الدفعات، و الميول و الشهوات، التي لولا

النفخة العلوية و ما خلقت في تلك البنية من عزائم و استعدادات، لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام.

(الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة). . قوة بكل تلك المعاني التي جاءت في الحديث عن الضعف. قوة في الكيان الجسدي ، و في البناء الإنساني ، و في التكوين النفسي و العقلي. " (٣٠٨)

و من جماليات التعبير في هذه الآية هذا التقابل بين لفظة "ضعف" و لفظة "قوة" فقد جعل الشباب قوة بين ضعفين، و شتان بين الضعف و القوة، فهذه المقابلة إنما جيء بها لتوضيح قدرة الله عز وجل في نقل الخلق من حال إلى حال أبعد منها بكثير، و تلك هي عظمة الخالق سبحانه. ففيها تذكير للشباب أنه إذا كانت لهم قوة فإنما هي من الله تعالى القوي فلا يغترون أحد بقوته. كما أن فيها تذكير بمصدر هذه القوة و هو الله سبحانه و تعالى فلا بد من شكره عليها بمراعاة حق الله فيها بتسخيرها في وجوه الخير التي أمر بها سبحانه. كما في هذا تذكير بالمصير الذي ستؤول إليه هذه القوة، فهي آيالة لا محالة إلى ضعف. و في هذا تذكير للشباب القوي من الظلم. فإذا كان الشباب يشعر اليوم بالقوة، فيسلطها على الضعفاء بغير حق، فليتذكر ما سيؤول إليه في المستقبل القريب من الضعف، و ما قد يصيبه من تسلط الأقوياء عليه يومها. سواء بانتقام منهم، أو بتسليط الله لهم عليه جزاء له بما فعل من قبل.

و لقد ضرب الله في كتابه الأمثال للناس بمن رأوا أنفسهم أقوى ماء، فاستعملوا قوتهم بغير حق، و منهم قوم عاد الذين { اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً }

فكان الرد الإلهي عليهم: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } و نظرا لأنهم { كَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } كانت عقوبتهم من جنس عملهم، قال تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصَرُونَ } { ١٦ } فهم استكبروا

في الأرض بقوتهم، فسلط الله عليهم واحدا من أضعف مخلوقاته، و هو الهواء! ، لكن هذا الهواء الخفيف الضعيف إذا زوده الله القوة من عنده، أصبح أشد مخلوق فوق الأرض لا يستطيع أن يقف أمامه مخلوق. فلا مجال إذا لأي شاب أن يغتر بقوة شبابه، فإنه لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

و من جهة أخرى كذلك ضرب سبحانه الأمثال بالذين أحسنوا استغلال هذه المرحلة من الحياة، كما في قوله سبحانه: { وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ائْتَدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَِّّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } { ١٥ } فخير ما يسخر فيه الإنسان قوة شبابه فيه هو محاولة رد بعض الجميل لوالديه في كبرهما و عجزهما، و سؤال الله العون في تسخير هذه القوة في العمل الصالح، و النظر إلى المستقبل لتخليف الذرية الصالحة. و أخيرا فإن في هذا الحديث عن مرحلة الشباب بين مرحلتي الضعف دليل على البعث، فالذي خلق الإنسان بحسب هذه الأطوار من الضعف و القوة قادر على إعادة إحياء هذا الإنسان بعد مماته، و لذلك ختمت الآية بما يناسب غرضها الأساسي، و هو التذكير بقدره الله على الخلق و إعادته، فجاء قوله تعالى في ختام الآية: { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }.

٧- مرحلة الشبيبة

قال تعالى: { وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّأَكُمْ وَ مِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } سورة النحل ٧٠
و قال جل جلاله: { وَ مِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا }
سورة الحج ٥

و قال سبحانه: { ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } سورة الروم ٥٤
و قال كذلك: { ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا } سورة غافر، الآية: ٦٦

بعد أن تحدث سبحانه عن مرحلة الشباب و القوة أتبعها بالحديث عن مرحلة الشبيبة و الضعف.

و قد جاء الحديث عن أرذل العمر مباشرة بعد ذكر الموت في سورة النحل، فجعل الله تعالى الرد إلى أرذل العمر بدلا من الوفاة، إذ قال: { وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّأَكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } أي يرد إلى أرذل العمر بدلا من أن يتوفاكم، فكأنه سبحانه قد ساوى بين الوفاة و بين أرذل العمر. وتتأكد هذه المساواة بعد ذلك في قوله سبحانه: { لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا } فحال صاحب أرذل العمر كحال الميت من حيث توقف آلة العلم التي هي العقل. فالميت الذي ينتقل إلى العالم الآخر، لا علم له بما في هذه الدنيا، و لا تفاعل له معها. و لا ينفعه بعد موته علم إن علم شيئا. فكذلك صاحب أرذل العمر ميت و لكن يتحرك و يتنفس و تظهر عليه آثار الحياة... لكن بغير نفع.

فببلوغ " أرذل العمر " تتوقف الذاكرة عن التسجيل، و هي حالة يشخصها علماء النفس و الأعصاب بتوقف الذاكرة القريبة مع استمرار الذاكرة البعيدة في العمل، فله العلم القديم و ليس له علم جديد. و إنها لحقا مرحلة أرذل العمر و أخسه، الذي يحق للإنسان أن يستعيز بالله منه*، فلا قيمة للإنسان إلا بالعلم. ألم تسجد الملائكة للإنسان لما تميز عليها بهذه الصفة؟! فإذا فقدوها فقدَ فقدَ كل ميزة و فضل، فلموت حينها خير للإنسان من الحياة، و لذلك فقد قدم سبحانه الحديث عن الوفاة { ثُمَّ يَتَوَقَّأَكُمْ } على الحديث عن أرذل العمر، مع أن أرذل العمر أسبق من الوفاة كما لا يخفى! لكن كان للموت شرف التقديم على أرذل العمر لأنه خير منه!

و هذا درس لكل إنسان قد يغتر بعلمه أو قدرته، فالله يريد أن " يرد النفس إلى هذه الحقيقة الكبيرة: أن العلم الشامل الأزلي الدائم لله ، و أن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله . و أن علم الإنسان إلى حين ، و قدرته إلى أجل، و هما بعد جزئيان ناقصان محدودان. " (٣٠٩) { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } . و من رذالة هذا العمر، أنه عمر الضعف، ففيه يحس الإنسان " ضعفا في الكيان الإنساني كله. فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها. و قد يصاحبها انحدار نفسي ناشئ من ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل، و لا يجد من إرادته عاصما. و مع الشيخوخة الشيب، يذكر تجسيما و تشخيصا لهيئة الشيخوخة و منظرها.

(*) " كان سعد يعلم بنيه هؤلاء الكلمات، كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ منهن دبر الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أزد إلى أرذل العمر... " رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: ما يتعوذ من الجبن، و كذلك في باب باب: الاستعاذة من أرذل العمر، و من فتنة الدنيا، و فتنة النار. (٣٠٩) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٤، ص: ٢١٨٢.

و إن هذه الأطوار التي لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء ، و التي لا تتخلف مرة فيمن يمد له في العمر ، و لا تبطئ مرة فلا تجيء في مواعدها المضروب. إن هذه الأطوار التي تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنها في قبضة مدبرة، تخلق ما تشاء، و تقدر ما تشاء، و ترسم لكل مخلوق أجله و أحواله و أطواره و فق علم وثيق و تقدير دقيق: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}. (٣١٠)
و في قوله سبحانه: {مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً} : مقابلة بين قوة البنية و قوة الإرادة و قوة الجمال و الوسامة، و بين ضعف البنية و ضعف الإرادة و ضعف الجمال و الوسامة. و ذلك مدعاة للتأمل في المصير الذي سيؤول إليه كل إنسان.

٨- الموت

قال تعالى: { أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } { ١٩ }
سورة البقرة

و قال جل جلاله: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {٩٤} وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} سورة البقرة
و قال تعالى: { وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتَ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ} {٦١} سورة الأنعام
و قال عز وجل: { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} {١٥} سورة المومنون
و قال سبحانه: { اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَمَاتِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} {٤٢}

سورة الزمر

و قال تعالى: { وَ مِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَ لَنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {٦٧} سورة غافر
و قال كذلك: { وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} {١٩} سورة ق

هذه هي المرحلة الأخيرة للإنسان فوق الأرض، هذه هي المرحلة التي يحذر بها كل مخلوق و يعمل على دفعها بكل ما أوتي من قوة. فقد ركب الله في روع كل مخلوق فطرة الدفاع عن نفسه لأجل استمرار الحياة على الأرض، و لذلك كانت كراهية الموت أقوى فطرة في الإنسان.
و قد عبر القرآن الكريم عن كراهية الإنسان أبلغ تعبير في قوله سبحانه: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ} فهذا مجاز ذكر فيه الكل و قصد الجزء التي هي الأنامل التي توضع في طرف الأذن، لكن التعبير القرآني هنا يعبر عن الحالة النفسية لهؤلاء الذين يحذرون الموت، فهم لا يريدون أن يسمعوا لهذه الصواعق المحيطة بهم حسياسا، فهم يضغطون بأصابعهم على آذانهم بقوة لولا مقاومة الأذن لدخلت فيها.
حقيقة الموت: الموت هو استيفاء الروح من الإنسان حين بلوغه أجله، و قد عبر القرآن عنه في قوله تعالى: { اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ حِينَ مَوْتِهَا}، و قد ذكر سبحانه في هذه الآية الكريمة
النفس و قصد الروح، و هذا من باب ذكر الكل و إرادة الجزء، و ذلك لأن النفس هي مجموع الروح و الجسد، و بانفصال الروح عن الجسد تصبح النفس التي هي مجموع الروح و الجسد (*) كالمعدوم. فلا فائدة من جسد دون روح.

(*) أنظر تعريف النفس في الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث.

الموت يطال كل أحد: و ليؤكد القرآن أن الموت حق و ينبري الإنسان للاستعداد له و لا يستسلم لصدمته، أشار إلى أنه يطال جميع المخلوقات حتى الأنبياء، قال تعالى: { وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } { ١٤٤ } وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } { ١٤٥ } فما الموت إلا مرحلة يمر كل إنسان إليها ليجزى على أعماله، و من كان يعمل لهذا الموعد فلن يخلفه الله و عده.

الخوف من الموت: و إن كان الخوف من الموت فطرة في الإنسان فلا يصح له أن يجعله مبررا للجبن، قال تعالى: { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ } { ٥ } يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ } { ٦ } فلموت أجل لا يعلمه إلا الله، و الخوف من الموت لا يقدم هذا الأجل و لا يؤخره. و كما قال علي ؓ: أي يومي من الموت أفر ؟ يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أهابه و من المقذور لا ينج الحذر. (٣١١)

قال تعالى: { وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } { ٣٤ } لكن عدم الخوف من الموت لا يعني التشبث بحب الحياة، فهذه من صفات بني إسرائيل التي ذمهم الله تعالى لأجلها: { وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } { ٩٦ } و قد نكر الله في الآية لفظة " الحياة " فقال " حياة " فهم يحرصون على أي حياة مهما كان نوعا و لو في الذل و الهوان.

إذا فالموت آت لا محالة مهما حاد ابن آدم عنه: { وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } فمهما تهرّب الإنسان منه فهو لاقية يوما ما. و قد " قدم الجار و المجرور [منه] للاختصاص، و أثر النص الكريم حرف ابتداء الغاية هنا [من] على حرف المجاوزة [عن]، للدلالة على أن العدول و النفور من الموت أمر مبدئي، أي من كل شيء يتصل به، و ليس في حرف المجاوزة ما يؤدي هذا المعنى، فالمجاوزة تقتضي الوصول إلى الشيء ثم عبوره و تعديه، و هذا ليس مقصود السياق، بل المقصود، النفور من الموت نفورا مبدئيا، و من كل شيء يذكره به، و حين تجيء سكرة الموت يعلم الإنسان أنه الحق الذي كان يحاول الهروب و التخلص منه، و أن محاولته كانت عبثا. " (٣١٢)

(٣١١) الإمام علي، الديوان، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط: /، ٢٠٠٧، ص: ٤٥.
(٣١٢) محمد محمد داود، القرآن الكريم و تفاعل المعاني، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، ط: /، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، ج: ١، ص: ١٢٣.

٩ - البعث

قال تعالى: { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } { ٣٦ } سورة الأنعام
و قال عز من قائل: { وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } { ٦٠ }
سورة الأنعام
و قال عز وجل: { وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَ عَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } { ٣٨ } لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } { ٣٩ } إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } { ٤٠ } سورة النحل
و قال سبحانه: { وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } { ٥ } ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { ٦ } وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } { ٧ } سورة الحج
و قال جل جلاله: { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } { ١٦ } وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } { ١٧ } سورة المؤمنون
و قال كذلك: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَنُبْعَثُنَّ ثُمَّ لِنُنَبِّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { ٧ } سورة التغابن

هذا هو مصير الإنسان النهائي، و لقد وقع التذكير به في كتاب الله بشكل مطرد متكرر. و ما سبب ذلك إلا لخطورة هذا الأمر باعتباره يتعلق بمصير الإنسان و مآله، وبالتالي بسلوكه في الحياة الدنيا. إذ أن هذا المصير إنما ينبني على ما قدمه هذا الإنسان في هذه الحياة، إن أحسن فله الحسنى و زيادة و إن أساء فله السوء و العذاب. { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } { ٧ } وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } { ٨ } (٣١٣)

و كذلك كان التركيز عليه في كتاب الله لكونه أساس تكذيب الكفار برسالة الإسلام، فقد صعب على أهل الكفر أن يصدقوا بأن الإنسان إذا أصبح هشيما و رميما سيبعث إلى الحياة بعد ذلك، قال تعالى: { وَ هُوَ الَّذِي دَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } { ٧٩ } وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } { ٨٠ } بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ

الأولون { ٨١ } قالوا أئذا مئنا و كئنا ترأبأ و عظامأ أئنا لمبعوئون { ٨٢ } لقد
 و عدنا نحن و أبأونا هءا من قبل إن هءا إلاءا أساطير الأولين { ٨٣ }^(٣١٤)
 فهو موقف قديم إذا موقف التكذيب باليوم الآخر و البعث، و استغراب
 أن الميت الذي أصبح ترابا و عظاما سيبعث يوما ما! فهو أمر – في
 نظرهم – غريب و أشبه ما يكون بعجائبية أساطير الأولين من قصص
 الجن و العنقاء و الغول و غيرها مما يقصه القصاصون في كل عصر و
 مصر!

بل إن أمر إعادة إحياء الموتى قد يصعب فهمه حتى على الصالحين و
 الأنبياء المقربين قال تعالى: { أو كالأذي مر على قرية و هي خاوية على
 عروشها قال أتى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم
 لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك و
 شرابك لم يفسده و انظر إلى حمارك و لنجعلك آية للناس و انظر إلى العظام
 كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير
 { ٢٥٩ }

و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى و لكن
 ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل
 منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيًا و أعلم أن الله عزيز حكيم { ٢٦٠ }^(٣١٥)
 فمهما يكن هذا الذي مر على هذه القرية سواء أكان عزيز أو غيره،
 فالكل مجمع على أنه كان من المؤمنين^(٣١٦)، إلا أن هول الصدمة التي أصابته و
 هو يرى هذه القرية و قد خوت بعد أن كانت عامرة بما كان أهله فيها يعرشون،
 كل ذلك جعله يتساءل: كيف يحيي الله أهل هذه القرية بعد ما أصابهم من البلى و
 الردى؟! فكان الجواب الإلهي من باب العلاج بالصدمة، فالمصدوم قد لا يفقه
 من صدمته إلا خضة عنيفة ترجعه إلا صوابه. فكان أن أماته الله مئة عام ثم
 بعثه ليرى بأمر عينه التي بليت ثم عادت كيف يحيي الله الموتى! و يعاين مراحل
 إعادة الإحياء التي لا تختلف عن إيجاد الخلق من العدم.

و هذا أبو الأنبياء إبراهيم ن يسأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى؟
 ليطمئن قلبه و يزداد يقينا بقدرة الله تعالى، و يرتفع من علم اليقين إلى عين
 اليقين، و يشاهد بل ويتلمس جانبا من قدرة الله الخارقة، فكان الجواب الإلهي
 بهذه التجربة العملية التي تبين لإبراهيم عليه السلام أنه مهما تناثرت ذرات
 الموتى، و مهما ذرتها الرياح في الأجواء و الأصقاع، و في مختلف الجهات
 الأربع فإن الله قادر على إعادة جمعها، و إرجاع كل جزء إلى مكانه الذي كان
 عليه من قبل في جسد الكائن الحي.

^(٣١٤) سورة المومنون، الآيات: ٧٩ - ٨٣.

^(٣١٥) سورة البقرة، الآيات: ٢٥٩ - ٢٦٠.

^(٣١٦) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ١، ص: ٣١٥.

فالموتى يبعثهم الله تعالى ليحاسبهم على ما يفعلون، و الأدلة على ذلك كثيرة للذين يسمعون، من الذين لم تتعطل حواسهم و لم يعطلوها بأنفسهم بإعراضهم عن الحق و الهدى ف{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} {٣٦} و قد جاءت هذه الآية الكريمة جوابا مزدوجا على {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ} (٣١٧) فهم في هذه الحياة الدنيا إنما هم في عداد الموتى، لأنهم لا يسمعون كما لا يسمع الموتى، و هم في عداد الموتى كذلك من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه، ففترة حياتهم المتبقية لهم في حكم الملغى ما داموا لن يستفيدوا منها شيئا! فالموتى يبعثهم الله و هذه هي الحقيقة المقصودة، و هؤلاء كذلك موتى فسيبعثهم الله لمحاسبتهم على تكذيبهم بهذه الحقيقة المقصودة. و هذا لعمرى تعبير فيه مزج بين المجاز و الحقيقة و التورية و التعريض لم يعهد العرب مثله من قبل! يحمل في طياته الحقيقة و الوعيد في نفس الوقت. إنه تعبير يهز كيان السامع و يخضه و يزلزله زلزالا شديدا، و يبكت الكافر فلا يحار له جوابا.

و يقدم الله الأدلة على البعث و منها توفي الله للناس في النوم و بعثهم بعد ذلك في النهار {وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} {٦٠} (٣١٨) فاستعمل سبحانه لفظة {يَتَوَقَّأَكُم} و لم يستعمل هنا لفظة "النوم" أو إحدى مشتقاتها و استعمل لفظة {يَبْعَثُكُمْ} و لم يستعمل لفظة "الاستيقاظ" أو إحدى مشتقاتها، ليؤكد أننا إنما نموت كما ننام، و إنما نبعث كما نستيقظ و في ورد في الحديث: ((كما تنامون فكذلك تموتون و كما توقظون فكذلك تبعثون)) (٣١٩) و لذلك ختم الآية بقوله { ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ } حيث تبعثون البعثة الأخيرة للحساب على ما كان من قبل.

كما يستدل القرآن الكريم على البعث بقدره الله على الخلق، فيرد الله على الذين { أَفَسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ } بقوله سبحانه: { بَلَىٰ وَ عَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {٣٨} لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } {٣٩} فالبعث ضرورة معرفية للفصل فيما اختلف فيه الناس من قضايا العقيدة و الإيمان التي لم يصلوا فيها إلى إجماع، فليس من العدل أن تبقى هذه الأمور عالقة بغير فصل! خصوصا و أن هناك من الناس من كانوا يتكلمون فيها بغير دليل و يجادلون في الحق. فليس من العدل كذلك أن يذهب عملهم هدرا ، فلا بد لهم من يوم يفضحون فيه لأمام الخلائق، و يتبين فيه الحق من الباطل.

(٣١٧) سورة: الأنعام، الآية: ٣١.

(٣١٨) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٣١٩) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١٥، ص: ٢٦١. و لم أجد ي كتب الحديث.

و مهما يكن من أمر، فإن البعث أمر سهل على الخالق سبحانه، فكما خلق الخلق من العدم فهو قادر على إعادته { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }.

و من أدلة القرآن الكريم على البعث كذلك دليل الطبيعة التي تراها هامة كجسم الميت، فإذا نزل عليها المطر عادت إلى الحياة مرة أخرى، فها هي تهتز كما يهتز المغمى عليه ويعود إلى الحياة بعد أن أشرف على الموت، ثم ها هي تتعافى فتتمو و تربو، بل و تزهر بكل الأزواج البهيجة من النبات و الحشرات و الحيوانات { وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ { ذَلِكَ } دليل على { أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { ٦ } وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ بِبَعثِ مَنْ فِي الْقُبُورِ } { ٧ }

و من أدلة القرآن على البعث ما يسمى البرهان بالتراجع، فبعد أن تحدث القرآن الكريم عن مراحل الخلق بقوله: { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ } { ١٢ } ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ { ١٣ } ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ { ١٤ } جاء بعد ذلك الحديث عن البعث { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } { ١٦ } أي تبعثون بنفس الطريقة التي خلقتكم بها، فمن التراب و الطين خلقتكم فكذلك منه تبعثون و تخلقون مرة أخرى، لتحاسبوا على أعمالكم التي قدمتموها في الدنيا و لم تلقوا جزاءها ليس غفلة من الله و لكن، إمهالا و امتحانا، فإله لا يغفل عن شيء في الأرض و لا في السماء { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } { ١٧ } و لو غفل الله عن شيء لاختلت موازين الكون، فكيف يغفل عن ابن آدم؟!

إذا فلا قيمة لزعم اللذين كفروا أنهم لن يبعثوا فليس لهم أدنى دليل على دعواهم، بل الحق يتطلب البعث للحساب و لإنصاف المظلومين الذين ماتوا و لم يأخذوا حقهم في الدنيا، و الله لا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَنُبْعَثَنَّهُ ثُمَّ لَننبؤنَّ بما عملتم و ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { ٧ }

الكتاب الثاني

الفصل الثاني

النسبانية في تعابير القرآن

الجماع

الاجزاع

المنع

العجل

الأماره- بالسوء

النفس الاله وامة

النفس الملائمة

بعد أن تحدثنا عن أهم الجوانب الجسمية في الإنسان ننتقل في هذا الفصل للحديث عن الجوانب النفسية فيه، و نقصد بذلك الجوانب الباطنية في الإنسان و ما ينتج عنها من سلوكيات، و لنبدأ بحديث القرآن عن الخصائص العامة للنفس الإنسانية، فكيف وصف القرآن الكريم هذه النفس؟ و كيف عبر عن هذه الجوانب الباطنية فيه؟ و ما هو مدى التناسق بين جوانب هذا الوصف؟ و أريد أن أنبه إلى أن حديثنا هذا سيشمل أهم هذه الخصائص و ليس كلها، فالاستقصاء لكل ما ورد في القرآن الكريم حول النفس الإنسانية مستحيل، فمحور النفس في القرآن الكريم من أضخم محاورها، بل إن القرآن الكريم ذاته ما أنزل إلا لتهديب هذه النفس و حملها على عبادة الله و طاعته. كما أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، و لكل دارس فيه وجهة نظر تكشف له عن خبايا قد لا تتكشف لغيره.

قال تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا { ١٩ } إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا { ٢٠ } وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا { ٢١ } إِلَّا الْمُصَلِّينَ { ٢٢ } الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ { ٢٣ } وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ { ٢٤ } لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ { ٢٥ } وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ { ٢٦ } وَ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ { ٢٧ } إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ { ٢٨ } وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ { ٢٩ } إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ { ٣٠ } فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ { ٣١ } وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ { ٣٢ } وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ { ٣٣ } وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ { ٣٤ } سورة المعارج.

تناولت هذه الآيات الكريمات أهم صفة تتصف بها النفس الإنسانية و هي صفة: الهلع.

وهي صفة متأصلة في أغوار النفس الإنسانية. فقد خلق الإنسان متصفا بها، و قد جعلها الله تعالى آلية دافعية و دفاعية في نواة النفس الإنسانية للمحافظة على استمرارها، فلا مجال لمحاولة التخلص منها بإنكارها أو كبتها.

و الهلع هو: ما يصيب الإنسان من حركة و نشاط زائد لدفع الضرر إذا أصابه، و ما يصيبه كذلك من حركة و نشاط زائد للاحتفاظ بالخير إذا أصابه. و قد روي "عن عكرمة رضي الله عنه قال : سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلع فقال : هو كما قال الله : إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا، فهو الهلوع." (٣٢٠)

و هذا الشعور في الإنسان هو أمر طبيعي و فطري ركبه الله تعالى في فطرة الإنسان من أجل استمرار حياته، فلو كان الإنسان لا يشعر بداخله بشيء يحركه، إذا أصابه الشر فلن يتحرك لدفعه ، فيهلك. و لو كان الإنسان لا يشعر بداخله بشيء يحركه، إذا أصابه الخير ليحافظ عليه، فإنه لن يستمر حيا على الأرض. و هذا هو ما يسمى بالدوافع النفسية. (٣٢١)*

و لقد تخبّطت النظريات النفسية في تحديد الدوافع المحركة لهذه النفس، فزعم البعض أن الجنس هو المحرك الوحيد لهذه النفس، كما زعم البعض أن الحرص على الوجود هو الدافع، و زعم البعض أن الطعام هو الأساس في هذه الدوافع... و كل نظرية تحاول أن تهتمش الدوافع الأخرى و تجعلها دوافع ثانوية تخضع للدافع الأساسي الذي تتبناه...

(٣٢٠) أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى : ٣٢٧هـ)، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان. ط: /، س: /، ج: ١٠، ص: ٣٣٧٤.

(*) انظر: سيد عبد الحميد مرسي، النفس مطمئنة، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، ص: ٦٥ - ٧٩.

أما القرآن الكريم فقد جاء بنظرية " الخير و الشر " و ذلك في قوله تعالى:
{ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } { ٢٠ } و { إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } { ٢١ }. فكل ما يدخل
تحت هذا الإطار فهو من ضمن هذه الدوافع التي تحرك سلوك الإنسان إيجاباً أو
سلباً. و لكل دافع وقته الخاص به الذي إذا تحرك فيه قام بإلغاء جميع الدوافع
الأخرى و تأجيلها إلى حينها فالإنسان و هو بجمع الأموال لا يفكر في الطعام. و
إذا كان في حالة الأكل فهو يلغي سائر الدوافع و يؤجلها إلى حينها فلا يفكر فيها
أنياباً، و إذا كان الإنسان يمارس الجنس فهو لا يفكر في بقية الدوافع و
الحاجات النفسية لأن غريزة المحافظة على النوع تسيطر في تلك اللحظة.
و استعمال القرآن الكريم لفظة " الخير " و " الشر " ليس من باب المثالية
في الطرح، و ليس في ذلك تسطيح للوقائع، و لكن ليلغي الكبت المرضي
الذي إذا تسلط على صاحبه أدى به ذلك إلى استنقار الدافع المكبوت، و هذا في
حد ذاته مرض و حالة استثنائية في الإنسان و ليست أصلية كما تزعم
النظرية الفرويدية. فالعلاقات الزوجية خير و المال خير، و الطعام خير، و كل
ما في الدنيا من متاع خير، و لكن الواجب هو وضع كل شيء في مكانه.
فالإسلام إذ يرفض نظرية الكبت التي ترى الحلّ في إطلاق العنان لنزوات
الإنسان من أجل التحرر منها، فقد جاء بالبديل المتمثل في التسامي على
النزوات و الحاجات النفسية و ذلك بالاعتراف بها دون إنكارها و لكن
بالترفع عليها، و ذلك بالالتزام بما أمر به بعد ذلك و هو: الإيمان و الصلاة و
الزكاة و تنظيم الجانب الجنسي بقصره على الحلال و الحفاظ على الأمانات و
الوفاء بالعهود. فلكل هذه الأمور دورها العظيم في سلامة النفس الإنسانية من
الأمراض و ذلك ما سنفصل الحديث عنه في حينه. و لكن نؤكد هنا على ما أكد
عليه القرآن الكريم بتكراره مرتين و هو الصلاة، حيث أنه لما وصف العلاج
لللهع بدأه بالصلاة { إِيَّا الْمُصَلِّينَ } { ٢٢ } الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ { ٢٣ }
و ختمه بها في الأخير: { وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } { ٣٤ } و
ما ذلك إلا لأهمية الصلاة في التحكم في هذا الدافع، و درئه من أن يتحول إلى
داء.

و هنا نؤكد أن الإسلام في إصلاحه للأنفس لم يستعمل أسلوب الإرغام كما
يزعم البعض بل إن العلاج ينطلق من ذات النفس الإنسانية التي تريد أن ترتقي
في معارج الحق و الصفاء و النقاء. فمن يؤدي الصلاة يؤديها بقناعته، و
الذي يؤدي الزكاة يؤديها طيبةً بها نفسه و من يعف عن الحرام فبارادته و من
يؤدي الأمانات و يفي بالعهود فبايمانه. و إلا فإن الإنسان يمكنه أن يتحايل على
من يرغمه على أي من هذه الأمور، و يستطيع أن يظهر أمراً و يبطن غيره،
و لكن القرآن هنا إنما يصف الدواء للإنسان و يتركه و شأنه فإن تناوله شفي،
و إن تركه بقي الداء مستحكماً فيه!

و نلاحظ تنوع الفاصلة بين حديث القرآن عن الخصائص الأصلية في الإنسان و بين حديثه عن الاستثناء و الدواء لهذه الصفات الدنيا، فنجد الفاصلة في البداية تنتهي بحرف العين الممدود الذي يؤدي بفتح الفم أقصى ما يستطيعه الإنسان، و في ذلك تذكير بحالة النفس الشرهة و هي تتلقى الخير فاغرة فاها كأنها تريد أن تلتهم كل ما يمر أمامها، كما في ذلك تذكير بحالة النفس الإنسانية وهي تواجه الشر ففتتح فاها تعبيراً عن الجزع و الخوف و إعلاناً لحالة الطوارئ في النفس الإنسانية لمواجهة هذا الشر!

أما حين الحديث عن حالة الاستثناء و هي حالة الإنسان المتسامي على النوازع البشرية، فنجد الفاصلة تنتهي بحرف النون و الميم المسبوق بحرف المد، فينطق حرف المد ثم تنطق النون أو الميم، و ينتج من ذلك فاصلة موسيقية هادئة ممتدة في الزمن، و في ذلك إشعار و تذكير بحالة النفس مطمئنة التي لا تستعجل شيئاً، فهي مطمئنة إلى ربها، راضية بقضائه و قدره، تنتزل عليها السكينة في كل حال، فترى ذلك يتجلى على وجهها بشاشة و على سلوكها اتزاناً و في معاملاتها رحمة بالخلق.

الجزع

قال تعالى: { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } { ٢٠ } سورة المعارج.

إذا كان علم النفس الحديث يتحدث عن الدوافع فقط و يصنفها إلى أصناف، فإن القرآن الكريم يتحدث عن الدوافع و عن الكوابح، فلا ينفع في الآلة أن تكون لها محركات تحركها إذا لم تكن لها كوابح تكبح حركتها عند الضرورة.

و لذلك ركب الله في الإنسان آلية دفاعية تعلن حالة الطوارئ حين لحوق الشر به، فالخوف من الشر، و الجزع منه إنما جعل في نفس الإنسان لدفع الضرر عنه، للحفاظ على حياته.

و لذلك قرر سبحانه في الآية الكريمة، أن الإنسان بمجرد أن يصيبه الشر يجزع منه، و نلاحظ الحذف في الآية الكريمة إذ حذف من جواب الشرط فعل الكون فكان الأصل أن يقول: "كان جزوعاً"، لكنه حذف الفعل من جواب الشرط بغرض التأكيد على النتيجة، و لغرض التعبير عن السرعة في تحقق جواب الشرط، فكأنه أمر آلي يحدث مباشرة بعد تحقق الشرط، فبمجرد أن يصيبه الشر يصاب بالجزع.

كما نلاحظ أنه استعمل فعل " مسه " و لم يقل " أصابه " ليعبر عن مجرد المسيس و هو أقل من الإصابة، فالجزع من الشر عند الإنسان يتحقق لمجرد

الإصابة البسيطة بالشر! بل قد يجزع الإنسان لمجرد توقع الشر، قال تعالى: {وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ} (٣٢٢) فالنهي هنا عن قتل الأولاد إنما قصد به من جزع من الفقر الذي أصابه حقا و فعلا. و قال سبحانه: {وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا} (٣١) (٣٢٣) و النهي هنا إنما هو لمن جزع من خشية وقوع الفقر به مستقبلا.

بل إن الإنسان قد يجزع حتى و هو ينفذ أمر الوحي الإلهي، قال تعالى: {وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (٧) (٣٢٤) فلعلم الله بنفس أم موسى و ما يمكن أن يصيبها من الجزع على ابنها و هي تلقية في اليم فقد طمأنها بأن لا تخاف و لا تحزن، و بشرها بالبشارتين: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

و كذلك الأمر بالنسبة لموسى لما أمره الله تعالى: {أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (١٠) فكان رده {وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون} (١٤)، و إن لم يصل إلى مستوى الجزع التام هنا إلا أن الخوف الذي عبر عنه هو رد فعل فطري من جنس الجزع.

و قس على ذلك جزع إبراهيم و لوط لما جاءهما ضيوفهما فالجزع طبيعة بشرية لا محيص منها.

و قد صور لنا القرآن الكريم مشاهد من جزع الإنسان العادي مأخوذة من واقعه المعيش. فكم تكررت صورة الراكبين في الفلك و قد جرت بهم بريح طيبة، ثم إذا بالريح العاصف تصيبهم و يحيط الموج بهم من كل مكان، فهناك يتذكر الإنسان ربه و يدعوه منيبا إليه. فالعودة إلى الله هنا إنما سببها الجزع الذي أيقظ الفطرة السليمة. فالإنسان هناك يعلم أنه قد أحيط به، و ليس له من ملجأ يلجأ إليه فتستيقظ الفطرة المطمورة في أعماق النفس لئذ ذكر الإنسان أن له ربا يلجأ إليه حين الشدة، فتجده يضرع إلى الله داعيا منيبا تائبا إليه، لكن بمجرد أن ينجيه الله و يعود إلى اليابسة، ينسى كل ما حل به، بل و ينسى ربه الذي لجأ إليه فأنجاه مما أصابه! ذلك لأن الشر قد انزاح عنه، و بالتالي ذهب عنه الجزع، فلم يعد بحاجة إلى الإله سبحانه. و هذه أحقق الحماقات التي يقع فيها الإنسان، فكأنه قد ضمن لنفسه النجاة في المرة المقبلة، أو كأنه قد أخذ عهدا من الله أن لا يبتليه بعد ذلك!

(٣٢٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٣٢٣) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

(٣٢٤) سورة القصص، الآية: ٧.

قال تعالى: {وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {١٢} سورة يونس

و قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } {٢٢} سورة يونس.

و قال عز وجل: {وَ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {٦٧} سورة الإسراء.
و قال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} {٦٥} سورة الروم.

و قال عز من قائل: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } {٦٥} سورة العنكبوت.
و قال كذلك: { وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَ مَا يَجِدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ } {٣٢} سورة لقمان.

و ليس المقصود بالبحر في الآيات الكريمة ذات البحر فقط و إنما هو مثل و تصوير لإحاطة الشر بالإنسان من كل جهة، و عدم قدرته على دفع هذا الضر، فهناك يصاب الإنسان بالجزع و يبدأ البحث عن أية قشة ليتمسك بها عسى تنفعه في دفع الشر عن نفسه فإذا لم يجد شيئاً، توجه مضطراً إلى الله تعالى، حتى و إن كان من قبل من المشركين!

و نجد في سورة يونس التفاتاً من المخاطب إلى الغائب {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ} و الغرض منه إنما هو مخاطبة السامع مباشرة ليضعه في جو الصورة و الحادثة فيشعره بهول الموقف كأنه جزء من الحدث، ثم يلتفت إلى الغيبة ليخرج السامع من وضعية المشارك في الحدث إلى وضعية الملاحظ الخارجي ليأخذ العبرة و العظة و يستخلص الدرس، و يعمل بالنتيجة، فلا ينتظر الشر أن يحيط به ليدعو الله تعالى، و ذلك ما استخلصه أهل الحكمة إذ قالوا: تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة.

كما نلاحظ في الآيات تكرر لفظة "مخلصين" في سورة يونس و في سورة الروم و في سورة العنكبوت و في سورة لقمان، و عبر عنها في سورة الإسراء بقوله: سبحانه { ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ } ليعبر عن الحالة النفسية لهؤلاء المحاط بهم، فالجزع المستولي عليهم يجعلهم ينسون كل شيء إلا الله تعالى، و يجعلهم مخلصين في دعائهم فلا يشوبونه بأي نوع من أنواع الشرك

التي كانوا من قبل يعللونها بقولهم: { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } (٣٢٥)،
أما الآن فلا مجال للتعليل و لا للجدال، و إنما الفطرة الصافية وحدها تتكلم!
فهذا هو الإنسان، و هذه أهم خصائص نفسه التي فطر عليها و هي
صفة الهلع من وقوع الشر به. و القرآن إذ ينبهنا إلى هذه الصفة فلأجل
الوعي بها، و التحكم فيها، و عدم تركها تتحكم فينا فتكون ردود فعلنا
آلية بلا وعي. بل لا بد للمؤمن أن تكون ردود فعله موزونة مضبوطة
معقولة واعية. فمهما شعر المؤمن في داخله بالجزع، فلا يستجيب لهذا
النداء الداخلي لدفع الشر إلا بقدر ما يدفع عنه الضر، و لا يؤدي إلى
ضرر آخر ربما يكون أكبر من الضرر الأول.

المنع

قال عز و جل: { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } { ٢١ } سورة المعارج.
و قال تعالى: { وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا
لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ
الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } { ١٨٠ } سورة آل عمران .
و قال عز من قائل: { وَ مِنْهُمْ مَنَّ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَ
لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } { ٧٥ } فَلَمَّا أَنَا لَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ
مُعْرِضُونَ } { ٧٦ } سورة التوبة
و قال سبحانه: { قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا } { ١٠٠ } الإسراء
و قال جل جلاله: { الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ
اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } { ٢٤ } سورة الحديد
و قال كذلك: { إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ إِن تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ
أَجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ } { ٣٦ } { إِن يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ
أَضْغَانَكُمْ } { ٣٧ } هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ

يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَكَّلُوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ { ٣٨ } سورة محمد
وقال سبحانه: { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى { ٨ } وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى { ٩ } فَسَيُسِّرُهُ
لِلْعُسْرَى { ١٠ } وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى { ١١ } سورة الليل

هذا هو الجزء الثاني من الهلع و هو المنع و هو من حب الخير و
الرغبة في الاستئثار به. و قد ركب الله سبحانه هذه الخصلة في الإنسان
ليدفعه إلى جلب المنافع لأجل ضمان استمرار الحياة.
نلاحظ أن القرآن قد استعمل كنتيجة لكلا الشرطين: المس بالخير أو
الشرط نتيجة سلبية في كلا الحالتين، و هما: الجزع و المنع. فالإنسان كائن
سلبى في طبيعته الحيوانية، فإذا نال الخير منع، و إذا أصابه الشر جزع!
كما نلاحظ أنه سبحانه قد قدم الحديث عن الجزع على الحديث عن
المنع، و ذلك لأن دفع المضار مقدم على جلب المنافع، كما يقول أهل
الأصول. أي أنه لا فائدة من تحصيل المنفعة إذا لم تُدفع المضرة. فمن
أصابه سم فهو أحوج إلى الترياق من الماء، و من حرق به الموت فإنه
مستعد أن يفدي حياته بكل ما يملك من مال ليحافظ عليها.
لكن هذه الخاصية المركبة في الإنسان للحفاظ على استمراره، غالباً ما
تتطرف فتتحول إلى بخل و قنور. و هذا مضر بالجانب الاجتماعي في
الإنسان، فالقرآن الكريم يعطي أهمية كبرى للفرد، و لكن من أجل أن يكون
مساهماً في البناء الاجتماعي السليم الذي يعود بعد ذلك بالفائدة على ذات
الفرد.

و لذلك فقد ذم القرآن الكريم " المنع " حينما يخرج عن هدفه الفطري
و يصبح مضراً بالنسيج الاجتماعي.

و القرآن الكريم إذ ينهى عن " المنع " فهو لا يتناقض مع ما قدره الله و
ركبه فيه من آلية تضمن استمراره، و لكن القرآن يعمل على تهذيب هذه
الآلية، فيجعلها نافعة غير ضارة. و الحل الذي أعطاه القرآن الكريم لهذه
المعادلة هو: الوسطية بين البخل من جهة، و بين الإسراف و السدفة من
جهة أخرى. قال تعالى: { وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا { ٢٩ } }^(٣٢٦) و قال سبحانه: { وَ لَا تُؤْذُوا السُّفَهَاءَ

(٣٢٦) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا { ٥ } (٣٢٧)

و لذلك فقد شبه - سبحانه - البخيل بالعبد المربوطة يده إلى عنقه، فهو مع ما له من آلة اليد التي بها ينتفع و ينفع إلا أن الأغلال منعه من ذلك، فكذلك عبد الدينار و الدرهم و القطيفة مع ما حباه الله من خير إلا أنه لا ينتفع به. و من جهة أخرى شبه سبحانه الذي ينفق كل ماله بالذي عطل يده بنفسه فهي مبسوطه دائما فلا تمسك شيئا. فمع أن الصورتين مختلفتين إلا أن التصوير المتقابل جعلهما متقاربتين، لأن النتيجة في الأخير متشابهة و هي تعطيل دور المال في نفع الفرد و تحريك عجلة الاقتصاد في المجتمع. فالمال هو قوام المجتمع و عصبه و عجلته التي بها يتحرك، فالذي يبدده بغير فائدة سفيه و ناقص عقل، و جب الحجر عليه.

و لقد رتب الشارع الحكيم على البخيل و عيدا شديدا إذ قال: { وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } { ١٨٠ } سورة آل عمران .

فغالبا ما يظن الإنسان أن البخل خير له من الإنفاق، فهو يحفظ لهم أموالهم من الضياع. لكن الواقع أن هذا البخل شر لهم في الدنيا و الآخرة. ففي الدنيا فوات الانتفاع بهذا المال، كما قال المتنبي:

وَ مَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَأَلْذِي فَعَلَ الْفَقْرُ (٣٢٨)

أما في الآخرة فجعل سبحانه مالهم الذي سيعذبون به طوقا لهم يطوقون به يوم القيامة، و التطوق بالذهب مثلا هو جعله في المنطقة نطاقا، و هو أبلغ التزين به للتباهي أمام الناس، و استعمال هذا المعنى من أبلغ طرق الاتهام بهم. فكأنه يقول لهم هذه زينتكم التي كنتم تدخروها لأنفسكم في الدنيا ببخلكم، ها أنتم تزينون بها اليوم في جهنم!

و زيادة في النكاية عليهم يذكرهم أنهم إنما هم يبخلون بما ليس في الأصل ملكهم، بل هو من فضل الله عليهم، و سيرجع يوما إلى الله تعالى، فما المال إلا عارية و وديعة، و لا بد يوما أن ترد الودائع.

و زيادة في تحقير المال الذي يبخلون به عبر عنه سبحانه ب " ما " الموصولة، و لم يسمه باسمه، فلم يقل مثلا: يبخلون بالمال الذي آتاهم الله. و إنما تركه مبهما تحقيرا له فمهما كان هذا المال الذي يبخلون به فهو لا قيمة له عند الله تعالى.

(٣٢٧) سورة النساء، الآية: ٥.

(٣٢٨) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط: /، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥ م. ص: ٤٠٤.

و زيادة في تقبيح البخل و المنع جعله سبحانه صفة من صفات المنافقين، إذ قال عزّ من قائل: {وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ} سورة التوبة

فكم يعد الإنسان الوعود العريضة، لكن قلما يفى الإنسان بما يعد، خصوصا إذا تعلق الوعد بالمال. مهما كان من وعده، حتى و لو كان رب العالمين. فبمجرد أن تمتلئ جيوب ابن آدم، ينسى كل شيء و كل أحد، و كل ما وعد به قبل الغنى. و إذا ذكروا بما وعدوا به من قبل، تولوا و أعرضوا، كأنهم يخافون على أنفسهم أن تتأثر بالهدى، فتنفق شيئا من هذا المال.

و إن من أعجب المنع: البخل برحمة الله! قال جل جلاله: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا} {١٠٠} الإسراء

فكثيرا ما نصادف أناسا في المجتمع لا يريدون الخير لغيرهم، حتى و إن كان هذا الخير لا يضرهم في شيء، و لا ينقص من ممتلكاتهم شيئا! فهم يريدون الخير لأنفسهم و حدهم فقط. و شعارهم في الحياة: إذا أنا مت فلا نزل القطر، و إذا رضوا للناس أن ينزل القطر بعدهم فلأن شعارهم: أنا و بعدي الطوفان.

و هذا كله من طغيان خاصية حب الخير لدى البعض، و خروجها عن حدها المقبول المعتدل.

و أسوأ المانعين: من يبخل و يأمر غيره بالبخل! قال سبحانه: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} {٢٤} سورة الحديد

فقد نفهم بخل البعض بما لديهم، أما ما يصعب فهمه فإن تجد من الناس من يبخل و يأمر غيره بالبخل. فهم لا ينفقون على المحتاجين، و لا يريدون أن يروا أحدا ينفق على محتاج. فكانهم لا يريدون أن يتكشف بخلهم أمام الناس، حينما ينفق الآخرون و يبخلون، فهم يريدون أن يكونوا سواء في البخل. و هذه لعمرى من صفات إبليس الذي لم يطع الله تعالى، و لا يريد أن يرى الله طائعا حتى يكونوا سواء. أو هذه الخصلة أشبه بمن قال فيهم الله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} {٨٩} سورة النساء

و بما أن المنع متأصل في النفس الإنسانية فقد يصيب حتى المؤمنين، لذلك عاتبهم الله تعالى بقوله: { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَ مَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَأَ يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ} {٣٨} سورة محمد

فصفة البخل تتعارض مع صفة الإيمان و متطلباته من الإنفاق في سبيل الله، الذي يعد دعامة أساسية في بناء المجتمع المسلم. و قد ابتدأت الآية بحرف التنبيه " ها "، و الغرض من ذلك التنبيه إلى خطورة الموقف و وجوب الانتباه له. و بعده جاء الضمير " أنتم " ليحمل المخاطبين المسؤولية، و ينبههم إلى أنهم كلهم مسؤولين عن هذا الأمر الخطير الذي هو وجوب الإنفاق في سبيل الله. و زيادة في الإلهاب ناداهم بصيغة الإشارة " هؤلاء " أي " يا هؤلاء " المبتدئة كذلك بحرف " الهاء " الذي في حد ذاته يفيد التنبيه، و " ولاء " الذي يفيد الإشارة غرضه كذلك التنبيه على الأنفس المدعوة للإنفاق فتبخل. لكنه سبحانه لم يعمم صفة البخل على الجميع - و إن كان قد عمم الخطاب من قبل- و ذلك ليستثني من هذه الصفة أصحاب النفوس الكريمة. التي كان قد مدحها في سياقات أخرى من الكتاب بالكرم و الإيثار. و لو واصل التعميم هنا في الخطاب لكان قد وقع في التناقض. و لكن هذا كلام من لا يغفل في قوله. و لا يضل و لا ينسى. لذلك استعمل عبارة " فمنكم من يبخل "

و بنى الفعل المضارع " تدعون " للمجهول لتعظيم الفاعل المسكوت عنه الذي دعاهم للإنفاق و هو الله تعالى الذي في الأصل، و كذلك بعد ذلك نبيُّه الأمر بأمره.

و استعمل " تدعون " و لم يقل " تؤمرون " من باب الترفق في الخطاب، فهو أدعى إلى الإجابة، و في ذلك تربية لقادة المسلمين و دعاتهم بحسن الخطاب لهذه الأمة و وجوب الترفق بها، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالمال، فإن التشدد في طلبه من الناس كفيل بأن يخرج أضغانهم كما قال تعالى في الآية السابقة: {إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} ^{٣٢٩}

و اختار لفظة " تنفقوا " لتصور هذه التجارة الرابحة مع الله تعالى فهي ليست تجارة كاسدة بل نافقة لا تبور، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} ^(٣٣٠) و وصف هذا الإنفاق بأنه " في سبيل الله " و هذه العبارة من مبتكرات القرآن الكريم التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل فهو يصور منهج الحق الذي جاء به كطريق موصل إلى الله تعالى، و هي صورة ذات منطلق مادي و غاية روحية تشيع في نفس سامعها هيبه و جلالا تجعله يتخيل أمامه طريقا مستوية تنطلق من الأرض و تسير عليها لتتجه إلى ما لا نهاية له إلى الله تعالى!

^(٣٢٩) سورة محمد، الآية: ٣٧.

^(٣٣٠) سورة فاطر، الآية ٢٩.

و استعمل " الفاء " في " فإنما " و ذلك ليبين أن من الناس من صفة البخل متأصلة في نفسه، و هي رد فعل مباشر على كل طلب للإنفاق! و استعمل "إنما" كان يمكن أن يقول: " فهو " و ذلك لتوكيد المعنى بـ "إن" و حصره بعد ذلك في البخل الذي يضر نفسه ببخله و لا يضر غيره.

و استعمل " عن " و لم يستعمل "على" مع أن الظاهر أن "على" تفيد وقوع الشر مثل " دعا على... " ، و إنما عدل عنها إلى "عن" لأجل أن يصور عملية المنع فـ "عن" تفيد المباينة و المباعدة مثل " نزعت عنه... " و كذلك هنا فكأن البخل ينزع عن نفسه الخير و يباعده عنها حينما يباعده عن وجوه الخير! كما أن استعمال "عن" قبل لفظة " نفسه" يؤدي إلى إحداث إدغام و تشديد في النون المشتركة بين "عن" و "نفسه" يفيد تأكيد المعنى المراد و هو إلحاق الضرر بنفس البخل وحده.

و أكد هذا المعنى بالتذكير بغنى الله تعالى فهو ليس في حاجة إلى إنفاق أحد و إنما هذا المال ابتلاء منه تعالى ليقيم الحجة على كل أحد بما في قرارة نفسه من بخل أو كرم.

بل إن الإنسان هو المحتاج إلى رحمة الله و رزقه، فهو القادر على أن ينزع النعمة من أي أحد في أي لحظة فيتركه يقلب كفيه على ما ضاع منه، أو يعترف بأنه كان ظالماً.

و ما دام سبحانه قد وعد بنصر دينه، فإن هذه الأمة إذا نكصت عن القيام بهذا الواجب بالإنفاق في سبيل الله فإنه سبحانه سيأتي من يحقق بهم وعده في هذا النصر، فخير لك أن ينتصر الحق بك على أن ينتصر بغيرك.

"و إنها لندارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، و أحس بكرامته على الله، و بمقامه في هذا الكون و هو يحمل هذا السر الإلهي العظيم. و يمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه؛ و نور الله في كيانه؛ و يذهب و يجيء و عليه شارة مولاه . و ما يطيق الحياة و ما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان و عاش بها ثم تسلب منه ، و يطرد من الكنف، و توصل دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيماً لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب. إن الإيمان هبة ضخمة، لا يعدلها في هذا الوجود شيء ؛ و الحياة رخيصة رخيصة و المال زهيد زهيد، حين يوضع الإيمان في كفة، و يوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه. و من ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن و هو يتلقاه من الله.." (٣٣١)

إذا فلا قيمة لهذا المال الذي لا ينقذ صاحبه من النار، قال سبحانه: { وَ أَمَّا
مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَعْنَى { ٨ } وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى { ٩ } فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى { ١٠ } وَ مَا
يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى { ١١ } سورة الليل
و ما أشد هذه العبارة: { وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } فإذا سقط في قعر
جهنم فلا يخرج منه هذا المال الذي كان يجمعه، و إن في لفظة " تردي " ما
ليس في غيرها ك "سقط " مثلا فالتردي لا يستعمل إلا للسقوط من شاهق، لا
نجاة لصاحبه منه. و أصلها: ردى. "يقال: ردى في البئر و تَرَدَّى، إذا سقط في
بئر، أو تهوّر من جبل." (٣٣٢) فاستعمل سبحانه الفعل المزيد بتاء في أوله،
المشدد الدال، ليدل على هذا السقوط الشديد في قعر جهنم. فلا يمسه بعده شيء.
فهذه إذا خاصية المنع في الإنسان كما وصفها القرآن لا يكاد سيلم منها أحد
من مؤمن أو كافر. إلا من أدرك حقيقة المال، و آمن بالمأل، و جاهد نفسه، و
قاوم هذا الميل الفطري فيها إلى الجمع و المنع.

العَجَل و القلق

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصَحُ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } {٥٧} قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } {٥٨} سورة
الأنعام

و قال سبحانه: { وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا
خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أُعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْآلُوحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ
إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَ لَا
تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } {١٥٠}

سورة الأعراف

كما قال عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ
ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} {١٨} سورة الإسراء
{قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثْرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ} {٨٤} سورة طه
{خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي} {٣٧}
{وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} {١٦}
{وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} {١١}
{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ
قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} {١١٤} سورة طه

{٨٣} {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} {٨٤} سورة مريم
{وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ
لَدُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} {٦} سورة الرعد
{١٥} {لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} {١٦} {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ} {١٧}
سورة القيامة

هذه صفة أخرى من الصفات الأساسية للنفس الإنسانية ينبه القرآن الكريم
إليها حتى يكون المؤمن على بصيرة منها، و هي صفة العجل أو ما يصطلح
عليه اليوم بـ: " القلق "
و إنها لمن أخطر الصفات في الإنسان لما لها من أثر بليغ على سلوكه سلبا أو
إيجابا

و التعبير القرآني بـ "العجل" "أبلغ من" "القلق" لأن العجل حالة نفسية و
سلوكية تظهر على كل البشر سويهم و مريضهم، لكن "القلق" يعبر عن عدم
الاستقرار النفسي كما تدل عليه الكلمة من الناحية اللغوية المعجمية. و عليه فأنا
أرى أن مصطلح "القلق" لا يصح استعماله إلا في الحالات المرصية، للتعبير
عن اضطراب السلوك الإنساني نتيجة العجل المفرط.

و نرى أن العجل إنما هو نتيجة للهلع. فالإنسان من فرط حبه للخير
فهو يستعجل دائما الحصول عليه، و من فرط بغضه للشر فهو يستعجل

دائماً دفعه عن نفسه في أقرب وقت ممكن، فيقع في العجل دائماً ما دام حياً يدور في دوامة الخير و الشر.
و نلاحظ أن معظم آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن العجل قد أعطت له معنى سلبياً، و ذلك كما يلي:

أخطر العجل: ففي آيات سورة الأعراف نجد تساؤل موسى عليه السلام لبني إسرائيل: { أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ } . فلقد كانت عجلتهم في أمر ربهم سبباً في انحرافهم العقائدي الخطير و اتخاذهم العجل إلهاً. فهم لم يستطيعوا الصبر أربعين يوماً حتى يرجع إليهم موسى. فكان أن استغل الشيطان هذه الثغرة في نفوس بني إسرائيل ليقوم بملء الفراغ الروحي لديهم بهذا الهراء الذي أتاهم به السامري! و قال بعض المفسرين أن المقصود بـ: { أَمْرَ رَبِّكُمْ } ، أي عقابه، و ذلك كما ورد في قوله سبحانه: { أَقْطَلَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ، أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ }^(٣٣٣) فكان استعجالهم لعودة موسى هي السبب في عجلة وقوع عقاب الله عليهم، و هذا من باب المجاز المرسل بإطلاق المأل على الواقع.

أكثر العجل: إذا كان العجل في أمر العبادة و الاعتقاد أخطر العجل، فإن من أوسع و أكثره انتشاراً: العجل في التفضيل بين الدنيا و الآخرة، كما قال عز وجل: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا }

فالإنسان المتصف بالعجلة إنما يفضل العاجلة على الآخرة، و هنا يحذر الله تعالى من هذه العجلة غير المحسوبة بدقة و التي تؤدي بصاحبها إلى الخسران المبين لأن " من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض ينلطفون بوحلها و دنسها و رجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات و النزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم...والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، و يقيم سعيه لها على الإيمان . وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب و صدقه العمل . والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك إنسان نفسه، فلا يكون عبداً لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموماً مدحوراً، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكوراً يتلقى التكريم في الملام الأعلی

جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء.
(٣٣٤)»

استعجال الشر: إن من غرائب الكائن الإنساني استعجاله للشر على نفسه، {وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} {١١}.
و غالباً ما يكون ذلك نتيجة اليأس ، فالكفار لما يؤسوا من الرسول p و دعوته و علموا أنهم مهما فعلوا فلن يثنوه عنها، طلبوا منه متحدين له أن ينزل عليهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} {١٦}

كما أن من أهم أسبابه عدم الإيمان، قال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا} (٣٣٥)

و من استعجال الشر الانتحار، و قد يكون الانتحار نتيجة غياب كامل للإيمان ، و ذلك ما نجده في لدى الشعوب الكافرة حيث نجد أن أعلى نسبة للانتحار عندهم.

كما قد يكون الانتحار نتيجة غياب مؤقت للإيمان، و في الحديث: ((لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن...)) (٣٣٦). فغلبة ظرف نفسي معين على باقي المشاعر يؤدي إلى التغطية على العقل و على الإيمان بعد ذلك، فاليأس من إيجاد حلول للمشاكل التي قد يقع فيها المسلم، مع استعجاله لهذه الحلول، قد توقع هذا المسلم في حالة نفسية مزرية يرى فيها العالم كله مظلماً و ينسى رحمة الله به، فيستعجل الموت، و قد يصل به الحال أن يطلبه بنفسه فيقع في الانتحار.
النبي و العجل: و باعتبار العجلة أمراً متأصلاً في ابن آدم فإنه قلما ينجو منها أحد و لو كان نبياً مرسلًا.

فهذا موسى عليه السلام يجيب ربه سبحانه و قد سأله: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى} فيأتي جواب موسى U : {قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} (٣٣٧)

"و إنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك، لأنه جَلَّ ثناؤه... حين نجاه و بني إسرائيل من فرعون و قومه، و قطع بهم البحر،

(٣٣٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٤ ، ص: ٢٢١٨.

(٣٣٥) سورة: الشورى، آ: ١٨.

(٣٣٦) متفق عليه، و قد رواه البخاري في كتاب المظالم، باب: النهي بغير إذن صاحبه. كما رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، و نفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله.
(٣٣٧) سورة طه، الآية: ٨٣.

وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، و أقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثر موسى. " (٣٣٨) و ذلك أن الله كان قد واعد بني إسرائيل، و ليس موسى وحده. قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ } (٣٣٩) فهذه العجلة كانت سببا في أن فتن بنو إسرائيل، و أصابه الغضب، و الأسف على ذلك،

و قال بعضهم أنه أصبح " غضبان على نفسه إذ ترك قومه حتى ضلوا، و أسفأ على ما فاته من مناجاة ربه. " (٣٤٠) فقد كان في المرة الأولى خليا من كل هم فناجى ربه دون منغص، لكن هذه المرة نغص عليه بنو إسرائيل مناجاته، فكان هذا من دواعي أسفه على ما فاته.

و هذا النبي محمد ﷺ يخاطبه ربه قائلا: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ } (١٦) { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ } (١٧) و قد " قيل له ذلك، لأنه كان إذا نزل عليه منه شيء عجل به، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تعجل به فإننا سنحفظه عليك. " فلا بد من الرضى بقضاء الله و قدره، و الخير حيث أراد الله تعالى، فلا حاجة إلى العجل و لو حتى في تلقي كتاب الله تعالى.

النفس الأمارة بالسوء

قال تعالى: { وَ مَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥٣} سورة يوسف

الأصل في الإنسان أنه كائن خير^(٣٤١)، لكن مطالب الأرض و الطين لا تنتهي كما رأينا ذلك من قبل حين حديثنا عن الهلع بشقيه الجزع و المنع، فهاتان الآليتان غالبا ما تجنحان عن المقدار الوسطي المطلوب منهما بين الإفراط و التقريط إلى إحدى الجهتين. فيصبح الخوف من الشر جزعا مدمرا، و

(٣٣٨) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج: ١٨، ص: ٣٤٩.

(٣٣٩) سورة طه، الآية: ٨٠.

(٣٤٠) السلمي محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن (المتوفى: ٤١٢هـ)، حقائق التفسير، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(*) انظر محمد رشاد خليل، علم النفس الإسلامي العام و التربوي، دار القلم، الصفاة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ = ١٩٨٧، ص: ٧٤.

يصبح حب الخير مَنعاً مقترراً. و قد يكون هناك تقصير في آلية الخوف من الشر فيقع الإنسان في التهور المهلك، كما قد يقع الإنسان في التفريط في آلية حب الخير فيقع في الإسراف و التبذير، و كل ذلك من السوء الذي يمكن أن تأمر به النفس.

لكن الإفراط في هاتين الآليتين هو الغالب على الإنسان دفعا للشر أو جلبا للخير. فالإفراط يغلب جانب التفريط فيهما. و كل ذلك من السوء الذي تأمر به النفس و تحظ عليه.

و إلى جانب الإفراط و التفريط هناك سوء التقدير، فغالبا ما يسيء الإنسان تقدير الخير أو الشر فيرى الخير شرا فيتركه و قد يتعصب في هذا الترك، و يدعو غيره إليه، كما قد يسيء الإنسان التقدير فيرى الشر خيرا فيقبل عليه، و يتعصب لهذا الإقبال، و يدعو غيره إليه! قال تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } { ٢١٦ } (٣٤٢) فليس كل ما تراه النفس خيرا هو خير على الحقيقة كما أن ليس كل ما تراه النفس شرا هو شر على الحقيقة. فحب الخير و بغض الشر آلية من آليات هذه النفس. و الآلية عمياء، لا تفكير لها، و لا تقدير للعواقب و النتائج، فتمضي إلى نهايتها دون أي اعتبار لشيء آخر. فـ " نفوسُ العباد، تأمرهم بما تهواه، و إن كان هواها في غير ما فيه رضا الله " (٣٤٣)

و لذلك و صف الله هذه النفس بـ " الأمانة " على وزن: فعالة. و هي صيغة مبالغة، تدل على حالة هذه النفس بالأمر بالسوء، دون انقطاع، فهي تأمر بالسوء و تلح عليه، و تبقى على هذه الحال ما دام في ابن آدم جفن يطرف، أو بقية رمق، إلى أن يلج القبر.

فهذه النفس الأمانة بالسوء إذا هي من بقايا الطفولة في الإنسان، فالطفل الصغير لا يفكر إلا في نفسه، و لا يعرف إلا منعا وهات. فهو لا يستطيع تقديم خير إلى الآخرين، و هو أحوج ما يكون إلى متطلبات الجسد لإكمال نموه، و هو في ذلك معتمد على غيره.

لذلك نجد أن الناس الذين تسيطر عليهم أنفسهم الأمانة بالسوء أشبه ما يكونون في سلوكهم بالأطفال الصغار، و نجدهم أقل الناس عقلا و حكمة.

و صدق البوصري إذ يقول:

و النفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع و إن تطفمه ينظم
" فمتى أهملتها فقد تمرنت و اعتادت الكسل و البطالة و البخل و إمساك
المال عن صرفه إلى وجوه الطاعات و مقتضيات الإيمان. و حيث كلفتها و

(٣٤٢) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٣٤٣) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج: ١٦، ص: ١٤٢.

حملتها على مشاق العبادات البدنية و المالية تنقاد لك و تتركى عن عاداتها الجبلية. " (٣٤٤)

و لذلك كانت التربية ضرورة للطفل حتى لا يبقى على حاله من تسلط النفس عليه. و كانت التربية كذلك ضرورة لكل من يريد أن يرتقي بنفسه إلى مراتب الصالحين و الحكماء.

و صدق ابن عاشر إذ يقول:

يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكِ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكِ
يُدْكَرُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَهُ وَ يُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلَاهُ
يُحَاسِبُ النَّفْسَ عَلَى الْأَنْفَاسِ وَ يَزِنُ الْخَاطِرَ بِالْقِسْطِ (٣٤٥)

و هذه النفس سميت أمارة لكثرة ما تأمر به، لكنها قد تنهى صاحبها عن ما فيه الخير له، و النهي في حد ذاته أمر بالترك. ففيها جانب إيجابي، أي أمر بما يضر، كما فيها جانب سلبي فتنهى عما ينفع.

و تشمل هذه النفس مختلف جوانب حياة الإنسان، سواء تعلق ذلك بجانب التملك أو الجاه أو البقاء، أو مختلف الدوافع النفسية الأخرى، و نذكر منها:

دافع التملك: و هو الذي يحرك الإنسان إلى جمع المال و الاحتفاظ به. و هو أمر مشروع في ذاته، لكن النفس قد تأمر بجمع المال حتى من الحرام، و تمنع إنفاقه حتى في وجوه الخير. و قد سبق التفصيل في هذا الجانب حين حديثنا عن خاصية المنع في الموضوع السابق.

دافع البقاء: و هو الذي يحرك الإنسان إلى لقاء الجنس الآخر لأجل ضمان استمرارية النوع البشري.

لكن هذا الدافع قد يخرج عن الحدود فيدفع الإنسان إلى قضاء شهوته في غير ما أحله الله له. و هو الدافع الذي جعل امرأة العزيز { تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } . فعندما خرج دافع البقاء عن حدوده لدى هذه المرأة بفعل استهتارها و عدم انضباطها وقعت فيما وقعت فيه.

و قد يصاب الدافع بالانحراف، و ذلك أخطر من الخروج عن الحد. و ذلك ما نجده عند قوم لوط ن الذين انحرف عندهم هذا الدافع فارتكس إلى عامل فناء و دمار فارتكبوا المثلية الجنسية*، إذ قال لهم أخوهم لوط ن : { أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ { ١٦٥ } وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ { ١٦٦ } . (٣٤٦)

(٣٤٤) إسماعيل حقي ، روح البيان في تفسير القرآن، ج: ١، ص: ٣٤٦.

(٣٤٥) محمد بن محمد المراكشي، الحبل المتين على نظم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين (شرح متن ابن عاشر)

(*) انظر سيد عبد الحميد مرسي، و نفس و ما سواها، ، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤١٢ = ١٩٩٢م، ص: ١١٦.

(٣٤٦) سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٥ - ١٦٦.

دافع الجاه: و هو الذي يحرك الإنسان ليحفظ كرامته و عرضه. لكنه قد يتطرف فيصبح دافعا للتقدم على الآخرين. و منه جاء داء حب الرياسة الذي قيل فيه أنه " آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين " (٣٤٧) و قلوبهم. و هو أحد دوافع ابن آدم الأول إلى قتل أخيه، قال تعالى: { وَ اِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } { ٢٧ } لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { ٣٠ } (٣٤٨) فالذي جعل نفسه تطوع له قتل أخيه هو أنه لم يتقبل منه، و فقد الجاه الذي كان يتمناه حين لم يتقبل قربانه.

و نفس الشيء نجده عند إخوة يوسف، إذ قال الله تعالى عنهم: { فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ } { ١٥ } وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } { ١٦ } قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } { ١٧ } وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } { ١٨ } (٣٤٩) فالذي دفعهم إلى ارتكاب هذه الجريمة، و تمثيل تلك المسرحية أمام أبيهم هو دافع الجاه. و كانوا قد عبروا عنه صراحة { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } { ٨ } اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } { ٩ } (٣٥٠) فهم إنما يريدون الوجاهة عند أبيهم. و قد أحس يعقوب بذلك إذ قال لهم: { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا } . و لقد استنتجت الآية من النفس الأمانة بالسوء { مَا رَجِمَ رَبِّي } (٣٥١) و هم الذين وفقهم الله تعالى إلى التحكم في دوافعهم، و في ذلك إشارة إلى يوسف و من نحى نحوه و سار على طريقه من المؤمنين.

و ليصل المؤمن إلى التحكم في دوافع نفسه الأمانة بالسوء فلا بد من الاستعانة بالله، قال تعالى: { وَ إِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } { ٣٣ } فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } { ٣٤ } (٣٥٢)

(٣٤٧) النظام النيسابوري الحسن بن محمد بن الحسين القمي نظام الدين النيسابوري الأعرج (المتوفى : ٨٥٠هـ)، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م، ج: ٥، ص: ٢٧١.

(٣٤٨) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

(٣٤٩) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٣٥٠) سورة يوسف، الآية: ٨-٩.

(٣٥١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣٥٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣ - ٣٤.

فهذا نداء الإنسان المؤمن إلى ربه سبحانه ليخلصه من أهواء نفسه مع أنه نبي من عباد الله المخلصين. فما أدراك بسائر الناس فهم أحوج إلى هذا الدعاء. فالفتن كثيرة و متتابعة، و إذا حاول الإنسان أن يجاهدها وحده فقد ينجح يوماً و يسقط في الاختبار يوماً آخر، و لا يعينه في مواجهة أمواج السوء العاتية إلا الله سبحانه و تعالى. و هو سميع الدعاء: {يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ} (٣٥٣).

و هكذا نجد أن آية سورة يوسف هي آية محورية في جميع السورة، ففي قصة يوسف ٧ شخصيات عدة محيطة بيوسف ٧ تعاني من تسلط النفس الأمارة بالسوء، سواء إخوته العشرة المتأمرين، أو بعد ذلك الذين وجدوه في الجب و باعوه، ثم امرأة العزيز، ثم نسوة المدينة، ثم هذا الذي نساها في السجن و لم يردّ الجميل و لم يتذكره إلا بعد أمة... و جاءت هذه الآية الكريمة في وسط السورة (الآية: ٥٣ في السورة المشتملة على ١١١ آية) لتكون واسطة العقد و لتلخص واقع العامة من الناس في المجتمع المحيط بالإنسان المؤمن. و ما يعانيه بعد ذلك من المصاعب بسبب هؤلاء المستسلمين لنفوسهم الأمارة بالسوء.

النفس اللوامة

قال تعالى: { لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ { ١ } وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ { ٢ }
سورة القيامة

هذه حالة أخرى من حالات النفس الإنسانية، و هي حالة النفس التي تلوم صاحبها على ما فعل أو ترك. و هي خاصة بالإنسان، فالملائكة لا تلوم نفسها لأنهم { لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } { ٦ } (٣٥٤) و الشياطين لا تلوم نفسها لأنهم مصررون على أفعالهم. أما ابن آدم فيلوم نفسه على كل حال، سواء كان مؤمناً أو فاجراً، فقد ركب الله في فطرة الإنسان من لدن آدم ٧ ضميراً يتحرك داخله يسأله عن كل فعل فعله، لم فعله؟ و يسأله عن كل أمر تركه، لم تركه؟ فمن الناس من يستجيب لهذا الضمير، فيصح أفعاله و يقومها و منهم من يحاول طمس هذا الضمير، فيصر على أفعاله مهما كان سوؤها. و لذلك فقد ورد " في النفس اللوامة ثلاثة أقوال:

(٣٥٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٣٥٤) سورة التحريم، الآية: ٦.

أحدها أنها المذمومة قاله ابن عباس فعلى هذا هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم.

والثاني أنها النفس المؤمنة قاله الحسن قال لا يرى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال.

والثالث أنها جميع النفوس قال الفراء ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيرا قال هلا زدت و إن كانت عملت سوءا قال لييتني لم أفعل." (٣٥٥) و هذا كقوله تعالى: { أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ } { ٥٦ } (٣٥٦)

و قد قرن سبحانه بين القسم بالنفس اللوامة و بين القسم بيوم القيامة، و الأمران متلازمان، فلو لم يكن هناك شيء اسمه يوم القيامة لكان الضمير الإنساني في نفس الإنسان عبثا.

فلماذا يلوم الإنسان نفسه إذا لم يكن هناك يوم يحاسب فيه على أفعاله؟ فكأن هذا الضمير دليل على وقوع يوم القيامة. و هو جزء من الفطرة التي فطر الناس عليها يوم أخذ عليهم العهد و هم في عالم الذر.

و " هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحس من القسم المباشر؛ و هذا الوقع هو المقصود من العبارة، و هو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن." (٣٥٧)

فكأنه - سبحانه - يقول: لست بحاجة لأن أقسم بيوم القيامة، و لا بالنفس اللوامة. فهما متلازمان و العلاقة بينهما جدلية، فالنفس اللوامة تدل على القيامة، و في يوم القيامة تلومكم هذه النفس اللوامة على أنكم لم تستعدوا لهذا اليوم.

فكم جادل الإنسان حول البعث و النشور متناسيا قدرة الله على كل شيء بل على أن يسوي بنانه.

و من أسوأ طرق التكذيب بيوم القيامة السؤال التهكمي الذي يطرحه بعض الناس: متى يوم القيامة؟

و كأن الخالق قد خلقه لغير حكمة، و كأن الخالق قد خلقه عبثا! و كأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، و يترك ما يشاء، ثم لا يحاسب بعد ذلك على كل ذلك

(٣٥٥) ابن الجوزي جمال الدين عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، ج: ٨، ص: ٤١٦.
(٣٥٦) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٣٥٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢٩، ص: ٣٧٦٨.

لكن الخالق العليم الحكيم لا يترك شيء سدى، و هذه النفس اللوامة في فطرة الإنسان تدله على أن هناك حسابا تستعد له الفطرة، و لا ينتبه إليه الإنسان الغافل عن حقيقة تركيبه.

و هذا الضمير الإنساني هو الذي تحرك في نفس آدم U و زوجته، فراحا يلومان نفسيهما لما خاطبهما الله تعالى قائلا: { أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } { ٢٢ }^(٣٥٨) فكان جوابهما: { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { ٢٣ }^(٣٥٩)

فالذي دفعهما للاعتراف بالذنب هو هذه النفس اللوامة، و هذا الضمير الإنساني المركوز في فطرتهما، الذي يتحرك في باطن الإنسان مباشرة بعد أن يدرك خطأه. و هذا كما قلنا من قبل هو الفارق بين الشيطان و الإنسان. فالشيطان لما سئل: { مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } تبحج و عاند و لم يشعر بذنبه و لن يندم على عصيانه و لم يلم نفسه بشيء، و إنما { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } { ١٢ }. و حتى بعد أن عاقبه الله تعالى و بيّن له عظم جرمه و قال له: { فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } { ١٣ } و بقيت له آخر فرصة لمخاطبة الله تعالى قبل تنفيذ الحكم و الطرد من الملا الأعلى، كان يمكن له أن يستغل هذه الفرصة لطلب المغفرة من الله تعالى، لكنه لم يفعل بل طلب شيئا آخر غريبا: { قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ } { ١٤ } و استجيب له طلبه { قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ } { ١٥ }. و هذه الاستجابة لهذا الطلب الغريب دليل على أنه لو طلب المغفرة لاستجيبت له بإذن الله، فهي أولى بالاستجابة من هذا الطلب. فماذا كان رده؟ و ما سر هذا الطلب العجيب؟ هل ليستغل هذه المدة و هذا الإنظار في التكفير عن ذنبه مثلا؟ لا، بل { قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } { ١٦ } ثُمَّ لَأَتَّبِعَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَأَتَّجِدَنَّ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } { ١٧ }^(٣٦٠) إنه الإصرار على الذنب، بل و التمادي فيه، و عدم الشعور بالمسؤولية، و أسوأ من ذلك محاولة إلقاء اللوم على الله تعالى. فهذا فرق ما بين الإنسان صاحب النفس اللوامة و بين الشيطان المصر على ذنبه.

و بعد نجد في كتاب الله { نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } { ٢٧ } لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } { ٢٨ } إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَ

^(٣٥٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

^(٣٥٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

^(٣٦٠) سورة الأعراف، الآية: ١٦ - ١٧.

ذَلِكَ جَزَاءَ الظَّالِمِينَ { ٢٩ } فهذا الذي تقبل منه القربان بقيت نفسه اللوامة تذكره بأن له ذنوبا و آثاما لا بد له أن يتخلص منها، و لم يقل: قد تقبل مني القربان فلأفعل بعد ذلك ما أشاء.

أما الثاني الذي { طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ { ٣٠ } فقد { بَعَثَ اللَّهُ عُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا العُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } { ٣١ }^(٣٦١) فبعد أن ارتكب جرمه هاهي النفس اللوامة تتحرك بداخله، و هاهو ذا يصيح بالويل على نفسه، كيف عجز أن { يُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِيهِ } { فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ }.

و لعل هذا الضمير الذي يتحرك في باطن الإنسان هو جانب مما يعلمه الله و لا تعلمه الملائكة، حين { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } { ٣٠ }^(٣٦٢)

صحيح أن للإنسان عيوباً، و أنه قد يصل إلى درجة الفساد في الأرض و سفك الدماء، لكن ميزته التي علمها الله و لم تعلمها الملائكة أن في الإنسان نفساً لوامة تتحرك بداخله تسأله عما فعل أو ترك، و أن كثيراً من البشر يستمعون إلى هذا الضمير و ينصتون إليه و يصححون أخطاءهم و يتوبون إلى بارئهم.

^(٣٦١) سورة المائدة، الآية: ٣٠ - ٣١.

^(٣٦٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

النفس المطمئنة

قال تعالى: { فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَرُكُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا } سورة النساء { ١٠٣ }

و قال سبحانه: { قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ نَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } سورة المائدة
و قال جل جلاله: { وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِنَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبِكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } سورة الأنفال
و قال عز من قائل: { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمِئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } { ١٠٦ } ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } سورة النحل { ١٠٧ }
و قال عز وجل: { وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } { ١١٢ }

سورة النحل

و قال كذلك: { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } سورة الإسراء { ٩٥ }
كما قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ { ٢٧ } ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً } { ٢٨ } فَادْخُلِي فِي عِبَادِي { ٢٩ } وَ ادْخُلِي جَنَّتِي { ٣٠ } سورة الفجر

هذه هي الحالة الثالثة الرئيسية من حالات النفس الإنسانية، و هي حالة النفس التي بلغت الغاية، و وصلت إلى الهدف.

و لقد استبعد القرآن أولاً أشكالاً خاطئة من الاطمئنان، و هي أشكال الاطمئنان إلى الدنيا بغير شكر لله تعالى، قال سبحانه: { وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَّاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } { ١١٢ }. فاطمئنان هؤلاء إنما كان لهذا الرزق الرغد الذي يأتيهم رغداً من كل مكان، دون أن يشكروا الله عليه بل هم به يكفرون و يجحدون، فكما دخلوا هذه النعم و هم لا يشكرون فكذلك سيخرجون منها و هم لا يشعرون. و كما ذاقوا لذة النعمة دون أن يؤدوا حقها، فكذلك سيذوقون طعم الجوع و الخوف الذي سيلابسهم بعد ذلك و يكون ملازماً لهم كملازمة اللباس للإنسان.

و كذلك من الاطمئنان المغشوش هذا الاطمئنان بالحق الذي يأتي بالنعم فقط، قال تعالى: { قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ نَطْمِئَنَ فُلُؤُبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } { ١١٣ }، فمع كل المعجزات التي أتاهم بها المسيح عيسى بن مريم ؑ إلا أن قلوبهم لم تطمئن لها، فلا تطمئن قلوبهم حتى يأكلوا من ثمرات هذا الحق الذي يزعمون إتباعه. لكن الإتباع الصحيح هو الذي يكون لمجرد أن الحق حق فقط بغض النظر عن نتائجه و ثمراته.

و كذلك هذا الاطمئنان الذي يسقط أمام أول امتحان له قال تعالى: { وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } { ١١ }
ثم نجد القرآن الكريم يتحدث عن صفة الاطمئنان النفسي الصحيح. و أول ما نلاحظه هو أنه لم يطلق هذه الصفة على النفس إلا لما ولصت إلى باب الجنة، و قيل لها: { فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي } { ٢٩ } و ادْخُلِي جَنَّتِي } { ٣٠ } و ما ذلك إلا تحذير للسالكين في درب التزكية من الوقوع في الغرور، و هو أخطر ما قد تتعرض له النفس الإنسانية من الأمراض، فيقع بصاحبه عن كل خطوة جديدة إلى الأمام، بل و يؤدي به إلى التكبر على الخلق، كما حدث بالنسبة لإبليس الذي اغتر فاستكبر فرفض طاعة أمر ربه بالسجود لآدم.

و كما هي عادة القرآن في تناسقه في رسم الصورة، فقد جاء الحديث عن النفس المطمئنة في سياق الحديث عن النفس المضطربة التي لا تثبت على حال في نظرتها إلى الله تعالى، و تجعل ذلك مرتبطاً بالرزق سعة و تقديراً، فإذا وسع الله عليها، فالله قد أكرمها و إذا قَدَّرَ عليها رزقه فالله قد أهانها. و لكن الله لا يكرم و لا يهين بحطام الدنيا. فناسب الحديث بعد ذلك عن النفس المطمئنة إلى الله تعالى.

وقد جاء الحديث عن النفس المطمئنة " في عطف و قرب : " يا أيتها " و في روحانية و تكريم : " يا أيتها النفس " . . و في ثناء و تطمين . . " يا أيتها النفس المطمئنة " . . و في وسط الشد و الوثاق ، الانطلاق و الرخاء : " . .

ارجعي إلى ربك " ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد .
ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة . . " راضية مرضية "
بهذه الندوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف و الرضى . . " فادخلي في
عبادي " . . المقربين المختارين لينالوا هذه القربى . . " وادخلي جنتي " . . في
كنفي ورحمتي . .

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ الذداء الأول : " يا أيها النفس
المطمئنة " . . المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله
بها . المطمئنة في السراء و الضراء ، و في البسط و القبض ، و في المنع و
العطاء . المطمئنة فلا ترتاب و المطمئنة فلا تتحرف . و المطمئنة فلا
تتلجح في الطريق . و المطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب . .

ثم تمضي الآيات تباعاً تغمر الجو كله بالأمن و الرضى و الطمأنينة ، و
الموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود و القربى و السكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية، تطل من خلال هذه الآيات . و تتجلى
عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية . . " (٣٦٣)

و الاطمئنان في الأصل صفة ملائكية، قال تعالى: { قُلْ لَوْ كَانَ فِي
الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } {٩٥}
فالملائكة كائنات مجردة عن الحاجات المادية، فهم ليسوا في حاجة إلى طعام
أو شراب، و ليسوا في حاجة للدخول إلى الأسواق و ممارسة التجارة و
سائر المعاملات الاقتصادية لتحصيل الرزق، و لا يخافون على أرواحهم
أن تزهق و لا على مصيرهم أين سيكون... و كل هذا يجعلهم بعيدين عن
القلق، يعيشون مطمئنين على حياتهم. فإذا وصل الإنسان إلى درجة
الاطمئنان التام فقد وصل إلى درجة الملائكة، و لذلك لا نستغرب حديث
حَنْظَلَةَ الْأَسِيدِيِّ - وَ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "
لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ
اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يُذَكِّرُنَا
بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ. فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ:
قَوْلَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ. يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «وَمَا
ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ نُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ. حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ

عَيْنٍ. فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ. نَسِينَا
كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ
عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي
طُرُقِكُمْ. وَ لَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ وَ سَاعَةٌ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^{٣٦٤}.

و قوله ρ : (و في الذكر) يعطينا وسيلة من أهم وسائل الوصول إلى
الاطمئنان اليوم و قد غاب عنا الحبيب المحبوب ρ و هذه الوسيلة هي الذكر.
قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ
الْقُلُوبُ } { ٢٨ }^(٣٦٥) فالذكر الحي المنطلق من القلب و المشوب بالتأمل في
صفات الله المتجلية على خلقه كفيل بأن يرفع صاحبه إلى مراتب عليا في
الاطمئنان.

و الإيمان هو أساس هذا الاطمئنان قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ } فمن لم يصل إلى الإيمان فلا ينفعه ذكر.
و من جزاء الاطمئنان و فضله أن من وصل إليه فلا يحاسب بعده
على الخطأ و النسيان و خصوصا على ما استكره عليه، قال سبحانه: { مَنْ
كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ
بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } { ١٠٦ }، و قال صلى
الله عليه و سلم: ((إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا
عليه))^(٣٦٦)

الباب الثاني

^(٣٦٤) وواه مسلم في الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، باب فضل دَوَامِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ.

^(٣٦٥) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

^(٣٦٦) رواه أبو عبد الله الحاكم في المستدرک على الصحيحين، كتاب الطلاق وقال: هذا حديث صحيح على شرط
الشيخين و لم يخرجاه.

الفصل الثالث

أمراض النفس الإنسانية في تعابير القرآن الكريم

*- مفهوم المرض النفسي في القرآن الكريم

- ١- الغرور و العجب
- ٢- الكبر
- ٣- حب الرياسة
- ٤- السخرية و الاستهزاء
- ٥- الفرح
- ٦- الحسد
- ٧- الرياء
- ٨- الغضب
- ٩- القلق
- ١٠- الاكتئاب
- ١١- الظن
- ١٢- اليأس
- ١٣- البخل

في هذا الفصل سنتناول - بعون الله - بعض الأمراض و الآفات النفسية التي ذكرها القرآن الكريم و تناولها بالذكر و الوصف و التحليل و التمثيل، و نحاول أن نتتبع تعابير القرآن الكريم عنها. و نبدأ فنؤكد على لفظ "الأمراض النفسية"، و ليس "الأمراض الروحية" كما هو شائع لدى عامة الناس. فالروح كما سبق و ذكرنا في الباب الأول هي ما به حياة الإنسان، و هي مشرفة من الله تعالى، فقد نسبها إليه إذ قال سبحانه: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } {٢٩} (٣٦٧)، إذا فهي لا تصيبها الآفات و لا الأمراض. و إنما يصاب الجسد، و تصاب النفس المتعلقة به. فكيف تحدث القرآن الكريم عن أمراض النفوس، و ما هي التعابير التي استعملها حين حديثه عنها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل بإذن الله.

مفهوم المرض النفسي في القرآن الكريم

لقد حذر القرآن الكريم من أمراض النفوس و القلوب في كثير من الآيات، منها قوله سبحانه: { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } { ١٠ }^(٣٦٨)

فهذه الآية هي أول ما يطالعنا القرآن الكريم بحديثه عن أمراض النفس الإنسانية، فيبدأ بأخطرها و هو مرض النفاق الذي يصيب باطن القلوب. فقال عن المنافقين { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } بحرف " في " الذي يفيد الظرفية. فلم يقل أن " قلوبهم مريضة " و لكن جعل المرض مستقرا في باطن قلوبهم، فهو ليس مرضا سطحيًا ظاهرا للعيان يمكن اكتشافه و بالتالي المسارعة إلى علاجه، لكنه مرض خبيث متمكن من صاحبه لا يعلم به الأطباء حتى يهلك المريض.

و المرض في حاجة إلى المسارعة إلى علاجه و إلا استفحل و تطور إلى أمراض أخرى ربما أخطر منه. " فالمرض ينشئ المرض ، والانحراف يبدأ يسيرا ، ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد . سنة لا تتخاف . سنة الله في الأشياء والأوضاع ، وفي المشاعر والسلوك ."^(٣٦٩)

و غالبا ما يتجلى المرض النفسي في الحالات الحرجة التي يمكن أن يمر بها الإنسان. و منها حالات توجس المستقبل و توقعه، فترى المريض النفسي دائما يتوقع أسوأ الاحتمالات، و يبني عليها مواقفها المصديرية، دون مراعاة للمبادئ و الأخلاق، و دون مراعاة الآخرين. { فَتَدْرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ

^(٣٦٨) سورة البقرة، الآية: ١٠.
^(٣٦٩) سيد قطب، الظلال ، ج: ١، ص: ٤٣.

يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَفُولُونَ نَخَشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مَنْ عِنْدَهُ فَيُصِيبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ { ٥٢ } (٣٧٠)

و أخطر ما في المرض، هو أن لا يحس به صاحبه، و أخطر منه أن يرى
المريض نفسه صحيحا و يتخيل الأصحاء مرضى { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
{ ٤٩ } (٣٧١)

و مثل هؤلاء المرضى الذين يتمسكون بأمراضهم و يرفضون الشفاء منها،
لا حاجة لمراعاتهم و لا للحزن عليهم، فما داموا قد تولوا الشيطان فليتحملوا
نتائج سوء اختيارهم و انقيادهم بأمانهم لما يلقيه الشيطان في أنفسهم { لِيَجْعَلَ مَا
يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ { ٥٣ } (٣٧٢)

و من مظاهر المرض النفسي التقلب و عدم الاستقرار، و التناقض بين
الأقوال و الأفعال، قال تعالى: { وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى
فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ { ٤٧ } وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ
رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ { ٤٨ } وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا
إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ { ٥٠ } (٣٧٣) فمرة يزعمون الإيمان و الطاعة،
و مرة يعرضون عن حكم الله و رسوله، و مرة يقبلون عليه، فكل هذا التقلب
مهما كان سببه فهو يدل على المرض النفسي و عدم الاتزان.

و غالبا ما يستثمر المرضى أوضاعا استثنائية ليعمموها على جميع
الحالات الأخرى ليلبسوا على أنفسهم و على الناس. و ليقنعوا الجميع بأنهم على
صواب، و كأنهم ما علموا أن الشاذ يحفظ و لا يقاس عليه { وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا { ١٢ } (٣٧٤) فهؤلاء
المنافقين جعلوا من الوضع الحرج في غزوة الأحزاب دليلا لهم على أن وعد
الله و رسوله للمؤمنين بالنصر إنما هو غرور. و ما علموا أن هذه سحابة صيف
تمر أمامهم إلى أن يأتي وعد الله.

و من أشد أشكال المرض النفسي مرض الطمع فيما لا يمكن نيله،
قال تعالى: { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا { ٣٢ } (٣٧٥) فالطمع في نساء

(٣٧٠) سورة المائدة، الآية: ٥٢.

(٣٧١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

(٣٧٢) سورة الحج، الآية: ٥٣.

(٣٧٣) سورة النور، الآية: ٥٠.

(٣٧٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(٣٧٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

النبي p مستحيل التحقق أبداً، فمن يطمع في مثل هذا الأمر المستحيل هو مريض حقاً.

و المريض النفسي في حاجة إلى حزم و عزم في معاملته و إلا ظن نفسه على صواب و لم يشك في مرضه، و بالتالي يمتد ضرره ليطال من حوله، قال تعالى: {لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُغْرِيَنَّهُمْ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} {٦٠} ^(٣٧٦) فقد يتطلب الأمر عزلهم عن المجتمع لدرء ضررهم عنه.

و للمرض النفسي تجليات عجيبة على وجه أصحابه يدركها الناظر إليهم حين يكونون في وضع حرج يخرج ما في باطنهم، قال تعالى: {وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ} {٢٠} طاعة و قولٌ معروفٌ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم} {٢١} ^(٣٧٧) و في قوله سبحانه: {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} " تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . و الضعف إلى حد الرعدة . و التخاذل إلى حد الغشبية ! و يبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال و الحركة التي تشغف الخيال ! و هي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان و لا بفطرة صادقة، و لا بحياء تتجمل به أمام الخطر. و هي هي طبيعة المرض و النفاق !

فهذا التجلي للمرض النفسي على وجوه هؤلاء يخرج رغما عنهم فهم يعملون على ستره بكل الوسائل، لكن الله يتولى فضحهم أمام الناس، قال تعالى: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ} {٢٩} و لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} {٣٠} ^(٣٧٨)

و من مظاهر المرض النفسي قلة الفهم ؟ فهم لا يدركون حقيقة الغيب و .. لا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق . ولا يطمنون إلى صدق الخبر و الخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . . " ^(٣٧٩) قال تعالى: {وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَ لَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ

^(٣٧٦) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

^(٣٧٧) سورة محمد، الآية: ٢١.

^(٣٧٨) سورة محمد، الآية: ٣٠.

^(٣٧٩) سيد قطب، الظلال، ص: ٣٧٥٩.

اللَّهُ بِهِدَاً مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ { ٣١ } (٣٨٠)

فهذه بعض الخصائص العامة للمرض النفسي في نظر القرآن الكريم، و فيما يلي سنتطرق إلى بعض هذه الأمراض كل على حدى محاولين تلمس طرق القرآن الكريم في التعبير عنها.

١ - الغرور و العُجب

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَ اخْتَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَ لَأَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ { ٣٣ } سورة لقمان

و قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ { ٥ } إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ { ٦ } سورة فاطر

كما قال عز و جل: { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ { ١٤ } سورة الحديد

و قال كذلك: { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورُ { ٢٠ } سورة الحديد

لعل داء العجب و الغرور أخطر داء يمكن أن تصاب به النفس الإنسانية، و لذلك فقد أشار إليه القرآن الكريم مرارا عن طريق تكرار الحديث عن قصة آدم مع إبليس، و كيف أعجب إبليس بنفسه و اغتر بأصله فعصى ربه و استكبر حين أمره بالسجود لآدم، فقال العلماء و المفسرون تعليقا على ذلك أن الغرور و العجب هو أول معصية ارتكبت تحدث عنها القرآن الكريم. قال تعالى: { وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (٣٨١)

(٣٨٠) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٣٨١) سورة البقرة، آ: ٣٤.

و قال كذلك: { وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ } { ١١ } قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ { ١٢ } { ٣٨٢ } و قال سبحانه: { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } { ٣٢ } قَالَ لَمْ أَكُن لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ { ٣٣ } قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ { ٣٤ } وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ { ٣٥ } { ٣٨٣ }

و لذلك فقد سمي القرآن الكريم إبليس بالغرور إذ قال تعالى: { وَ لَمَّا يَغْرِتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ } و لعله - سبحانه - استعمل له لفظة " غرور " و ليس "مغرور" لأن مغرور على وزن "مفعول" و غرور إبليس ليس خارجا عنه و لا مفروضا عليه و لم يغيره أحد بل الغرور فعل صادر عن نفسه، فلا يليق له اسم المفعول، كما أن في " غرور " على وزن "فعلول" فيها مبالغة و استمرار و إصرار مثل "جموح" و "قتور" و كذلك صفة الغرور في إبليس فهو مبالغ في الغرور بنفسه مصر عليه. و الغرور " هو أن يرى [الشخص] في نفسه فضيلة تحصل بها للنفس هزة، و فرح. و لا يشترط فيه رؤية الغير، بل لو لم يوجد أحد غيره يمكن أن يحصل له العجب، بخلاف الكبر: فإنه رؤية النفس أنها أفضل من غيرها." { ٣٨٤ }

و للغرور أنواع، فمنها:

١- الغرور بالدنيا: فهي تنسي الإنسان أصله و مصيره و هدفه، و تستدرج الإنسان حتى يطمئن إليها و يظن أنه تمكن منها، هناك تتخلى عنه. و لذلك ورد في الآية: { قُلْنَا تَعَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } فقد نهى سبحانه - هنا - عن الغرور بـ " لا " الناهية و عزز النهي بنون التوكيد المثقلة. و ما ذلك إلا لخطورة هذا الداء، و خصوصا هذا الصنف منه و المتمثل في الغرور بالدنيا. و تأكيدا على خطورة الغرور بالدنيا فقد ضرب الله لها الأمثال في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله: { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَ

{ ٣٨٢ } سورة الأعراف، الآية: ١٢.

{ ٣٨٣ } سورة الحجر، الآية: ٣٢ - ٣٥.

{ ٣٨٤ } الفتوحى صديق بن حسن، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: /، ١٩٧٨. ج ٢، ص: ٨٥.

رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ }^{٣٨٥} فما في الدنيا من لعب و لهو و زينة و تفاخر بين الناس و سعي للإكثار من الأموال و الأولاد ينسي الإنسان حقيقته و ينسيه أصله و مصيره.

و قد عبر بلفظة "لعب"، لينسبها إلى فعل الأطفال، فمن عرف الدنيا حق المعرفة و استعمل عقله في النظر إليها لم تغره.

و هي "لهو" تلهي صاحبها عن التفكير في الآخرة، و هذا كقوله تعالى: { أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ } { ١ } حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } { ٢ }^(٣٨٦)

و هي "زينة" فهي خداعة تخفي وراء زينتها البشاعة، و جعلها سبحانه "زينة" و ليس فقط متزينة، على اعتبار ذكر الجزء و إرادة الكل، فزينتها جزء منها. أو قد يكون التعبير على أنها زينة يترزين بها الناس.

و هي "تفاخر" بما لا فخر فيه و هي تكاثر و جمع لما لا حاجة إلى تكديسه و كنزه من المال، و إكثار لما لا ينفع في الآخرة من الأولاد. و قد شبهها الله و مثل لها بالغيث و ذلك لشدة فرح الناس بها كما يفرحون بالغيث بعد القنوط، و زيادة على ذلك فقد أنتج هذا الغيث نباتا أعجب به الكفار، و لعل المقصود بهم الزراعة إذا راعينا السياق القريب و هو سياق المثل الذي يتحدث عن الماء و الزرع، و الزراعة هم الأعم بالزرع. أما السياق الأوسع و هو لحديث عن الدنيا فإنه يجعلنا نأخذ بظاهر اللفظ فنقول أن المقصود بالكفار هنا هم الذين يكفرون بالله لأنهم الأجدد للنعمة. لكن هذا النبات لم يلبث إلا أن اضمحل و اصفر و أصبح هشيمًا تذروه الرياح. فلا قرار للدنيا و لا استقرار لها و كل شيء فيها إلى كدر! فلا يغتر بها إلا مغرور.

٢- الغرور بالانتماء و الأصل: كغرور بني إسرائيل، فهؤلاء إنما وقعوا فيما وقعوا فيه و يقعون فيه من الآثام و الكبائر، إلا بغرورهم بأصلهم و انتمائهم إلى ما يسمونه: "شعب الله المختار" فقد زعموا بأنهم { أبناء الله و أحبَّاءُهُ }^(٣٨٧) فهم - بزعمهم - ليسوا "أبناء الله" فقط، بل زادوا عليها أنهم "أحبَّاءُهُ"، تأكيداً لهذه الأفضلية المزعومة. إذ يمكن لكل بشر أن يزعم أنه من عيال الله تعالى، لذلك زادوا عليها أنهم المفضلون منهم عند الله تعالى.

و لذلك لا يمكننا فهم سلوكياتهم الشاذة فوق الأرض من قتل و تشريد و أهلاك للحرث و النسل دون أي شعور بالذنب إلا إذا علمنا هذا الزعم منهم. و لذلك فهم يرون أن الإساءة لسائر البشر حلٌّ لهم { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ }^(٣٨٨) { ٧٥ }

^(٣٨٥) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

^(٣٨٦) سورة التكاثر، الآية: ١، ٢.

^(٣٨٧) سورة المائدة، الآية: ١٨.

^(٣٨٨) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

و لعل هذا الغرور هو من جنس غرور إبليس من قبل إذ قال: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} {١٢} (٣٨٩)

٣ - الغرور بالعبادة و العمل الصالح: و هذا غرور النصارى خصوصا، و من سار على نهجهم من عبّاد المسلمين، و لذلك روي عن "سفيان بن عيينة: كانوا يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود و من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى" (٣٩٠)

٤ - الغرور بالعلم: فمن المغرورين " العلماء الذين أحكموا العلوم الشرعية، و العقلية، و تعمقوا فيها، و أهملوا محافظة الجوارح عن المعاصي، و إلزامها الأعمال الصالحة؛ و هم مغرورون: لأن العلم إذا لم يقارنه العمل لا يكون له مكان عند الله تعالى، و عند الخواص من عباده. و منهم: الذين أحكموا العلم، و العمل، و أهملوا تزكية نفوسهم عن الأخلاق الذميمة؛ و هم مغرورون أيضاً، إذ لا ينجو في الآخرة إلا من أتى الله بقلب سليم.

و منهم: الذين اعترفوا بأن النجاة في الآخرة إنما هي بتزكية النفس عن الأخلاق الذميمة، إلا أنهم يزعمون أنهم منفكون عنها؛ و هؤلاء مغرورون أيضاً، لأن هذا من العجب، و العجب من أشد الصفات المهلكات. " (٣٩١)

" و من آفاته: أنه ينسى ذنوبه، و يظن أنه استغنى عن تفقدها، و يستصغرها، و لا يتداركها، و ربما يظن أنها تغفر له. و منها: أنه يستعظم عباداته، و يمتن بها على الله - سبحانه و تعالى -، و يغتر بنفسه، و ربه، و يأمن مكر الله، و يظن أنه عند الله بمكان، و يخرج العجب إلى أن يحمد نفسه، و يثني عليها، و يزكيها برأيه، و إن كان خطأ، و يستتكف عن سؤال من هو أعلم منه. " (٣٩٢)

علاج الغرور: بعد أن عرفنا خطورة هذا الداء، و أهم أسبابه، فإنه يجدر بنا أن نعرف كيف عالجه القرآن الكريم. و قد كان ذلك كما يلي:

معرفة الأصل و المصير و الهدف فمن عرف أن أصله ميت، ثم مصيره إلى الموت ككل المخلوقات، فما بقي له غرور يغتر به، قال تعالى: {كَيْفَ

(٣٨٩) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٣٩٠) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، الفتاوى الكبرى تحقيق: حسين محمد مخلوف دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، ج: ٥، ص: ٣٣٣.

(٣٩١) القنوجي، أبجد العلوم، ج: ٢، ص: ٨٥.
(٣٩٢) المصدر نفسه، ج: ٢، ص: ٨٦.

تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {٢٨} (٣٩٣). و إذا علم المرء أن مصيره هو إما إلى جنة أو إلى نار، علم أن الحياة الدنيا إنما هي متاع الغرور حقا. : إذ يقول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {١٨٥} (٣٩٤)

"ولفظ" زحرح" بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقي ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل في مجالها ! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحرح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ، ويدخل الجنة . . فقد فاز . .

صورة قوية . بل مشهد حي . فيه حركة وشد وجذب ! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته . فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! و هذه هي زحزحتها عن النار ! أليس الإنسان - حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة - يظل أبدا مقصرا في العمل . . إلا أن يدركه فضل الله ؟ بلى ! وهذه هي الزحزحة عن النار ؛ حين يدرك الإنسان فضل الله ، فيزحزحه عن النار ! { و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } . .

إنها متاع . ولكنه ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو واليقظة . . إنها متاع الغرور . المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعا . أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع ! فأما المتاع الحق . المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله . . فهو ذاك . . هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار . وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس . عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة - إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال - وأخرجت من حسابها حكاية متاع الغرور الزائل . . عندئذ" (٣٩٥) يفيق الإنسان إلى قدر نفسه و الحياة التي يعيشها لحظات ثم تنقضي.

خشية اليوم الآخر: و من أدرك أنه محاسب على كل أعماله

صغيرها و كبيرها

تقوى الله: فمن اجتهد في تقوى الله تعالى فإنه يوفق إلى دفع طائف الشيطان الذي ينفخ في نفس الإنسان، قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } {٢٠١}

(٣٩٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٣٩٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣٩٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٥٣٩.

التواضع: و هو عكس التكبر فالمتكبر مغرور في أصله فمن تواضع لغيره فقد قمع جنوح الغرور في نفسه، و قد أكد القرآن الكريم على هذه الصفة في قوله تعالى في وصف الرعيل الأول: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (٣٩٦) فالرحمة هي منبع التواضع و مادته التي لا تجتمع مع الغرور في قلب واحد.
و من أسوأ نتائج آفة الغرور: الكبر و هو ما سنتناوله فيما يلي.

٢ - الكبر

قال تعالى: {قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} {١٢} قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} {١٣} سورة الأعراف
و قال سبحانه: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَنْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} {٧٥} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} {٧٦} سورة الأعراف
و قال عز وجل: {وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمُ الْإِنبَاءُ لَا يُرْجَعُونَ} {٣٩} سورة القصص
و قال جل جلاله: {وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا} {٤٢} اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَئِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} {٤٣} سورة فاطر
و قال عز من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {٥٦} سورة غافر

لعل داء الكبر يأتي في المرتبة الثانية بعد الغرور، سواء من حيث الخطورة، أو من حيث ترتيب الوقوع، فالكبر نتيجة من نتائج الغرور. "و هو أن يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال فيحصل في قلبه اغترار، و هزة، و فرح." (٣٩٧)

و الكبرياء من خصائص الذات الإلهية، و من يستكبر فهو يريد أن يتصف بما هو ليس من صفاته، فهو يفتعله افتعالاً و لذلك يعبر عنه في أكثر الأحيان بـ "التكبر" بزيادة التاء، و "الاستكبار" بزيادة الألف و السين و التاء للمبالغة و الافتعال. و ذلك على وزن الاستخراج و الاسترزاق .. و لذلك قال تعالى: {إِن فِي صُدُورِهِمْ إِيَّاهُ كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ} فهم يخالون أنفسهم ذوي مرتبة عالية و يجهدون أنفسهم للوصول إليها في الواقع، لكنهم لا يصلون إلى مرادهم و لا يبلغونه.

أنواع التكبر: للتكبر أنواع و مراتب و منها:

التكبر على الله تعالى: و العياذ بالله من ذلك كتكبر إبليس على الله لما أمره بالسجود لآدم، و لذلك لما عاقبه الله تعالى قال له: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} {١٣} و كذلك فرعون، و نمرود الذين تكبرا على الله بادعائهما الألوهية. فأما أحدهما فقال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} {٢٤} (٣٩٨) و أما الآخر فقال: {قَالَ أَنَا أَحْيِي وَ أُمِيتُ} (٣٩٩)

التكبر على الرسل و الأنبياء: بأن لا يطيعهم، كتكبر أبي جهل، و أبي بن خلف على الرسول p .

التكبر على الخلق: و هذا و إن كان دون الأولين إلا أنه داء عظيم، لشدة انتشاره بين الناس. و لهذا ذمه الله تعالى، و رسوله. و الكتاب و السنة مشحونان من ذمه، و مدح التواضع.

أسبابه الظاهرة:

من أسبابه الظاهرة للعيان

- التكبر بالأصل و الحسب و النسب: و مثاله تكبر إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم. قال تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} {١٢} فقد اعتبر أصله الناري مانعاً له من السجود لآدم ذي الأصل الطيني.

و قوله تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ} قال أهل النحو: "أي من أن تسجد." و "لا" زائدة. وفي ص "ما منعك أن تسجد" قال الشاعر:

(٣٩٧) القنوجي صديق بن حسن، أجد العلوم، ج: ٢، ص: ٨٨.

(٣٩٨) سورة النازعات الآية: ٢٤.

(٣٩٩) سورة البقرة الآية: ٢٥٨.

أبى جوده لا البخلَ فاستعجلت به نعم من فتى لا يمنع الجود نائله
أراد أبى جوده البخل، فزاد "لا". و قيل: ليست بزائدة؛ فان المنع فيه
طرف من القول و الدعاء، فكأنه قال: من قال لك ألا تسجد؟ أو من دعاك إلى ألا
تسجد؟ كما تقول: قد قلت لك ألا تفعل كذا. و قيل: في الكلام حذف، و التقدير: ما
منعك من الطاعة و أحوجك إلى ألا تسجد. " (٤٠٠)

فعل "لا" هنا لتأكيد استنكار عدم السجود. أي ما منعك من الطاعة، و ما
دفعك لأن لا تسجد؟ و هذا أبلغ في الاستفهام الإنكاري. و قد كان الحذف هنا
لمطابقة المعنى على بعضه بين الجملة الأولى و الثانية المقدرتين، فيكون
الإنكار أشد و أبلغ. فالاستفهام الإنكاري كلما كان أوجز كان أبلغ أثرا في نفس
السامع. ذلك لأن الاستنكار إنما يكون لمخالفة الأمر البديهي، و البديهة لا
تحتاج إلى شرح، فإذا أطلت في شرح البديهة خرجت عن بدايتها إلى ما يمكن
أن يختلف فيه الناس، و ما فيه اختلاف فلا إنكار فيه.

- العلم: لأنه قد يكون سبباً لتعظيم النفس، و استحغار الغير. قال تعالى: {
فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ } ٨٣ { (٤٠١)

- العمل و العبادة: لأن صاحبه يرى فضيلته في نفسه بذلك على غيره. و
لهذا حذر الله الأعراب من المن بالإسلام على الله تعالى، قال سبحانه: {يَمُنُونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ١٧ { (٤٠٢)

- المال كما يرى في الأغنياء. و مثل قارون في كتاب الله مثل بليغ في
ذلك، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ
مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ } ٧٦ { (٤٠٣)

- القوة كما ترى في الأقوياء فإنهم يتكبرون بها على الضعفاء. و مثلهم في
ذلك قوم عاد، قال تعالى: {فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ } ١٥ { (٤٠٤)

- كثرة الأتباع، مثلما حصل لفرعون قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } ٥٤ { (٤٠٥).

أسبابه الباطنة فهي:

(٤٠٠) القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي (المتوفى : ٦٧١هـ)، الجامع
لأحكام القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان. الطبعة: /، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ج: ٧، ص: ١٧٠.

(٤٠١) سورة غافر، الآية: ٨٣.

(٤٠٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٤٠٣) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٤٠٤) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٤٠٥) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

- العجب: و ذلك كما كان بالنسبة لإبليس حين رفض السجود لأدم، فما تكبر على أمر الله إلا لإعجابه بنفسه و ظنه أنه خير من آدم. قال تعالى: { قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ }.

- الحقد: فإذا حقد المرء على أحد تكبر على أن يأخذ أي حق منه، و ذلك كما قال كفار قريش { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } { ٣٢ }^(٤٠٦). فمن حقدهم على الرسول ﷺ لم يقولوا: اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا إِلَيْهِ. و إنما طلبوا العذاب من الله تعالى، و كأنهم أعلم بالحق من الله عز و جل.

- الحسد: وهو أيضاً كسابقه الحقد يفعل فعله و كثيرا ما يتوالدان عن بعضها و يذكي أحدهما الآخر. فإذا حسد المرء أحدا حقد عليه، و إذا حقد عليه استكبر و تعالى عليه حتى لا يرى لهذا الشخص فضل أو ميزة عليه. و هذا ما نجده عند بني إسرائيل فما تكبروا على الحق إلا حسدا للناس أن آتاهم الله من فضله، قال تعالى: { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ }^(٤٠٧) و قال أهل البلاغة: " أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ مجاز مرسل في كلمة النَّاسِ يراد بها محمد صلى الله عليه وسلم، من باب إطلاق العام على الخاص. "^(٤٠٨) إلا أنهم في حقيقتهم يحسدون الناس جميعا فلا يرضون خيرا لأحد من غيرهم من الأمم، و لذلك تجد هذا التكبر فيهم على كل الناس.

و قال تعالى تأكيد لذلك: { وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا } { ٤٢ }
استكباراً في الأرض {

نتائج التكبر:

إن من أسوأ نتائج الاستكبار هو الصغار، و ذلك لأنه { لَّا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } فالمستكبر يريد صغار غيره فيحيق الصغار به قبل غيره، و ذلك ما حدث لإبليس لما استكبر على آدم نزل به الصغار و زاد آدم رفعة، قال تعالى: { فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } { ١٣ }^(٤٠٩)

٣ - حب الرياسة

^(٤٠٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

^(٤٠٧) سورة النساء، الآية: ٥٤.

^(٤٠٨) الزحيلي (وهبة)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة و المنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ، ج: ٥، ص: ١٠٨.

^(٤٠٩) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

قال تعالى: { وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتْ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ { ٢٤٧ } }
سورة البقرة

و قال جل جلاله: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ { ٨٣ } سورة القصص
و قال سبحانه: { وَ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ { ٣١ } أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ { ٣٢ } سورة الزخرف

هذا مرض آخر من أخطر أمراض النفس الإنسانية التي أشار إليها القرآن الكريم و غالباً ما يكون من نتائج الكبر السابق الذكر. فمن كان يحس في نفسه أنه أفضل من غيره، شعر بأنه أولى بالرئاسة منه. كما أن الاستعداد له متوفر لدى جميع الناس، فإن "النفس جبلت على حب الرياسة و طلب التقدم فلا ترضى أن تكون مرؤوسة تحت غيرها" (٤١٠)

و نؤكد مبدئياً فنقول أن المحاسبة لا تكون على مجرد الجبلة و الشعور الباطني(*)، و لكن على ما قد ينتج عن ذلك من سلوك و فعل. فمن أحب الرياسة في نفسه لكنه سعى إلى قمع النفس و صدها عما قد تفعله لأجل ترؤس الناس و التطاول عليهم فله -باذن الله - بذلك أجر المجاهدة. و { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٤١١)

و من خطورة هذا المرض أنه مرض خفي خبيث، قلما ينتبه إليه صاحبه، و قد كان شداد بن أوس (٤١٢) يقول: "يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء و الشهوة الخفية" قال أبو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة: "الشهوة الخفية حب الرياسة" (٤١٣) و قال الغزالي عنها: "...و لذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسة العلماء

(٤١٠) إسماعيل حقي، روح البيان، ج: ٤، ص: ١.

(*) انظر: بدران أبو العينين، أصول الفقه الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ط: ١، ص: ٢٩٩.

(٤١١) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٤١٢) شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد بن عدي بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، يكنى أبا يعلى، وهو ابن أخي حسان بن ثابت، توفي بفلسطين سنة ثمان وخمسين. عن: الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (المتوفى: ٤٣٠هـ)، معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف الغزالي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م. ج: ٣، ص: ١٤٥٩.

(٤١٣) الفتاوى الكبرى، ج: ٣، ص: ٢٤٢.

فضلا عن عامة العباد و الأتقياء و هو من أواخر غوائل النفس و بواطن
مكايدها، و إنما يبئلى به العلماء و العباد و المشمرون عن ساق الجد
لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم و جاهدوها و فطموها عن
الشهوات و صانوها عن الشبهات و حملوها بالقهر على أصناف العبادات
عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح
فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير و إظهار العمل و العلم فوجدت
مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق و نظرهم إليه بعين
الوقار و التعظيم فسارعت إلى إظهار الطاعة و توصلت إلى اطلاع الخلق
و لم تقنع باطلاع الخالق و فرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد الله وحده و
علمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات و توقيه الشبهات و تحمله مشاق
العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح و الثناء و بالغوا في التقريظ و الإطراء و
نظروا إليه بعين التوقير و الاحترام و تبركوا بمشاهدته و لقائه و رغبوا في
بركة دعائه و حرصوا على اتباع رأيه و فاتحوه بالخدمة و السلام و
أكرموا في المحافل غاية الإكرام و سامحوه في البيع و المعاملات و
قدموه في المجالس و آثروه بالمطاعم و الملابس و تصاغروا له متواضعين

و انقادوا له في أغراضه موقرين فأصابته النفس في ذلك لذة هي أعظم
للذات و شهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي و
الهفوات و استلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة
للذات و شهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله و بعبادته المرضية
و إنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية
و يرى أنه مخلص في طاعة الله و مجتنب لمحارم الله و النفس قد أبطنت
هذه الشهوة تزيينا للعباد و تصنعا للخلق و فرحا بما نالت من المنزلة و
الوقار و أحببت بذلك ثواب الطاعات و أجور الأعمال و قد أثبتت اسمه في
جريدة المنافقين و هو يظن أنه عند الله من المقربين. و هذه مكيدة للنفس
لا يسلم منها إلا الصديقون و مهواة لا يرقى منها إلا المقربون. " (٤١٤) و
لهذا "قال أبو مدين^(٤١٥): آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب
الرياسة." (٤١٦)

(٤١٤) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج: ٣، ٣٥٤ - ٣٥٥.
(٤١٥) أبو مدين التلمساني (؟.. - ٥٩٤ هـ = ١١٩٨ م) شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، أبو مدين: صوفي. أصله
من الأندلس. أقام بفاس، وسكن (بجاية). وتوفي بتلمسان. و قد قارب الثمانين أو تجاوزها. له مفاتيح الغيب، لإزالة الريب،
وستر العيب.
(٤١٦) حقي ج: ٧، ص: ٥٦.

و من نتائجه الوخيمة أنه يؤدي إلى التنازع على الرئاسة و التنازع يؤدي إلى الفشل، و الفشل يؤدي إلى ذهاب الريح. قال تعالى: { وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } { ٤٦ } (٤١٧) و قال سبحانه عن بني إسرائيل: قال تعالى: { وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتْ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ } { ٢٤٧ } (٤١٨)

هو من أسباب الحسد: قال الإمام الغزالي في أسباب الحسد: " السبب السادس : حب الرياسة و طلب الجاه نفسه من غير توسل به إلى مقصوده، و ذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك و أحب موته

وزوال النعمة التي بها يشاركه في المنزلة من شجاعة أو علم أو زهد أو ثروة و يفرح بسبب تفرده." (٤١٩)

كما أنه من أسباب العجب، " قال ابن عبدوس (٤٢٠): كلما توقر العالم و ارتفع، كان العجب إليه أسرع، إلا من عصمه الله بتوفيقه، و طرح حب الرياسة عن نفسه." (٤٢١)

و أسوأ نتائج حب الرياسة أنه يصد صاحبه عن سبيل الله: فما منع كثيرا من كفار قريش عن الإيمان إلا أن القرآن أنزل على من كانوا يرون غيره أولى بها بمنظورهم الخاطيء، قال تعالى: { وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا } { ٢١ } (٤٢٢) فكان الرد الإلهي عليهم: { أَلَمْ يَفْقَهُوا أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَ رَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } { ٣٢ } (٤٢٣) فالله يرفع من يشاء و يخفض من يشاء، بيده الملك و هو على كل شيء قدير. و قد جاء الرد عليهم بهذا الأسلوب الاستفهامي المبدوء بهذه الهمزة التي تفيد " الإنكار المستقل بالتجهيل و التعجب من اعتراضهم و تحكهم، و أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة و التخير لها من يصلح لها و يقوم بها، و المتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته و بالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم

(٤١٧) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٤١٨) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٤١٩) الغزالي محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين،

(٤٢٠) ابن عبدوس (٢٠٢ - ٢٦٠ هـ = ٨١٧ - ٨٧٤ م) محمد بن إبراهيم بن عبد الله، ابن عبدوس: فقيه زاهد، من أكابر

التابعين. من أهل الفيروان. عن الزركلي، الأعلام، ج: ٥، ص: ٢٩٤.

(٤٢١) أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمري، مؤسسة

الريان و دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م، ج: ١، ص: ٢٨٣.

(٤٢٢) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٤٢٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم و ما يصلحهم في دنياهم، و أنّ الله عز و علا هو الذي قسم بينهم معيشتهم و قدرها و دبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسو بينهم و لكن فاوت بينهم في أسباب العيش، و غير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء و ضعفاء و أغنياء و محاييج و موالى و خدماً، ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم و يستخدمون في مهنتهم و يتسخرون في أشغالهم، حتى يتعاشوا

و يترافدوا و يصلوا إلى منافعهم و يحصلوا على مرافقهم؛ و لو وكلهم إلى أنفسهم و ولاهم تدبير أمرهم، لضاعوا و هلكوا. و إذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى و رأفته العظمى ؟ " (٤٢٤)

كما أن " حب الرياسة هو أصل البغي و الظلم " (٤٢٥)، و لهذا فقد ضرب الله في كتابه أمثلة كثيرة لهؤلاء الذين بغوا و ظلموا بسبب حبهم المفرط للرياسة، و من أشهر أمثلتهم فرعون الذي تكرر ذكر اسمه في القرآن الكريم ٧٤ مرة (*)، و ما ذاك إلا لما جناه عليه حب الرياسة. و مثال ذلك ما ورد في سورة القصص إذ قال تعالى: { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } (٤٢٦) إلى أن ختم السورة بقوله { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا } (٤٢٧) و هذا مرورا بقارون الذي بغى على قومه بماله، قال تعالى: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ } (٤٢٨) دون أن ننسى ذلك { الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَ أُمِيتُ } (٤٢٩) فقد بلغ بهذا حب الرياسة إلى درجة ادعاء الألوهية، و مثله فعل من بعده فرعون الذي وصل به الحد أن يقول: { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } (٤٣٠)

و هكذا نجد أن قضية حب الرياسة هي من المواضيع النفسية الخطيرة التي أولى لها القرآن الكريم اهتماما كبيرا باعتبارها تضر بعمل الصالحين،

(٤٢٤) الزمخشري، الكشاف، ج: ٤، ص: ١٥٥.

(٤٢٥) ابن تيمية الفتاوى الكبرى، ج: ٣، ص: ٢٤٢.

(*) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٦٢٦.

(٤٢٦) سورة القصص، الآية: ٤.

(٤٢٧) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٤٢٨) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٤٢٩) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٤٣٠) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

بل و تضرر بعامة الناس، و تضرر حتى بمفهوم الربوبية و الألوهية و التوحيد التي جاء القرآن أساسا ليفصل فيها و ليبيني عليها حياة الإنسان.

٤ _ السخرية و الاستهزاء

قال تعالى: { زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ يُسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } { ٢١٢ } سورة البقرة

و قال جل جلاله: { وَ لَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } { ١٠ } سورة الأنعام
و قال سبحانه: { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } { ٧٩ } سورة التوبة

وقال عز من قائل: { وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } { ٣٨ } فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ } { ٣٩ } سورة هود
وقال عز وجل: { وَ لَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } { ٤١ } سورة الأنبياء
وقال كذلك: { إِنَّهُ كَانَ قَرِيْقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } { ١٠٩ } فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ } { ١١٠ } سورة المؤمنون
وقال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَ لَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بِنِسَ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } { ١١ } سورة الحجرات

هذا داء آخر من أدواء النفس، و هو داء سلوكي أكثر منه باطني. و ينتج أساسا عن جهل الإنسان بقيمته الحقيقية، فلو علم الإنسان قيمته، و أدرك جوانب النقصان فيه التي لا تنتهي، ما تجرأ على أن ينتقص من أحد. و قد قال الشاعر: (٤٣١)

وَ مَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ (٤٣٢)
و لذلك كان رد موسى ن على بني إسرائيل لما قالوا له: { أَنْتَخَذْنَا هُزُؤًا } أن قال لهم: { أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } (٤٣٣) و هذه الاستعاذة منه دليل على تواضعه. فلو كان رجلا فظا متعاليا لقال: " لست من الجاهلين. " على سبيل التحقيق و التأكيد. بل كان يمكن أن ينسبهم هم ذاتهم إلى الجهل، لا أن ينفى الجهل عن نفسه، - و إن كان هذا في حد ذاته تعريض بهم - و له الحق في ذلك، إذ جهلوا مقامه و نسبوه إلى ما يدل على الجهل. و قد كان هذا العدول منه ن لأن الأمر يتعلق بشخصه، و قد قال عنه الرسول p: « قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » (٤٣٤). أما عندما تعلق الأمر بذات الله تعالى، فإنه قد وصفهم بالجهل لأن الأمر هناك يستدعي المصارحة، و لا مجال فيه للصبر: قال تعالى: { وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } (٤٣٥)

(٤٣١) المهلبى (٢٠٠ - ٢٥٩ هـ = ٨٧٣ - ؟ م) يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة، من بني المهلب بن أبي صفرة، أبو خالد، المعروف بالمهلبى: شاعر محسن راجز. من الندماء الرواة. من أهل البصرة. اشتهر ومات ببغداد.. عن الزركلى، الأعلام، ج: ٨، ص: ١٨٧.
(٤٣٢) النويرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ٧٣٣ هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م، ج: ٣، ص: ٩٠.
(٤٣٣) سورة البقرة، الآية: ٦٧.
(٤٣٤) رواه مسلم، باب إعطاء المؤلف قلوبهم.
(٤٣٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

و إذ كانت السخرية من فعل الجاهلين، فلذلك نجدها عند الكفار و المنافقين،
و نجد القرآن الكريم حذر منها المؤمنين أشد التحذير.

قال تعالى: { زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ
الَّذِينَ آتَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (٤٣٦) و قد
جاء التعبير هنا بالفعل " زين " الذي " أورد بصيغة الماضي لكونه مفروغا
منه، مستقرا في طبعهم. وَ يَسْخَرُونَ عطف بالمضارع لإفادة استمرار السخرية
منهم." (٤٣٧) و إفادة أن هذه السخرية ناتجة عن هذا التزيين. ففي تصور هؤلاء
الكفار أن الحياة الدنيا هي كل شيء في الوجود، فمن فاتته شيء من هذه الدنيا
فهو مغفل جدير بأن يسخر منه، و يستهزأ به. لكن الحقيقة هي أنهم هم المغفلون
الجدديرون بالسخرية لما فاتهم من الخير بكفرهم، فقد تلعب الشيطان بهم و
أرداهم في المهادي و هم لا يشعرون. و مهما ظنوا أنفسهم في الدنيا أفضل من
المؤمنين فإنهم يوم القيامة يكونون تحتهم، و لات حين مندم.

و لهذا جاز للمؤمن أن يسخر من الكافر إذا سخر منه هذا الأخير، تنبيها له
لما هو فيه من الغفلة، قال تعالى: { وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ
سَخَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ } { ٣٨ } فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } { ٣٩ } (٤٣٨)

و لقد استشكل المفسرون " كيف يجوز أن يسخر نبي من الأنبياء من قومه

؟

و أجاب السمعاني بقوله: " إن هذا على وجه ازدواج الكلام، و معناه: إن
تستجهلونني فإنني أستجهلكم إذا نزل العذاب. و قيل معناه: إن تسخروا مني
فسترون عاقبة سخريتكم." (٤٣٩)

و قال الرازي أن المقصود: "إن حكمتم علينا بالجهل فيما نضنع فإننا نحكم
عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر و التعرض لسخط الله تعالى و عذابه فأنتم
أولى بالسخرية منا" (٤٤٠)

إلا أننا لا نرى ضرورة لهذا التأويل فالسخرية هنا ليست بقصد الحط من
قيمة الشخص، و إنما الحط من قيمة أعماله من باب الردع عن الضلال، و من
باب محاولة الأخذ بيد الضالين إلى صراط الله المستقيم.
و أسلوب السخرية في القرآن الكريم واضح جلي. إلا أن القرآن أسبغ عليها
من ألوان القوة و الجد ما جعلها وسيلة لإيقاظ الفطرة السليمة في الإنسان و
محاولة الأخذ بيده إلى الحق.

(٤٣٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٤٣٧) الزحيلي (و هبة)، التفسير المنير، ج: ٢، ص: ٢٣٣.

(٤٣٨) سورة هود، الآية: ٣٩.

(٤٣٩) منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي أبو المظفر (المتوفى: ٤٨٩ هـ)، تفسير

السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨ هـ

= ١٩٩٧ م، ج: ٢، ص: ٤٢٨

(٤٤٠) مفاتيح الغيب

و من أمثلة السخرية في القرآن الكريم التهديد بلفظ التبشير كما في قول الله تعالى: { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } (٤٤١). و العذاب لا يبشّر به. ومنها قوله تعالى: { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } (٤٤٢). و العاقل صاحب الفطرة السليمة لا يتمتع بشيء يفضي به إلى النار. و من ذلك أيضا قوله تعالى: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٤٣)

أما كيف يسخر الأنبياء من أقوامهم الضالين، فمثاله قول رسول الله إبراهيم عليه السلام لقومه لما سألوه: { أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ } (٤٤٤) فكان رده: { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ } (٤٤٥) و هنا تحركت فطرتهم، و ذلك هو المقصود، { فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ } (٤٤٦)، لكن للأسف { ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ } (٤٤٧) و هنا كانت العبرة المقصودة: { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْفَعِكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يَضُرْكُمْ. أَفَ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٤٤٨) تلك هي السخرية الرادعة التي فُصد بها إصلاح الخلق و أخذهم إلى طريق الحق بإرجاعهم إلى المنطق البسيط. ذلك أن السخرية في الأصل هي إظهار الشيء مخالفا للمنطق البسيط، فإذا ظهر ذلك أمام العقول استخفت به. و نحن اليوم إذ نشهد حملة السخرية بخاتم الأنبياء و المرسلين فإن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا الأمر ليس بجديد سواء تعلق الأمر برسولنا أو بسائر الأنبياء و المرسلين { وَ لَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ } و لعلنا هنا نضع اليد على الفرق بين السخرية و الاستهزاء، فقد نسب القرآن السخرية - و إن كان بمعنى أسمى - إلى الأنبياء و المرسلين، لكنه نزهم عن الاستهزاء، فالاستهزاء لا يكون إذا إلا بقصد الأذى، أما السخرية فقد تكون بقصد الأذى كما قد تكون بقصد التنبيه و التقرير للمخطئ.

ومثما استخدم القرآن السخرية علاجًا حين قصد بها تقويم الإنسان فقد نهاه عن الاستهزاء قصداً و ظلماً في التوجيه القرآني الكريم لأن في ذلك ضرراً أخلاقياً و اجتماعياً. قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَ لَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ مَّن نَّسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَ لَا

(٤٤١) سورة النساء، الآية: ١٣٨.

(٤٤٢) الزمر، الآية: ٨.

(٤٤٣) الدخان، الآية: ٤٩.

(٤٤٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٢.

(٤٤٥) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٤٤٦) سورة الأنبياء، الآية: ٦٤.

(٤٤٧) سورة الأنبياء، الآية: ٦٥.

(٤٤٨) سورة الأنبياء، الآية: ٦٦ - ٦٧.

تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَ مَنْ لَمْ
يَنْبُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ { ١١ } (٤٤٩)

و لقد بدأ الخطاب هنا بعبارة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } و في هذا تنبيه لهم على
مكانتهم التي لا يصح أن ينزلوا بها إلى مستوى أقل مما يريد الله لهم، ثم نهاهم
صراحة عن السخرية بالآخرين لما قد تؤدي إليه من الإضرار بعلاقة الأخوة
الإيمانية التي جاءت سورة الحجرات لتؤكد عليها بقوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ } (٤٥٠)، ثم أكدت الآية النهي للنساء { وَ لَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ } و ذلك لكثرة
وقوع النساء في هذا الداء. و كان التعليل الإلهي للنهي { عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ } و { عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ } فإذا كان المسخور منه خيرا من
الساخر، فإن الساخر أولى بهذه السخرية من غيره، لكن " عسى " من الله تفيد
التحقيق، و منه فالمسخور منه خير من الساخر تحقيقا و ليس احتمالا. فالساخر
قد ارتكب إثم السخرية فانحط درجة. بينما بقي المسخور منه بريئا من هذا الإثم،
بل و أخذ من حسنات الساخر. فكان في تلك اللحظة حقا خيرا من الساخر. ثم
نهت الآية عن أنواع من السخرية و هما اللمز و التنابز، و اللمز هو الإشارة إلى
عيوب الآخرين خفية، و قد عبر بلفظة { أَنْفُسَكُمْ } ليدل على أن اللامز إنما يضر
نفسه قبل غيره، كما أن إضراره بأخيه المؤمن هو إضرار بجميع الجماعة
المؤمنة. أما التنابز بالألقاب فهو مناداة الآخرين بما يكرهون، و هو كذلك مما
يورث العداوة و البغضاء بين المؤمنين، زيادة على ما فيه من الحط للمستوى
النفسي للأفراد بنطقهم بما تستهجنه الفطر السليمة، و ما لا يتناسب و مستوى
الإيمان الذي رفعهم إليه الإسلام، فالإيمان في القلب شيء جميل، و لا يصح أن
يصدر عن الجميل قبيح.

و دائما يفتح القرآن للمخطئين باب التوبة، فمن أخطأ بجهالة فلا لوم عليه
إذا تاب، أما من يصر فهو من الظالمين، { وَ مَنْ لَمْ يَنْبُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
ظالم لنفسه، و ظالم لغيره.

إذا فالقرآن الكريم إذ ينبه إلى الأمراض النفسية الباطنية فهو لا يهمل ما قد
ينتج عنها من أمراض سلوكية تعود على الفرد و المجتمع بالضرر. فينهى عنها
و يفتح باب التوبة لتصحيح الأخطاء، و الإقلاع عنها.

(٤٤٩) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٤٥٠) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

٥- الفرح

قال تعالى: { وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبَاسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } { ٤٢ } فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { ٤٣ } فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } { ٤٤ } سورة الأنعام

و قال سبحانه: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } { ٨١ } فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيَبْكَوْا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } { ٨٢ } سورة التوبة

فَدَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ } { ٥٤ } أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَ بَنِينٍ } { ٥٥ } نَسَارَغَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ } { ٥٦ } سورة المؤمنون
و قال جل جلاله: { الم } { ١ } غُلِبَتِ الرُّومُ } { ٢ } فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِّن بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } { ٣ } فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَ مِن بَعْدِ وَ يَوْمَئِذٍ يُفْرِخُ الْمُؤْمِنُونَ } { ٤ } يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } { ٥ } سورة الروم

و قال كذلك: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } { ٣٠ } مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { ٣١ } مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } { ٣٢ } سورة الروم

قال تعالى: { وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } { ٣٦ } أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } { ٣٧ } سورة الروم

و قال جل جلاله: { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ } { ٧٣ } مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُن نَدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ } { ٧٤ } ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ } { ٧٥ } ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } { ٧٦ } سورة غافر
و قال عز من قائل: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } { ٨٢ } فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ } { ٨٣ } سورة فصلت

الفرح في الأصل رد فعل عاطفي طبيعي على حصول الإنسان على رغباته، و تحقيق حاجياته. و عليه فليس هو - في الأصل - من الأمراض النفسية.

و لقد كنت من قبل أستغرب ذم القرآن للفرح، فللمرء أن يتساءل: هل جاء الإسلام لينكد حياة الناس كما يعتقد البعض؟ و هل جاء ليوقعهم في الحرج و هو يقول: { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ }^(٤٥١)؟

ف "الفرح من الانفعالات الإنسانية الفطرية التي لا بد أن تنتاب كل أحد في فترة من فترات حياته بأيامها و ساعاتها، قال تعالى : { وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكَى }^(٤٥٢)، لقد بين لنا القرآن الكريم المنهج السليم الذي يجب أن يقوم عليه الفرح لدى الفرد، فالفرح أمر نسبي يتوقف على أهداف الإنسان في الحياة، فمن كان هدفه الحصول على شيء من متاع الدنيا فقط و هذا حال الكثيرين و منهم الكفار، كان نجاحه في تحقيق أهدافه باعثا على فرحه و سروره. قال تعالى: { وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ }^(٤٥٣)، و هذا النوع لا ينعم في الواقع بالحياة السعيدة المطمئنة المستقرة، فإذا أنعم الله عليه بنعمة الصحة و سعة الرزق و وفرة المال شعر بالفرح و السعادة، و إذا ما أصابه ضرر أو بلاء و فقد بعض النعم التي كان يتمتع بها أو عجز عن تحقيق هدف يأمل به، تملكه الاكتئاب و اليأس و الاضطراب و جدد بالنعم الأخرى"^(٤٥٤).

أما من كان فرحه مرتبطا برضى الله تعالى، دون إلحاق ضرر بأحد و دون مبالغة في الفرح إلى حد أن يتحول إلى بطر، فذلك الفرح المقبول المرضي عنه.

إذا فالنوع الأول من الفرح و هو النوع المذموم، هو ما كان مرتبطا بالدنيا و نعيمها المؤقت. فإن صاحبه يعيش سائر أيامه في هم و غم و كآبة و قلق، قال الله تعالى: { وَ لَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ. وَ لَئِنْ أَدْقْنَا نِعْمَاءَ بَعْدُ ضِرَاءً مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }^(٤٥٥)

فمثل هذا الفرح هو نتيجة من نتائج النسيان لفضائل الله تعالى، { فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا } فمن يذكر فضل الله تعالى عليه، يعلم أن الله يأخذ كما يعطي، و لذلك فلا مجال للفرح بحطام الدنيا

^(٤٥١) سورة المائدة، الآية: ٦.

^(٤٥٢) سورة النجم، الآية: ٤٣.

^(٤٥٣) سورة الرعد الآية: ٢٦.

^(٤٥٤) نجاتي، ص: ٨٦ - ٨٧.

^(٤٥٥) سورة هود، الآية: ٩ - ١٠.

الزائل. فالدنيا تُجعل في اليد لا في القلب. و النعمة ليست دليل الرضى من الله تعالى، فقد تكون من الاستدراج الذي ينتهي بعواقب وخيمة، قال تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } { ٤٤ } (٤٥٦)

لكن قليل من الناس من يرتفع إلى هذا المستوى فمعظم الناس ينطبق عليهم قوله تعالى: { وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِنْ نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {

فهذه هي " صورة للنفس التي لا ترتبط بخط ثابت تقيس إليه أمرها في جميع الأحوال و بميزان دقيق لا يضطرب مع التقلبات. و الناس هنا مقصود بهم أولئك الذين لا يرتبطون بذلك الخط و لا يزنون بهذا الميزان. فهم يفرحون بالرحمة فرح البطر الذي ينسيهم مصدرها و حكمتها، فيطربون بها، و يستغرقون فيها، و لا يشكرون المنعم، و لا يستيقظون إلى ما في النعمة من امتحان و ابتلاء. حتى إذا شاءت إرادة الله أن تأخذهم بعملهم فتذيقهم حالة «سَيِّئَةً» عموا كذلك عن حكمة الله في الابتلاء بالشدة، و فقدوا كل رجاء في أن يكشف الله عنهم الغمة و قنطوا من رحمته و يئسوا من فرجه .. و ذلك شأن القلوب المنقطعة عن الله، التي لا تدرك سننه و لا تعرف حكمته. أولئك الذين لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا! و يعقب على هذه الصورة بسؤال استنكاري يعجب فيه من أمرهم، و قصر نظرهم و عمى بصيرتهم. فالأمر في السراء و الضراء يتبع قانونا ثابتا، و يرجع إلى مشيئة الله سبحانه، فهو الذي ينعم بالرحمة، و يبتلي بالشدة و يبسط الرزق و يضيقه وفق سنته ، و بمقتضى حكمته. و هذا ما يقع كل آن، و لكنهم هم لا يبصرون : { أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ؟ } {

فلا داعي للفرح و البطر عند البسط، و لا لليأس و القنوط عند القبض فإنما هي أحوال تتعاور الناس وفق حكمة الله، و فيها للقلب المؤمن دلالة على أن مرد الأمر كله لله ، و دلالة على اطراد السنة ، و ثبات النظام ، رغم تقلب الأحوال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } و إذا كان الله هو الذي يبسط الرزق و يقبضه و هو الذي يعطي و يمنع وفق مشيئته فهو يبين للناس الطريق الذي تربو أموالهم فيه و تربح. لا كما يظنون هم ، بل كما يهديهم الله " (٤٥٧)

و من مثل هذا الفرح المذموم فرح المغفلين من المنافقين الذين يظنون أنه فازوا، و ما علموا أنهم هم الخاسرون إذ قال سبحانه: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } { ٨١ } { فَلْيَضْحَكُوا

(٤٥٦) سورة الأنعام، الآية : ٤٤.
(٤٥٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٥٤٥٨.

قَلِيلًا وَ لَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ { ٨٢ } ^(٤٥٨) فكم يفرح كثير من الناس عندما يظنون أنهم قد راوغوا الآخرين، فتركوهم يندفعون إلى التضحية بأنفسهم، بينما هم يبقون في الأماكن الخلفية ينتظرون النتائج ليتلونوا بها، و يصطبغوا بلون المنتصر مهما كان منهم أو من عدوهم! فيتوعدهم الله بأن فرحهم و ضحكهم سيكون قصيرا و قليلا، أما حزنهم بعد ذلك فسيكون طويلا في الدنيا و الآخرة. و هذه المقابلة بين الضحك القليل و البكاء الكثير الغرض منها بيان الفرق بين الحاليين الذي يدركه كل عاقل مفكر، لكن هؤلاء قوم لا يفقهون، و لا يكادون يفرقون بين السماء و الأرض و لا بين الخير و الشر و لا بين حر الصيف و حر جهنم.

أما الفرح المقبول فهو الفرح الإيجابي الذي لا يتوقف على بعض متاع الدنيا الزائل، يحصل بحصوله و يزول بزواله، بل هو الرضى بقضاء الله تعالى و السعادة بالعيش في فضله العظيم، و نعمه الجلييلة التي لا تنتهي قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } { ٥٧ } قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ { ٥٨ } ^(٤٥٩)

فقد جاءت هاتان الآيتان لتبين لنا أن الإنسان ما دام يعيش في ضلال منهج الله تعالى الذي هو من فضله و رحمته فلا بأس عليه و لا حرج عليه و له أن يفرح بما جاءه من الله من موعظة و شفاء لما في الصدور. و لقد عبر - سبحانه - عن القرآن في هاتين الآيتين دون أن يسميه أو يذكره، لأنه ليس في حاجة إلى الذكر هنا فهو بمثابة المسلم به المفروغ منه و لا يزيد ذكره في المعنى شيئا.

و إن لم يذكره فقد ذكر ما فيه و هي الموعظة على سبيل التعبير عن الكل بالجزء لأن الموعظة هي الهدف الأسمى لهذا الكتاب. و ذكر كذلك نتيجته من باب المجاز المرسل فمن نتائج الكتاب شفاء ما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين.

"فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، و بهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان .. فبذلك وحده فليفرحوا.

فهذا هو الذي يستحق الفرح. لا المال و لا أعراض هذه الحياة. إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية و الأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة و يجعل الإنسان فوقها و هو يستمتع بها لا عبدا خاضعا لها. و الإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس و يزهدوا فيها. إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس و هم أحرار الإرادة طلقاء اليد، مطمحن أعلى من هذه الأعراض ، و آفاقهم أسمى

^(٤٥٨) سورة التوبة، الآية: ٨١-٨٢.

^(٤٥٩) سورة يونس، الآية: ٥٧-٥٨.

من دنيا الأرض. الإيمان عندهم هو النعمة، و تأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف. و الدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم." (٤٦٠)
و للمؤمنين أن يفرحوا بنصر الله تعالى حيث وقع، و حيث حل. قال جل جلاله: { ١ } غَلَبَتِ الرُّومُ { ٢ } فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ { ٣ } فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ { ٤ } بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ { ٥ } (٤٦١)
و هذا النصر الذي تتحدث عنه الآيات هو نصر لأهل الكتاب على عبدة النار، و مع أنه ليس نصرا تاما لأهل التوحيد في مكة في ذلك الوقت، إلا أنه إرهاب بنصرهم على عبدة الأوثان في مستقبل الأيام، و لهم أن يفرحوا بذلك الإرهاب.

كما أن هذا النصر وقع بعيدا عنهم، في أدنى الأرض قريبا من البحر الميت، و هو يبعد عنهم مسيرة أكثر من شهر، أو أكثر من ألف كيلومتر، و بالمنظور الضيق يبدو الأمر بعيدا، لكنه بالمنظور الإستراتيجي قريب جدا لمن يحسب له حسابه، و هكذا المؤمن لا يكتفي بالنظر القريب بل يجب أن ينظر إلى الأمور بشكل كلي فيحسب أبعاد الأمور و يحسب لها حساباتها الدقيقة، و يفرح لكل مؤشر يدل على نصر الله القريب.

كما أن الشيء الأساس الذي فرح له المؤمنون هو تحقق نبوءة القرآن الكريم التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، بما يؤكد إعجاز القرآن الكريم، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، ليحيى من حيي عن بيئة و يهلك من هلك عن بيئة.
و كل هذا فرح مشروع، و مقبول، بل و مستحسن، و لكن كما قلنا من قبل دون بطر أو أشر، و دون خروج عن حدود الوقار التي على المسلم الالتزام بها في كل الأحوال.

و هكذا نجد القرآن الكريم يراعي طبيعة الإنسان، فلا يكلفه فوق طاقته، و لا يمنع عنه صنوف البهجة بالحياة، لكنه يوجه فطرته نحو ما فيه صلاحه، و راحتة النفسية، و يحقق له سعادته، و قد كان أهل القرآن يقولون : نحن في سعادة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيف.

(٤٦٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٣٦٧٩.
(٤٦١) سورة الروم، الآية: ١ - ٥.

٦ - الحسد

قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُقَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {١٠٩} سورة البقرة
و قال سبحانه: {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} {٥٤} سورة النساء
كما قال عز و جل: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {٤٣} سورة الأعراف
و قال جل جلاله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} {47} سورة الحجر
و قال عز من قائل: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} {٣٢} سورة النساء
و قال كذلك: {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} {٥} سورة الفلق

" الحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. يقال: حسده يحسده حسودا. قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسده بالكسر. قال: والمصدر حسدا و حسادة " (٤٦٢)

و قيل: " ظلم ذي النعمة بتمنى زوالها عنه و صيرورتها إلى الحاسد " (٤٦٣)

(٤٦٢) الجوهرى إسماعيل بن حماد (تو: ٣٩٣ هـ)، تاج اللغة و صحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م، ج: ٢، ص: ٤٦٥.
(٤٦٣) المناوي محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، لبنان، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ، ص: ٢٧٨.

و الحسد انفعال يشعر فيه الإنسان بكرهية رؤية غيره أفضل منه في نعمة ما. و لذلك فهو يتمنى الحصول عليها، مع تمني زوالها عن الغير. و الحسد مذموم و منهي عنه شرعا.

و أول حاسد تحدث عنه القرآن الكريم هو إبليس، إذ حسد آدم على المرتبة التي رفعه الله إليها، و رأى نفسه أولى بها منه، إذ قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} {١٢} ^{٤٦٤} فكل من يحسد غيره إنما هو سائر في طريق إبليس، و العياذ بالله. و قد قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَأَنَّ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {٢١} ^(٤٦٥)

و قد وصف القرآن الكريم حسد اليهود و المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم على ما خصه الله به من فضل النبوة و حسدهم للمؤمنين على ما خصهم الله به من فضل الإيمان و الهداية قال تعالى : قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ} {١٠٩} ^(٤٦٦). " و ذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس .. الرغبة في سلب

الخير الذي يهتدي إليه الآخرون .. لماذا؟

لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم. و لكنها لأنها تعلم! «حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» ..

و الحسد [هنا] هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام و المسلمين، و مازالت تفيض، و هو الذي انبعثت منه دسائسهم و تدبيراتهم كلها و ما تزال. و هو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، و يعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعة العقيدة في نفوسهم و ردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، و الذي أنقذهم الله منه بالإيمان، و خصهم بهذا بأعظم الفضل و أجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود! و هنا - في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، و تنكشف فيها النية السيئة و الحسد اللئيم - هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، و الشر بالشر، و يدعوهم إلى الصفح و العفو حتى يأتي الله بأمره، و قتما يريد: «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .. و امضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم. ^(٤٦٧)

^(٤٦٤) سورة الأعراف، الآية: ٢١.

^(٤٦٥) سورة النور، الآية: ٢١.

^(٤٦٦) سورة البقرة الآية: ١٠٩.

^(٤٦٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ١٠٢.

و صدق ابن المُعْتَز (٤٦٨) إذ يقول:
اصبر على حَسَدِ الحَسودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إن لم تجد ما تأكله

فهؤلاء يحسبون و كأن الخير لهم و حدهم فقط، و لا يصح أن يوتي الله خيرا أحدا من بعدهم، قال سبحانه: { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } {٥٤} (٤٦٩)
فهذا " استنكار لموقفهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - و المسلمين و غيظهم من أن يمنَّ الله عليهم هذه المنة .. منة الدين و النصر و التمكين.
و حسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله. و هم لم يعطوهم من عندهم شيئا...يكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم و استنكار أي عطاء يناله غيرهم مع أن الله قد أفاض عليهم و على آبائهم، فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة و لم يمنعهم من الحسد و الكنود.

...يا عجباً! إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده .. فهل هم شركاؤه - سبحانه! - هل لهم نصيب في ملكه ، الذي يمنح منه و يفيض؟ لو كان لهم نصيب لضعفوا - بكزازتهم و شحهم - أن يعطوا الناس فقيرا .. و النقيير النقرة تكون في ظهر النواة - و هذه لا تسمح كزازة يهود و أثرتها البغيضة أن تعطوها للناس، لو كان لها في الملك نصيب! و الحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب .. و إلا لهلك الناس جميعا و هم لا يعطون حتى النقيير!!!
أم لعله الحسد .. حسد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و المسلمين، على ما آتاهم الله من فضله .. من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى و وهب لهم ميلادا جديدا، و جعل لهم وجودا إنسانيا متميزا و وهبهم النور و الثقة و الطمأنينة و اليقين كما وهبهم النظافة و الطهر، مع العز و التمكين؟
و إنه فعلا للحسد من يهود. مع تقويت أطماعها في السيادة الأدبية و الاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين .. يوم أن لم يكن لهم دين ..

و لكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة و التمكين في الأرض؟ و هم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم .. الذي آتاه الله و آله الكتاب و الحكمة - و هي النبوة - و آتاهم الملك كذلك و السيادة.

(٤٦٨) ابن المُعْتَز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٨ م) عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس. الشاعر المبدع، خليفة يوم و ليلة... ولد في بغداد... و صنف كتبا، منها " الزهر و الرياض " و " البديع - ط " و " الأداب ". عن الزركلي، الأعلام، ج: ٤، ص: ١١٨.
(٤٦٩) سورة النساء، الآية: ٥٤.

...إنه لمن أُم الحسد : أن يحسد ذو النعمة الموهوب! لقد يحسد المحروم و يكون الحسد منه رذيلة! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق! شر يهود! المتميز الفريد." (٤٧٠)

كما على الإنسان أن لا يتمنى ما فضل الله به بعض الناس عليه مما لا مجال لتغييره، لأن ذلك إنما يورثه في نفسه غما و مرضا لا شفاء منه إلا بترك ذلك الحسد، قال عز من قائل: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَإِلِلِّالنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } {٣٢} (٤٧١) و هذا تنبيه لكثير من النساء اللواتي يقارن بين الرجال و النساء و يردن أن تكون هناك مساواة مطلقة بين الجنسين، فتكون المرأة رجلا و يكون الرجل امرأة لا فرق بينهما، و هذا من وساوس شياطين الجن و الإنس، و ما أكثرهم في أيامنا هذه، و ما أكثر الأبواق التي تروج لدعايتهم التي يقصد منها إشعال نار الحرب بين الرجال و النساء المؤمنين لشغلهم بقضايا هامشية، عن القضايا الجوهرية، فتأتي دعاية ظلم الرجل للمرأة - مثلا - لتنسى الناس قضايا الظلم المنتشرة في العالم، و التي يعاني منها الرجال و النساء المستضعفون في الأرض على السواء، و تأتي دعاية المساواة بين الرجل و المرأة لتنسى الناس قضية المساواة بين الشعوب و الأمم و الدول في العالم، هذه المساواة التي لا يريد أهل الاستكبار في الأرض أن يفكر أو يتحدث عنها أحد.

فالإسلام يعتبر النساء شقائق الرجال، و ما يجب أن يكون بينهم هو التكامل و التعاون على بناء المجتمع المتين، الذي ينشر العدالة و المساواة في جميع العالم. و لا يقبل الإسلام الصراع المدمر بين الرجل و المرأة بما يفسد المجتمع المسلم و يلهيه عن أداء دوره الريادي فوق الأرض .
و من اتصف بترك الحسد فقد اتصف بصفة من صفات أهل الجنة، قال عز و جل: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {٤٣} (٤٧٢) كما قال جل جلاله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } {47} (٤٧٣)

و في قوله تعالى: {إِخْوَانًا} دليل على أن الحسد لا يمكن أن يساير الأخوة، أو يتعايش معها، فالأخوة تقتضي الإيثار فضلا عن الكرم و التعاون، و كل هذه المعاني لا تتفق مع الحسد.

(٤٧٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٢، ص: ٦٨٣.

(٤٧١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٤٧٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٤٧٣) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

و لطيفة أخرى نستشفها من هذه الآية و هي أن أهل الجنة درجات، و لو لم ينزع الله هذا الغل و الحسد من قلوب أهلها لوقع بينهم من التحاسد الشيء العظيم. خصوصا و قد خص الله أهل الجنة بأن لهم فيها { مَا تَسْتَهِيهِ النَّفْسُ وَ تَلُدُّ الْأَعْيُنُ }^(٤٧٤) فلولا هذا التطهير للقلوب لربما اشتهدت بعض النفوس ما فضل الله به بعضا على بعض، ولكانت الجنة بذلك فوضى. و لكنها حكمة الله تعالى، في تنظيم الكون، حتى في تنظيم جنة النعيم. و هذا من التناسق بين مختلف آيات الكتاب، فنجد كتاب الله يصدق بعضه بعضا، و نجد فيه كل إجابة على كل سؤال قد يطرح حول أية آية من آياته.

و لقد أمرنا ربنا عز و جل أن نستعيز به من شر الحساد قال تعالى: { وَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }^(٤٧٥). و ذلك لأن الحسد انفعال باطني لا يحس به المحسود، و لا يدري من أي جهة يأتيه الحسد، فما على الإنسان إلا أن يكمل أمر الحاسدين إلى الله تعالى، لأنه غيب بالنسبة إلينا، و الغيب نكله إلى الله عز و جل. أما إذا نتج عن هذا الانفعال فعل سيء فذلك يواجه ككل الأفعال، و ذلك أننا أمرنا أن نعامل الناس على ظواهرهم و أن نكل البواطن إلى الله تعالى. و لذلك جاء لفظ { حَاسِدٍ } لفظا منكرا، و المنكر مجهول، و ما كان في حكم المجهول أوكلنا أمره إلى الله تعالى، فنحتمي به، و نستعيز به من كل شر.

و لقد تحدث المفسرون في هذه الآية و أفاضوا الحديث حول تأثير الحاسد على المحسود بغير فعل^(*)، و نرى أن هذا من الترف الفكري الزائد الذي شغل بعض المفسرين أنفسهم به، دون حاجة إليه، ما دام لا ينبني عليه عمل. خصوصا و أنه يُدخل على ضعفاء النفوس الوسواس بالتوجس من الآخرين لما قد يصيبونهم به من الحسد. و هذا ضرره أكبر من نفعه، فالوسواس شر ربما أكبر من شر الحسد، و لذلك ختم القرآن الكريم بالتنبيه على خطورته، و أمرنا بالاستعاذة منه في سورة الناس. فما لنا إذا إلا أن نلتزم بما أمرنا الله به و هو التوجه إليه بالاستعاذة الخالصة له و التوكل عليه في كل شأن.

^(٤٧٤) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

^(٤٧٥) سورة الفلق، الآية: ٥.

^(*) انظر: الزحيلي (وهبة)، التفسير المنير، ج: ٣٠، ص: ٤٧٥، و سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٦، ص: ٤٠٠٨.

٧- الرياء

قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } { ٢٦٤ } سورة البقرة

و قال عز و جل: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } { ١٤٢ } سورة النساء

كما قال جل جلاله: { وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } { ٤٧ } وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } { ٤٨ } سورة الأنفال

و قال الله تعالى: { وَ مَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } { ٥ } سورة البيّنة

و قال عز من قائل: { الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ } { ٦ } وَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } { ٧ } سورة الماعون

هذه آفة من أخطر الآفات التي قد تصيب النفس الإنسانية، و تكمن خطورتها في مساسها بعقيدة المسلم و إخلاصه بما قد يؤدي إلى إحباط عمله.

و الرياء هو: " من راعى، أن يظهر الإنسان من نفسه خلاف ما هو عليه ليراه الناس" (٤٧٦)

و أكثر الرياء في النوافل، و خصوصا ما فيه منفعة للآخرين كالصدقة، فقد يتصدق الرجل ليراه الناس فيقولوا جواد كريم، و قد يتصدق رجاء رجوع الفضل عليه إذا احتاج، أو رجاء دفع الشر عنه من المحتاج، أو قد يتصدق للتعالي على الناس و تذكيرهم بفضله عليهم، و كل هذا انتظار للأجر من البشر و ليس من خالق البشر، و قد مثل الله لهذا الصنف من الناس بمثل بليغ و هو مثل الصخرة التي يعلوها التراب، قد يظن من يراه أنه إذا سقط عليه المطر أعطى كلاً و نباتا حسنا، لكن المطر لا يفعل ذلك بل يعريه على حقيقته أمام المخدوع و يتبين له في النهاية أنه مجرد حجر صلد لا منفعة فيه و لا يمكن أن ينبت فيه خير أبدا. قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } { ٢٦٤ } سورة البقرة

ففي هذا التشبيه التمثيلي نجد الصفوان و هو الحجر الصلد، و هو مثل لهذا الشخص القاسي القلب الذي لا خير فيه، أما التراب فهو مثل لهذا الإيمان المزعوم من طرف هذا الشخص، و قد يكون له إيمان لكنه إيمان سطحي لما يدخل في قلبه، أما المطر فهو ما ينفقه هذا المرئي، فكلما كان ما ينفقه كثيرا كان هذا أدعى إلى كشف حقيقته، فيزول الإيمان عن قلبه كلما أنفق من ماله رياء، كما يزول التراب القليل من على الحجر الصلد كلما نزل المطر عليه. فلا ثمرة لهذا العمل لأنه لم يراعي فيه صاحبه قواعد الغراسة الصحيحة، و هي أساسا اختيار الأرض الخصبة، أو إصلاح الأرض قبل الغراسة فيها، فكذاك العمل قبل الشروع فيه لا بد من إصلاح القلب بالنية الخالصة لله وحده فقط، و إلا كان العمل وبالا على صاحبه.

وكما قد يدخل الرياء في النوافل فقد يدخل في الفرائض و هذا ما يكون مع المنافقين، فالرياء من أخلص صفات المنافقين، فهم بريائهم يظنون أنهم يخادعون الله و الناس. و هم

بادعائهم الإيمان إنما يقصدون وجه الناس لا وجه الله تعالى. و طريقة قيامهم للصلاة تدل على حقيقتهم، فليس في قيامهم لعبادة الله روح و لا حياة و لا حماسة، بل يقومون بها متناقلين، مستثقلين لها، و همهم الوحيد أن يراهم المؤمنون و هم يصلون، عسى أن ينخدعوا بفعالهم، فتروج سمعتهم و تنفق على أنهم مصلون، قال عز و جل: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ وَ

(٤٧٦) محمد رواس قلعه جي و حامد صادق قنبيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م، ج: ١، ص: ٢٧٥.

إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا {
(٤٧٧)

فمخادعتهم لرسول الله ﷺ خداع الله تعالى، و إذ يخادعون الله، فإنه { هُوَ
خَادِعُهُمْ } قال الزجاج : "لما أمر بقبول ما أظهروا كان خادعا لهم" (٤٧٨) و قال
أهل اللغة: " سمي الثاني خداعا لأنه مجارة للأول فسمي خداعا على الازدواج
كما قال جل و عز: (٤٧٩) { وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } (٤٨٠)
و في قوله عز و جل: { وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } تأكيد على حقيقة
الرياء فيهم، و ذلك أن الذكر يكون أكثره في السر و لا يعلمه إلا الله تعالى،
لذلك فهم لا يذكرون الله إلا إذا كانوا بصحبة المؤمنين، و ذلك قليل، فقل ذكرهم
لقلة صحبتهم للصالحين. و لو كان الذكر يرى كالصلاة لكان لهم ذكر أكثر حتى
يخدعوا الناس أكثر. قال ابن عباس: " لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيرا، و
تقبل منهم، و لكن لم يريدوا به وجه الله تعالى." (٤٨١)
و من أسوأ الرياء، الرياء بالشجاعة، فالشيطان يدفع الإنسان إلى فعل الشر
ثم إذا غاص ابن آدم فيه، تراجع عنه و تبرأ منه، كما قال جل جلاله: { وَ لَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

بَطْرًا وَ رِيَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ { ٤٧ } وَ
إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ
فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ { ٤٨ } (٤٨٢)
فهذه الآيات، و إن نزلت في كفار قريش إذ خرجوا إلى بدر، لكنها ترسم لنا
الملامح النفسية لكثير من البشر الذين يشنون الحروب على الآمنين بغير حق.
فتجدهم يخرجون من ديارهم للحرب، و ما أخرجهم إلا الطغيان بالنعمة التي
أنعم الله بها عليهم، و المباهاة و الرياء أمام الناس، و الصد عن سبيل الله تعالى،
ليتحدث الناس عن قوتهم و جبروتهم، فلا يجرأ أحد على التفكير في مواجهتهم.
و لذلك تجد الأبواق الإعلامية اليوم تسبق الحروب و تواكبها و تواصل نعيها
بعد الحروب، لتجعل من المستدمر مستعمرا و من الظالم بطلا، و من المستعبد
محررا، و من القاتل محييا... و كل هذا يحركه الرياء، و ينفخ فيه الشيطان، حتى
يرى هؤلاء المغترون أنفسهم أقوى الناس لا يغلبهم أحد.

(٤٧٧) سورة النساء، الآية: ٤٢. ١.

(٤٧٨) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج: ٢، ص: ٢٣١.

(٤٧٩) الثَّخَّاسُ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يُونُسَ الْمَرَادِيِّ النَّحْوِيِّ (المتوفى: ٣٣٨هـ)، معاني القرآن الكريم،
تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ، ج: ٢، ص: ٢٢١.

(٤٨٠) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٤٨١) السمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: ٣٧٣هـ) بحر العلوم، تحقيق محمود مطرجي،

دار الفكر بيروت، لبنان، ط: ١، س: /، ج: ١، ص: ٣٧٥.

(٤٨٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٧ - ٤٨.

و الأمر بالإخلاص لله و تجنب الرياء من أسهل الأعمال إذ لا يكلف صاحبه شيئاً إلا نية خالصة لله في باطنه لا مشقة فيها و لا تعب، قال الله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} {٥} ^(٤٨٣)، فقوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا} أسلوب قصر، يدل على القلة، فأحكام الشريعة قليلة، و لا تتطلب مشقة زائدة كما يقول علماء أصول الفقه. كما يدل هذا الأسلوب على قيمة الإخلاص و اجتناب الرياء في دين الله تعالى، فهو ملاك الأمر كله، و بدونه تبطل جميع الأعمال، فلا تقبل.

و لذلك كان الوعيد بالويل لأهل الرياء، فما قيمة الصلاة إذا لم تكن خالصة لله تعالى، و لم تنه صاحبها عن أسوأ الأمراض، و لم تدفع صاحبها إلى أقل معروف، و ممن أسوأ الأمراض:

البخل، و من أقل المعروف تقديم الماعون لمن سألته، و الماعون هو أقل المعروف مما لا يكلف صاحبه شيئاً عظيماً. قال عز من قائل: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ} {٦} {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} {٧} ^(٤٨٤)

و هذا لا يعني أن على من وقع في الرياء أن يترك العمل لأنه باطل، فهذا من تلبيس إبليس. لكن الصحيح هو أن يعمل ابن آدم الخير و يبذل قصارى جهده في إخلاص العمل لله تعالى، بإخفائه تارة، و بإظهاره حين لا يكون مجال للإخفاء.

^(٤٨٣) سورة البينة، الآية: ٥.
^(٤٨٤) سورة الماعون، الآية: ٦ - ٧.

٨- الغضب

قال تعالى: { هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُوْمِدُونَ بِٱلْكِتَآبِ كُذَّآءً وَ إِذَآ لَفُوكُمْ قَالُوا أَمَّا وَ إِذَآ خَلَوْآ عَضُّوآ عَلَيَّكُمْ ٱلْأَنَآمِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } { ١١٩ } سورة آل عمران.

و قال سبحانه: { ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَ الضَّرَّآءِ وَ ٱلْكَآظِمِينَ ٱلْغَيْظِ وَ ٱلْعَآفِينَ عَنِ ٱلنَّآسِ وَ ٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ } { ١٣٤ } سورة آل عمران.

و قال عز و جل: { وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ ٱلْقَى ٱلْأَلْوَآحَ وَ أَخَذَ بِرَآسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي ٱلْأَعْدَاءُ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّآلِمِينَ } { ١٥٠ } سورة الأعراف.

و قال جل جلاله: { وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَآحَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِنُونَ } { ١٥٤ } سورة الأعراف.

و قال عز من قائل: { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي } { ٨٦ }

سورة طه

كما قال سبحانه: { وَ إِذَآ مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } سورة الشورى

لقد أضع الباحثون في علم النفس وقتنا طويلا في البحث في طبيعة النفس الإنسانية، و حتى طبيعة السلوك الإنساني، و بعد هذه الجهود المضنية اقتنع الباحثون أن البحث لابد أن يتوجه نحو الجوانب العملية، ذات الفائدة المباشرة، المتعلقة بسلوك الإنسان، و لهذا ظهرت مؤخرا مدارس البرمجة اللغوية العصبية التي تركز على السلوك الإنساني الإيجابي و كيفية التوصل إليه. و من أهم مواضيع هذا العلم الحديث: موضوع الذكاء العاطفي، و هو القدرة على التحكم الذاتي في عواطف النفس بطريقة ذكية تؤدي بعدها إلى السلوك السوي المرغوب فيه.

و بهذا - ربما - نستطيع أن نفهم لماذا ركز القرآن الكريم على هذه الجوانب العملية، و تجنب الخوض الفلسفي في طبيعة النفس الإنسانية، إلا بما ينفع الإنسان بشكل عملي. فلعل السبب يكمن في كون العقل الإنساني أدنى من

أن يحيط علماً بذاته و بطبيعة النفس التي تحركه! و تجنباً للمشكلات الكلامية التي يمكن أن تنتج عن الغوص في هذه القضايا الغيبية، دون فائدة كبيرة. و لقد استعمل القرآن الكريم في هذا الباب مصطلح: الغيظ، و الغضب، و السخط. قال تعالى: { وَإِذَا لَفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَمَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ فُلٌ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } (٤٨٥) فالغيظ " أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، لكن فرقان ما بينهما، أن الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما و لا بد؛ و لهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم. و قد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ و ليس بجيد. " (٤٨٦)

أما السخط فهو " الغضب الشديد ...، قال: { إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } (٤٨٧). و هو من الله تعالى: إنزال العقوبة" (٤٨٨) قال تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ } (٤٨٩)، { أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } (٤٩٠)، { كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ } (٤٩١).

أما الغضب فقد قيل في تعريفه: " الغضب: بالتحريك مصدر غضب، الغيظ و الانفعال و ازدياد ضربات القلب، و هو ضد الرضا. " (٤٩٢)

كما قيل: " الغضب تغير يحصل عند ثوران دم القلب لإرادة الانتقام " (٤٩٣)

و الغضب شكل من أشكال تجليات الجزع، لكن في جانبه الإيجابي الفاعل، فهو انفعال تفرضه الطبيعة الأصلية للإنسان، إذ يدفعه إلى المواجهة إذا ما اعتدى عليه، و يدفعه إلى الدفاع عن نفسه أو عن عقيدته أو وطنه فيتهياً لعملية الدفاع و درء المخاطر.

و لقد جاء في القرآن الكريم وصف لانفعال الغضب و تأثيره على السلوك و ذلك في غضب موسى عليه السلام حينما أراد أن يدافع عن العبراني إذ قال تعالى: { وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } { ١٥ } قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } { ١٦ } قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } { ١٧ } فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ

(٤٨٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٤٨٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج: ٤، ص: ٢٠٧.

(٤٨٧) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

(٤٨٨) الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق،

سورية، ط: /، س: /، ج: ١، ص: ٤٦٦.

(٤٨٩) سورة محمد، الآية: ٢٨.

(٤٩٠) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٤٩١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.

(٤٩٢) محمد رواس و حامد صادق، معجم لغة الفقهاء، ج: ١، ص: ٣٩٩.

(٤٩٣) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: ٥٣٩.

{ ١٨ } فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أُنْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْمُسِّ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْمُصْلِحِينَ { ١٩ } (٤٩٤)

فموسى عليه السلام في هذا الموقف تصرف على العادة في ذلك الوقت، و هي أن المستعبد هو القبطي الذي من عَدُوِّهِ ، و المستعبد هو العبراني الذي من شيعتِهِ ، و لا بد أن يكون الظالم في هذا الاقتتال هو القبطي، فثار غضبه فوكر القبطي بضربة على صدره ففضى عليه، و ذلك لقوة موسى التي لم يقدر حسابها و نتائجها في تلك اللحظة من الغضب. و مهما يكن فإن الوكر في الأصل ليس وسيلة قتل، ففي أصل اللغة " وكره: ضربه بجمع كفه. [و] وكره: دَفَعَهُ " (٤٩٥)

لكن مع قوة موسى الأصلية، فهو { الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } (٤٩٦) و إضافة إلى ذلك، الغضب الذي يزيد في قوة صاحبه بفعل إفران الأدرينالين الذي يؤدي إلى زيادة التنفس و سرعة ضربات القلب و قيام الكبد بإفراز كميات كبيرة من السكر ليقوم الجسم ببذل المجهودات المطلوبة لدفع موضوع الانفعال. كل هذا مجموعا أدى إلى قتل هذا القبطي.

و مع كل هذه القرائن المحيطة بفعل القتل، إلا أن موسى لم يستغلها في تبرير فعله، بل { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } فالشيطان يستغل حالة الغضب في الإنسان، التي تؤدي إلى زيادة القوة و نقص الإدراك، ليدفعه إلى أسوأ الأفعال. فقد خالف موسى ن الأولى في تلك الحالة، و هي محاولة الدفع بالتي هي أحسن. فلو تشفع موسى للعبراني أمام القبطي، لما رد القبطي شفاعته، خصوصا مع ما له من حظوة في القصر كان لا بد للقبطي أن يحترمها. لكن كثرة الظلم تجعل المصلح أحيانا يخطئ في تقدير الأولى في كثير من المواقف.

و قد أكد لنا الرسول م استغلال الشيطان لحالة الغضب في الإنسان لدفعه إلى أسوأ الأفعال، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ: "كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَانُ فَأَحَدُهُمَا أَحْمَرٌ وَجَهُّهُ وَانْتَفَحَتْ أَوْدَاجُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ

(٤٩٤) سورة القصص، الآية: ١٥ - ١٩.
(٤٩٥) ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، (المتوفى: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة: /، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، ج: ٦، ص: ١٣٩.
(٤٩٦) سورة القصص، الآية: ٢٦.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ. ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ " (٤٩٧)

و لذلك فسر العلماء عبارة "طائف من الشيطان" في قوله عز و جل: { وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } { ٢٠٠ } إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } { ٢٠١ } (٤٩٨)
بأنه الغضب. فعن " مجاهد: إذا مسهم طائف من الشيطان. قال: هو الغضب. " (٤٩٩)

و مهما كان هذا الفعل من عمل الشيطان، فهذا كذلك لا يبرره، فلا بد من الاستغفار منه، لذلك { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } { ١٦ } قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ } { ١٧ } (٥٠٠).

كما وصف القرآن الكريم انفعال الغضب لدى موسى عليه السلام لما عاد إلى قومه فوجدهم يعبدون العجل الذي صنعه السامري. قال تعالى: { وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } { ١٥٠ }.

فهذا الموقف كذلك يستحق الغضب الشديد، فقد ذهب لياتيهم بما فيه هداهم من أحكام الشريعة، فإذا بهم ينتكسون ليعودوا أدرجهم إلى عبادة الأوثان. إنها لمفارقة عجيبة تجعل الحليم حيرانا، و تثير غضب من لا غضب له. و في القائه للألواح رد فعل طبيعي على ما وجدهم فيه من عبادة العجل، فليس من رأى كمن سمع، فقد علم أثناء مناجاته لربه أنه قد { أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } (٥٠١)، لكنه لما رأى هول الكارثة صدم، و ألقى الألواح التي لم يعد هؤلاء أهلا لها. فما فائدة الشريعة إذا كانت العقيدة باطلة؟! و أخذ برأس أخيه الذي تركه من قبل خليفة له على قومه ليحاسبه على ولايته التي ولاه عليها. إذ كان الواجب أن يتبع سيرته فيهم و لا يعصيه فيما أمره به.

و لقد أدرك أخوه هارون الطريق إلى قلبه و كيفية تهدئة أعصابه ، و ذلك بتليين الخطاب و بيان الحقائق بالتدرج، فبدأ بتذكيره بما بينهما من أخوة الرحم، مؤكدا على الأم التي أنجبتهمما تباعا، فكما لا يمكن للمرء أن يؤذي أمه فكذلك لا يمكن له أن يؤذي ابنها.

(٤٩٧) رواه البخاري، باب صفة إبليس و جنوده.

(٤٩٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠ - ٢٠١.

(٤٩٩) مجاهد أبو الحجاج بن جبر المخزومي (المتوفى : ١٠٤هـ)، تفسير مجاهد، تحقيق عبد الرحمن الطاهر، دار المنشورات العلمية، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ١، ص: ٢٥٣.

(٥٠٠) سورة القصص، الآية: ١٦ - ١٧.

(٥٠١) سورة طه، الآية: ٨٥.

ثم استعمل حرف التوكيد " إن " ليركز له على أهم عنصر في القضية و هو أن القوم استضعفوه. و جاء ب " القوم " معرفا بالألف و اللام، و هي للعهد الذكري، ليدكره بطبيعة هؤلاء " القوم " فهم لا خير فيهم إلا قليلا، و لم ينسبهم إلى المتكلم، فلم يقل " إن قومي " أو " إن قومنا " و ذلك لتبرئهم منهم. و مما يؤكد هذه البراءة أن " القوم " كادوا يقتلونه لما نهاهم عن عبادة العجل. لذلك فلا بد أن يكف عن تعنيفه، أو التفكير في معاقبته بما لم يفعل، و لا يعطي فرصة للأعداء المندسين بينهم للشماتة به و الفرح بعقوبته على ما لم يفعله. و لا يصنفه مع القوم الظالمين.

فهذا الخطاب العاقل اللين هو الذي أرجع موسى إلى حالته الطبيعية، من السكون و الهدوء، قال تعالى: { وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } { ١٥٤ } .

و في قوله تعالى: " وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ " استعارة مكنية، شبه فيها الغضب بإنسان متكلم بصوته، طالبا الانتقام من الآخرين، ثم حذف المشبه به، و صرح بشيء من لوازمه و هو: سَكَتَ أي اختفى الصوت. و هذا تشبيه لطيف رائع بليغ. يعبر عن ما نحس به حين نغضب، فكأننا نسمع في باطننا صوتا يأمر بفعل معين زائد عن الحد المعتاد فنقوم به مباشرة. و قد يقول البعض أن هذا مجرد استبطان، لكننا متأكدين أننا حين الغضب لا نتصرف بعفوية تامة، فسلوك الغاضب ليس هو سلوكه الطبيعي الأصلي، و إنما هو سلوك طارئ و غريب عن طبيعته الأصلية. و لذلك غالبا ما يستغرب الإنسان سلوكه الذي قام به أثناء الغضب، و لذلك يقول المثل الغربي: الغضب أسوأ ناصح. (*) و لذلك ينصح بعدم اتخاذ أي قرار مصيري أثناء الغضب.

و لهذا ينصح القرآن الكريم بكظم الغيظ و عدم التماذي في الغضب، قال تعالى: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } { ٥٠٢ }

" و كظم الغيظ رده في الجوف؛ يقال: كظم غيظه أي سكت عليه و لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعوده. " { ٥٠٣ } ، و لا يكون كظم الغيظ فعالا إلا إذا أتبع بالعفو عن الناس كما قال سبحانه: { وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } { ٥٠٤ } .

" و لا شك أن أقوى القوى تأثيراً على النفس القوة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها، مع الامتلاء منها، دل ذلك على عزيمة راسخة في النفس، و قهر الإرادة للشهوة، و هذا من أكبر قوى الأخلاق

(*) la colère est mauvaise conseillère

(٥٠٢) سورة آل عمران. الآية: ١٣٤.

(٥٠٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ٤، ص: ٢٠٦.

(٥٠٤) سورة الشورى. الآية: ٣٧.

الفاضلة: " (٥٠٥) لذلك كان من يسارع إلى كظم الغيظ فهو يسارع إلى {مَغْفِرَةٍ
مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} (٥٠٦)

٩ - الحزن و الاكتئاب

قال تعالى: {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ
تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} {٩٢} سورة التوبة
و قال سبحانه: {وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ
فَلَا تَبْتَسُ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ} {٦٩} سورة يوسف
و قال عز من قائل: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} {٨٤} سورة يوسف
و قال جل جلاله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا} {٦} سورة الكهف
و قال كذلك: {إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ
شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {١٠} سورة المجادلة

"الحزن توجع لفانت أو تأسف على ممتنع" (٥٠٧). قال ابن القيم في شرح
هذه العبارة: "يريد أن ما يفوت الإنسان قد يكون مقدورا له و قد لا يكون، فإن
كان مقدورا توجع لفوته، و إن كان غير مقدور تأسف لامتناعه" (٥٠٨) و هذا
جانب من الحزن، و قد يكون الحزن لفوات أمر في الماضي، فلا يرجع، أو
يكون تأسفا على ممتنع في الحاضر فلا يقدر عليه.
أما الكآبة فما يظهر من تجليات الحزن على وجه المرء و كلامه و سار
سوكه. فالحزن انفعال باطني شعوري، بينما الكآبة أمر ظاهري ينتج عنه.

(٥٠٥) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج: ٤، ص: ٩١.

(٥٠٦) سورة آل عمران. الآية: ١٣٣.

(٥٠٧) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (تو: ٤٨١ هـ) منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م، ص: ٢٥.

(٥٠٨) ابن القيم، مدارج السالكين، ج: ١، ص: ٥٠٨.

و ابتداء لا بد أن نؤكد أن الحزن انفعال طبيعي من الانفعالات الإنسانية العادية، التي لا تدل على مرض نفسي، بل على الصحة النفسية. فالكآبة العارضة، و الحزن المؤقت طبيعة بشرية، فهي تصيب الإنسان السوي العادي في حالات المصائب التي لا تخلو منها حياة بشر مهما كان فوق هذه الأرض، و لو كان نبيا مرسلا.

لكن حين تتجاوز الكآبة و يتجاوز الحزن حالته الطبيعية فيصبح سمة و طبعا دائما في الشخص، أو يصبح الشخص يستمرئهما و يتلذذ بهما بل و يطلبهما، أو تصل شدتهما بشكل يصبح لهما أثرا على الصحة الجسمية أو العقلية للشخص، فهنا يصبح الأمر مرضا يستدعي العلاج، و هذا هو ما يسمى بالاكتئاب. و لعل هذا هو الذي أصاب يعقوب ن حين فقد ابنه يوسف ن ثم بن يامين ن، قال تعالى: { وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } { ٨٤ } (٥٠٩)

و لعل جميع النصوص في القرآن الكريم تنهى عن الوصول إلى مثل هذه الحالة النفسية، و تطالب المسلم بالتخلي عنها، لأنها قد تصل إلى مخالفة لمعنى حسن الظن بالله تعالى، كما أنها تضر بالحالة النفسية و حتى الجسمية للإنسان كما هو واضح في الآية، فالحزن قد أوصل يعقوب ن إلى حد فقد البصر.

كما أن الحزن و الاكتئاب قد يوصل الإنسان إلى حد الانتحار ، قال جل جلاله: { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } { ٦ } (٥١٠) ففي قوله سبحانه: { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ } "استفهام إنكاري بمعنى النهي، أي لا تبخع نفسك لإعراضهم عن الإيمان أسفا.

و في قوله تعالى { بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ } استعارة تمثيلية، شبه حاله صلى الله عليه و آله و سلم مع المشركين بحال من فارقتهم الأحباب، فهم باهلاك نفسه حزنا عليهم. " (٥١١)

إن الحفاظ على مستوى معين من الانفعالات مطلب ملح لحياة متزنة سعيدة، فإن اختلَّت و خرجت عن وضعها الطبيعي زيادة أو نقصا كان الاضطراب و قد يكون المرض النفسي، فعلى الإنسان تنظيم حياته الانفعالية تنظيما يسهم في تحقيق صحته النفسية و عليه عدم المغالاة و الإسراف في الانفعال بدون مبرر أو فيما لا يتناسب مع الموقف المعاش فإن فعل ذلك كان الألم و الاضطراب و المرض.

(٥٠٩) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

(٥١٠) سورة الكهف، الآية: ٦.

(٥١١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٥ ص: ٢٠٢.

و لقد غالى الكثير من الصوفية في أمر الحزن فمدحوه و جعلوه مقامة من مقاماتهم، و الصحيح أنه حالة من الأحوال و ليس مقامة من المقامات. و الحزن الدائم المتكلف شكل من أشكال التنطع المنهي عنه شرعا، إذ لا رهبانية في الإسلام.

فالشيطان يفرح بحزن المؤمنين {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا} لكن و لله الحمد فإن الشيطان { لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } و الحل في هذه القضية هو في قوله تعالى: { وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } فالتوكل على الله و التسليم له في كل الأمور يعطي المؤمن راحة نفسية تجعله لا يفكر في ما مضى و لا فيما يستقبل إلا بطريقة إيجابية، فيعمل على تغيير الواقع نحو الأحسن، متفائلا دائما بالخير ما دام الله معه.

و القرآن دائما يقرن فعل الحزن بحرف " لا " الناهية أو النافية. و من استعمال " لا " الناهية قوله تعالى: {لَا تَحْزَنَ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا قَائِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٥١٢)

ففي أحلك الظروف و أصعبها، لا يحق للمسلم أن يحزن أو تخور قواه أو عزائمه، و ليلزم السكينة، فهي الطريق إلى عون الله و دعمه.

و كذلك في قوله عز و جل: {وَ لَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} (٥١٣) فمهما ضل الضالون، و مهما أفسدوا و مكروا فليس للمسلم أن يحزن عليهم، ما دام حزنه لا يقدم و لا يؤخر شيئا، فلو كان حزنه ينفعهم لكان مشروعا، أما إنه لا ينفعهم، فلا حاجة إليه.

و في قوله عز من قائل: {وَ لَا تَهْتُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (٥١٤) ربط سبحانه بين الحزن و الهوان، فكأن الحزن ناتج عن الهوان، و على المسلم أن يكون عزيزا لا ذليلا. فقد رفعه الله بإيمانه مقاما عليا، و هذا إذا كان مؤمنا حقا.

و من استعمال " لا " النافية قوله سبحانه: {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ} (٥١٥) فإذا كان الله ينهى عن الحزن، فهو كذلك ينهى الحزن عن عباده المؤمنين، ليثبتهم على الحق، عوننا منه لهم. و هنا دفع الله الحزن عن أم موسى بإرجاع ابنها إليها ترضعه و تأخذ الأجرة على إرضاعها ابنها من عدوه! فدفع عنها الحزن لما تخشاه و تخافه.

و كذلك جعل الله فوات النصر في غزوة أحد على المؤمنين درسا يتعلمون منه دفع الحزن على ما فات و ما قد يصيبهم من المصائب بعد ذلك، قال

(٥١٢) سورة التوبة ، الآية: ٤٠.

(٥١٣) سورة النحل ، الآية: ١٢٧.

(٥١٤) سورة آل عمران ، الآية: ١٣٩.

(٥١٥) سورة طه، الآية: ٤٠.

سبحانه: { إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }^(٥١٦) فمع أنهم المؤمنون، و الرسول ﷺ معهم، و هم على الحق إلا أن النصر قد فاتهم، و المصيبة قد حلت بهم. فكل مكروه بعد ذلك هين.

و لم يُمدح الحزن في القرآن الكريم إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: { وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ }^(٥١٧) { ٩٢ } فما حزن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لفوات دنيا و لا لامتناعها، لكن حزنوا { أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } و هم هنا "لم يمدحوا على نفس الحزن و إنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة " ^(٥١٨)

و الحزن على الدنيا لذاتها أمر مذموم في كتاب الله تعالى: إذ قال: { وَ لَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كُفُورٌ } فتجد كثيرا من الناس، لا يكادون يفقدون نعمة من النعم إلا و أصابهم الحزن و القنوط و اليأس من رحمة الله، و قد عبر سبحانه عن النعمة بلفظة { أَدْقْنَا } ليدل على أن النعم لا تدوم، و قابلها بلفظة { نَزَعْنَا } ليدل على أن زوال النعم شديد، و سريع، فليستعد لها المؤمن في أي لحظة. فالمؤمن في الدنيا كالجندي في الثكنة، عليه أن يكون مستعدا في أي لحظة لمواجهة أي طارئ.

فهذه هي الحياة دار بلاء و اختبار، و ما على المؤمن إلا الصبر عليها و عدم الأسف أو الحزن على فقدها. و أن يرضى بما قضاه الله فيها.

١٠ - اليأس

^(٥١٦) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

^(٥١٧) سورة التوبة، الآية: ٩٢.

^(٥١٨) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج: ١، ص: ٥٠٦.

قال جل جلاله: { وَ لَئِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ }
كفُورٌ { ٩ }

سورة هود

و قال تعالى: { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } { ٨٧ } سورة يوسف
كما قال عز و جل: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } { ١١٠ } سورة
الرعد

و قال سبحانه: { قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } { ٥٥ } قَالَ وَ
مَنْ يَفْقَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } { ٥٦ } سورة الحجر
و قال عز من قائل: { وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِنِ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ
بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَفْقَطُونَ } { ٣٦ } سورة الروم.
و قال كذلك: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } { ٥٣ } سورة الزمر
و قال سبحانه: { لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِنِ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْفُرُ
قُنُوطٌ } { ٤٩ }

سورة فصلت

بعد حديثنا عن الحزن و الاكتئاب، نتحدث الآن عن أهم ما يمكن أن ينتج
عنهما و هو اليأس. فالأمل و التفاؤل من أهم الدوافع التي تحافظ على الاستقرار
النفسي للإنسان و استمراريته في السير نحو المستقبل، و دونه يحل اليأس و
أشد منه القنوط.
و لذلك قال الطغرائي^(٥١٩):

أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.^(٥٢٠)
فقد تمر بالإنسان فترات من الضيق و المعاناة تجعله يفقد هذا الأمل، فيقع
في اليأس و القنوط. فيصاب الإنسان بالحزن، و قد يتوقف عن الحركة و
السعي في الأرض و مقاومة الصعاب. بل قد يصل به الأمر إلى حد الانتحار
للتخلص من الحياة و صعابها، قال عز و جل مخاطبا نبيه و قد أيس من قومه:
{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } { ٦ }^(٥٢١). و
نظير هذا قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ

^(٥١٩) الطغرائي: (٤٥٥ - ٥١٣ هـ = ١٠٦٣ - ١١٢٠ م)، الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، مؤيد
الدين، الأصبهاني الطغرائي: شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ. ولد بأصبهان، واتصل بالسلطان مسعود بن
محمد السلجوقي (صاحب الموصل) فولاه وزارته. قتله السلطان محمود بن محمد السلجوقي، و نسبة الطغرائي إلى كتابة
الطغراء. الزركلي، الأعلام، ج: ٢، ص: ٢٤٥ - ٢٤٦،

^(٥٢٠) الطغرائي، الديوان، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، تركيا، ط: /، ١٣٠٠ هـ. ص: ٥٥.
^(٥٢١) سورة الكهف، الآية: ٦.

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ { ١٥ } (٥٢٢) و
مهما يكن سبب النزول في هذه الآية، أو المقصود بلفظة: { يَنْصُرُهُ } بالضبط،
إلا أن عموم لفظها يدل على النهي عن الانتحار بسبب اليأس، و تسفيه رأي من
أوصله اليأس إلى هذا الحد من السلوك الأخرق.

و قد جُعِلَ اليأس من أهم صفات إبليس، فما سمي بهذا الاسم إلا لأنه أبلس
من رحمة الله تعالى، قال البغوي " فلما عَصَى عُيْرَ اسمه و صورته، فقيل:
إبليس، لأنه أبلس من رحمة الله تعالى. أي يئس. " (٥٢٣)

كما أن اليأس و القنوط من صفات الكافرين، قال عز من قائل: { وَإِذَا أَدْقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا وَ إِنَّا نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ
{ ٣٦ } (٥٢٤)

و قال جل جلاله: { وَ لَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ
إِنَّهُ لَيئُوسٌ كَفُورٌ } { ٩ } (٥٢٥)

و قال سبحانه: { لَئِن يَسْأَمْ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِن مَسَّهُ الشَّرُّ لَيئُوسٌ
قَنُوطٌ } { ٤٩ } (٥٢٦)

قوله: "يئوس" على وزن " فعول"، من قول القائل: "يئس فلان من
كذا، فهو يئس، إذا كان ذلك صفة له. و هو يؤوس إذا بالغ في هذه الصفة.
" و حاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الإنسان بأنه يؤوس كفور. و
تقريره أن يقال: أنه حال زوال تلك النعمة يصير يؤوساً، و ذلك لأن الكافر
يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث
ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. و
أما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من الله تعالى و فضله و
إحسانه و طوله فإنه لا يحصل له اليأس، بل يقول لعله تعالى يردّها إليّ بعد
ذلك أكمل و أحسن و أفضل مما كانت. و أما حال كون تلك النعمة حاصلة
فإنه يكون كفوراً لأنه لما اعتقد أن حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو
بسبب أن الإنسان حصلها بسبب جده و جهده، فحينئذ لا يشتغل بشكر الله
تعالى على تلك النعمة. فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة
يؤوساً و عند حصولها يكون كفوراً. " (٥٢٧)

(٥٢٢) سورة الحج، الآية: ١٥.

(٥٢٣) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ -

١٩٩٧ م، ج: ١، ص: ٨١.

(٥٢٤) سورة الروم، الآية: ٣٦.

(٥٢٥) سورة هود، الآية: ٩.

(٥٢٦) سورة فصلت، الآية: ٤٩.

(٥٢٧) جزء: ١٧ رقم الصفحة: ٣٢٣.

لذلك نهى القرآن الكريم عن اليأس، إذ قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم
U: { قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } {٥٦} (٥٢٨)

كما قال سبحانه مؤكدا لهذا النهي على لسان يعقوب U: { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } {٨٧} (٥٢٩)

فكان النهي المتعلق بقول إبراهيم U مرتبطا بما لم يحدث بعد، و بما هو
خارج عن تصور الإنسان العادي، فلا يتصور عادة ميلاد من رجل شيخ و
زوجة عجوز.

أما النهي المتعلق بقول يعقوب U فكان مرتبطا بما هو داخل في تصور
الإنسان العادي، فرجوع الابن الضائع بعد سنين أمر ممكن عادة، و ليس في
حاجة إلى معجزة.

لذلك ختم قول إبراهيم U بعبارة { الضَّالُّونَ }، و ختم قول يعقوب U بعبارة
{ الْكَافِرُونَ } ذلك لأن اليأس مما هو فوق العادة من الله لا يكون إلا ممن ضل
فلم يعلم و لم يؤمن بقدرة الله على كل شيء، أما اليأس مما هو داخل في إطار
العادة، فلا يكون إلا ممن كفر بنعم الله تعالى و رحمته الواسعة. ف"اليأس من
رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال
أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه
الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة،
و كل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً " (٥٣٠)
و يطمئن القرآن الكريم عباد الله المؤمنين أن الله لا يتركهم للمصائب
تتقاذفهم، خصوصا إذا كانوا دعاة حق، فالأزمة لا تنفجر إلا إذا اشتدت و
ضاقت، قال عز و جل: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {١١٠} (٥٣١)
و لذلك قال ابن النحوي (٥٣٢):

اِسْتَدِّيْ اَزْمَةٌ تَنْفَرُجِي قَدْ اَدْنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ (٥٣٣)

لذلك كان الأمل في رحمة الله في الدنيا و الآخرة أمر مشروع، للحديث
الذي رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود: "حَطَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
حَطًّا مُرْبَعًا وَحَطَّ حَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَحَطَّ حُطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي

(٥٢٨) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٥٢٩) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٥٣٠) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: ١٨، ص: ٥٠٢.

(٥٣١) سورة الرعد، الآية: ١١٠.

(٥٣٢) ابن النحوي (٤٣٣ -- ٥١٣ هـ = ١٠٤١ - ١١١٩ م) يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل، التلمساني، أبو الفضل،...
كان فقها يميل إلى الاجتهاد، من أهل تلمسان. أصله من توزر. سكن سجلماسة، و توفي بقلعة بني حماد. عن الزركلي، الأعلام، ج: ٨،
ص: ٢٤٧.

(٥٣٣) زكريا الأنصاري (المتوفى: ٩٢٦ هـ)، المنفرجتان شعر ابن النحوي و الغزالي، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة،
مصر، ط: ١، س: /، ص: ٤٣.

فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَ هَذَا أَجْلُهُ مُحِيطٌ بِهِ
أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَ هَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَ هَذِهِ الْخُطُطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ
أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَ إِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا" (٥٣٤)

و عن الأمل في أمور الآخرة يقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَنْ
يَتَّبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ" (٥٣٥).

و إن مما يدفع اليأس و القنوط: الإيمان بالله و التسليم له في كل شيء و
الثقة في عونه و نصره إذ قال عز و جل: { وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ
قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا
وَ تَسْلِيمًا } { ٢٢ } (٥٣٦) و قد نزلت هذه الآية في غزوة الأحزاب، حين أحاطت
قبائل العرب المتحالفة مع قريش بالمدينة المنورة و حاصرتها من كل جهة، و
أخلف اليهود عهودهم مع الرسول ﷺ في الدفاع عن المدينة، و بلغت قلوب
الصحابة الحناجر و زلزلوا زلزالاً شديداً، لكن إيمانهم و تسليمهم لله تعالى
جعلهم يواجهون الموقف الصعب بكل شجاعة و إقدام، و لولا هذا الإيمان و
التسليم لوقعوا في اليأس و القنوط، و لانهموا شر هزيمة.

و مما يدفع اليأس كذلك: الثقة في مغفرة الله و رحمته إذ قال تعالى: { قُلْ يَا
عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } { ٥٣ }. و انظر كيف شرفهم ببياء الإضافة إلى
نفسه بقوله يا عبادي، و منه قول الشافعي و قيل للقاضي عياض:
وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَ فَخْرًا وَ كَدْتُ بِأَحْمَصِي أَطَا الثَّرِيًّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَ أَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

لكن ليس كل أمل مشروع، فالقرآن دائماً يعمل على إحداث التوازن النفسي
في الإنسان دون إفراط أو تفريط، فالأمل إذا خرج إلى غير ما شرع الله تعالى
فهو مذموم قال تعالى في أمل الكفار الخارج عن الحد: { دَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا
وَ يُلْهَمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } { ٣ } (٥٣٧)،
و قال سبحانه عن الأماني الباطلة لبعض المؤمنين و أهل الكتاب: { لَيْسَ
بِأَمَانِيكُمْ وَ لَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا } { ١٢٣ } (٥٣٨)

(٥٣٤) البخاري، الجامع الصحيح، دار ابن كثير، بيروت لبنان، ط: ٣، ١٤٠٨، ج: ٥، ص: ٢٣٥٨، باب في الأمل و طوله.
(٥٣٥) الترمذي، الجامع الصحيح، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ٥، ص: ٥٠، باب ما جاء في
فضل الثقة على العباد، عن أبي سعيد الخدري.
(٥٣٦) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
(٥٣٧) سورة الحجر، الآية: ٣.
(٥٣٨) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

و في هذا المقام يقول الحسن البصري: "ليس الإيمان بالتحلي و لا بالتمني و لكن ما وقر في القلب و صدقته الأعمال"^(٥٣٩).
و خلاصة القول أن الوسطية في اليأس و الأمن هي المخرج النفسي الذي رسمه القرآن الكريم للإنسان السوي. قال الطحاوي: "الأمن و الإياس ينقلان عن ملة الإسلام، و سبيل الحق بينهما لأهل القبلة".

و قال الشارح لهذا الكلام المختصر: " فيجب أن يكون العبد خائفا راجيا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه و بين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس و القنوط. و الرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط و الخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور و التمني و الرجاء الكاذب. و قد مدح الله تعالى أهل الخوف و الرجاء بقوله: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَائِمًا يُحْذِرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } { ٩ } ^(٥٤٠) و قال: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } { ١٦ } ^(٥٤١) فالرجاء يستلزم الخوف، و لولا ذلك لكان أمنا، و الخوف يستلزم الرجاء، و لولا ذلك لكان قنوطا و يأسا. و كل أحد إذا خفته، هربت منه، إلا الله." ^(٥٤٢)

^(٥٣٩) البيهقي شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤١٠، ج: ١، ص: ٨٠. و الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ط: ٢، ١٣٧٢هـ، ج: ١٠، ص: ٦٠.

^(٥٤٠) الزمر، الآية: ٩.

^(٥٤١) السجدة، الآية: ١٦.

^(٥٤٢) صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرع الصالحى دمشقى (المتوفى: ٧٩٢هـ)، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة، المدينة:، مصر، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م. ص: ٣٣٠.

١٢ - الظن

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَليَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ { ١٥٤ } سورة آل عمران

و قال سبحانه: { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ { ١٥ } سورة الحج و قال عز وجل: { لَوْ لَأِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ { ١٢ } سورة النور

و قال عز من قائل: { إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا { ١٠ } سورة الأحزاب. و قال جل جلاله: { وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ

لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا { ٦ } سورة الفتح و قال كذلك: { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا { ١٢ } سورة الفتح و قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يُعْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ { ١٢ } سورة الحجرات. و قال جل جلاله: { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى { ٢٣ } سورة النجم.

و قال عز من قائل: { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً النَّاتِيَةَ { ٢٧ } وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا { ٢٨ } سورة النجم.

إن من أهم ما جاء القرآن الكريم ليربي النفوس عليه هو السلامة العقلية، فعلم الإنسان المسلم كيف ينشئ التصورات بناء على الحقائق القاطعة. و ذلك لأن الإسلام مبني على الحق، و لا يمكن أن ينتشر أو ينجح وسط أناس تسيطر على عقولهم الخرافة، و ليس لهم أدنى قواعد التفكير السليم.

و قد عمم القرآن الكريم مبادئ العقل السليم على جميع مستويات الحياة، سواء الإعتقادية أو العلمية أو حتى المعاملاتية و الأخلاقية. فدعا إلى بناء الحياة كلها على قواعد يقينية بعيدا عن الشك أو الظن.

و " الظن : بفتح الظاء مصدر "ظن" ، ج: ظنون و أظانين [و هو] من ألفاظ الأضداد، [فيفيد] اليقين و الشك ، فأما اليقين [فكما في قوله تعالى]: { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ } أي، يوقنون، و أما الشك [فكما في قوله جل جلاله]: { إِنَّ ظَنًّا إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُستَيِّقِينَ } ، و يلحظ عند استعمال القرآن على أنه ضرب من اليقين إن استعمل بعد "أن" [و هو] الاعتقاد الراجح مع احتمال النفيض " (٥٤٣) و لعل الكاتبان يقصدان " إن استعمل بعده "أن" كما في الآية المذكورة. لكن هذا غير مطرد في جميع القرآن الكريم، كقوله تعالى: { وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ } { ٢٢ } (٥٤٤) فمع أن بعده " أن " إلا أنها هنا لا تفيد اليقين. و أقول أن القرآن يستعمل لفظة: " ظن " بحسب السياق و يدل على معناها خصوصا الحالة النفسية للمعني بها في النص الواردة فيه.

و الظن عموما من أسوأ الطرق المؤدية إلى المعارف، و غالبا ما تنتج عنه معلومات مغلوطة. لذلك فقد حذر منه القرآن الكريم كثيرا، و قرر أن الظن لا يغني من الحق شيئا في مجال المعارف و العلوم و خصوصا العقائد الدينية التي يجب أن تبنى على اليقين. فعن اتخاذ الآلهة و عبادتها يقول جل جلاله: { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى النَّفْسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } { ٢٣ } (٥٤٥). فقد اعتبر القرآن الكريم هذه الآلهة المزعومة مجرد أسماء اخترع بعضها العابدون لها، و بعضها ورثوها عن آبائهم المفترين، فهي ليست حتى أجساما من الحجر أو الخشب أو غيرها.. لكنها مجرد أسماء و أوهام لا وجود لها في الواقع، ما دام لا دليل و لا حجة عليها. فما هي إلا نتيجة ظنون باطلة، و أهواء متبعة لا قيمة لها ما دام قد جاءهم الحق و اليقين من الله تعالى بدلا عنها. و قد عبر سبحانه عن هذا المعنى بقوله { مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } ، و هذا من مبتكرات القرآن الكريم، التي تكرر استعمالها في مواضع عدة منه، و أصبحت مثلا سائرا بين الناس في اللغة العربية، و فيها استعارة جميلة، إذ نقل معنى السلطة و الإجبار من الحاكم إلى الحجة، فأصبح للحجة سلطان و إجبار على كل من سمعها أو اطلع عليها.

و في نفس السورة يذكر القرآن الكريم تخبط الكفار في أمر جنس الملائكة إذ يقول عز من قائل: { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى } { ٢٧ } وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ الظَّنُّ لَا يُعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } { ٢٨ } (٥٤٦).

(٥٤٣) محمد رواس قلعه جي و حامد صادق قنبيبي، معجم لغة الفقهاء، ج: ١، ص: ٣٥٤.

(٥٤٤) سورة فصلت، الآية: ٢٢.

(٥٤٥) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٥٤٦) سورة النجم، الآية: ٢٧ - ٢٨.

فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله تعالى، فكان الرد عليهم أن أمور الغيب لا تقرر إلا بعلم من الله تعالى، لا بناء على الظنون الباطلة، فالظن لا يغني عن الحق شيئاً. و في الآيات الكريمت تعريض بهؤلاء المشركين الذين لا يقبلون أن تكون لهم بنات و ينسبون لها بعد ذلك إلى الله تعالى. و لذلك جاء أسلوب السخرية من عقولهم المعطلة في قوله جل جلاله: { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى } فهي قسمة غريبة جداً، غرابة هذا اللفظ الذي استعمل للتعبير به عنها.

و نلاحظ أن القرآن الكريم قد استعمل في خلال السياق لفظة " علم " بدل " سلطان " فقال في الأولى: { ... مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } بينما قال في الثانية: { مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } فكأن السلطان في الأولى قد فسرت بالعلم في الثانية. و هذا للدلالة على أن العقائد لا تؤخذ بالظن، و إنما باليقين، و اليقين لا يحصل إلا بالعلم.

و كما يجب ترك الظن في تحصيل الحقائق و العقائد، فكذلك يجب حسن الظن بالله تعالى، و معنى الظن هنا ليس الظن الذي يوصل إلى المعارف الخاطئة، و لكن الظن الذي يؤدي إلى السلوك الخاطئ تجاه الله تعالى، إذ يقول في كتابه: { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أُمَّةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ

مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَليَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } { ١٥٤ } (٥٤٧)

فقوله: { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } " أي غير الظن الحق الذي يجب أن يظنوه إذ قالوا: لو كان محمد نبيا حقا ما تسلط عليه الكفار، و هو قول أهل الشرك بالله. " (٥٤٨)

فعلى المسلم أن يحسن الظن بالله تعالى، ما دام يؤمن بقدرته و حكمته و علمه، فالخير حيث شاء الله تعالى، و كل مشيئة الله مبنية على حكمته و علمه، فما على المسلم إلا التسليم لله في جميع شأنه .

و لهذا الظن الحسن بالله تعالى الأثر الإيجابي على نفس المؤمن، فهو يورثه السكينة و هدوء النفس و طمأنينتها، و يتجلى ذلك في وصف القرآن الكريم لهؤلاء الذين { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } فهم { قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } و يقولون في السر { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } فهم لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الصحيح، و ما يتطلبه من التسليم لله تعالى في النتائج،

(٥٤٧) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٥٤٨) التفسير المنير، ج: ٤، ص: ١٢٩.

و أنهم لا يطالبون إلا بتقديم الأسباب. و أن المصائب تصيب المؤمن كما تصيب غيره. و الموت حق على كل بشر أن يتذوقه.
أما أصحاب الظن الحسن فقد أنزل الله عليهم { مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةٌ نُعَاسًا } و ما ذاك إلا للراحة النفسية التي يتمتعون بها، فثقتهم بالله عظيمة، و رضاهم بقضائه و قدره ثابت لا يزلزله شيء.

و هذا الذي سبق الحديث عنه كان في غزوة أحد، و قد تكرر نفس الشيء في غزوة الأحزاب، إذ قال تعالى: { إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا } { ١٠ } (٥٤٩).
ففي ظروف الحصار القاسية تتحرك النفوس محاولة الدفاع عن ذاتها بشتى الوسائل، فتشخص العيون بحثا عن أي مخرج محتمل، و يضخ الدم في العروق استعدادا لأي طارئ قد يحدث، و يظهر على المحيي الهلع و الجزع، و يسيطر على الباطن الظن السيئ، { وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا } و قد جاء " الظن " هنا جمعا منكرا مشبعا بالألف في ختامه في معظم القراءات كما جاء فعله مضارعا. فهو " لم يفصل هذه الظنون . بل تركها مجملة ترسم حالة الاضطراب في المشاعر و الخوارج، و ذهابها كل مذهب، و اختلاف التصورات في شتى القلوب " (٥٥٠)... و هذا المد في آخرها إنما يشعر بامتداد هذه الظنون و تلونها و ذلك يدل على الحيرة التي أصابت الناس من جراء هذا الهجوم و الحصار المضروب عليهم، و الذي لا يجدون منه فكاكا و لا يتصورون له مخرجا. و الفعل المضارع في " تظنون " يفيد تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها كناية عن طول مدة هذا البلاء. كما أن في صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم من باب العتاب لهم. و كل ذلك تصوير لحالة الطوارئ النفسية التي أصابت الناس في ذلك الموضع العصيب.

و قد جعل القرآن الكريم من سوء الظن بالله صفة متأصلة في المنافقين و المشركين، إذ قال جل جلاله: { وَ يُعَدِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا } { ٦ } (٥٥١) ف " قد جعل الله صفة المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما. يتوقع منه الخير في السراء و الضراء. و يؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين.

(٥٤٩) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٥٥٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٥، ص: ٢٨٣٧.

(٥٥١) سورة الفتح، الآية: ٦.

و سر ذلك أن قلبه موصول بالله. و فيض الخير من الله لا ينقطع أبدا. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، و أحسها إحساس مباشرة و تذوق. فأما المنافقون و المشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. و من ثم لا يحسون تلك الحقيقة و لا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله و تتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، و يبنون عليها أحكامهم. و يتوقعون الشر و السوء لأنفسهم و للمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا على غير ثقة بقدر الله و قدرته، و تدبيره الخفي اللطيف." (٥٥٢)

و قال كذلك في المنافقين بوجه خاص: { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّهُ السَّوْءَ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا } {١٢} (٥٥٣)

"لقد ظنوا ظنهم، و زين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، و لم يفكروا في سواه. و كان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. و هو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء. و كذلك قلوبهم. و كذلك هم بكل كيانهم. بور. لا حياة و لا خصب و لا إثمار. و ما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بوراً. ميتاً أجرد نهايته إلى البوار و الدمار. (٥٥٤) إلا أن يتداركه صاحبه بعملية استصلاح متعبة، كما تستصلح الأرض البور بعد أن تترك مدة بغير غراس و لا عناية. و في هذا تلميح لهم بأن يتداركوا أنفسهم بمراجعة قبل فوات الأوان.

كما دعا القرءان الكريم إلى حسن الظن برسول الله و آله غذ قال عز وجل: { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ } {١٢} (٥٥٥) و ذلك بعدم اتباع خطوات الشيطان الذي يوسوس في الصدور و يلقي فيها بأسوأ الظنون بالآخرين حتى برسول الله و آل بيته، كما حدث بالنسبة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما رماها المنافقون بالإفك، حيث كان الواجب على المؤمنين أن يحسنوا الظن بها، و لا يقبلوا إرجاف المرجفين. و عبر القرآن الكريم عن ذلك بعبارة فيها عتاب و لوم، إذ قال تعالى: { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا } و لم يقل: " ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِغَيْرِهِمْ خَيْرًا " لأن من لا يتصور هذا الإفك في نفسه لا يتصوره في غيره، بله في من هو خير منه من باب أولى.

كما أمر القرءان الكريم بحسن الظن بسائر المؤمنين، إذ قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يُعْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ

(٥٥٢) سيد قطب، في ظلال القرءان، ج: ٦، ص: ٣٣١٩.

(٥٥٣) سورة الفتح، الآية: ١٢.

(٥٥٤) سيد قطب، في ظلال القرءان، ج: ٦، ص: ٣٣٢٢.

(٥٥٥) سورة النور، الآية: ١٢.

إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ { ١٢ } (٥٥٦) فقولهُ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ } فيه تَأديب للمؤمنين في تعاملهم مع بعضهم على أساس من الثقة المتبادلة التي هي أساس بناء المجتمع الصالح. و قد خاطبهم بلفظ الإيمان لأنه خطاب محبب إلى قلوبهم، كما خاطبهم بصيغة الجمع ليدل على أن هذا الظن الحسن لا بد أن يكون متبادلاً بينهم حتى يؤدي الغرض التربوي المرجو منه. وإنما قال { كَثِيرًا } ولم يقل الظن مطلقاً لأن من الظن ما هو واجب كحسَن الظن بالله و برسوله و بالمؤمنين. و منه ما هو مندوب إليه و هو إذا كان المظنون به ظاهر الفسق كم قال العلماء. و عللها النهي بقوله: { إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } و لا يمكن تجنب هذا الإثم إلا بترك كل الظن السيئ بالمؤمنين. و نثى على النهي عن الظن السيئ بالنهي عن التجسس بقوله: { وَ لَّا تَجَسَّسُوا } و ذلك لأن التجسس غالباً ما ينتج عن سوء الظن. فمن ساء ظنه بغيره سارع للتحقق من ظنه فوقع في إثم التجسس. ثم جاء بعده مباشرة النهي عن الغيبة { وَ لَّا يَعْتَبِ بَعْضُكُمْ } و ذلك أن الغيبة غالباً ما تنتج عن التجسس. فقد يرى الظان المتجسس شيئاً، فيقوم بإذاعته، في غياب المعنى بالأمر دون أن يترك لهذا الأخير فرصة ليدافع عن نفسه، فيكون حاله كحال من يقاتل طواحين الهواء، أو من يقاتل الموتى، بل لقد شبهه الله بمن يأكل لحم أخيه الميت، و ذلك زيادة في تقبيح فعله.

فهكذا إذا ربي القرآن النفوس المؤمنة على تجنب الظن السيئ، لما يؤدي إليه من نتائج وخيمة على الاعتقاد و التصور و السلوك، و دعا إل بناء الحياة كلها على أساس من اليقين و الوضوح. وهذا كفيل بأن يضمن للمؤمن حياة نفسية سليمة.

الفصل الرابع : وقاية و علاج النفس الإنسانية في تعابير القرآن

- ١ - التوبة
- ٢ - الإخلاص
- ٣ - الإيمان القدر
- ٤ - التوكل
- ٥ - الرضى
- ٦ - الصبر

- ٧_ الحياء
٨- الصلاة
٩- الزكاة
١٠- الصوم
١١_ الحج

لا يخلو عصر ممن انتشار الاضطرابات و الأمراض النفسية، و لقد استفحلت هذه الأمراض و الاضطرابات في هذا العصر بشكل واسع، و " ليس الشفاء النفسي في ما يتناوله بعض الناس من عقاقير مهدئة أو مسكنة، فهذه لها مفعول مؤقت، سرعان ما ينتهي مفعولها، و تعود الاضطرابات النفسية ما كانت. و هذه العقاقير لا تؤثر في النفس، و إنما تؤثر في الجسم عموماً، و على الجهاز العصبي خصوصاً، فهي تهدئ من الآثار البدنية للاضطرابات النفسية، و لا تفيد النفس البشرية شيئاً. فضلاً عن كل ذلك، فغن لها آثاراً جانبية على الجهاز العصبي، منها الإدمان عليها، فكأن أضرارها أكثر من فوائدها." (٥٥٧)

و بعد أن تناولنا في الفصل السابق بعض هذه الآفات و الأمراض النفسية و رأينا كيف تناولها القرآن الكريم بالذكر و الوصف و التحليل و التمثيل، نحاول – بعون الله تعالى - في هذا الفصل أن نتناول بعض العلاجات التي وصفها القرآن الكريم لهذه الآفات، فقد جعل الله هذا القرآن شفاء للمؤمنين. قال تعالى: { وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {٨٢} (٥٥٨) و قال سبحانه: { قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَ

(٥٥٧) أحمد شوقي إبراهيم، الروح و النفس و العقل و القرين، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، محافظة الجيزة، مصر، ط: ٢، ٢٠٠٥، ص: ٢٠٣.
(٥٥٨) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

شِفَاءَ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِن
مَكَانٍ بَعِيدٍ { ٤٤ } (٥٥٩)

فقد جعل الله القرآن شفاءً لنفوس و صدور المؤمنين، و ليس لأمرضهم
العضوية، قال عز و جل: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِّمَا
فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } { ٥٧ } (٥٦٠) فقد ورد " عن الحسن
رضي الله عنه قال: "إن الله سبحانه و تعالى جعل القرآن شفاءً لما في
الصدر و لم يجعله شفاءً لأمرضكم " (٥٦١)

فكيف عالج القرآن الكريم أمراض النفوس، و ما هي التعابير التي
استعملها حين حديثه عنها؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الفصل بإذن الله.

(٥٥٩) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٥٦٠) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٥٦١) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار الفكر،
بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٣، ج: ٤، ص: ٣٦٦.

١ - التوبة

قال تعالى: {فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
{٣٧}

سورة البقرة

و قال سبحانه: {وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَعْفَرُوا لِدُنُوهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ
يَعْلَمُونَ {١٣٥}

سورة آل عمران

و قال عز وجل: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
يُوْبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا {١٧} وَ لَيْسَتْ
التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا
الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {١٨} سورة النساء
و قال عز من قائل: {وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا {٢٧} يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ
ضَعِيفًا {٢٨} سورة النساء

و قال جل جلاله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا {٤٨} سورة النساء
و قال كذلك: {وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا
مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {٣٨} فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ
يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ {٣٩} سورة المائدة
و يقول كذلك: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ
الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {١٠٤} سورة التوبة
و يقول تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ {٥٣} سورة الزمر
و يقول سبحانه: {وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ
يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ {٢٥} سورة الشورى

التوبة هي أول الطريق في علاج النفس الإنسانية من أمراضها لمختلفة،
فما حقيقتها في القرآن الكريم، وكيف عبر عنها؟

التوبة في أصل اللغة: "مصدر تاب، الرجوع عن الذنب." (٥٦٢)

أما في الاصطلاح ف "التوبة الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن
القلب ثم القيام بكل حقوق الرب. و التوبة النصوح هي توثيق بالعزم على ألا
يعود لمثله. قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح الندم بالقلب و

الاستغفار باللسان و الإقلاع بالبدن و الإضمار على ألا يعود... و كذلك التوب
قال الله تعالى { غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ } (٥٦٣) و قيل التوب جمع توبة. و
التوبة في الشرع الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة " (٥٦٤)
و هي " من أفضل مقامات السالكين؛ لأنها أول المنازل، و أوسطها، و
آخرها، فلا يفارقها العبد أبداً، و لا يزال فيها إلى الممات. و إن ارتحل السالك
منها إلى منزل آخر ارتحل به، و نزل به. فهي بداية العبد، و نهايته. و حاجته
إليها في النهاية ضرورية؛ كما حاجته إليها
في البداية كذلك. " (٥٦٥)

فالتوبة على هذا الوجه هي أهم أسلوب و طريقة لتقويم النفس الإنسانية، و
تغيير سلوكها نحو الأحسن، فالإنسان خطأ بطبعه، لكن فضل الإنسان على
غيره أنه قد يتوب من خطئه، و قد يستبدله بعمل صالح، و هذا منذ آدم إلى قيام
الساعة، قال تعالى: { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ } (٣٧) (٥٦٦)

فقد كان أول شأن آدم فوق الأرض التوبة، و بها تميز عن إبليس الذي
أصر على ذنبه لما سأله الله عن سبب تركه السجود لآدم حين أمره
بذلك. فكان باستطاعته و هو يكلم الله تعالى أن يسأله التوبة و المغفرة
من ذنبه العظيم، لكنه استغل تلك الفرصة العظيمة ليشفي غليله من آدم،
فسأل بدلا عن ذلك الإنظار إلى يوم يبعثون. ليس ليكفر عن ذنبه طول
هذه المدة، لكن ليتمادى فيه، و ليزيد على ذنبه ما يضحمه و يمدد في
الزمن مدا طويلا. و لذلك فقد نرجو لابن آدم- مهما فعل - أن يتوب من
ذنبه، لكن لا ترجى توبة لإبليس إلى يوم الدين.
و نرى أن آدم تلقف الفرصة مباشرة حين فتحت له باب التوبة، مع
أن الله لم يكلمه مباشرة كما كان الأمر مع إبليس. فنجد في الآية
قراءتين:

{ فَتَلَقَى آدَمُ } و { فَتَلَقَى آدَمَ } برفع كلمة " آدم " و نصبها. و كلا القراءتين
تعطينا صورة لهذا التلقي المتلهف، فكأن الكلمات ذهبت إليه متلهفة، و كأن آدم
كان متلهفا إليها أشد من تلهفها عليه، " مشتاقا تسعى إلى مشتاق "

(٥٦٣) سورة غافر، الآية: ٣.

(٥٦٤) الجرجاني، التعريفات، ص: ٩٥.

(٥٦٥) الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى : ٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف
الكتاب العزيز،

تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٢ = ١٩٩٦،
ج: ٢، ص: ٣٠٤.

(٥٦٦) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

و لقد وردت هته الآيتان في معرض الحديث عن الفاحشة و مقدار العقوبة المؤقتة التي شرعها الله لتطهير المجتمع منها، فجاءت هاتان الآيتان لتفتح باب التوبة أمام المخطئين، ليسار عوا إلى مغفرة الله تعالى قبل فوات الأوان. و ترغيبا في هذه التوبة عبر الله عنها بأنها { عَلَى اللَّهِ } فكأن الله قد ألزم نفسه بها، و لكل عاص الحق على الله أن يقبلها منه إذا جاء بها. مع أنه لا أحد يستطيع أن يفرض على الله شيئا. و في الآية التالية نجده يعبر عن فعل السيئات بـ: { يَعْْمَلُونَ } و العمل في الأصل يطلق على الفعل ذو الشأن. و السيئات إنما يستعمل لها في الأصل لفظ " الفعل " فهو لاء جعلوا من السيئات عملا لهم ذو شأن يجتهدون فيه، فلا يمكن أن تقبل توبتهم إذا أصروا على أفعالهم السيئة.

و قوله { وَ لِمَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ } دليل على أن توبة الكافر من فعل السيئات لا تنفعه ما لم يتب من كفره. ذلك أن توبته ليس لها أساس صحيح، و ما بني على باطل فهو باطل. و ما كان أساسه خاويا فيوشك أن ينهار، كذلك توبة الكافر أساسها خاو، و لا تلبث أن تنهار و يعود الكافر إلى ما كان عليه. فالعقائد و الأفكار هي أساس السلوك، و كلما كانت هذه العقائد و الأفكار فاسدة فلا ينتج عنها إلا عمل فاسد.

فعلى المسلم أن يسارع إلى التوبة المستمرة إلى الله تعالى، و لا يتبع خطوات هؤلاء الذين يريدون أن يبقى العصاة مثلهم في حماهم يتمرغون، قال سبحانه: { وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا } { ٢٧ } { يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا } { ٢٨ } { ٥٧٠ } .
 فالله يريد أن يرفع عباده المسلمين إلى أعلى عليين، و الذين يتبعون الشهوات يريدون أن ينزلوا بهم إلى أسفل سافلين ليكونوا سواء، و إنها لمقابلة عجيبة بين هذا الشد الإلهي نحو الأعلى و هذا الشد الشيطاني نحو الأسفل، و مع أن السير نحو الأسفل أسهل، إلا أن الدعم الإلهي لمن يريد أن يتوب يغلب هذه الجاذبية الأرضية و يحلق بصاحبها نحو أجواء روحانية عالية. فيكفي أن يضم العبد إرادته إلى إرادة الله تعالى ليصل إلى أرفع المستويات. فلولا دعم الله لعبده الضعيف في مواجهته للباطل، لما تمكن من مغالبتة.

و من رحمته سبحانه أنه فتح باب التوبة من كل إثم: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } { ٤٨ } { ٥٧١ } .

فهو سبحانه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء سبحانه، لأن الشرك جمع إلى الإثم العظيم الافتراء على الله تعالى. و لا يقبل الله بأي حال من الأحوال أن يتقول الإنسان عليه بغير علم. فالإثم العملي ذو أثر سيء، لكنه قد لا يتجاوز

{ ٥٧٠ } سورة النساء، الآية: ٢٨.

{ ٥٧١ } سورة النساء، الآية: ٤٨.

أثره صاحبه، لكن الإثم المعرفي، القائم على تغيير الحقائق، أو تزييفها أو الإدلاء فيها بغير دليل، فهذا أثره متعد إلى مستويات بعيدة لأن المعارف تبنى على بعضها والسلوكات تبنى على أساس المعارف والعقائد، وإذا تم إفساد المعارف فسدت العقائد، وإذا فسدت العقائد فسدت السلوكات. ولذلك لما سئل الرسول p ((فقل له أياكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا.))^(٥٧٢). ولذلك لا نعجب حينما نجد أن أهم سلاح يستعمله أعداء الإسلام هو تشويه الحقائق، لأجل إضلال الناس، وتركهم حيارى لا يهتدون سبيلا. وهذا ما تقوم به وسائل الإعلام الحديثة في الغرب التي لا تتوقف لحظة عن بث سمومها على مدار الساعة، وتجهز لها جيوشا جرارة أكثر عددا و عدة من الجيوش المسلحة. ومهما كان الشرك لا يغفر لصاحبه، إلا أنه إذا تاب منه صاحبه فإن الله يتوب عليه رغم عظم هذا الذنب. فالله يغفر الذنوب جميعا، وهذا من رحمة الله بخلقه.

لكن مغفرة ذنوب التائب قد تشترط لها شروط مثل رد الحقوق إلى أصحابها، فالذنب إذا تعلق بحقوق البشر، فلا يكفي فيه التوجه إلى الله بالتوبة، فالله يغفر الذنوب بمجرد التوبة منها، لكن الإنسان لا يغفر لأحد ظلمه حتى يستوفي حقه منه، إلا قليلا، وهذا لطبيعة النفس الإنسانية الهلوع. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {٣٨} {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {٣٩} ^(٥٧٣) فقد اشترط الله لقبول توبة السارق في الآية الكريمة الإصلاح، إذ قال: {وَأَصْلَحَ} وذلك بأن يرد المظالم إلى أصحابها. وهذا خاص بالذنوب التي تتصل بحقوق الناس، أما ما تعلق بحقوق الله، فهي في ديننا - والله الحمد - تغفر بالتوجه إلى الله وحده، فلا حاجة لكاهن أو قسيس، ليستمع إلى خطايا الناس وما وقعوا فيه من القاذورات حتى يغفرها لهم. فالله هو الذي يقبل التوبة عن عباده وحده. {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {١٠٤} ^(٥٧٤). وكما تكون التوبة بالاعتراف بالذنب أمام الله تعالى، فإن العمل الصالح ينفي الذنوب والمعاصي، ولذلك قرن سبحانه بين التوبة والصدقة و مزج بينهما مزجا في هذه الآية الكريمة، التي بدأها باستفهام منفي {أَلَمْ يَعْلَمُوا} وفي ذلك تهيج إلى التوبة والصدقة، وتشبيه لإحداهما بالأخرى في الأثر، فكلاهما تنفي الذنوب وتحطها. لكل هذا فلا مجال للقنوط واليأس من رحمة الله تعالى، فما هو يخاطب الناس بقوله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

^(٥٧٢) رواه مالك في الموطأ في كتاب الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب.

^(٥٧٣) سورة المائدة، الآية: ٣٨ - ٣٩.

^(٥٧٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

اللَّهِ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ { ٥٣ }^(٥٧٥) و قد بدأ الآية بحرف النداء " يا " الذي مما يعنيه: طلب الإقبال، فكان يمكن أن يبدأ الخطاب بحرف توكيد مثل " إن " أو حرف جر " لـ " فيصبح الكلام: " قل إن عبادي"، أو " قل لعبادي"، لكنه أثر حرف النداء لأن أثره على النفس هنا أبلغ و أعمق. ثم قام بنسبة الخلق إليه بحرف الياء { عِبَادِي } زيادة في رحمة النداء. ثم حدد الذنوب التي تغفر عنده سبحانه بقوله { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } فهي جميع الذنوب دون استثناء، و لو كان شركا بالله تعالى، فإن المشرك إذا تاب غفر له، فالإسلام يجب ما قبله. ثم لم يصفهم بالعصاة أو المذنبين، لكن قال: { الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } ليذكرهم أنه إنما نهاهم عما نهاهم عنه إلا لمصلحة أنفسهم، و أن هذه المعاصي إنما ترهم هم، و لا تضره شيئاً، فليسار عوا إلى ما فيه خيرهم و صلاحهم. و ختم الآية بما يناسب مقدماتها و صلبها، بقوله { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } لكل هذا كانت هذه الآية أرجى آية في كتاب الله " قال ابن مسعود: أرجى آية في كتاب الله عز وجل هذه الآية."^(٥٧٦)

فهو { الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }^(٥٧٧) { ٢٥ } و هنا نجد أنه عدل عن حرف "من" إلى حرف "عن" فالأصل المتبادر للذهن البشري أن يقول: "يقبل التوبة من عباده" فنقول: قبل منه، و ليس: قبل عنه. و السر في ذلك أن المعنى هنا تعلق بالفعل المتضمن في كلمة " التوبة " و هو الفعل " تاب " و ليس بالفعل : " يقبل " فكان المعنى: " يقبل أن يتوب عن عباده، و يعفو عن السيئات " فيكون معنى المغفرة هنا مضاعفا: توبة عن العباد + مغفرة للذنوب، و هذا للذي يتقدم بهذه التوبة إلى الله تعالى، فالفعل من العبد واحد و الرد من الله تعالى مضاعف. و هكذا نجد القرآن الكريم قد استعمل كل الأساليب البلاغية الممكنة لدعوة الناس إلى التوبة و ترغيبهم فيها بأساليب قد تكون فوق مستوى إدراك القارئ العادي البسيط، لكنه يستشعرها في قرارة نفسه، و هذا ما عبر عنه أحدهم بقوله: " الإعجاز... يدرك و لا يمكن وصفه."^(٥٧٨)

٢ - الإخلاص

^(٥٧٥) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

^(٥٧٦) السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: ١، س: ٣، ج: ٣، ص: ١٨٢.

^(٥٧٧) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

^(٥٧٨) الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: ٢، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م، ج: ٢، ص: ١٠٠.

قال تعالى: {قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } { ١٣٩ } سورة البقرة
و قال سبحانه: { إِيَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } { ١٤٦ } النساء
و قال عز وجل: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } { ٢٩ } سورة الأعراف

قال: { حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَ رَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } { ٢٢ } سورة يونس.

قال {فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } { ٦٥ } سورة العنكبوت

قال: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلِّ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ } { ٣٢ } سورة لقمان

و قال عز من قائل: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } { ٢ } أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } { ٣ } سورة الزمر

و قال جل جلاله: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } { ١١ } وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } { ١٢ } قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } { ١٣ } قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } { ١٤ } فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } { ١٥ } سورة الزمر

و يقول كذلك: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } { ١٤ } سورة

غافر

و يقول سبحانه: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { ٦٥ } سورة غافر
و يقول تعالى: {وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } { ٥ } سورة البينة

قد تتقيد النفس الإنسانية بقيود مختلفة داخلية و خارجية، فجاء توحيد الله و الإخلاص له تحريراً لهذه النفس من كل القيود التي قد تقف حاجزاً أمامها أو تعوق انطلاقها.

و الإخلاص لغة من الخلوص و هو التصفية من كل شائبة (*) قال تعالى: {مِنْ بَيْنِ قَرْتٍ وَ دَمٍ لَبِئَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ} (٥٧٩).

أما في الاصطلاح فالإخلاص: "إفراد الحق في الطاعة بالقصد" (٥٨٠) و تخليص العبادة من الالتفات إلى غير الله تعالى.

و قد أسهب الدارسون للنفس الإنسانية و سلوكها في تعريف الإخلاص و بيان حقيقته، و من أقوال هؤلاء في تعريف الإخلاص: يقول سهل التستري: " نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن يكون حركاته و سكوته في سره و علانيته لله وحده لا شريك له لا يمازجه شيء، نفس و لا هوى و لا دنيا " (٥٨١)

و عرفه الجنيد فقال: " الإخلاص سر بين العبد و بين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه و لا شيطان فيفسده، و لا هوى فيميله. " (٥٨٢) و هذا تزيد منه في القضية، فالإخلاص متعلق بالنية، و النية يكتبها الملك مع العمل المتعلق بها كما هو معلوم، و الشيطان إنما يوسوس في النية قبل كل شيء، و كذلك الهوى إنما هو متعلق كذلك بباطن الإنسان. فقد أخرج البخاري من حديث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: " إذا أراد عبي أن يعمل سيئةً فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكذبوها بمثلها و إن تركها من أجلي فاكذبوها له حسنة. و إذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكذبوها له حسنة فإن عملها فاكذبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة. " (٥٨٣)

و قال الغزالي: " هو أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه، و معبود قلبه، و مقصود قلبه فقط. " (٥٨٤)

(*) انظر الشريف الجرجاني، التعريفات، ص: ٢٨.

(٥٧٩) سورة النحل، الآية: ٦٦.

(٥٨٠) السبوطي، جلال الدين (تو: ٩١١ هـ) معجم مقاليد العلوم في الحدود و الرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م. ص: ٢١٩.

(٥٨١) البيهقي شعب الإيمان، ج: ٥، ص: ٣٤٧.

(٥٨٢) الشربيني محمد بن أحمد الخطيب (تو: ٩٧٧ هـ)، السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: /، ص: ٢٢٧.

(٥٨٣) أخرجه البخاري، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى { يريدون أن يبدلوا كلام الله }.

(٥٨٤) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج: ٥، ص: ٢٠٧.

وعن ذي النون رحمه الله تعالى قال: " ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة و نسيان رؤية العمل في الأعمال و اقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة " (٥٨٥) و قوله: " نسيان رؤية العمل في الأعمال " أي أن لا يعطي لعمله شأنًا، و لا يقدره تقديرا عظيما، بل يستصغر العمل مهما عظم، فلا يعتبره من الأعمال بل يعتبره مجرد فعل من الأفعال المهملة. و ذلك مراعاة لعظم من يتوجه إليه بالعمل.

و عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه قال: "ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما" (٥٨٦). و هو بهذا يريد أن يدفع إلى الأمام ألك الذين يتركون العمل خوفا من الرياء. فجعل ترك العمل لأجل الناس رياء. فلا مجال لتلبيس إبليس ليثبط الناس عن العمل الصالح في نظره.

و عن السري رضي الله عنه قال: " لا تعمل للناس شيئا و لا تترك لهم شيئا و لا تغط لهم شيئا و لا تكشف لهم شيئا " (٥٨٧)

و عن الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى قال الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج عن كل قدر له في قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه و لا يجب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله و لا يكره إطلاع الناس على السيئ من عمله فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصديقين " (٥٨٨)

و لقد وردت كلمة " الإخلاص " و مشتقاتها في القرآن الكريم ٣١ مرة، أما ما فيها معنى الإخلاص الذي نحن بصدده فهي: ١٢ آية، كما وردت آيات أخر تتحدث عن معنى الإخلاص، لكن بألفاظ أخر.

و أول ما يطالعنا القرآن الكريم بلفظة الإخلاص قوله تعالى: { قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } (٥٨٩)

و قد جاء الإخلاص هنا بمعنى التوحيد، إذ ورد ذكره في سياق الحوار مع بني إسرائيل: اليهود و النصارى، فكل واحد من الفريقين يدعي المصداقية و الهدى { وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا } (٥٩٠) فكان الرد الإلهي على هذا

(٥٨٥) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى : ٦٧٦هـ)، الأذكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط: /، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ص: ٧.

(٥٨٦) أبو حيان، البحر المحيط، ج: ١، ص: ٥٨٦.

(٥٨٧) النووي، التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة و

النشر و التوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م، ج: ١، ص: ٣٣.

(٥٨٨) ابن القيم، مدارج السالكين بين إياك نعبد و إياك نستعين، ج: ٢، ص: ٢٧٨

(٥٨٩) سورة البقرة، الآية: ١٣٩.

(٥٩٠) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

الزعم: { قُلْ بَلْ مِثْلَ آبِرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } . ثم جاء التلقين الإلهي للمسلمين للرد المفحم على هذه المزاعم: { قُلْ أَنَحَاجُونَكَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } فالإخلاص هنا ليس مجرد شعور نفسي باطني، و لكنه إدراك عقلي لحقيقة وحدانية الله تعالى، و إشهار لذلك الإدراك، و بذلك يكون حجة للمسلمين على غيرهم من الأمم المشركة التي تجادل في الله تعالى، و تجادل في مصداقية الإسلام. فالإخلاص إذا هو الفرقان بين المؤمنين و غيرهم، باعتباره جوهر الإسلام الذي جاء ليحيي دعوة إبراهيم (ع)، و هي دعوة التوحيد و نبذ الشرك. و لذلك كانت التوبة إلى الله تعالى مرهونة بالإخلاص، قال سبحانه: { إِيَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } { ١٤٦ } (٥٩١) فلا ينفع إصلاح للأعمال و التزام بظاهر الشريعة ما لم يتوج ذلك كله بالإخلاص لله تعالى.

فهو أساس قبول الأعمال، فلا قيمة لتوبة و إصلاح و اعتصام بالله إلا إذا كان ذلك كله مختوما بختم الإخلاص لله وحده. فإذا توفر ذلك ارتفع الإنسان إلى مستوى الإيمان و تخلص من درن النفاق. لكن ليس من بَادَرَ إلى الإيمان و الإخلاص كمن التحق به بعد لأي، و لذلك استعمل الله تعالى لفظة { مَعَ } فقال: { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } و لم يستعمل لفظة " مِنْ " فلم يقل: " من المؤمنين " و لذلك فأجرهم سيكون ملحقا بأجر المؤمنين الأصليين، فإذا حصل المؤمنون على أجورهم، حصل التائبون معهم على الأجر.

و بعد التوبة لا بد من العمل الصالح استجابة لأوامر الله تعالى، لكن الناس تختلط عليهم الأمور فلا يدرون ما الذي أمر به سبحانه؟ فيأتي الجواب في سورة الأعراف: { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } { ٢٩ } (٥٩٢) فسلوك الإنسان المؤمن لا بد أن يكون موزونا بالقسط، أي بالعدل مع النفس و مع الغير في المعاملة، و التوجه إلى الله تعالى بالعبادة و الدعاء بإخلاص له سبحانه، فالإخلاص مخ الدعاء كما أن الدعاء مخ العبادة. و الاستعداد في كل ذلك للعودة إلى الله تعالى.

ذلك هو الإخلاص الصحيح المقبول بإذن الله، و ليس ذلك الإخلاص الذي لا يظهر إلا في حالة مشاهدة البلاء، و الإشراف على الهلاك، قال تعالى في حق الكفار عند مشاهدتهم البلاء: { حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَ

(٥٩١) سورة النساء، الآية: ١٤٦.

(٥٩٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

فَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ
أَحِيPT بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ { (٥٩٣) .

فالكافر لا يعرف الله و لا يذكره، و لا يخلص له في الدعاء إلا في حالة
المصيبة التي تشرف به على الهلاك، فهناك فقط يتحرك الإخلاص المركوز في
أصل الفطرة.

و لقد صورت هذه الآية مشهد الإخلاص الاضطرابي هذا تصويرا رائعا
فبدأ بعرض الإنسان الفرح اللاهي عن الله تعالى و هو يشاهد رحمته سبحانه،
فلا يدعو ذلك إلى حمد و لا شكر، لكن حينما تتحرك الرياح و تأتي الأمواج من
كل مكان، و تدرك النفس أنها هالكة لا محالة، هناك فقط تعرف الله عز و جل
فتضرع له و تخلص له في الدعاء.

و قد استعملت الآية أسلوب الالتفات من مخاطبة الحاضر إلى الحديث عن
الغائب، و ذلك لتدخلنا في جو الحدث كأننا نعيشه، فنحن الذين كنا في الفلك،
{ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ } ثم تنتقل إلى الغائب { وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ }
فنتنشلنا من الفلك، لتجعلنا ملاحظين خارجيين نعاين هذه الأنفس و ما يحدث
فيها من تغير و ما يعتمل فيها من وشائج و عواطف، فنحن حتى و إن
أصبحنا خارج المشهد إلا أننا نستشعر مشاعر هؤلاء الذين كنا معهم في الفلك.
و هذا تصوير عجيب لم نعهده فيما سبق القرآن الكريم من شعر و لا نثر.

و قد تستبق بعض الأنفس الدعاء الخالص إذا توقعت وقوع المحنة، لكن
لما تخرج إلى بر الأمان و تنجو مما كانت تتوقعه من الهلاك، تنس الله تعالى و
تتوجه إلى غيره! قال سبحانه: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } (٥٩٤)

و بعض الأنفس قد تخلص لله بالدعاء حين المحنة و المصيبة، لكنها تنسى
هذا الإخلاص و تعود إلى سالف عهدا من الاقتصاد في الدعاء و الإخلاص
فلا تعتبر بما حدث لها و لا تأخذ العبرة، قال سبحانه: { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ
دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجِدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا كُلُّ خُنَّارٍ كَفُورٍ } (٥٩٥)

(٥٩٣) سورة يونس، الآية: ٢٢.

(٥٩٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٥٩٥) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

فكل الأنفس تخلص حين المصيبة، لكن حين الخروج منها فمنها من تعود إلى الطغيان بالفساد و الإفساد للآخرين، و منها من تعود إلى الشرك، و في أحسن الأحوال تعود البعض إلى الاقتصاد في حق الله تعالى.

و هنا تحضرنا حادثة سفينة "التايتنك" التي فرح بها أصحابها و سموها باسم أبناء الآلهة المزعومة في الخرافات اليونانية، و زعموا أنها غير قابلة للغرق بطرا و رياء و تحديا لله تعالى، فأتاها أمر الله في أول رحلة لها سنة ١٩١٢م. فغرقت و لم يعثر لها على أثر إلا في سنة ١٩٨٥. (*) و مع هول هذه الحادثة إلا أن الغرب لم يأخذ منها العبرة، بل و صنع من هذه السفينة ملحمة و قصصا و أفلاما لا نجد في أي منها عبرة بما حدث! إنه الجحود بآيات الله تعالى المتمكن من أنفس الكافرين.

فالإخلاص الصحيح هو ذلك الذي يجعل الإنسان متمسكا بكتاب الله تعالى في كل وقت و شأن، فالهدف من إنزال الكتاب هو الإخلاص لله في الدين، بنبذ الشرك عنه تعالى. قال عز من قائل: { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } { ٢ } أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } { ٣ } (٥٩٦)

فالله لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصا له وحده و هما كانت التبريرات التي قد يقدمها المشركون لتبرير شركهم، إذ غالبا ما يسوق المشركون مبررات شتى ليبرروا بها توجههم إلى غير الله تعالى، و من أشهرها و أوسعها انتشارا بين الإنسانية قولهم أن هذه الآلهة هي واسطة بينهم و بين الله تعالى، و هذا من عقدة الذنب السابقة الذكر في موضوع التوبة، فيوسوس الشيطان إلى الناس أنهم مدنسون بذنوبهم، و أنهم لا يليق بهم أن يتوجهوا إلى الله تعالى مباشرة لذلك فلا بد من اتخاذ واسطة بينهم و بين الله تعالى يرفعون إليه دعاءهم و يوصلون إليه صلواتهم. كأنهم يخشون أن يدنسوا الله بذنوبهم، أو كأنهم يخشون أن يرد عليهم دعاؤهم و صلواتهم. ثم بعد ذلك تجاوزا الدعوى على الله فرفعوا هذه الوسائط إلى مستوى الآلهة، ثم أشركوها في الملك مع الله، و خرخوا له بنين و بنات بغير علم، ثم نسوا الله تماما.

و كل هذا كذب و افتراء على الله تعالى و تقول عليه بغير علم، و من تقول على الله فإنه ليس أهلا للهداية. { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }.

(*) انظر:

Claire hallouin et autres, **Encyclopédie bordas**, édition Encyclopédies bordas , Gütersloh, Allemagne, version: /, 1998. Volume: 10, p: 5203.

(٥٩٦) سورة الزمر، الآية: ٣.

فهذه الحقائق لا بد على المسلم أن يصرح بها و يدعو إليها، و يجادل و ينافح عنها، قال جل جلاله: { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } { ١١ } وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } { ١٢ } قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } { ١٣ } قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي } { ١٤ } فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } { ١٥ } (٥٩٧)

فالرسول p على مكانته عند الله مطالب بهذا التصريح الواضح بأنه عبد لله يتقرب إليه و يخاف من عذابه، و ما هذا إلا لينفي الألوهية عن كل مخلوق بعد ذلك. و على كل من ينتمي إلى دينه بعد ذلك أن يقتدي به و سير على خطاه في التوحيد و الإخلاص لله تعالى.

فالإخلاص طريق الخلاص من الخسران يوم القيامة.

فإذا التزم المسلم بعبادة الله بإخلاص فلا يضره بعد ذلك كفر الكافرين، و لا بغضهم و لا كرههم للحق و أصحابه، فما دام المؤمن على حق و كل شواهد السماء و الأرض تشهد له بذلك فليمض في سبيله و لا يلتفت إلى الخلف أبدا. قال سبحانه: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَ مَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ } { ١٣ } فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } { ١٤ } (٥٩٨)

و ليحمد الله الذي هداه إلى عبادة الحي و وقاه من عبادة الأموات من أسلاف أو أحجار أو غيرها من المعبودات التي لا تملك لنفسها ضرا و لا نفعا. { هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { ٦٥ } (٥٩٩)

فهذه هي حقيقة الإخلاص و التوحيد التي أمر بها الناس جميعا أمر سهل و بسيط و يسير، أمر لا يكلف صاحبه مشقة و لا تعباً، أمر تدركه جميع العقول الصافية، و تعرفه كل الفطر السليمة. { وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } { ٥ } (٦٠٠)

فاستعمل سبحانه في هذه الآية أسلوب القصر { مَا أُمِرُوا إِلَّا } ليؤكد هذه الحقيقة التي غابت عن أذهان الناس و غيّبت من طرف الجاهلين و المستكبرين و المنتفعين بشرك المشركين، الذين جعلوا من أنفسهم سدنة الأصنام القديمة و سدنة الأفكار الإيديولوجيات الباطلة الحديثة، التي تريد أن تعبد الناس لغير الله تعالى.

(٥٩٧) سورة الزمر، الآية: ١١ - ١٥.

(٥٩٨) سورة غافر، الآية: ١٤.

(٥٩٩) سورة غافر، الآية: ٦٥.

(٦٠٠) سورة البينة، الآية: ٥.

و هكذا نجد الإخلاص في القرآن الكريم قضية محورية و موضوعا جوهريا. و لقد تسلسل الحديث عنه في مختلف السور بطريقة منهجية خاصة، فبدأ بالحديث عن الإخلاص كأساس للمصداقية في الإلتباع، ثم نجد بعد ذلك المصداقية التاريخية للإخلاص باعتباره دين إبراهيم ؑ، و بعد ذلك تحدث القرآن عن الإخلاص كأمر أساسي في قبول التوبة و قبول العمل بعد ذلك. ثم جاء الحديث عن الإخلاص الصحيح و هو الإخلاص الدائم و ليس إخلاص الطوارئ، ثم عرج على التصريح به في الحياة و ختم القرآن الحديث عنه ببيان بساطته و سهولته.

فهذا تسلسل موضوعي استشفناه من مختلف السور، و مع هذا التناثر إلا أننا لا نجد فيه أي خلل موضوعي، بل هو تسلسل عملي بعيد عن التناول النظري الذي قد نجده في المواضيع الفكرية البشرية التي تغرق في الفلسفة و السفسطة التي لا طائل من ورائها.

٣ - الإيمان القدر

قال جل جلاله: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } سورة التوبة.
و قال سبحانه و تعالى: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَمْ يَلِكُنَّا أَنْفُسَكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { ٢٢ } لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَمْ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } { ٢٣ } الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ } { ٢٤ } سورة الحديد.

القدر: " تقدير الله تعالى للكائنات، حسب ما سبق به علمه، واقتضته حكمته. و المراد أن الله تعالى علم مقادير الأشياء و أزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه و قدرته و إرادته" (٦٠١)

و غالبا ما تستعمل إلى جانب لفظه القدر لفظه القضاء، و من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه و سلم ((لا يرد القضاء إلا الدعاء)) (٦٠٢)
و لقد كانت قضية القدر من أكبر المشكلات لدى أصحاب الأديان السابقة، فتساءلوا السؤال المحير الشهير " هل الإنسان مسير أم مخير؟ " و حاروا في قضية إرادة الإنسان أمام مشيئة الله تعالى، فهل للإنسان إرادة ما دامت إرادة الله

(٦٠١) مجلة البحوث الإسلامية، إصدار الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد، العدد: ٧٩، من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٧هـ، ص: ١١٨.
(٦٠٢) رواه الترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء.

هي المسيطرة؟ و بالتالي هل الإنسان مسؤول عن أفعاله ما دام مسلوب الإرادة أمام إرادة الله تعالى؟ و تاه أهل الديانة و الفلسفة في متاهة لم يخرجوا منها، بل و وصلت هذه الأسئلة إلى المسلمين فدخل أهل الكلام - بسببها - في جدال عقيم لا نهاية له!

لكن السؤال الجدير بالطرح هو: كيف تناول القرآن الكريم هذه القضية و هل دخل في هذا الجدل العقيم؟ و ما غرض القرآن من حديثه عن هذه القضية؟ و ما الأسلوب الذي تناولها به؟

الجواب هو أن القرآن الكريم قد جعل من الإيمان بالقدر جزءا من عقيدة الإسلام لا يصح إيمان المؤمن بدونها.

لكن الغرض من هذه العقيدة في الإسلام كان من أجل علاج داءين خطيرين هما الفرح بالنعمة، و الأسى على ما فات.

ففي تصوير القرآن الكريم فإن " هذا الوجود من الدقة و التقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا و هو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب حسابه في كيانه .. لا مكان فيه للمصادفة. و لا شيء فيه جزاف. و قبل خلق الأرض و قبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدر . . و في علم الله لا شيء ماض، و لا شيء حاضر، و لا شيء قادم. فتلك الفواصل الزمنية إنما هي معالم لنا - نحن أبناء الفناء - نرى بها حدود الأشياء. فنحن لا ندرك الأشياء بغير حدود تميزها. حدود من الزمان و حدود من المكان. نحن لا نملك إدراك المطلق إلا في ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق، عن طريق غير الطريق الذي اعتدناه في إدراك الأشياء. فأما الله - سبحانه - فهو الحقيقة المطلقة التي تطع جملة على هذا الوجود، بلا حدود و لا قيود. و هذا الكون و ما يقع فيه من أحداث و أطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه و لا فواصل من زمان أو مكان. و لكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله. فكل مصيبة من خير أو شر... تقع في الأرض كلها و في أنفس البشر أو المخاطبين منهم يومها . هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض و ظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها . . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {

و قيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى، قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون و الطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرا و شرها. فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا و تذهب معه حسرات عند الضراء. و لا تفرح الفرح الذي تستطار به و تفقد الاتزان عند السراء: { لكي لا تأسوا على ما فاتكم، و لا تفرحوا بما آتاكم } . . فاتساع أفق النظر، و التعامل مع الوجود الكبير، و تصور الأزل و الأبد، و رؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله، الثابتة في تصميم هذا الكون . . كل أولئك يجعل النفس أفسح و أكبر و أكثر ثباتا و رزانة في مواجهة

الأحداث العابرة. حين تتكشف للوجود الإنساني و هي مارة به في حركة الوجود الكوني.

إن الإنسان يجزع و يستطار و تستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود. و يتعامل مع الأحداث كأنها شيء [عظيم] يصادم وجوده الصغير. فأما حين يستقر في تصوره و شعوره أنه هو و الأحداث التي تمر به، و تمر بغيره، و الأرض كلها. ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود . . و أن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق. لازم بعضها لبعض. و أن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون . . حين يستقر هذا في تصوره و شعوره، فإنه يحس بالراحة و الطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء. فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه و يزلزله، و لا يفرح بحاصل فرحا يستخفه و يذهله. و لكن يمضي مع قدر الله في طواعية و في رضى. رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون !

و هذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون. فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء، و لا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله، و ذكره بهذه و بتلك، و الاعتدال في الفرح و الحزن. قال عكرمة - رضى الله عنه - " ليس أحد إلا و هو يفرح و يحزن ، و لكن اجعلوا الفرح شكرا و الحزن صبورا " (٦٠٣) . . و هذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء . . " (٦٠٤)

إذا فهذا هو حديث القرآن الكريم عن القضاء و القدر، و هذا هو الهدف منه، و بما أن القرآن الكريم كتاب عملي و ليس كتابا نظريا للفلسفة و الجدل، فقد ربط هذا المفهوم بما يجب أن ينتج عنه في النفس، و هو الرضى بقضاء الله و قدره، أما على مستوى السلوك، فلا بد أن ينتج عن هذا الإيمان بقضاء الله و قدره السعي في الأرض دون خوف من بشر أو أية مصيبة قد تلحق بالإنسان، و منها مصيبة الفقر التي على المؤمن أن لا يجعل من توقعها سببا في النكوص عن المساهمة في نشر الإسلام و الدفاع عنه بما آتاه الله من المال، و لذلك جاء بعد هذه الآية الكريمة قوله سبحانه: { الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } (٦٠٥)

فـ " من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال و لا يفخر بما يعطاه. و لا يبخل و لا يأمر بالبخل في عطاء. فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال و قوة و جاه هو من كسبه فيفخر و يختال به؛ ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه، و يحث غيره على البخل ليحقق مبدأه و منهجه ! { و من يتول فإن الله هو الغني الحميد } . .

(٦٠٣) أخرجه الحاكم في المستدرک عن عكرمة عن ابن عباس في تفسير سورة الحديد.

(٦٠٤) سيد قطب، الظلال، ج: ٦، ص: ٣٤٩٣.

(٦٠٥) سورة الحديد، الآية: ٢٤.

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، و من يستجب فإنما يستجيب لمصلحته. و الله هو الغني فما به من حاجة إلى العباد المحاويج. و الله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين ! " (٦٠٦)

و قد أعطى الرسول ﷺ المثال العملي لهذا المفهوم العظيم، فما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. فعن أنس أن رجلاً سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عنماً بين جبلين فأعطاه إياه. فأتى قومه فقال: أي قوم أسلموا فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر. فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها. « (٦٠٧)

فبهذا المفهوم البسيط الواضح تناول القرآن الكريم قضية القضاء و القدر، بعيداً عن الفلسفة و الجدل العقيم الذي لا ترتجى منه نتيجة عملية. و بهذا المفهوم الإيجابي لحقيقة القضاء و القدر أصبح الإيمان به دافعاً للإنسان نحو البذل و العطاء و الإنفاق في سبيل الله تعالى. و بذلك قضى القرآن على داء الخوف و الرهبة من المجهول لدى الصحابة رضي الله عنهم و من سار سيرهم، فقد سلموا أمرهم للخالق عز و جل، و فوضوا أمرهم له، لكن هذا لم يجعلهم يتخلون عن الأخذ بالأسباب. فالتوكل على الله لا يعني في مفهوم القرآن الكريم القعود و انتظار الرزق أو النصر، فلا توكل إلا بعد العزم على العمل، و لذلك قدم الله العزم على التوكل في قوله سبحانه: { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } { ١٥٩ } إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فممن ذا الذي ينصركم من بعده و على الله فليتوكل المؤمنون } { ١٦٠ } . (٦٠٨)

و بهذا أصبح شعار الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } فما كتبه الله سيصيب الإنسان، و ما لم يكتبه فلن يصيبه أبداً. و التفكير في ما هو بيد الله تعالى و ما تكفل به هو سبحانه هو تدخل في شأن الله تعالى، فما على المؤمن إلا أن يتخذ الأسباب ثم ينتظر النتائج من الله. كالفلاح يحرث الأرض و يبذر البذر فيسقيه و يتعهد، ثم ينتظر النتيجة من الله. و لا يقول أبداً قد يتلف الزرع... قد ينقص الماء... قد يأتي الجراد. ثم يقعد عن العمل! فمن يفعل ذلك فليس من العقل في شيء.

و في أسلوب القصر: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا... } تقليل من شأن المصائب، فلم يقل: " قل سيصيبنا ما.. " بل قال: { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا... } فحرف "لن" في بداية الأسلوب له وقع النفي لكل مصيبة، و هذا الوقع يقع في النفس موقعا

(٦٠٦) سيد قطب، الظلال، ج: ٦، ص: ٣٤٩٤..

(٦٠٧) أخرجه مسلم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

(٦٠٨) سورة آل عمران، الآية ١٩٥.

إيجابيا يجعلها تنسى المصائب فتنتطلق في الحياة عاملة نشيطة منتجة، ثم يأتي الاستثناء بـ: " إلا " ليقتصر المصائب على مشيئة الله تعالى، و ما كان من الله فلا مرد له إلا بإذنه، و هنا يأتي دور الإيمان ليخفف على نفس المؤمن من وقع المصيبة إذا وقعت. فلا تؤثر فيه و لا تكسر عزيمته، و لا تزيده إلا قوة، فالضربة التي لا تقضي عليك تقويك. و " العقبات الخارجية ليست في ذاتها مصادر للإحباط...بل يتوقف تأثيرها على وقعها و صداها في النفوس المختلفة، فالبؤس في ذاته لا يحرك الناس بل الشعور بالبؤس. كذلك الفقر.. و بعبارة أخرى ليس المهم هو الموقف الخارجي بل كيفية إدراك الفرد له و شعوره به و تأويله إياه"^(٦٠٩)

فهذا هو المفهوم الإيجابي العملي الذي أقره القرآن الكريم للقضاء و القدر، و ما نُكبت هذه الأمة إلا لما تخلت عن هذا المفهوم الصافي لتدخل في متاهات الفلسفة اليونانية التي ترجمت إلى العربية في العصر العباسي، و الأفكار المسيحية المحرفة التي تسللت من خلال بعض بني إسرائيل الداخلين في الإسلام. و لن تقوم لهذه الأمة قائمة إلا إذا رجعت إلى كتاب ربها، و جعلت منه حاكما على غيره و ليس غيره حاكما عليه.

٤ - التوكل

(٦٠٩) سعد رياض، علم النفس في الحديث الشريف، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع و الترجمة، القاهرة، مصر، ط: /، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م، ص: ١٥٦.

قال تعالى: { وَشَاوَرُكُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } { ١٥٩ } { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { ١٦٠ } { سورة آل عمران }
و قال سبحانه: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } { ١٧٣ } { سورة آل عمران }
و قال عز وجل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { ١١ } { سورة المائدة }

و قال عز من قائل: { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا عَلَيْهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مَرْئُونَ } { ٢٣ } { سورة المائدة }

و قال جل جلاله: { قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } { ٨٩ } { سورة الأعراف }

و قال كذلك: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } { ٢ } { سورة الأنفال }
و يقول عز وجل: { وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا } { ١٢ } { سورة إبراهيم }

و يقول جل جلاله: { وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ } { ٥٨ } { سورة الفرقان }

و يقول كذلك: { فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } { ٧٩ } { سورة النمل }
و يقول سبحانه: { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } { ٣ } { سورة الطلاق }
و يقول تعالى: { قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } { ٢٩ } { سورة الملك }

بعد أن تحدثنا عن الإيمان و القدر و دوره في وقاية و علاج النفس الإنسانية، و كيف عبر القرآن الكريم عن ذلك، نتحدث الآن عن أهم ما ينتج عنه، و هو التوكل على الله.

و التوكل في أصل اللغة مصدر توكل يتوكل و هو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدلّ على الاعتماد على الغير، فهو: " إظهار العجز و الاعتماد على غيرك. و الاسم التكلان و اتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته " (٦١٠)
و هو عند الفقهاء: " تفويض الأمر إلى الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب ". (٦١١)

(٦١٠) ابن منظور، لسان العرب، ج: ١١، ص: ٧٣٦.

(٦١١) محمد رواس قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، ج: ١، ص: ١٨٤.

و عرفه السيوطي بقوله: "التَوَكَّلُ: ترك السعي فيما لا يسعه قدرة البشر." (٦١٢)

و قال الجنيد رضي الله عنه: "التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، و تعرض بالكلية عن دونه؛ فإن حاجتك إنما هي إليه في الدارين" (٦١٣)
و لقد سبق القرآن الكريم الحديث عن العزم على الأمر بالتوكل، فنجد أول آية في كتاب الله تأمر بالتوكل تشترط له العزم، قال تعالى: { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } { ١٥٩ } { إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { ١٦٠ } (٦١٤)

فقد علم الله ما قد يتسرب إلى بعض عقول المسلمين من التواكل بدلا من التوكل، فأثبت في كتابه أن التوكل لا يكون إلا بعد العزم على العمل، و بعد المشاورة بين المؤمنين. و { إذا } هنا - كما يقول أهل النحو - شرطية، فكان شرط التوكل هو العزم، و بالتالي يبطل المشروط الذي هو التوكل إذا انعدم الشرط الذي هو العزم على حد تعبير الأصوليين. و بعد هذا الشرط العقلي جاء الخطاب العاطفي لتأكيد أهمية التوكل { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } مبدوءا بحرف التوكيد { إِنَّ }

فكان يمكن أن يستعمل حرف العطف (و) فيقول: " و الله يحب المتوكلين " لكن الله أراد أن يركز في قلوب المؤمنين أهمية التوكل بنفس مستوى ما ركزه في عقولهم من قبل من أهمية التشاور و العزم. و استعمل لفظة { يُحِبُّ } التي تثير عاطفة المستمعين. فكان يمكن أن يقول: " و الله وكيل المتوكلين " لكن "يحب" - خصوصا إذا كانت من الله - فهي أقوى أثرا، و أشدا وقعا على النفوس.

ثم جاء المنطق العقدي الإيماني ليؤكد أهمية التوكل: { إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { ١٦٠ } (٦١٥)

فإذا كان النصر من الله القوي العظيم، فلا غالب للمنصور بعد ذلك. و إذا خذلهم الله تعالى، فمهما جاء النصر بعد ذلك من عند غيره فلن ينفعهم أبدا لأن جميع المقادير بيد الله تعالى يصرفها كيف يشاء. و هذا هو منطق المؤمنين، و هكذا لا بد أن يفكروا و على هذا الأساس لا بد أن يسلكوا.

فإذا وصلوا إلى هذا المنطق و التفكير فلن تثبطهم الإشاعات و الدعايات و الحملات الإعلامية، بل تزيدهم قوة و تصميما. فقد بلغوا مرتبة { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(٦١٢) السيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: ٢٠٩.

(٦١٣) ابن عجيبة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي (المتوفى: ١٢٢٤ هـ) البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م = ١٤٢٣ هـ، ج: ٥، ص: ١٩١.

(٦١٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩ - ١٦٠.

(٦١٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ { ١٧٣ } (٦١٦) فردُّ فعلهم هو التحدي، و عندما تشتغل آلية التحدي في نفس المؤمن يتحرك الإيمان الكامن في قلبه فيشعر بحرارته و يزداد إيماناً، فالإيمان طاقة كامنة، إذا بردت ماتت و إذا تحركت بحركة صاحبها تفجرت عن قدرات عجيبة يحار فيها الناس، و يتعجب منها البشر الذين لا يعرفون حقيقتها و مصدرها!

و للرد على الإشاعات و الدعايات و الحملات الإعلامية يستعمل المؤمنون منطقهم الإيماني: { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ } فإله كافيههم و لا يحتاجون غيره، و لا وكيل أحسن من الله تعالى.

و يقدم القرآن الكريم للمؤمنين المثال العملي على فضل التوكل فيخاطبهم بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { ١١ } (٦١٧) فالأعداء يكيدون للمؤمنين ليل نهار، و لولا فضل الله و رحمته بالمؤمنين لتمكن هؤلاء منهم بفضل ما يبذلونه من جهود و ما يضمرونه من حقد، فلوا ترك الله لهم الأمر لصبوا العذاب على المؤمنين صبا و لم يألوا فيهم إلا و لا ذمة، و عبر القرآن الكريم بعبارة { يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } ليدل على سخاء هؤلاء في بذل الأذى للمؤمنين، فهم لا يقبضون أيديهم في هذا المجال أبداً، و لا يمسكون أي نوع من أنواع الدمار إلا و صبوه عليهم. و إذا كان الصحابة قد رأوا في ذلك بعض الأمثلة التي يذكرهم بها كتاب الله هنا، إلا أننا رأينا على مر التاريخ أمثلة رهيبة ما تزال تتكرر إلى اليوم. فمثل هذا الكيد إذا لا يرده إلا التوكل على الله تعالى.

و يذكرهم سبحانه ببني إسرائيل لما تركوا التوكل الذي نصحهم به الرجلان اللذان يخافان الله تعالى، تأخر عليهم النصر أربعين سنة، قال سبحانه و تعالى: { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { ٢٣ } (٦١٨) و بيانا لفضل التوكل على الله، جعل سبحانه جملة اعتراضية في سياق الكلام لا يستقيم نسيانها في هذا المحل، و هي قوله: { أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا }، فبفضل هذا الإنعام كان إيمانها و بفضلها كان توكلهما على الله سبحانه و تعالى، و من شدة إيمانها قالوا: { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ } و لم يقولوا: (من الباب) و ذلك لعزمهما القوي في تنفيذ أمر الله تعالى، و قالوا: { فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ } و ليس: (ستغلبون) فعدلا عن المضارع الذي سيفيد هنا المستقبل إلى اسم الفاعل الذي يفيد الحاضر، و يفيد إصاق الصفة بالفاعل و دوامها معه، و هي صفة الغلبة،

(٦١٦) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٦١٧) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٦١٨) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

لأن الفعل (تغلبون) يجرد الصفة عن الفاعل، و يجعلها أتية، أي قد يغلبون اليوم و قد يُغلبون غدا.

فالتوكل إذا هو سلاح كل مستضعف في الأرض، و قد ضرب الله الأمثلة في كتابه للمتوكلين المستضعفين، و كيف نصرهم الله بفضل توكلهم، و منهم شعيب ر و أتباعه الذين قالوا لقومهم: { قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْنَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } { ٨٩ } (٦١٩)

فبعد أن حاول قومهم إرغامهم على العودة إلى ملتهم الباطلة، رفضوا ذلك بقوة باعتبار الشرك افتراء للكذب على الله تعالى، و هو المتحكم في كل شيء في هذا الوجود، لذلك فلا بد من التوكل عليه في كل شيء، حتى في شأن الإيمان، ثم ثنوا بقولهم: { عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } و جاء هنا " تقديم الجار و المجرور [على الفعل و الفاعل] لإفادة الحصر، و إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع." (٦٢٠) و بعد التوكل مباشرة جاء الدعاء للمتوكل عليه ليفتح بينهم و بين قومهم بالحق. فليس لهم من الأسباب إلا الدعاء، فليستعملوه إذا، و ما دام ممزوجا بالتوكل فلا بد أن تكون له نتيجة.

فالتوكل إذا من أهم صفات المؤمنين، و لعله تاج هذه الصفات، إذ نجده دائما في ختام الآيات الكريمات، و آخر الكلام ذكرا أعلقه بذهن الإنسان، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَ جِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا ثُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } { ٢ } (٦٢١) و علة التوكل على الله هي أنه هو الذي هدانا إلى الحق. فهذا التوكل واجب علينا ما دام سبحانه هو الذي هدانا إلى صراطه المستقيم، و أنقذنا من الضلال، { وَ مَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آدَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } { ١٢ } (٦٢٢) و علة آخر للتوكل عليه سبحانه هي أنه هو الحي الذي لا يموت و لا ينام و لا تعزب عنه شائبة في الأرض و لا في السماء، و لا تخفي عليه خافية، يقول جل جلاله: { وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ } { ٥٨ } (٦٢٣) إذن فما على المؤمن إلا أن يثق بالله و يعتمد عليه يفوض جميع أموره إليه، و يبلغ رسالة ربه، و لا يلتفت إلى أعداء الله، فإنه على الحق الواضح، و

(٦١٩) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٦٢٠) الزحيلي وهبة، التفسير المنير، ج: ٩، ص: ٦.

(٦٢١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٦٢٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٦٢٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

إن خالفه فيه أهل الشقاء جميعهم. و هذه هي علة أخرى التوكل على الله سبحانه و تعالى إذ يقول: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} {٧٩} (٦٢٤) و كما يكون التوكل في مواجهة الضالين و في الدعوة على الحق، فإنه يكون في جميع شؤون حياة المؤمن، يقول سبحانه: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} {٣} (٦٢٥) و قد جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن الطلاق، و هو هدم اضطراري لما بناه المؤمن من حياة اجتماعية و أسرية قد يحدث خلا مؤقتا في حياته، لكن من يتوكل على الله فيوشك أن يبدله حياة أخرى أحسن من السابقة.

و إذا كان الكفار يرون المؤمنين ضالين، فما على المؤمنين إلا التوكل على الله تعالى في بيان الحق و إظهاره، و هو كفيل بذلك، فهو سبحانه الرحمن، و من رحمته التي شملت الخلق كلهم أنه تكفل لهم بإظهار الحق و بيانه للعالمين ليحيى من حيي عن بينة، و ليهلك من هلك عن بينة. يقول تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} {٢٩} (٦٢٦) فهذا هو التوكل إذا و هكذا عبر القرآن الكريم عنه، و هكذا جعله سبحانه وقاية و علاجا من داء من الجبن و داء الخوف من الموت، و الخوف من الفقر، و الخوف من المجهول بكل أشكاله. و لقد سبق القرآن الكريم المفهوم الصحيح للتوكل في كتابه فقرنه بالعزم من أجل أن لا يخطئ الناس في فهم التوكل.

٥ - الرضى:

قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {١١٩} {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {١٢٠} سورة المائدة

(٦٢٤) سورة النمل، الآية: ٧٩.

(٦٢٥) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٦٢٦) سورة الملك، الآية: ٢٩.

و قال عز من قائل: { وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ
جَاءتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَ نُوَدُّوهُ أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
{ ٤٣ } سورة الأعراف

و قال جل جلاله: { وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } { ١٠٠ } سورة التوبة
و قال سبحانه: { لَّا تَحْذِقُوا فَمًّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيْدِهِمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } { ٢٢ } سورة المجادلة
و قال عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ
الْبَرِيَّةِ } { ٧ } جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } { ٨ } سورة البينة

الرِّضَا : " طيب النفس فيما يصيبه ، ويفوته مع عدم التغير . " (٦٢٧) أي
عدم تغير النفس و مزاجها بسبب المصائب أو فوات المنفعة.
و هذا العلاج الذي يصفه القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة لأمراض
النفس الإنسانية إنما هو ناتج عن العلاج السابق المتمثل في الإيمان بقضاء الله و
قدره و التوكل عليه، فمن آمن بأن كل شيء بيد الله تعالى، رضي بما قسمه الله
له، و لم يسخط على فوات شيء، و لم يتطلع إلى ما في أيدي الناس، و لم يصله
في نفسه هم و لا غم و لا قلق على المستقبل و لا ندم على ما فات من الخير.
و لذلك قال علماء النفس أن من أهم مظاهر الصحة النفسية الرضى بالذات
التي نملكها.

و يعد الرضى من أهم " أعمال القلوب [فهو] نظير الجهاد من أعمال
الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام ... قال أبو الدرداء: ذروة سنام
الإيمان: الصبر للحكم و الرضى بالقدر " (٦٢٨). ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ (٦٢٩)،
فالرضى ذروة سنام الإيمان.

(٦٢٧) السيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: ٢٠٩.

(٦٢٨) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين بين إياك نعبد و إياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب
العربي، بيروت، لبنان، ط: /، ١٣٩٣هـ، ١٩٨٣م، الجزء ٢: الصفحة: ٢١٤.

(٦٢٩) حديث: " ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ " ابن حنبل في مسنده من مسند البصريين رضي الله عنهم، حديث
معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، و الطبراني في معجمه الكبير باب الصاد، مسند صدي بن العجلان أبو أمانة
الباهلي.

فهو إلى جانب كونه علاجاً نفسياً، فهو قبل ذلك وقاية من أمراض النفس. ذلك لأن انعدام الرضى يؤدي إلى أخطر الآفات النفسية، إذ قال العلماء: " أول معصية عصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضى، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم و تكريمه، و لا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم. و آدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى. ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر و عدم الرضى" (٦٣٠)

فالإنسان إذا وقع في عدم الرضى فـ " إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه و يريده، و إما لإصابة ما يكرهه و يسخطه، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، و ما أصابه لم يكن ليخطئه : فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه و حصول ما يضره" (٦٣١)

و إن من أهم ما يقوي صفة الرضى في النفس: الصدق مع الله تعالى، فمن صدق مع الله في إيمانه، التزم بكل مقتضيات هذا الإيمان، و من أهمها: الإيمان بأن الله لا يريد للإنسان إلا الخير، فمن علم ذلك و تيقنه رضى بكل ما قسمه الله له، و صبر على كل ما أصابه بعد ذلك. و قد لا ينفعه هذا الصدق في الإيمان في الدنيا، لكن المؤكد أنه سينفعه في الآخرة، { هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } { ١١٩ } (٦٣٢) فالصدق أورثهم الرضى عن الله تعالى، و هذا الرضى عن الله تعالى أورثهم بعد ذلك رضى الله عنهم، فقد بادلهم رضى برضى. ففي قوله سبحانه: { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ } استعمل سبحانه و تعالى "الواو" بدلا من أي رابط آخر قد يؤدي معنى الجزاء على الرضى بمثله، كأن يقول: "رضي الله عنهم لأنهم رضوا عنه"، لأن هذا كلام العزيز الحكيم الذي لا يحده زمان و لا مكان، فلا ينتظر سبحانه رضى العبد حتى يرضى عنه، فكأن رضى الله عن العبد جاء متزامنا مع رضى العبد عنه! أو كأنه سبقه، فلا ندري - كبشر - أيأ من الرضى سبق الآخر!!! و إن كنا نعلم أن أفعال الله تعالى أزلية، فما كان هذا الاستعمال و هذا التعبير إلا رفعا من قيمة هذا الرضى، فمن فاز بمثل هذا الرضى فقد فاز حقا بالفوز العظيم { ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } . و يختم الله سبحانه حديثه بما يؤكد ما سبق فـ: { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، فمن صدق الإيمان بأن الله ملك السموات و الأرض و ما فيهن و هو على كل شيء قدير فهو راض عن الله حقا، و إذا كانت تلك صفة الله تعالى، فهو قادر على حسن الجزاء لكل من رضى عنه.

(٦٣٠) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، الجزء : ٢، الصفحة: ٢١٤.

(٦٣١) نفسه، الجزء : نفسه، الصفحة : نفسها.

(٦٣٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

و لعظمة خُلق الرضى فقد جعله القرآن أهمّ ما يتصف به ساكنوا الجنة، فمن رضى في الدنيا كان من الراضين يوم القيامة، فيُرفع المؤمنون في الجنة إلى مقام الأنبياء في الدنيا من نزع الغل عنهم، فكما نزع الغلّ من قلب الرسول ρ في أوائل أيام حياته، كذلك ينزع الغلّ عن قلوب ساكني الجنة يوم القيامة: {وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ {

فهم بما آتاهم الله في جناته راضون. و لو لم ينزع الله من قلوبهم الغلّ فلعل بعضهم يتطلع في الجنان إلى ما هو جزاء غيره، فكان إصلاح القلوب لداخلي الجنة خير جزاء لهم. و به علموا أن هذا الذي وصلوا إليه إنما كان بتوفيق الله تعالى. و لولا أن هداهم الله و وفقهم ما كانوا ليهدتوا أو ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في الجنان.

و يعطينا الله سبحانه و تعالى أمثلة واقعية لنماذج بشرية من هؤلاء الذين وصلوا إلى مقام الرضى، إنهم أولئك السابقون الأولون من المهاجرين، و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان، فهم ليسوا بضعة أشخاص، بل هم مجتمع قائم بذاته، و تتبعه أجيال إلى يوم القيامة بإذن الله.

قال جل جلاله: {وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُغْفَرُونَ لَهُمْ أَسْوَءُ الذَّنْبِ وَأَسْوَأُ الذَّنْبِ أَتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (٦٣٣)

فهؤلاء الصحابة الذين سبقوا إلى دين الله تعالى لما كان سبّة على صاحبه فيقال له صابئ، و كان وبالاً على صاحبه فيعذب حتى يرجع عن دينه أو يقتل حق لهم أن يفلدوا وسام الرضى.

و هؤلاء الأنصار الذين أورا المهاجرين و نصرهم و رضوا بالإسلام يوم كان العالم كله بشعوبه و قبائله و دوله على الشرك. حق لهم أن يخلد ذكرهم في كتاب الله إلى يوم الدين.

فهؤلاء هم حقا أمثلة عملية للرضى، و على كل من يريد أن يصل إلى مستواهم أن يتبعهم بإحسان و يحتذي طريقهم باتقان. حتى يفوز بما فازوا به من رضوان الله تعالى و جناته.

فليس الرضى إذا مقام خاص بأشخاص معينين بل هو صفة يمكن لكل أحد أن يصل إليها إذا أراد ذلك فعلا بأن يتخذ من هؤلاء أمثلة عملية يسير على طريقها في الحياة.

فالرضى بالله تعالى ليس كلمة تقال باللسان فقط، و ليست موقفا سلبيا في الحياة، بل هي حقيقة قلبية ينتج عنها سلوك إيجابي في الواقع، قد تكون له تبعات ثقيلة في الجانب المادي أو الاجتماعي، إذ الرضى بأحكام الله و شرائعه يستلزم

الالتزام بها في الحياة، و يستلزم حب من يلتزم بها، و بغض من يعاديهها، قال سبحانه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {٢٢} (٦٣٤)

فطريق الرضى هو طريق إيماني و عملي أساسه الخشية من الله تعالى، و من بلغ هذا المستوى فهو خليق بأن يكون من أفضل خلق الله سبحانه، إذ يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } {٧} {جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } {٨} (٦٣٥)

٦ - الصبر

قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } {٤٥}

سورة البقرة.

و قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } {١٥٣} سورة البقرة.
و قال عز وجل: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَامْ نَصَرْنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ } {٣٤} سورة الأنعام
و قال عز من قائل: { وَ مَا تَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ } {١٢٦} سورة الأعراف
و قال جل جلاله: {قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } {١٢٨} سورة الأعراف

(٦٣٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٦٣٥) سورة البينة، الآية: ٧-٨.

و قال كذلك: { وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } { ١٣٧ }
سورة الأعراف

و يقول سبحانه { وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } { ٤٦ } سورة الأنفال
و قال في كتابه الكريم: { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرُوا جَمِيلٌ } { ٨٣ }

سورة يوسف

و قال كذلك: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ بِهَلْكَ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ } { ٣٥ } سورة الأحقاف.

بعد أن تحدثنا عن التوكل و الرضى و دورهما في وقاية و علاج النفس الإنسانية، و كيف عبر القرآن الكريم عن ذلك، نتحدث الآن عن أهم ما ينتج التوكل و الرضى و هو الصبر.
" الصبر في اللغة: الحبس. و قتله صبورا حبسه للقتل.

و الصبر في الشرع صفة محمودة و معناه حبس النفس على ما أمرت به من مكابدة الطاعات و الصبر على البلاء و أنواع الضرر في غير معصية " (٦٣٦)

و عرفه الجرجاني بقوله: " الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله " (٦٣٧)

و لقد تكرر الحديث عن الصبر في القرآن الكريم كثيرا (*) " لما فيه من فائدة عظيمة في تربية النفس، و تقوية الشخصية، و زيادة قدرة الإنسان على تحمل المشاق، و تجديد طاقته لمواجهة مشكلات الحياة و أعبائها و نكبات الدهر و مصائبه، و لتعبئة قدراته لمواصلة الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى. " (٦٣٨) و قد " كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما : «أما بعد، فإن الخير كله في الرضى، فإن استطعت أن ترضى و إلا فاصبر» (٦٣٩)»

(٦٣٦) النووي، تهذيب الأسماء و اللغات، تحقيق: مكتب البحوث و الدراسات في دار الفكر. دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م، ج: ٣، ص: ١٦٣.

(٦٣٧) الجرجاني، التعريفات، ص: ١٧٢.

(*) وردت كلمة "صبر" في القرآن الكريم بمختلف مشتقاتها ١٠٤ مرات. انظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس، من ص: ٤٩١، إلى ص: ٤٩٣.

(٦٣٨) سيد عبد الحميد مرسي، الشخصية السوية، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م ص: ٢٠٨.

(٦٣٩) ابن القيم مدارج السالكين، ج: ٢، ص: ١٨٥.

فقد جعل القرآن الكريم من الصبر وسيلة يستعان بها على مشاق الحياة و مستلزمات الإيمان، قال تعالى: {وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} {٤٥} (٦٤٠)

فكأن الصبر شيء أو شخص يستعان به، و ما هذا التصوير إلا لنفوس النفوس منه، فالصبر

مرُّ كمرارة هذا النبات الذي اشتق له منه اسم فـ " الصَّبْرُ عَصَاةُ شَجَرٍ مُرٌّ " (٦٤١) فكأن الصبر شيء خارج عن النفس تستجلبه و تستعين به حين تحتاج إليه. أو و كأنه دواء مر تعالج به النفس حين تضعف، فيعطيها من القوة ما تستعين به على صروف الحياة.

و قد قرن الصبر بالصلاة لما لهما من أثر متشابه في دعم المؤمن و تقويته في مواجهة المصاعب، فالصلاة اتصال بالقوي، لاستمداد القوة منه تعالى، و كذلك الصبر يقوي المؤمن على المشاق. و سبقه عليها باعتباره أشمل في شؤون الحياة، فالصبر قد يكون في أي وقت، بينما الصلاة لها أوقاتها، و الصبر بغير شرط بينما العبادة بشروطها. و العبادة في حد ذاتها في حاجة إلى الصبر.

و يؤكد هذه المعاني قوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } {١٥٣}. (٦٤٢) فلم يختم الآية مثلاً بأن يقول إن الله مع المصلين، لكن قال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } لأن الصلاة في حد ذاتها تحتاج إلى صبر، بل إلى اصطبار. قال تعالى: { فَأَعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } {٦٥} (٦٤٣)، و قال سبحانه: { وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْهَا } (٦٤٤)

و الاضطبار تكلف الصبر، و الطاء بدل من التاء، فالأصل: اصتبر، على وزن افتعل،

و جيء بالطاء بدلا من التاء لمراعاة تفخيم الصاد قبلها. و كل هذا التفخيم يدل على المجهود النفسي الذي يتطلبه الصبر، خصوصا حينما يكون متكلفا، و ليس تلقائيا. فالصبر التلقائي قد يكون لما ليس في يد الإنسان دفعه، أما المتكلف فلما هو داخل في إمكانية الإنسان دفعه، لكن يصبر عليه لما له من فوائد مرجوة في ما يستقبل.

و أكثر حديث القرآن الكريم عن الصبر، الصبرُ المبدئي الذي يجب أن يتحلى به الأنبياء و أتباعهم من الدعاة إلى الله تعالى، قال سبحانه: { وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ

(٦٤٠) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٦٤١) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٤، ص: ٤٤٢.

(٦٤٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٦٤٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٦٤٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.

رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَنَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ {٦٤٥}. فكل من يحمل رسالة الله عز و
جل ناشرا لها و مدافعا عنها، فلا بد أن يكذب و يؤذى بشتى أنواع الأذى، لذلك
فلا بد أن يصبر على كل ذلك ما دام سائرا على طريق الأنبياء الذين صبروا
حتى جاءهم نصر الله تعالى. و تلك قاعد مطردة في تاريخ الدعوات من لدن آدم
إلى قيام الساعة، { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلَّ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الْفَاسِقُونَ } {٣٥} {٦٤٦} و قد ذكر القرآن الكريم على ذلك الأمثلة الكثيرة.

بل إن كل من يؤمن برسالة الأنبياء إيمانا حقيقيا مبدئيا فلا بد أن يتعرض
إلى الأذى، فهو لاء سحرة فرعون بمجرد أن آمنوا لما رأوا الآيات و علموا علم
يقين أنها حق، و صرّحوا بذلك أمام الملا، هناك قال لهم فرعون: { آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ
أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
} {١٢٣} لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ {١٢٤} فكان
ردهم: { إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } {١٢٥} وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَن آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا
جَاءَنَا رَبَّنَا أَفَرِّغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَقَّأْنَا مُسْلِمِينَ } {١٢٦} {٦٤٧}

و في قولهم { رَبَّنَا أَفَرِّغْ عَلَيْنَا صَبْرًا } تصوير بياني لما هم فيه من المشقة، و لما
يحتاجونه من مقدار الصبر العظيم المتواصل لمواجهة هذه المصيبة التي أمت
بهم لما آمنوا.

و إذا كانت الحاجة إلى الصبر ضرورية لمواجهة المصاعب فهي كذلك
طريق النصر
و التمكين و الاستخلاف في الأرض، قال جل جلاله: { قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا
بِاللَّهِ
وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } {١٢٨}
{٦٤٨}

و فعلا فقد تحققت نتيجة الصبر على الشدة، فكان النصر و كان
الاستخلاف قال سبحانه: { وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ
الْأَرْضِ وَ مَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي
إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا
يَعْرِشُونَ } {١٣٧} {٦٤٩}

{٦٤٥} سورة الأنعام، الآية: ٣٤

{٦٤٦} سورة الأحقاف، الآية: ٣٥

{٦٤٧} سورة الأعراف، الآية: ١٢٦

{٦٤٨} سورة الأعراف، الآية: ١٢٨

{٦٤٩} سورة الأعراف، الآية: ١٣٧

و إذا كان الصبر طريق النصر، فهو كذلك طريق المحافظة عليه، فقد يتحقق النصر بالصبر، لكن المحافظة على النصر أشق من تحقيقه، إذ لا فائدة من نصر مؤقت يأتي فترة ثم يذهب فجأة، { وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } { ٤٦ } (٦٥٠) فقد أمرهم الله تعالى بالطاعة لله و رسوله، و نهاهم عن التنازع، و ختم كل ذلك بالصبر، لأن كل هذه الأوامر و النواهي لا تتحقق في الواقع إلا به، لذلك قال ابن القيم: " الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر الأوامر و الطاعات حتى يؤديها، و صبر عن المناهي و المخالفات حتى لا يقع فيها، و صبر على الأقدار و الأفضية حتى لا يتسخطها." (٦٥١) ، فالمعركة نفسية قبل أن تكون ميدانية، و لا يقهر العدو الخارجي إلا إذا تم قهر الأنفس و تمت السيطرة عليها و توجيهها الوجهة الصحيحة. و في قوله سبحانه: { وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ } استعارة استعمل فيها لفظ الريح و قصد به: "الدولة، شبهت في نفوذ أمرها و تمشيه بالريح و هبوبها، فقيل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة و نفذ أمره." (٦٥٢) فدولة النصر إذا لا بقاء لها إلا بدوام الصبر على متطلباتها النفسية قبل كل شيء.

و كما يدخل الصبر في ميدان الدعوة و ميدان الدولة، فهو كذلك يدخل في ميدان الأسرة و خصوصا لما قد يحدث فيها من الاحتكاك بين أفرادها و ما قد ينتج عن ذلك من الأذى، إذ قال طرفة بن العبد:

وَ ظَلَمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ
المُهَنْدِ ٦٥٣

و هذا ما نشاهد مثالا عنه في يعقوب عليه السلام و صبره على كيد أبنائه له، في أحبهم له و هو يوسف عليه السلام، فبعد أن تأكد أن في الأمر مكيدة، { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } { ٨٣ } (٦٥٤) و الصبر الجميل هو ما كان من دون جزع و لا شكوى، إذ لا ينفذ ذلك في هذا الموقف خصوصا لأن القريب لا يؤذي في الأصل، و إذا آذى فعن سبق إصرار و ترصد قلما يتراجع عنه! فلا ينفذ في هذا الموقف إلا الاستعانة بالله عز و جل و لذلك قال بعدها: { وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }.

لكل هذا فقد عظم الله أمر الصبر و جعله شرطا أساسيا في الفلاح في الدنيا و الآخرة، قال تعالى: { وَ الْعَصْرُ } { ١ } { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } { ٢ } { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ } { ٣ } (٦٥٥)

(٦٥٠) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٦٥١) ابن القيم، عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير، دمشق، سورية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م، ص: ٢٨.

(٦٥٢) الزمخشري، الكشاف، ج: ٢، ص: ٢٢٦.

(٦٥٣) طرفة بن العبد، الديوان بشرح الأعلام الشنتمري، تحقيق درية الخطيب و لطفي الصقال، المؤسسة العربية، بيروت لبنان، ط: ٢، ٢٠٠٠م، ص: ٥٢.

(٦٥٤) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

(٦٥٥) سورة العنكبوت.

كما أعظم الله الأجر للصابرين و جعله بغير حساب، قال القرطبي:
"وصف الله تعالى جزاء الأعمال و جعل لها نهاية و حدا فقال: { مَنْ جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } (٦٥٦) و جعل جزاء الصدقة في سبيل الله فوق
هذا فقال: { مَثَلُ مَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ... } (٦٥٧) . و
جعل أجر الصابرين بغير حساب و مدح أهله فقال: { إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ
أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (١٠) (٦٥٨) . " (٦٥٩)

٧ _ الحياء

(٦٥٦) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠ .
(٦٥٧) سورة البقرة، الآية: ٢٦١ .
(٦٥٨) سورة الزمر، الآية: ١٠ .
(٦٥٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ١، ص: ٣٧٢ .

قال تعالى: {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاطُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } {٢٢} سورة الأعراف

و قال سبحانه: { وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } {٢٣} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } {٢٤} فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } {٢٥} سورة القصص

و قال جل جلاله {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّهُ وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } {٥٣} سورة الأحزاب

الحياء عند أهل اللغة مشتق " من الحياة واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب فالحياء من قوة الحس و لطفه و قوة الحياة" (٦٦٠)

أما في الاصطلاح فيعرفه الجرجاني بأنه: " انقباض النفس من شيء و تركه حذرا عن اللوم فيه. و هو نوعان، نفساني: و هو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة و الجماع بين الناس. و إيماني: و هو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفا من الله تعالى " (٦٦١)

و الحياء عند علماء النفس " انفعال مركب فيه عناصر من الخجل والخوف ، و هو يعتري الإنسان إذا خاف أن يرى الناس فيه ما يمكن أن يعاب أو يذم ، و هو من السمات الإنسانية؛ لأنه يدفع الإنسان إلى تجنب الأفعال القبيحة المعيبة " (٦٦٢)

(٦٦٠) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج: ٣، ص: ٧٦.

(٦٦١) الجرجاني، التعريفات، ص: ١٢٦،

(٦٦٢) عثمان نجاتي، القرآن و علم النفس، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م، ص: ١٠٥.

" و قال ذو النون: الحياء وجود الهَيْبَة في القلب مع وحشة مما سبق منك إلى ربك، و الحبُّ يُنطق. و الحياءُ يُسكت، و الخوف يُفلق." (٦٦٣)

"قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء و رؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء" (٦٦٤) و على حسب هذا القول فالحياء لازم لكل من يعرف نعم ربه و يعرف تقصيره في حقه.

و قال ابن القيم في أهميته: " خلق الحياء... من أفضل الأخلاق و أجلها و أعظمها قدرا و أكثرها نفعا، بل هو خاصة الإنسانية. فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم و الدم و صورتها الظاهرة. كما أنه ليس معه من الخير شيء. و لولا هذا الخلق لم يُقر الضيف و لم يوف بالوعد و لم يؤد أمانة و لم يقض لأحد حاجة و لا تحرى الرجل الجميل فأثره و القبيح فتجنبه، و لا ستر له عورة و لا امتنع من فاحشة. و كثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه و لم يرع لمخلوق حقا و لم يصل له رحما و لا بر له والدا. فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني و هو رجاء عاقبتها الحميدة و إما دنيوي علوي و هو حياء فاعلها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها" (٦٦٥)

أما في كتاب الله تعالى فأول ما يطالعنا عن الحياء، الحياء الأصلي في الإنسان، و هو النوع الأول الذي ذكره الجرجاني في تعريفه، و سماه بالحياء النفساني، و هو الحياء الفطري، غير المتكلف من طرف صاحبه، كالحياء من كشف العورة، قال تعالى: {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} {٢٢} (٦٦٦)

إذ أن آدم و زوجه بمجرد أن أكلا من الشجرة المحرمة، بدت لهما سؤاتهما، و هنا كان رد الفعل الفطري و الطبيعي من طرفهما أن {طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} رجاء الستر من العري الذي أصابهما. و إذا كان الحياء و الستر أصليا في الإنسان، و ميزة له عن الحيوان، فإن الشيطان و أولياؤه يعملون كل ما في وسعهم للقضاء على هذه الميزة، بغرض نزع صفة الإنسانية عنه، باعتبار أن حياء الستر هو أدنى مستويات الحياء، فإذا تم القضاء عليه، فلا حياء بعد ذلك لابن آدم، و إذا انتزع الحياء منه فإنه كما سبق القول فسيفعل كل سوء بعد ذلك دون تخرج منه. و في الحديث

(٦٦٣) الفيروزآبادي مجد الدين، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج: ٢، ص: ٥١٥.

(٦٦٤) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين ابن قيم الجوزية، ج: ٢، ص: ٢٥٩.

(٦٦٥) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة و منشور ولاية العلم و الإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م، ج: ١، ص: ٢٨٨.

(٦٦٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ ».^(٦٦٧)

و هذا هو السر في تركيز أعداء الله على نشر العري بين الناس اليوم بشكل غريب جدا. فتجدهم ينفقون أموالا طائلة لنشر العري بين الناس بمختلف أشكاله و تدرجاته، إلى أن وصلوا إلى العري التام الذي تروج له وسائل الإعلام الغربية من سينما و قنوات تلفزيونية و مجلات و مواقع افتراضية... و دور الأزياء و بلغ بهم الأمر إلى حد تخصيص شواطئ و نوادي خاصة لا يدخلها إلا العراة و تمنع على كل من تسول له نفسه أن يرتدي قطعة قماش مهما كان حجمها! بل و بلغ بهم الأمر إلى حد سن قوانين تمنع الستر و تجبر النساء على نزع غطاء الرأس في المؤسسات الرسمية، كما حدث في فرنسا سنة ٢٠٠٤م. و لكل هذا علق القرآن الكريم على قصة الشجرة المحرمة بقوله تعالى: { يَا

بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } {٢٧} ^(٦٦٨) فحقا أنهم أولياء لبعض، ما داموا يقومون بنفس المهمة التي قام بها كبيرهم يوم بدء الخليقة.

وفي قوله تعالى: { بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا } " قال الحصري^(٦٦٩): " بدت لهما ولم تبد لغيرهما لئلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علما و لو بدت للأغيار لقال بدت منهما" ^(٦٧٠) أقول: بدت لكليهما، و لذلك طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. فقد استحيا من بعضهما كما استحيا من الله تعالى بفطرتهما السليمة، التي تحركت مباشرة لابتكار وسيلة للستر بما توفر لهما من المواد الحاضرة المتمثلة في ورق الجنة.

أما حياء الإيمان، فقد مثل الله له بامرأتي مدين في سلوكهما و في تعاملهما مع موسى ١ إذ قال سبحانه: { وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْفُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } {٢٣} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } {٢٤} فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَفَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ } {٢٥} ^(٦٧١)

^(٦٦٧) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت. و أبو داود في سننه، في كتاب الأدب، باب في الحياء.

^(٦٦٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

^(٦٦٩) لعله: الحصري (٥٤٦ - ٦٣٦ هـ = ١١٥١ - ١٢٣٨ م) محمود بن أحمد بن عبد السيد بن عثمان، أبو المحامد، جمال الدين البخاري الحصري: فقيه، انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه. مولده في بخارى، ونسبته إلى محلة فيها كان يعمل بها الحصرير. سكن دمشق ودرس بالمدرسة النورية، وتوفى بها. انظر الزركلي، ج: ٧، ص: ١٦١.

^(٦٧٠) إسماعيل حقي، روح البيان في تفسير القرآن، ج: ٥، ص: ٣٣٦.

^(٦٧١) سورة القصص، الآية: ٢٥.

فقد وجدتهما موسى ن {تَدُودَان} غنمهما عن الماء، و هذا ما أثار دهشة موسى ن و ما جعله يسألهما {مَا خَطْبُكُمَا} فكان ردهما أن {قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} فعللتا هذا الوضع الغريب بأنهما لا تسقيان حتى يسقي الرعاة و ينصرفوا، و كان هذا في الأصل كافيا في التعليل ، لكن زيادة في دفع الشبهة زادت: " و أبونا شيخ كبير " ، فالحياء يمنعهم من الخروج لمزاحمة الرجال في ميادين الحياة الخاصة بهم، لكن الضرورة ألجأتهم لهذا الخروج. و مع هذه الضرورة ألا أن من حياءهما أنهما لا يزاحمان الرجال على الماء.

و عليه فقد راعى موسى عليه السلام حالهما و تكفل بالسقي لهما. ثم تولى إلى الظل مستريحا من عناء سفره فأحس بالجوع فلم يتوجه إلى الخلق و لكن توجه إلى الخالق فقال: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} {٢٤} " ولم يصرح بسؤال " (٦٧٢) حياء من الله تعالى.

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} فقال سبحانه {تَمْشِي} و ليس " تسعى " فهي تمشي دون إسراع، و الأصل في المرأة الحية أن تسرع في مشيها حتى تعجل قضاء حاجتها و ترجع إلى بيتها سريعا، لكن يبدو و كأنها كانت تفكر في طريقها كيف ستكلم هذا الرجل الغريب، و كيف ستبادره الكلام. ففي المرة الأولى هو الذي بادرها الكلام، أما الآن فلا بد أن تبادره هي، و هذا شاق على كل امرأة حية. و الاستحياء استثارة الحياء في النفس و تكلفه، فكأنها كانت تتكلف هذا الحياء - و عن كان فيها أصيلا - دفعا للريبة عن نفسها. و قوله: {عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} فإن " على " في الأصل لل فوقية، و المعنى هنا باستحياء. فكأن هذا الحياء أصبح لها بساطا تمشي عليه رفع الله به شأنها عن كل ما يمكن أن يشينها.

و ابتدأت كلامها بقولها: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ} و لم تقل له " تعالى أو أقبل " حياءً و دفعا للشبهة عن نفسها. فما هي إلا رسول، و ما على الرسول إلا البلاغ المبين، و من بيان الرسول أن يبدأ بذكر من أرسله، حتى لا يتوهم السامع أن هذا حديثه هو. ثم بينت مضمون الرسالة: {لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} هكذا بكل هذا الإيجاز، لأن هذا المقام لا يصلح فيه الإطناب، لأنه مظنة شبهة. و لا نجد كذلك في الآية رد موسى عليه السلام، و كأنه لم يرد بالقول، لأنه لا يريد أن يأخذ بأطراف الحديث مع هذه المرأة كذلك حياء و دفعا للشبهة عن نفسه. كما تحدث القرآن الكريم عن حياء الكرم كحياء النبي صلى الله عليه و سلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زَيْنَبَ و طولوا عنده فقام و استحي أن يقول هم:

(٦٧٢) المحاربي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (المتوفى : ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م، ج:٤، ص: ٣٣٥.

انصرفوا. فأنزل (*) جل جلاله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤَدِّنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } { ٥٣ } سورة الأحزاب

فقد «كان م أشدَّ حياءً من عذراء في خدرها»^(٦٧٣) فاستحى أن يطرد القوم بعد فراغهم من الطعام. فتحمل ما يؤذيه و لم يتمكن من الإفصاح عما في نفسه، فتولى الله تعليم الصحابة أدب البيوت و زيارتها.

و في قوله تعالى: { فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ } طباق السلب، طباق فيه سبحانه بين حياء النبي عن تعبيره عما يؤذيه في نفسه، و بين كون الله تعالى لا يستحى من الحق و بيانه حين الحاجة إليه.

و نفي الحياء عن الله عز و جل في هذا الموضع لا ينفي الحياء عنه، فالله جَلَّ تَنَآؤُهُ حَيُّ سَنِيْرٌ^(٦٧٤)، " و حياء الرب تعالى من عبده .. نوع آخر لا تدركه الأفهام و لا تكيفه العقول فإنه حياء كرم و بر و جود و جلال فإنه تبارك و تعالى حيي كريم يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا^(٦٧٥) و يستحى أن يعذب ذا شبيبة شابت في الإسلام^(٦٧٦) و كان يحيى بن معاذ^(٦٧٧) يقول: سبحان من يذنب عبده و يستحى هو. و في أثر: من استحى من الله استحى الله منه^(٦٧٨)،^(٦٧٩)

و عليه فقد جعل القرآن الكريم من الحياء و قاية للإنسان من الزلات و المعاصي إذ أن انعدام الحياء يؤدي إلى اندفاع النفس إلى المجون و الوقاحة و الجرأة على المعصية. فهو يكسو المرء الوقار، فلا يفعل ما يخلّ بالمروءة و التوقير.

(*) انظر: الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، (المتوفى : ٤٦٨هـ)، أسباب النزول، دار الباز للنشر و التوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط: /، ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م، ص: ٢٤١.
(٦٧٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب.
(٦٧٤) حديث: « إِنَّ اللَّهَ جَلَّ تَنَآؤُهُ حَيُّ سَنِيْرٌ ... » رواه البيهقي في السنن الكبرى عن عطاء عن يعلى، في كتاب الطهارة، باب الستر في الغسل عند الناس.

(٦٧٥) حديث: « إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيُّ كَرِيْمٌ... » رواه أبو داود في سننه، عن سلمان ط في باب الدعاء.
(٦٧٦) حديث: « إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أَعَذَّبَ ذَا شَبِيْبَةٍ فِي النَّارِ » ذكره السيوطي في كتابه اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية، ج: ١ ص: ١٢٥.
(٦٧٧) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي: (٢٥٨ - ٠٠٠ هـ = ٨٧٢ - ٠٠٠ م) واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري.

أقام ببلخ، و مات في نيسابور. عن الزركلي، الأعلام، ج: ٨، ص: ١٧٢.
(٦٧٨) لم نجد في ذلك إلا حديث البخاري عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وذهب واحد قال فوقفا على رسول الله صلى الله عليه و سلم فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها و أما الآخر فجلس خلفهم و أما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله و أما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه و أما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه) في كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس.
(٦٧٩) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج: ٢، ص: ٢٦١.

٨- الصلاة

قال تعالى: { ١ } ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ { ٢ } الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ { ٣ } سورة البقرة. وقال سبحانه: { وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ { ٤٣ } أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ { ٤٤ } وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ { ٤٥ } الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ { ٤٦ } سورة البقرة. وقال عز وجل: { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ { ٢٣٨ } سورة البقرة

و قال عز من قائل: { فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْفُوتًا { ١٠٣ } سورة النساء

و يقول عز من قائل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ { ٦ } . سورة المائدة

و قال جل جلاله: { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ { ١١ }

سورة

التوبة

و قال كذلك: { وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كَسَالَىٰ وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارْهُونَ { ٥٤ } سورة التوبة

و يقول كذلك: { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ دُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ

{ ٤٠ }

سورة إبراهيم

و يقول تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}. سورة العنكبوت
و يقول جل جلاله: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} بعد قوله: {إِلَّا
الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}. سورة المعارج.

هذا علاج آخر يصفه القرآن الكريم لأمراض النفس الإنسانية. فقد رأينا سابقا اتصاف النفس الإنسانية بالهلع بشقيه المنع و الجزع، و لقد استثنى الله بعد ذكر الهلع: أهل الصلاة بقوله: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} {٢٢} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} {٢٣} (٦٨٠)

و " الصلاة في اللغة: الدعاء. هذا قول جماهير العلماء من أهل اللغة و الفقه و غيرهم. وسميت الصلاة الشرعية صلاةً لاشتمالها عليه" (٦٨١)

و عرفها الفقهاء - خصوصا - بقولهم: هي " أفعال و أقوال مخصوصة مفتحة بالتكبير مختمة بالتسليم" (٦٨٢)

و لأهمية الصلاة فإننا نجد القرآن الكريم- حين تعريفه للمتقين - يذكرها مباشرة بعد الحديث عن الإيمان: الإيمان بالكتاب، ثم الإيمان بالغيب بكل مضامينه، ثم تأتي الصلاة كأول أمر من أمور الشريعة العملية. فهي حقا ((عماد الدين)) (٦٨٣)، فلا قوام و لا قيام له إلا بها.

فالتقوى إذا هي مجموع الإيمان بالغيب و القيام بالفرائض، و على رأسها إقامة الصلاة، فبذلك يكون الإنسان مهتديا بهذا الكتاب الذي لا ريب فيه.

و لقد جاء الحديث عن الصلاة مباشرة بعد الحديث عن الإيمان بالغيب، لأن أساس العقيدة الإسلامية هو التوحيد و الصلاة هي التي تجسد هذا المبدأ في حياة الإنسان.

(٦٨٠) سورة المعارج، الآية: ٢٢- ٢٣.

(٦٨١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج: ٣، ص: ١٦٩.

(٦٨٢) محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، ج: ٢، ص: ٣٢٩.

(٦٨٣) حديث: " الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ " رواه البيهقي في " شعب الإيمان " الباب

الحادي و العشرين " باب في الصلوات " عن عكرمة عن عمر، قال البيهقي: قال أبو عبد الله [الحاكم] : عكرمة لم يسمع من عمر و أظنه أراد عن ابن عمر.

و قال بن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير: مرسل رجاله ثقات.

و لقد عقد البيهقي الباب الحادي والعشرين من كتابه "شعب الإيمان" و سماه: "باب في الصلوات، قال: و ليس من العبادات بعد الإيمان الرافع للكفر عبادة سماها الله عز وجل إيماناً وسمى رسول الله ﷺ تركها كفراً إلا الصلاة" (٦٨٤) قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ} {١٤٣} (٦٨٥)

"فالصلاة معراج المؤمن" (٦٨٦) و الذين {يقيمون الصلاة} إنما "يتجهون بالعبادة لله وحده، و يرتفعون بهذا عن عبادة العباد، و عبادة الأشياء. يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود و يحنون جباههم لله لا للعبيد، و القلب الذي يسجد لله حقاً، و يتصل به على مدار الليل و النهار، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، و يجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض و حاجات الأرض، و يحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق . و هذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر تخرج و تقوى، و عامل هام من عوامل تربية الشخصية، و جعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك." (٦٨٧)

" و معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها و حفظها من أن يقع زيغ في فرائضها و سدننها و آدابها. من أقام العود - إذا قومه - أو الدوام عليها و المحافظة عليها كما قال عز و علا: {الذين هم على صلاتهم دائمون} (٦٨٨) } و الذين هم على صلواتهم يحافظون { (٦٨٩) " (٦٩٠)

و هذا التكرار للحديث عن الصلاة في نفس السورة إنما هو تأكيد على أهميتها في تقويم النفوس و إصلاحها، و الدوام شيء و المحافظة شيء آخر، فالدوام الاستمرار، لكن الاستمرار على الصلاة ليس بالضرورة أن تكون باتقان، ف جاء الأمر بالمحافظة لتعزيز الأمر بالدوام، حتى تكون الصلاة دائمة و تامة كاملة.

كما أن الاستعداد للصلاة بالوضوء له دور كبير في الراحة و الصحة النفسية للإنسان ف " غسيل الأذن داخلها، و خارجها يؤثر على عصبي القلب

(٦٨٤) البيهقي، شعب الإيمان، ج: ٣، ص: ٣٣.

(٦٨٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٦٨٦) النظام النيسابوري، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، ج: ١، ص: ١١٨.

(٦٨٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٤٠.

(٦٨٨) سورة المعارج، الآية: ٢٣.

(٦٨٩) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.

(٦٩٠) الزمخشري، الكشاف، ج: ١، ص: ٤٠.

الذين يسيران ملاصقان لخلف الأذن و هذا التأثير له دور منعش على مراكز المخ و القلب.

و يأتي ميقات الوضوء...في مواعيد حددها الحق عز وجل لتنشيط الجهاز العصبي و العضلي...فعند الفجر و قد استيقظ الإنسان من نومه و ما زالت صحوته غير كاملة يأتي الوضوء و يقوم بهذه المهمة، و يزداد نشاط الإنسان من تيارات كهربية تسري من أعضائه في أعصابه إلى مراكز مخه فينشطها و تكتمل الصحوة.

و يهتم الإسلام بإعادة هذا النشاط [مع كل صلاة إلى] صلاة العشاء...فيأتي الوضوء و النظافة قبل السكون و الإخلاق إلى النوم و الاسترخاء." (٦٩١)

كما أن في الوضوء رمزية الطهارة قبل التوجه إلى الله تعالى، و هذا دفعا لوسواس النجاسة التي قد تتسلط على بعض الناس مما اقتروا من أفعال قد تجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا أهلا لهذه الصلاة فيتركوها جملة. و لذلك ورد في الحديث الشريف: قَالَ « مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرَّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضَّمُ وَ يَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَ فِيهِ وَ خِيَاشِيمِهِ ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنْمَالِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنْمَالِهِ مَعَ الْمَاءِ فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَ مَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَ فَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلَّا أَنْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ». (٦٩٢)

فإذا كانت الصلاة بهذا الشكل كانت نافعة لصاحبها، ف " الصلاة صلة و لقاء بين العبد و الرب. صلة يستمد منها القلب قوة ، و تحس فيها الروح صلة ؛ و تجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا . . و لقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٦٩٣)، و هو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي و الإلهام . . و ما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق، و ريا في الهجير، و مددا حين ينقطع المدد، و رصيда حين ينفد الرصيد.

فالصلاة تضمن لصاحبها الاسترخاء بعيدا عن التوتر الناتج عن مشاغل الدنيا و همومها. إذ أن الصلاة من الآخرة فإذا دخلها العبد خرج من الدنيا، و فيها كذلك كمال المناجاة مع الرب تبارك و تعالى. و من هنا نفهم قوله ﷺ لبلال

(٦٩١) جمال ماضي أبو العزايم، القرآن و الصحة النفسية، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م، ص: ٥٧ - ٥٩.

(٦٩٢) رواه مسلم عن عمرو بن عبسة السلمي، في باب إسلام عمرو بن عبسة.

(٦٩٣) قال حذيفة: " كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا حزبه أمر صلى." مسند الإمام أحمد في مسند الأنصار رضي الله عنهم .

بن رباح τ : "يا بلال: أقم الصلاة، أرحنا بها"^(٦٩٤). و قوله p : "و جعلت قرّة عيني في الصلاة" ^(٦٩٥) فهي لذة لذاته، و راحة حياته.
 و الأمر بالمحافظة على الصلوات في قوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَفُؤِمُوا لِلَّهِ فَأَنْتَيْنَ {٢٣٨} }^(٦٩٦) فيه " تنبيه للعباد على أن المحافظة عليها على وجهها تسهل القيام بأعباء التكليف... لأنها تزكي النفس بما فيها من ذكر و خشوع و حضور و انقطاع إلى الله تعالى و توجه إليه و مناجاة له، و هذا كله تعرج به النفس في درجات الكمال. و النفوس الزكية الكاملة تجد في طاعة خالقها لذة و أنسا تُهون معها أعباء التكليف."^(٦٩٧)

كما أن في الصلاة سمو نفسي ينتج من التأمل في المعاني السامية لمكوناتها من حركات و أقوال. فالوقوف بين يدي الله و الركوع له و السجود له و الجلوس أمامه كلها معان عظيمة في ذاتها. كما أن لما يتلوه المصلي أو يسمعه في صلاته من تكبير أو تحميد أو تسبيح أو قرآن... كلها لها أثر عظيم على النفس.

" و حض الحق عز و جل على استمرار التركيز أثناء الصلاة حتى يعلم ما يقول و يفعل و هو واقف بين يدي مولاه... هذا الاستمرار في محاولة تركيز الاستيعاب علاج سلوكي لضعف التركيز لأنه تدريب متكرر كل يوم على تقوية القدرة على التركيز." ^(٦٩٨) قال تعالى: {وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }^(٦٩٩)

و قال سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ }^(٧٠٠) فكان الذي لا يعلم ما يقول في صلاته بمثابة السكران فاقد العقل. و كفى بهذا التصوير زاجرا عن السهو في الصلاة.

كما أن الحفاظ على مواقيت الصلاة تدريب لصاحبها على الانضباط و الوفاء بالمواعيد، قال تعالى: { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا }^(٧٠١). و كم الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى هذا التدريب. لما نشاهده من تقصير في الالتزام بالمواعيد و استهتار بالوقت.

^(٦٩٤) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة.

^(٦٩٥) أخرجه النسائي من حديث أنس كتاب عشرة النساء باب حب النساء.

^(٦٩٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

^(٦٩٧) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة

الأولى، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٢ م. ص: ١٠٩.

^(٦٩٨) جمال ماضي أبو العزائم، القرآن و الصحة النفسية، ص: ٦٢.

^(٦٩٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

^(٧٠٠) سورة النساء، الآية: ٤٣.

^(٧٠١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

و بعد أن تناولت سورة البقرة الصلاة كأهم صفات المتقين و أهم أعمالهم، نجد السورة بعد ذلك تتناول الصلاة كأهم دعامة من دعامات بناء المجتمع الصالح، فمع أن الصلاة أمر فردي بين العبد و ربه، إلا أن أهم و أفضل طريقة لأدائها هي أدائها جماعة. و لعل هذا هو السبب في تكرار الأمر بالصلاة في آية واحدة فقال: { وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ }، ثم أتبعها بالأمر: { وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ } { ٤٣ }، فصلاة الجماعة ذات أثر نفسي على الإنسان أعظم من صلاة الفرد، و ذلك لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، و كلما كان في مجموعة ازدادت طمأنينته، و حصل له التوازن النفسي، و العبادة المؤثرة هي التي تكون في طمأنينة و توازن نفسي، و ذلك هو ما يحصل للنفس في صلاة الجماعة فيجتمع للإنسان طمأنينته، و توازنه النفسي، مقرونا بالخشوع و الخشية و الاسترخاء، مع التأمل في معاني الصلاة و القرآن الذي يتلى. فكل هذا مجموعا يقع على النفوس المكدودة من كد النهار موقع البلمس على الجروح.

و لذلك جاء الأمر بعد ذلك في الآية الموالية بالاستعانة بالصلاة فقال سبحانه: { وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } { ٤٥ } فإذا كانت الصلاة تعين على مواجهة ضغوط الحياة اليومية فهي خير معين كذلك على مواجهة مصائب الدنيا،

كما أن صلاة الجماعة و قاية للإنسان " من الانطواء الذي إذا استفحل أدى إلى المرض. لكن صلاة المؤمن خمس مرات في جماعة لكفيل بحمايته من بذور الانطواء المرضية، و كذا اشتراك المسلم خمس مرات في عمل جماعي مقتن سوف يكبح جماح الانطلاق من غير حدود و يصير المسلم ملتزما بالقيم الجماعية" (٧٠٢)

و لهذا كان الانتماء إلى الإسلام مشروطا بإقامة الصلاة التي تحقق الصلة الحقيقية بالله تعالى، و بالإسلام و تعزز الانتماء إلى الجماعة المسلمة، قال جل جلاله: { فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } (٧٠٣) و لا يتحقق هذا الانتماء بمجرد الأداء البارد للصلاة، و لا بالأداء

المناسباتي لها، فذلك قد يصنف الإنسان في صنف المنافقين، إذ قال سبحانه في صفة المنافقين: { وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارَهُونَ } (٧٠٤)

لكل هذه الأهمية كان الأنبياء و الصالحون يحرصون على صلاتهم، و على صلاة ذريتهم، و يستعينون بالله تعالى على أدائها، فهذا دعاء إبراهيم عليه السلام: { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ } (٧٠٥)

(٧٠٢) جمال ماضي أبو العزائم، القرآن و الصحة النفسية، ص: ٦٢.

(٧٠٣) سورة التوبة، الآية: ١١.

(٧٠٤) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٧٠٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

و نجد أنه لم يستعمل الفعل " أقيم " لإقامة الصلاة بل استعمل اسم الفاعل: {مُقِيمٍ} لأن الفعل غالبا ما يدل على المرة، أما اسم الفاعل فيدل على الاستمرار. وكرر النداء للرب تعالى في بداية الدعاء و في ختامه لأهمية القضية التي تشغل باله، و هي أن يقيم هو و ذريته الصلاة. و هكذا نجد القرآن الكريم يجعل من الصلاة علاجاً روحياً لنفس المسلم، من أجل علاج سلوكه، إذ {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}. (٧٠٦) ، فإذا صلح باطن الإنسان صلح ظاهره، و ظهر هذا الصلاح على سلوكه.

٩ - الزكاة

قال تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } { ٢ } الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } { ٣ } سورة البقرة و قال جل جلاله: { وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } سورة البقرة { ٤٣ }

و قال عز وجل { وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } { ١١٠ } سورة البقرة

و قال سبحانه: { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } { ٢٧٦ } إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { ٢٧٧ } سورة البقرة

و قال عز من قائل: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ } { ٥٥ } سورة المائدة

و قال كذلك: { وَ أَكْثَبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٍ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } { ١٥٦ } سورة الأعراف

و يقول سبحانه: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } { ١٠٣ } أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّوَّابُّ الرَّحِيمُ } { ١٠٤ } سورة التوبة

و يقول جل جلاله: {الَّذِينَ إِن مَّكَدَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } { ٤١ } سورة
الحج

و يقول عز و جل: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ
رَاجِعُونَ } { ٦٠ } أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ } { ٦١ } سورة
المؤمنون

و يقول تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } { ٢٤ } لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ
{ ٢٥ } سورة المعارج

و يقول كذلك: { وَ مَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ
يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } { ٥ } سورة البينة

نذكر بما قد رأيناه سابقا في هذا البحث من اتصاف النفس الإنسانية بالهلع،
بشقيه: المذع و الجزع، و رأينا الغاية من ذلك، و كيف أن التوسط في هذه
الصفة و تهذيبها هي التي تحقق إنسانية الإنسان.

و قد جعل الله الزكاة خصوصا و الإنفاق عموما وسيلة لتحقيق هذا التوازن
النفسي، و علاجا من دائي البخل و الإسراف. و لذلك فبعد أن تحدث سبحانه
عن الهلع استثنى أهل الإنفاق بقوله: { وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } { ٢٤ }
لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ } { ٢٥ }^(٧٠٧)

و " أصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله... سميت بذلك لما فيها من
رجاء البركة أو لتركبة النفس أي تتميتها بالخير أو لهما معا "^(٧٠٨)

" و في الشرع: عبارة عن إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص
لمالك مخصوص "^(٧٠٩)

و يأتي الحديث عن الصلاة في معظم في القرآن الكريم متبوعا بالحديث
عن الإنفاق بوجه عام و الزكاة بوجه خاص، و هذا ما نلاحظه في الآيات
الأولى من سورة البقرة، و التي جاءت في الأصل لتبين لنا خصائص الأفراد
المؤمنين الذين يتشكل منهم المجتمع المسلم " فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي

^(٧٠٧) سورة المعارج، الآية: ٢٤ - ٢٥.

^(٧٠٨) المناوي محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: ٣٨٧.

^(٧٠٩) الجرجاني، ص: ١٥٢ - ١٥٣.

في أيديهم هو من رزق الله لهم، لا من خلق أنفسهم؛ و من هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق، و التضامن بين عيال الخالق، و الشعور بالآصرة الإنسانية، و بالأخوة البشرية... و قيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح، و تركيتها بالبر. و قيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، و أنها تؤمن العاجز و الضعيف و القاصر، و تشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب و وجوه و نفوس، لا بين أظفار و مخالب و نيوب!

و الإنفاق يشمل الزكاة و الصدقة، و سائر ما ينفق في وجوه البر. و قد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة و لا تستوعبه. و قد ورد في حديث رسول الله ﷺ بإسناده لفاطمة بنت قيس « **إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ** »^(٧١٠). و تقرير المبدأ على شموله هو المقصود في هذا النص السابق على فريضة الزكاة.^(٧١١)

" فهذه الزكاة إنما هي تدريب للمسلم على العطف على المحتاجين من الناس، و مد يد العون إليهم و مساعدتهم على سد حاجاتهم الضرورية. إنها تقوي في المسلم الشعور بالمشاركة الوجدانية مع الفقراء و المساكين. و تثبت فيه الشعور بالمسؤولية نحوهم، و تدفعه إلى العمل على إسعادهم و الترفيه عنهم. إنها تعلم المسلم حب الآخرين، و تخلصه من الأنانية و حب الذات و البخل و الطمع. و ... قدرة الفرد على حب الناس و إهداء الخير إليهم و العمل على إسعادهم يقوي فيه الشعور بالانتماء الاجتماعي، و يشعره بدوره الفعال في المجتمع، مما يجعله يشعر بالرضا عن نفسه، و هو أمر له أهميته الكبيرة في صحة الإنسان النفسية...

فالزكاة تطهر النفس من دنس البخل و الطمع و الأثرة و حب الذات و القسوة على الفقراء. و هي تزكي النفس، أي تنميتها و ترفعها بالخيرات و البركات الخلقية و العملية، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية و الأخروية"^(٧١٢) و قد قال ﷺ لرجل سأله كيف ينفق ماله: « **أد الزكاة المفروضة طهرة تطهرك** »^(٧١٣)

و لأهمية الزكاة فقد تكرر الأمر بها في سورة البقرة، و من ذلك قوله جل جلاله: { **وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ** }^(٧١٤) حيث نجد الزكاة و قد جعلت بين الأمر بالصلاة مطلقاً و الأمر بصلاة الجماعة، و ذلك رفع لمقام الزكاة إلى مقام الصلاة، من جهة، و تنبيه على أثرها الاجتماعي

^(٧١٠) الترمذي، الجامع الصحيح، باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة.

^(٧١١) سيد قطب الظلال، ج: ١، ص: ٤٠.

^(٧١٢) نجاتي، القرآن و علم النفس، ص: ٢٩٥.

^(٧١٣) رواه الحاكم في المستدرک عن أنس بن مالك رضي الله عنه، في كتاب التفسير من تفسير سورة بني إسرائيل،

^(٧١٤) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

كصلاة الجماعة. و لهذا قال أبو بكر الصديق τ : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة" (٧١٥)

و رغب القرآن الكريم في الزكاة باعتبارها ادخارا لليوم الآخر، إذ قال عز وجل: { وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٧١٦) و في قوله تعالى: { وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ } تعريض بما قد يفكر به البعض حول ما سديتركه و يخلفه من بعده لورثته، فالأفضل التفكير فيما يقدمه الإنسان لنفسه ليوم القيامة، و في الأثر: « إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ . وَقَالَ بَنُو آدَمَ: مَا خَلَّفَ ؟ » (٧١٧)

و يقارن القرآن بين الزكاة و الربا، و ذلك في قوله سبحانه: { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَ يُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ } { ٢٧٦ } { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { ٢٧٧ } (٧١٨)

فمن أراد زيادة ماله فعليه بالصدقات لا بالربا، لأن الربا و إن كان يزيد في الظاهر إلا أنها زيادة بغير بركة يوشك الله أن يحققها في أي لحظة (*) و الله تعالى يتولى مضاعفة الأجر على الزكاة بقدر نية صاحبها و إخلاصه. و في هذا الطباق بين { يَمْحَقُ } و بين { يُرْبِي } تنبيه على خطأ كثير من الناس في فهم المعادلة فهم يفهمونها مقلوبة، فتولى القرآن الكريم تعديل و تصحيح المعادلة.

و على أساس الزكاة - إضافة إلى الصلاة - تكون الولاية بين المؤمنين، و تكون اللحمة و التآزر بينهم. قال عز من قائل: { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ } (٧١٩) و لرفعة مقام هؤلاء الذين يؤدون الزكاة فقد رفع الله مقام ولايتهم إلى مقام ولاية الله و رسوله، و أعظم بها مقامة.

و زيادة في رفعة المقام فقد خص الله رحمته لأصحاب الزكاة، قال تعالى على لسان موسى U : { وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَنشَأُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } (٧٢٠)

(٧١٥) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة.

(٧١٦) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٧١٧) رواه البيهقي عن أبي هريرة في شعب الإيمان في باب الزهد و قصر الأمل.

(٧١٨) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦ - ٢٧٧.

(*) انهار أكثر من مئة بنك ربوي في أمريكا وحدها في أزمة ٢٠٠٩.

(٧١٩) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٧٢٠) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

و هذه الزكاة - كما سبق القول - ليست غرامة على الإنسان المسلم بل هي طهارة و نماء نفسي له، فالذي يأخذها ليس الحاكم و لا فقير و إنما يأخذها الله تعالى، إذ يقول: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } { ١٠٣ } أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّوَّابُّ الرَّحِيمُ } { ١٠٤ } (٧٢١) و قوله: { يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ } " هو مجاز عن قبوله لها، و عن ابن مسعود رضي الله عنه: « إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل» (٧٢٢). و المعنى: أنه يتقبلها و يضاعف عليها " (٧٢٣) الأجر. و في الاستفهام في الآية: { أَلَمْ يَعْلَمُوا } إلهاب و حض على التوبة و الصدقة، فمن يعلم أن الله هو المتلقي لا بد أن يسارع إلى البذل. و في التخصيص ب { هُوَ } تأكيد على هذا المعنى، فلا ينوب عن الله أحد في أخذها.

و الزكاة من مظاهر شكر الله تعالى على النعم إذ يقول جل جلاله: { الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } { ٤١ } (٧٢٤) فالتمكين في الأرض من أعظم النعم على الإنسان، و على من تفضل الله عليه بهذه النعمة أن يؤدي حق الله فيها، و أول حقوقها إقام الصلاة و أداء الزكاة. و من لم يشكر نعمة الله فيوشك أن تنتزع منه { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (٧٢٥)

و ليست الزكاة تفضل من الغني على الفقير، بل هي واجب و حق إلهي، يتقرب به إلى الله تعالى، مع خشية رده و عدم قبوله يقول عز و جل: { وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } { ٦٠ } أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ } { ٦١ } (٧٢٦)

فالخشية دافعهم إلى الزكاة و الخشية مصاحبة لقيامهم بالزكاة، و الخشية ملازمة لهم بعد أداء واجب الزكاة. فهذه الحالة النفسية العالية هي التي جعلت عملهم مقبولاً و رفعتهم درجة السابقين. و في قوله تعالى: { يُؤْتُونَ مَا آتَوْا } جناس اشتقاق غرضه تعظيم عمل هؤلاء و التنويه به، مهما كان قدره و حجمه المادي، ذلك لأن الخشية التي صاحبته قد رفعت قدره عند الله تعالى.

(٧٢١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣ - ١٠٤.

(٧٢٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير في باب من اسمه عمر.

(٧٢٣) الزمخشري، الكشاف، ج: ٢، ص: ٣٣٠.

(٧٢٤) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٧٢٥) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٧٢٦) سورة المؤمنون، الآية: ٦١.

فمن قام بهذا الواجب على هذا الوجه و راعى فيه هذه المعاني السامية، فقد حقق ما أمر به شرعاً، و هذا هو نظام الحياة القويم الذي سطره القرآن الكريم. في قوله تبارك: { وَ مَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَ يُعِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } (٧٢٧)

١٠ - الصوم

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } { ١٨٣ } أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيفُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } { ١٨٤ } شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } { ١٨٥ } وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } { ١٨٦ } سورة البقرة

" الصوم في اللغة مطلق الإمساك.

و في الشرع عبارة عن إمساك مخصوص و هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية " (٧٢٨)

و عرفه بعض الفقهاء بأنه: " الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى تمام غروب الشمس. " (٧٢٩)

و هو عند علماء السلوك " ثلاث مراتب:

أولها: صوم العموم، و هو كف الفرج و البطن عن قضاء الشهوة.

ثانيها: صوم الخصوص، و هو كف الجوارح عن الآثام.

و ثالثها: صوم أخص الخصوص، و هو غض البصر عن المحارم و

المكاره و عما يليه عن ذكر الله، و حفظ اللسان عن الكذب و الغيبة و النميمة و الفحش و الجفاء و الخصومة و كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه و كف

(٧٢٧) سورة البينة، الآية: ٥.

(٧٢٨) الجرجاني، ص: ١٧٨.

(٧٢٩) محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، ج: ١، ص: ١٠٥.

بقية الجوارح عن المكاره، و كف البطن عن الشبهات و أن لا يستكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ بطنه. و أن يكون قلبه بعد الإفطار متعلقا مضطربا بين الخوف و الرجاء إذ لا يدري أنه يقبل صومه فيكون من المقربين أو يرد فيكون من الممقوتين" (٧٣٠)

و لأهمية هذه العبادة في تقويم سلوك الإنسان فقد فرضها الله سبحانه و تعالى على كل الأمم، و أمرت بها كل الشرائع السماوية، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } و قد ابتدأ الخطاب ب: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } و في ذلك استمالة لقلوب و عقول المخاطبين، فقد أقر الله لهم بالإيمان، وكفى بذلك فضلا من الله تعالى. و ما داموا يزعمون الإيمان فلا بد أن يلتزموا بما يأتيهم من الله الذي إلى الاستجابة، لأن الخطاب كلما كان أرق كان أقرب إلى القلوب.

و الهدف من هذا الصيام هو: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } فليس الهدف من الصيام في الإسلام مجرد معاناة للجوع و العطش، و إنما هو تدريب للمسلم على ضبط الشهوات، و تدريب له على الإخلاص لله في القول و العمل.

ومن هنا تأتي أهمية الصوم ومعناه الكبير! إذ كل عبادةٍ سواه قد يدخلها الرياء حتى الصلاة خير الأعمال قد يدخلها الرياء . فما أحوجنا إلى الصيام نتعلم فيه الإخلاص. و قد ورد في الأثر: « ليس في الصيام رياء» (٧٣١)

فالصيام "علاج لكثير من أمراض النفس و الجسم. فالإمساك عن الطعام و الشراب من قبل الفجر إلى غروب الشمس في جميع أيام رمضان، إنما هو تدريب للإنسان على مقاومة شهواته و السيطرة عليها ، و ذلك يؤدي إلى بث روح التقوى فيه. إن استمرار هذا التدريب على ضبط الشهوات و السيطرة عليها مدة شهر كل عام، لا شك سيؤدي إلى تعليم الإنسان قوة الإرادة، و صلابة العزيمة، لا في التحكم في شهواته فقط، و غنما في سلوكه العام في الحياة، و في القيام بمسؤولياته، و أداء واجباته، و مراعاة الله تعالى في كل ما يقوم به من أعمال. و في ذلك أيضا تربية لضمير الإنسان، فيصبح الإنسان ملتزما دائما بالسلوك الحسن الأمين بوازع من ضميره من غير حاجة إلى رقابة من أحد عليه.

و في الصيام أيضا تدريب للإنسان على الصبر على الجوع و العطش و الامتناع عن الشهوات. و يقوم الإنسان بعد ذلك بتعميم خصلة الصبر التي

(٧٣٠) القنوجي، أبجد العلوم، ج: ٢، ص: ٥٧ - ٥٨.
(٧٣١) رواه البيهقي عن ابن شهاب في شعب الإيمان - باب في الصيام، فضائل الصوم. و قال: هكذا روي بهذا الإسناد منقطعا.

تعلمها من صيامه على جميع نواحي حياته الأخرى، فيتعلم الصبر على تحمل مشاق السعي وراء الرزق، و آلام المرض، و متاعب الحياة و مصائبها. و الصبر من الخصال الإنسانية الحميدة التي أوصى الله تعالى الإنسان أن يتحلى بها، فهي خير معين له على تحمل مشاق الكفاح في الحياة، و مجاهدة النفس، و مقاومة أهوائها و شهواتها...

و من الفوائد النفسية للصيام أيضا أنه يشعر الغني بآلام الجوع، و يبعث في نفسه عواطف الرحمة و الشفقة على الفقراء و المساكين، فيدفعه ذلك إلى البرّ بهم و الإحسان إليهم مما يقوي في المجتمع روح التعاون و التضامن و التكافل الاجتماعي. " (٧٣٢) و لكل هذا ورد في الحديث الشريف: « الصَّيَّامُ جُنَّةٌ إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرُفُثُ وَ لَا يَجْهَلُ فَإِنْ أَمْرٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ ». (٧٣٣)

و زيادة في الترغيب في صيام شهر رمضان قلل سبحانه من وقع مدته على الأنفس، و هونها، فقال سبحانه: { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ } لا تلبث أن تنتضي، و ينتظر المسلم بعدها أياما معدودات أخر في رمضان المقبل. و رحمة بالناس فقد قبل الله العذر من المريض و المسافر أن يفطر، و يقضي أياما أخر بدلا مما أفطر، و شرع الفدية لمن لا يستطيع القضاء، من أصحاب الأمراض المزمنة و العجائز و الشيوخ الضعاف العاجزين عن الصوم. قال سبحانه: { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٧٣٤) و في ذلك تربية للمسلم على مراعاة حالات الناس و ظروفهم، فكما أن الله يراعي حالة الضعيف و المريض، فأولى بالناس أن يراعوا حالات بعضهم. و في قوله تعالى: { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } حذف، و التقدير: " فأفطر " و قد حذف هذا اللفظ لدلالة السياق عليه، فلا حاجة للإطناب هنا. كما فيه دلالة على تجاوز الله عن عبده، فكأن فعله لم يكن. و من جهة أخرى إشارة إلى صاحب العذر في الإفطار أن من الأدب أن يخفي إفطاره و لا يجاهر به أمام الناس حتى لا يكون مظنة شبهة، و لا يعطي للفساق عذرا بالمجاهرة بإفطارهم دون عذر. ثم علل الله مشروعية الصوم، و هو إنزال القرآن في هذا الشهر العظيم، فالصوم هو شكل من أشكال شكر الله على إنزال القرآن الذي هو هدى للناس، فلولا لبقى الناس فوق الأرض يأكل بعضهم بعض، و لا قامت للإنسانية حضارة. قال تبارك و تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كَانَ مَرِيضًا

(٧٣٢) نجاتي، القرآن و علم النفس، ص: ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٧٣٣) رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة، في كتاب الصوم، باب الغيبة للصائم.

(٧٣٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ
لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٧٣٥)
و نلاحظ تكرار الحديث عن رخصة الصيام في الآية الثانية، و ما ذاك إلا
تأكيد لرحمة الله بعباده، و حتى لا يظن ظان بنسخ الرخصة السابقة بتكرار
الأمر بالصوم حين بيان حكمة من حكمه.

ثم ختم الأمر بالصوم ببيان بعض فضائل الصوم المتمثلة في إجابة الدعوة،
فقال: { وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلَيْسَتْجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (٧٣٦) و الصائم حقيق بهذه الإجابة
ما دام يقوم بعبادة بينه و بين ربه لا يطلع عليها بشر. و في الحديث: «إن للصائم
عند فطره لدعوة ما ترد» (٧٣٧). و هذا لا ينفي الاستجابة عن غير الصائم، بل
الله يستجيب لكل من يستجيب له و يؤمن به، لذلك ختم الآية بقوله:
{ فَلَيْسَتْجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }.

و في قوله: { وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي قَرِيبٌ } حذفُ لكلمة: " قل
" التي نجدها في القرآن الكريم في الرد على أسئلة الناس، و في هذا الحذف
إشارة إلى تولى الله تعالى الرد على هذا التساؤل، دون أن يكلف الرسول ρ
بالرد نيابة عن الله. فالعلاقة في الدعاء بين العبد و ربه لا واسطة فيها مهما
كانت، ذلك أن الله قريب بسمعه و بصره من عبده، و هو { أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَبْلِ الْوَرِيدِ } (٧٣٨)

و بهذا جعل القرآن الكريم من الصوم وسيلة لرقى النفس و إصلاحها
و تقويم السلوك، و الوقاية من كثير من أمراض النفس التي عجز عن
علاجها علماء النفس و أطبائها الغافين عنه.

١١ - الحج

(٧٣٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٧٣٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٧٣٧) رواه ابن ماجة في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، في كتاب الصيام، باب في (الصائم لا ترد دعوته).

(٧٣٨) سورة ق، الآية: ١٦.

قال تعالى: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا قَانَ خَيْرٌ الزَّادِ النَّفْوَى وَانْفُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ { ١٩٧ } لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ { ١٩٨ } ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ { ١٩٩ } فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ { ٢٠٠ } وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ { ٢٠١ } سورة البقرة

و قال سبحانه: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ { ٢٦ } وَادِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ { ٢٧ } لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ { ٢٧ } ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ { ٢٩ } ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُبْتَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ { ٣٠ } حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ { ٣١ } ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ { ٣٢ } لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ { ٣٣ } وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ { ٣٤ } سورة الحج

في أصل اللغة: "الحج: بفتح الحاء وكسرها، القصد .

[و في الاصطلاح:] أداء أعمال مخصوصة في حرم مكة في أوقات

مخصوصة مع النية." (٧٣٩)

و لقد كان الحج معروفا بين عرب الجاهلية، و هو مما ورثوه من عهد إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، فأقره الإسلام بعد أن نقاه مما دخل فيه من أشكال الشرك و المنكرات، و زاد فيه بعض المناسك.

و " الحج من بين أركان الإسلام و مبانيه عبادة العمر و ختام الأمر و تمام الإسلام وكمال الدين فيه أنزل الله عز و جل: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } (٧٤٠) و فيه قال صلى الله عليه و

(٧٣٩) محمد رواس، معجم لغة الفقهاء، ج: ١، ص: ٢١٠.

(٧٤٠) سورة المائدة، الآية: ٣.

سلم: « من مات ولم يحج، فليمت إن شاء يهوديًا، وإن شاء نصرانيًا » (٧٤١)
فأعظم عبادة يعدم الدين بفقدائها الكمال و يساوي تاركها اليهود و النصرارى
في الضلال" (٧٤٢)

و هو { أشهرُ معلوماتُ } شوال و ذو القعدة و ذو الحجة، و هذا خلافا
للعمرة الجائزة في كل وقت.

و قد جعله الله أياما ينقطع فيها المسلم عن الحياة لعبادته تعالى، فعلى كل
من دخل فيه أن يراعي قدسيته: { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } و هذا النفي هنا بمعنى النهي، أي لا ترفثوا و لا تفسقوا و لا
تجادلوا، و النفي أبلغ من النهي الصريح، فكأن الرفث و الفسوق و الجدل
معدومين في الحج، فلا حاجة للنهي عنها. و قد كنى عن الجماع بالرفث، تنزيها
عن ذكر ما يستقبح المجاهرة به لغير ضرورة. و في ذلك إشارة إلى تنزيه
الحاج نفسه عن كل ما يستقبح. و يلحق بذلك كل محرمات الحج من تحريم قطع
أشجار الحرم و قتل صيده حيث أصبح الحرم أول محمية طبيعية فوق الأرض {
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ
مَا قُتِلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغَنَاءِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ
أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } { ٩٥ } (٧٤٣)، و في ذلك تدريب نفسي للمسلم على ضبط
النفس و التحكم فيها و الحرص على كل أبواب الخير، { وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } { ١٩٧ } (٧٤٤)
فقد جعل الله الحج تعظيما لهذه المواقع المقدسة من بيت الله الحرام و ما يحيط
به من المناسك، و جعله تطهيرا للأنفس من شوائب العصيان. و يعلم المؤمن
البذل و الفداء، كما يعلم المؤمن روح المغامرة و مواجهة الصعاب بما يتعلمه
في سفره إلى الحج. و لذلك لما جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال :
إني جبان و إني ضعيف قال له الرسول p : «هلم إلى جهاد لا شوكة فيه»
(٧٤٥)

كما جعل الله الحج معينا يتزود فيه المسلم من أعمال البر و معاني الخير
و طمأنينة النفس و طاقات الروح ما لا يجده في أي مكان آخر. فالحج تعبير عن
الأخوة الإسلامية الممتدة في مختلف ربوع العالم، و تأكيد على نبذ العنصرية و
التفريق بين الأمم و الشعوب و القبائل و الأعراق، هذا المرض الخطير
الذي مازال يعصف بالخلق و بالإنسانية منذ دهور بعيدة، منذ قال إبليس يوما:

(٧٤١) رواه البيهقي في شعب الإيمان - باب في المناسك عن أبي أمامة : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : « من لم تحبسه حاجة
ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر و لم يحج فليمت إن شاء يهوديا و إن شاء نصرانيا »
(٧٤٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٣١٨.
(٧٤٣) سورة المائدة، الآية: ٩٥.
(٧٤٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٧٤٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن الحسين بن علي رضي الله عنه، في باب الحاء.

{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (٧٤٦) فلا تفرقة في الحج بين سيد و مسود و حاكم و محكوم و غني و فقير، و أبيض و أسود، و عربي و عجمي. فالكل متجردون من مظاهر الدنيا و زينتها. فلا تجد في أنحاء العالم كلها تجمعا متنوعا و مؤتمرا عالميا مثل مؤتمر الحج كل عام، حيث تجد فيه مختلف الجنسيات و الألوان و الألسنة من كل أنحاء الأرض.

كما أن الحج تعبير عن التجرد من الدنيا حيث يلبس المسلم لباس الإحرام الذي يذكره بالكفن الذي سيكون آخر لباس يلبسه قبل لقاء الله تعالى، فلا معنى عند حاج - بعد حجه - للتفاخر بالمظاهر و الثياب، فكل هذه قشور لا تغني و لا تسمن شيئا عند الله تعالى.

و أهم موقف في الحج هو وقفة عرفة، {فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ الضَّالِّينَ} (٧٤٧) {١٩٨}

و في وقفة عرفة تذكير بالموقف العظيم يوم القيامة أمام الله تعالى، فترى الناس و قد حشروا في صعيد واحد، كل منهم يرجو رحمة الله و رضوانه. و في هذا اليوم تعليم للمسلم التعاون و الاجتماع على الطاعة. كما أن الله يذكر الله تعالى تطهير للقلوب و النفوس بأثر ممتد إلى ما بعد الحج مدة طويلة. و في النفرة إلى المشعر الحرام تربية على معنى النفير في سبيل الله تعالى في الجهاد الخالص لوجه الله وحده.

و مهما كان الحج أشبه شيء في الإسلام بالرهبانية المؤقتة إلا أن الله نفى عنه هذه الصفة بأن أباح للحاج الابتغاء من فضل الله تعالى إذ يقول: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} فضلاً أي عطاء و رزقا من الله بالربح في التجارة أو أي شكل من أشكال الصفقات المالية المباحة أيام الحج. و هذا تذكير بأهمية التكامل الاقتصادي بين المسلمين، فالحج فرصة لتعزيز هذا التكامل بتبادل السلع، و إبرام الصفقات و إنشاء الشركات المختلطة بين مسلمين، و حتى تبادل الخبرات الإنتاجية بينهم. فلا يقل الاقتصاد أهمية في ضمان قوة المسلمين عن السلاح. خصوصا و قد أصبح الطعام اليوم وسيلة للسيطرة على الشعوب المستضعفة و حتى فتنة الناس عن دينها، كما فعله الإرساليات التبشيرية في مناطق المجاعات و الآفات.

و ما هذه الإباحة للممارسة الاقتصادية في أيام الحج التي هي أيام عبادة، إلا تذكير للمسلم أن الدين و الدنيا - في الإسلام - لا يتقارقان، و أن لا رهبانية في الإسلام.

و يتكرر الأمر بالذكر في آيات الحج: {فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} و في الأمر هنا تشبيه لما هو كائن بما يجب أن يكون فقد كانت

(٧٤٦) سورة الأعراف، الآية ١٢.

(٧٤٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

المفاخرة بالأباء و ما زالت من مآثر الجاهلية، فجاء القرآن ليستبدالها بذكر الله تعالى و تمجيده و تعظيمه بهذا الذكر.

و من أخص الذكر في الحج الدعاء {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ} {٢٠٠} وَ مِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} {٢٠١} و هنا مقابلة غرضها المقارنة بين نوعين من الناس، نوع لا هم له إلا الدنيا و متاعها الزائل، فيجعل من الحج وسيلة ليسأل الله تعالى مزيدا منها و لا يهمله بعد ذلك إلى أين مصيره. و نوع جعل من الدنيا مطية إلى الآخرة. فهو يسأل الله من خيرهما. و من فضل هذا الحج أن الله لم يرد دعاء أي واحد من الطرفين، لكنه نفى عن الأول أن يكون له نصيب في الآخرة ما دام لم يسأل الله عنها.

هذا عن الحج في سورة البقرة، أما في السورة المسماة باسمه "سورة الحج" فقد بدأ الحديث عنه بالتذكير بالأصول التاريخية لهذا التمسك، فذكر "إِبْرَاهِيمَ" و كيف حدد الله له مكان البيت. و الغرض من ذلك بيان الهدف الأساسي من الحج و هو توحيد الله تعالى، فالحج يرجع إلى أب الأنبياء و الموحدين "إِبْرَاهِيمَ" و قال سبحانه: {وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ} {٢٦} (٧٤٨)

و قد أمر الله إبراهيم و بالأذان بالحج إعلانا و دعوة إليه، و وعده باستجابة الناس إليه: {وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} {٢٧}

و فعلا كانت استجابة الناس لهذا الأذان و هذا الإعلان بشكل عجيب غريب جدا. فمع وقوع الكعبة البيت الحرام {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} (٧٤٩) وسط الصحراء، في منطقة معزولة من العالم، إلا أن كثيرا من الناس يهيمون بهذا المكان، و تهفو و تهوي إليه أفئدتهم، منذ أن دعا إبراهيم و بذلك، "و ما يزال وعد الله يتحقق ... إلى اليوم و الغد. و ما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام؛ و ترف إلى رؤيته و الطواف به. . . الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه و وسيلة الركوب المختلفة تنقله؛ و الفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه. و عشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام. . ." (٧٥٠) {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} و نكر القرآن الكريم {مَنَافِعَ} لتكون شاملة لمنافع كثيرة قد نعلم بعضها و قد نجهل بعضها الآخر. لكن الآثار النفسية لشعيرة الحج لها من أجل الآثار المشاهدة على الحجيج، "و قد قبَّل عمر رضي الله عنه [الحجر الأسود] ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر و لا تنفع و لولا أنني رأيت رسول الله صلى الله

(٧٤٨) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٧٤٩) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٧٥٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج: ٤، ص: ٢٤١٨.

عليه و سلم يقبلك ما قبلك، ثم بكى حتى علا نسيجه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه و رضي الله عنه فقال يا أبا الحسن ها هنا تسكب العبرات" (٧٥١) و لعله ذكر في هذا الموضوع حين " استقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلا فالتفت فإذا هو بعمر يبكي فقال : يا عمر ها هنا تسكب العبرات " (٧٥٢)

و الغرض الآخر للحج هو أن { يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ } فنعمة الأنعام نعمة مميزة، لا تكاد تعادلها نعمة أخرى من الأموال، و كم عدّد القرآن الكريم منها إلى درجة أن تسمى سورة من سوره باسمها، و قد تكررت لفظة " الأنعام " في القرآن الكريم تسعة عشرة مرة معظمها في بيان بعض نعمها و منها قوله تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبِئَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ } (٧٥٣) { وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَ مَنَاعًا إِلَى حِينٍ } (٧٥٤) { أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ } (٧١) { وَ دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ } (٧٢) { وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبٌ أَقْلًا يَشْكُرُونَ } (٧٣) { ٧٣ } و كفاها نعمة أن اشئق لها من النعمة اسم.

كما أن في الحج تصحيح لحقيقة الأضحية، فهي لا تكون إلا بالأنعام شكرا لله على هذه النعمة المتميزة. و في هذا تصحيح لبدعة التضحية البشرية التي ظهرت عند معظم الأقوام تحريفا لحقيقة الأضحية و القربان التي جاء بها الإسلام منذ آدم عليه السلام و أبنائه الأوائل.

و في قوله { وَ أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } نرى أنه سبحانه جعل النعت مقام المفعول به و المفعول به مقام النعت، ففي التعبير العادي نقول: الفقير البائس، و في هذا التقديم و التأخير إشعار بما يحسه الفقير من البؤس و المعاناة التي لا يدرك حقيقتها إلا من عايشها و أحس ألمها و حسرتها، فكم من المسلمين من لا يشبع بطنه، و من باب أولى كم منهم من لا يذوق اللحم و طعمه إلا ما كان من صدقة الكرماء. فكان هذا الأمر هنا تخفيفا لبعض هذه الحاجة، و تخفيفا لبعض تلك المعاناة. كما في هذا التقديم و التأخير إشارة إلى تفاوت الناس في الفقر، فليس كل فقير بائس، لكن كل بائس فقير، و هذا هو الأولى و الأحق بالصدقة. خصوصا في هذا الزمن الذي نجد فيه الإرساليات

(٧٥١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ص: ٣٢٢.

(٧٥٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه، باب البكاء عند تقبيل الحجر الأسود.

(٧٥٣) سورة النحل، الآية: ٦٦.

(٧٥٤) سورة النحل، الآية: ٨٠.

(٧٥٥) سورة يس، الآية: ٧١ - ٧٣.

التبشيرية تستغل بؤس كثير من المسلمين لتحاول فتنهم عن دينهم مقابل لقمة يسدون بها رفقهم!

ثم بعد التمتع بنعمة الأنعام يوم النحر تأتي بقية أعمال الحج: { ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } { ٢٩ } و شدد لفظه { يَطَّوَّفُوا } مبالغة في الصيغة باعتبار هذا الطواف هنا هو طواف الإفاضة، و هو من أواخر أعمال الحج و بعده طواف الوداع و هو آخر عهد الحاج بالبيت العتيق. فعلى الحاج أن يستشعر معنى مفارقة هذا البيت العتيق و وداعه، و أنه قد لا يراه بعد ذلك، و من استشعر مثل هذه المشاعر، فهو من تعظيم حرمان الله تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } ثم يذكر سبحانه بنعمة الأنعام مرة أخرى { وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } من الميتة و شبهها، و خصوصا ما لم يذكر اسم الله عليه فهو رجس و خبث يجتنب { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } { ٣٠ } فالشرك أكبر و أسوأ أقوال الزور التي على المسلم أن يتجنبها، ما دام على طريقة سيدنا إبراهيم الخليل الحنيف { حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { ٣١ } و في هذه الآية صورة بيانية رائعة للحالة النفسية لمن يحرف شعائر الله السامية، و يحولها إلى شعائر شركية، فمن يفعل ذلك { فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } لقد كان في سماء التوحيد عاليا، فهوى إلى درك الشرك، و قبل أن يصل إلى الأرض، هاهي الطيور الجارحة تتخطفه بين السماء و الأرض في سرعة و عنف يعبر عنها حرف التعقيب " الفاء "، و استعمل لفظه { فَتَخْطَفُهُ } بالتخفيف، و في قراءة { فَتَخْطَفُهُ } بالتشديد، و كلا القراءتين تصور لنا جانبا من المشهد و الصورة، فالقراءة بالتخفيف تصور لنا سرعة الخطف، أما بالتشديد فتصور لنا قوة الخطف، و هذا ما نجده لدى الطيور الجوارح، فهي تخطف بسرعة و قوة. و كذلك حال هذا الذي يشرك بالله، فما تلبث الشياطين أن تتلقفه و تدخله في مهاوي الضلالة و الفساد بطريقة سريعة و عنيفة. و جانب آخر من الصورة و هو صورة هذا المتخطف، فهو كالجيفة النتنة التي تتخطفها الطيور الجوارح التي لا تتغذى إلا على الجيف، أو هو كالطير الضعيف الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، و كذلك حال المشرك، فهو بين يدي الشياطين تقلبه كيف تشاء.

و إذا لم تتخطفه الطير في السماء، فإن الجاذبية تسحبه و الريح تطوح به { فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } في هوة ليس لها قرار، فلا ذكر له بعد ذلك و لا قيمة له تذكر. و ليس من السهل عليه الخروج من مهاوي الضلال بعد إذ دخل فيها.

و يؤكد سبحانه على معنى تعظيم شعائر الحج مرة أخرى { ذَلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ
شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } { ٣٢ } فليس الحج مجرد رحلة سياحية كما
يراها كثير من الناس، لكنها في الحقيقة شعائر و مشاعر لا تكاد تنفع صاحبها
إذا أداها بغير مشاعر. و لذلك لا نكاد نستغرب حال كثير من حجاجنا الذين
يعودون من الحج دون أن يستفيدوا في أنفسهم شيئاً، بل قد تجد بعضهم قد زاد
سوءاً بعد حجه، و ما ذلك إلا لأن هؤلاء لم يستشعروا عظمة تلك الشعائر
الإلهية، فلم يستفيدوا في قلوبهم خشية و لا خشوعاً و لا تقى.

و من أهم هذه الشعائر شعيرة النحر لله تعالى وحده، { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى
أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } { ٣٣ } فأباح سبحانه الاستفادة منها قبل
النحر، ما دام مصيرها إلى التضحية تطهراً بها من الذنوب. و هذا إحياء لفكرة
القربان الصحيح التي شرعها الله لكل الأمم من قبل بغرض شكره تعالى على
نعمه و ذكره بأسمائه الحسنی على الذبائح { وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا
اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ
الْمُخْبِتِينَ } { ٣٤ }

و هكذا يأتي الحج كعلاج تمثيلي، يتمثل فيه المسلم نفسه وسط الوقائع
التاريخية لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ابتداءً برحلة الحج التي تذكره بهجرة
إبراهيم لقومه، ثم الإحرام الذي يذكره بالكفن، ثم السعي الذي يذكرهم بتترك
إبراهيم لأهله في الوادي متوكلاً على الله تعالى، ثم الطواف الذي يذكرهم
بالامتثال لأوامر الله تعالى و الدوران مع رحي الإسلام حيث دارت، إلى سائر
المشاعر... فمن تمثلها و استشعر معانيها فهي كفيلة بأن تترك له في نفسه أثراً
نفسياً إيجابياً بالغاً.

و من هنا يتأكد لنا أن القرآن الكريم قد حرص على وقاية النفس الإنسانية من الأمراض النفسية قبل أن يحرص على علاجها، لكنه لم يغفل ما يمكن أن تصاب به هذه النفس من أمراض فوصف لها الأدوية المناسبة.

و يتبين لنا كذلك أن ما أمر به القرآن الكريم من التزام الأخلاق الفاضلة، و العبادات المفروضة و النافلة، لم يكن هدفها مجرد التعبد فقط، بل هي كذلك وسائل لتحقيق إنسانية الإنسان، و رفعته الروحية، فضلا عن وقايته من الأمراض النفسية، و علاجها.

و لقد صرح القرآن أحيانا بهذه الأهداف الرفيعة أحيانا كما أشار إليها أحيانا أخرى، و ترك لنا استنتاج البعض الآخر من خلال الممارسة العملية لهذه الإجراءات الوقائية و العلاجية التي أمر بها.

إلا أن أسلوب الإيجاز في وصف هذه العلاجات كان هو الغالب عليها، ليترك للعقل الإنساني مجالا للتفكر و التدبر فيها، بعيدا عن الحجر على حرية الإنسان في أعمال العقل في النص القرآني.

كما استعمل القرآن أسلوب التصوير الفني في عرض هذه العلاجات، و ذلك تقريبا لمفهومها إلى العقل البشري، و تزيينا لها في منظور النفس الإنسانية. فقد يكون الدواء أحيانا كثيرة مرا مذاقه، فيأتي التصوير الجميل ليخفف مرارة الدواء على النفس، حتى تستسيغه و تقبل عليه، إلى أن تتعوده و تدرك نفعه فلا تنفر منه بعد ذلك حين الحاجة إليه.

الباب الثالث

النماذج النفسية في القرآن الكريم

الباب الثالث

النماذج النفسية في القرآن الكريم

الفصل الأول: النماذج المؤمنة

المبحث الأول: الخصائص العامة

للمؤمنين

المبحث الثاني: الفئات المؤمنة

المبحث الثالث: نماذج من الشخصيات

المؤمنة

الفصل الثاني: النماذج الكافرة

المبحث الأول: الخصائص العامة للكافرين

المبحث الثاني: الفئات الكافرة
المبحث الثالث: نماذج من الشخصيات

الكافرة

الفصل الثالث: النماذج المنافقة

المبحث الأول: الخصائص العامة للمناققين
المبحث الثاني: الفئات المنافقة

يأتي هذا الباب الأخير ليكون بمثابة الجانب التطبيقي في القرآن الكريم لما ذكره من جوانب نظرية و تحليلية كلية و جزئية للنفس الإنسانية. فقد تحدث القرآن الكريم عن مختلف جوانب هذه النفس؛ الجبليّة منها و العاطفية و السلوكية... لكنه لم يغفل أن يقدم لنا نماذج بشرية واقعية لهذه الأنفس، حتى يكون الكلام واضحا من جهة، و حتى يسهل أمر فهمه على العوام من الناس الذين لا يتمكنون من إدراك الجوانب النظرية بسهولة، و حتى يعلم الخواص الدارسون من الناس أن القرآن الكريم لا ينظر إلى هذه النفس نظرة تجزيئية انشطارية دون أن يراعي الترابط القائم بين مختلف جوانب هذه النفس بما يسمح لها بتأدية أعمالها بشكل متناسق.

و لقد صور لنا القرآن الكريم النماذج النفسية بطريقتين: فأحيانا يعطي تصويرا نموذجيا قياسيا ينطبق على معظم الناس الذين ينضون تحت ذلك الصنف، فيتحدث مثلا عن صنف المؤمنين جميعهم و ما يتصفون به و يختصون به من الخصائص.

و أحيانا يقدم تصويرا نموذجيا خاصا يشمل فئة معينة من ذلك الصنف، و يعتبر بمثابة أمثلة تطبيقية عليه. فيتحدث مثلا من صنف المؤمنين عن الصابرين منهم، أو التائبين منهم... و غالبا ما يكون هذا النموذج ممثلا في شخصية ما تعبر بصدق عن هذا الصنف من الناس.

و ينطبق هذا على جميع الأصناف النفسية حسب تقسيم القرآن الكريم، و هي: صنف المؤمنين، و صنف الكافرين، و صنف المناققين.

فلقد ذكر القرآن الكريم أمثلة كثيرة من النفوس البشرية، لكنه حرص على تجريدها من الزمان و المكان، و ذلك لأن غرض القرآن من سوق تلك القصص و الأحداث ليس مجرد التسجيل التاريخي، و لكن إعطاء النماذج النفسية الحية للاقتداء بها أو تجنب الوقوع مما وقعت فيه من أخطاء، و لذلك " قيل: يحتج الله

على الأرقاء، و بأيوب على أهل
وسى على الأقباء^(٧٥)
لبشر من أجل حسن التفاعل معهم ،
بشرية الغريزة الدتفيها قد يصد ياتيه.
بشر السلوك فإيلعطني أسبكل لانهي حق حقه.
الناس و دعوتهم إلى الحق ، و
يتطلب مثل هذه لمعرفة النفسية.

الفصل الأول: المومنة

الخط المصنوع حدثاً أولاً هو: المومنين
المباحث الثلاثة المومنة
مباحث البحث المخطئيات المومنة

الخط المصنوع حدثاً أولاً هو: المومنين

قلال رتاعيا البلى: قال يله م هتد دقاي لين ذ {يانى
زاق ناهو مال يذ نيق ق يوزو {3} ذون
الأخرة أهوم لاي هو فك نعون لى {4} هدى
المؤمن فله وورنة {5} بقرة
القرآن الكريم عنه ، و قد جاء
ما نزل في المدينة المنورة (*).

يوسف بل (*) ظريبي بك قولاً ندين اللطيفة (نفي أفبلي . هابى) ان الناسخ
في الألفاظ ران الكريم ، الاماد ليكنوة بيت ، طه/ ٤٥ هـ .

و قد بدأت السورة بتصنيف الناس إلى ثلاثة أصناف هم: المؤمنون و الكافرون و المنافقون، مع الإشارة إلى صنف خاص هم بنو إسرائيل، و بوجه أخص اليهود؛ الذين صورتهم بصورة الشياطين، شياطين الإنس الذين يتآمرون مع المنافقين على المجتمع الإسلامي الفتى في المدينة المنورة. ثم فصلت السورة الحديث عن بني إسرائيل باستعراض الأطوار التاريخية التي مروا بها مركزة على طبائعهم النفسية التي يتصفون بها. و ما ذلك إلا تحذير للمؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء من قبل من انحرافات، و تنبيه لهم إلى حقيقة هذا الصنف من الناس و ما قد يلحقوه بالمجتمع الإسلامي من أضرار، حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منهم. و سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخاص به في هذا الباب.

و لنبدأ بالصنف الأول الذي تحدثت عنه السورة و هو صنف المؤمنين، و قد بدأت السورة بين يدي الحديث عنهم بهذه الحروف المقطعة: { الم } و مثل هذه الحروف نجدتها في مقدمة بعض السور القرآنية متبوعة دائماً بالحديث عن القرآن الكريم، مثلما هو الأمر هنا: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }، و هذا ما يجعلنا نؤكد أن الغرض منها هو التأكيد على أن القرآن الكريم مؤلف من مثل هذه الحروف التي هي في متناول جميع الناس، فإن كان منهم من يزعم أن هذا الكتاب من عند محمد μ فليأت بحديث من مثله أو عشر سور من مثله أو سورة واحدة على الأقل. فإن لم يفعلوا فما عليهم إلا أن يكونوا من المتقين، و ليستجيبوا إلى قول الله تعالى بعد ذلك في نفس السورة: { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { ٢٣ } فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } { ٢٤ } (٧٥٧)

و بعد هذه الحروف المقطعة جاء اسم الإشارة " ذلك " و هو في الأصل للبعيد، لكنه استعمل هنا لـ " الإشارة إلى: الم بعد ما سبق التكلم به و تقضى، و المقضي في حكم المتباعد و هذا في كل كلام. يحدث الرجل بحديث ثم يقول: و ذلك ما لا شك فيه. و يحسب الحاسب ثم يقول: فذلك كذا وكذا. " (٧٥٨) و لعل " ذلك " هنا هي على اعتبار المتحدث و هو الله تعالى، فهو في رفعتة و عليائه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فيقول: " ذلك " الذي اختلفتم فيه هو الكتاب الذي لا شك فيه.

(٧٥٧) سورة البقرة، الآية: ٢٣ - ٢٤.
(٧٥٨) الزمخشري، الكشاف، ج: ١، ص: ٣٤.

و جاء "الكتاب" معرفاً بالألف و اللام من باب التنويه به فهو " الكتاب
" الذي لا كتاب مثله، مثل أن تقول عن أناس " هم الناس، أو هم القوم "
تعظيماً لهم، و رفعا لشأنهم بين غيرهم.

و قدم الريب على الظرف "فيه" تأكيداً لئفيه عنه، و نفياً لجنس الشك عنه
نفياً تاماً. ثم يذكر الغرض منه و هو أنه: { هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ }، فأول خاصية يتصف
بها صنف المؤمنين: هي خاصية الإهداء بالكتاب، فالناس كلهم ضالون إلا من
هداه الله تعالى، و من ابتغى الهدى في غير كتاب الله ضل.

و قد يسأل سائل لم قال: { هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ } " و المتقون [في الأصل]
مهتدون؟ قلت: هو كقولك للعزير المكرم: أعزك الله و أكرمك، تريد طلب
الزيادة إلى ما هو ثابت فيه و استدامته " (٧٥٩) كقوله تعالى: { وَ الَّذِينَ
اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ أَنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } (٧٦٠) " و وجه آخر، و هو أنه
سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى: متقين، كقول رسول الله صلى الله
عليه و سلم: " من قتل قتيلاً فله سلبه " فالقتيل لا يقتل، و إنما قصد من قاتل
مقاتلاً فقتله، و كذلك المتقي ليس هو كل من حصل التقوى، و لكن من أراد
التقوى و سعى إليها فهو متقي.

و الخاصية الثانية هي تقوى الله تعالى، إذ قال: { لِّلْمُتَّقِينَ } و المتقي في
اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى. و الوقاية: فرط الصيانة، فالمؤمن يتقي
الشر و الوقوع فيه و يجعل بينه و بينه حواجز تقيه منه. و قد "قال عمر بن
الخطاب لكعب الأحبار: حدثني عن التقوى فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟
قال: نعم. و قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت و تشمرت. فقال كعب: ذلك التقوى
و نظمه ابن المعتز (*) فقال:

خَلَّ الدُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَ كَبِيرَهَا فَهُوَ التَّقِيُّ

وَ اصْنَعْ كَمَا شِئْتَ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْدُرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى " (٧٦١)

(٧٥٩) الزمخشري، الكشاف، ج: ١، ص: ٣٦.

(٧٦٠) سورة محمد، الآية: ١٧.

(*) هو ابن المعتز ٢٤٧ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٨ م عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن
الرشيد العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء
الأعراب و يأخذ عنهم. و صنف كتباً، منها: " الزهر و الرياض " و " البديع " و " الآداب ". انظر ترجمته لدى
الزركلي، الأعلام، ج: ٤، ص: ١١٨.

(٧٦١) الثعلبي، الكشاف و البيان، ج: ١، ص: ١٤٢.

و الخاصية الثالثة هي الإيمان بالغيب إذ قال سبحانه: { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } فأصل هذه القوى التي اختصوا بها هو إيمانهم بالغيب، " فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم و القوة الكبرى التي صدرت عنها، و صدر عنها هذا الوجود؛ و لا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم و سائر ما وراء الحس من حقائق و قوى و طاقات و خلائق و موجودات.

و الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان... إلى مرتبة [من] يدرك أن الوجود أكبر و أشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - و هي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله و لحقيقة وجوده الذاتي، و لحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، و في إحساسه بالكون و ما وراء الكون من قدرة و تدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته و بصيرته؛ و يتلقى أصداءه و إحياءاته في أطواله و أعماقه، و يشعر أن مداه أوسع في الزمان و المكان من كل ما يدركه و عيه في عمره القصير المحدود، و أن وراء الكون ظاهره و خافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، و استمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار و لا تحيط بها العقول.

و عندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد و التمزق و الانشغال بما لم تخلق له، و ما لم توهب القدرة للإحاطة به، و ما لا يجدي شيئا أن تنفق فيه. إن الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، و هبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، و تتعمقها و تتقصاها، و تعمل و تنتج، و تنمي هذه الحياة و تجملها، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التي تتصل مباشرة بالوجود كله و خالق الوجود، و على أن تدع للمجهول حصته في الغيب الذي لا تحيط به العقول. فأما محاولة إدراك ما وراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض و الحياة عليها، دون سند من الروح الملهم و البصيرة المفتوحة، و ترك حصة للغيب لا ترتادها العقول . فأما هذه المحاولة فهي محاولة فاشلة أولا ، و محاولة عابثة أخيرا . فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال . و عابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال . . و متى سلم العقل البشري بالبيديهية العقلية الأولى ، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق ، لزمه - احتراما لمنطقه ذاته - أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل؛ و أن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون؛ و أن عليه أن يكمل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل؛ و أن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر

والباطن ، والغيب والشهادة . . وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلّى به" (٧٦٢) المتقون ، وهو [الصفة الثالثة] من صفات المؤمنين.

و الخاصية الرابعة هي إقام الصلاة { وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } فإيمانهم بالغيب ليس مجرد نظريات فلسفية مجردة عن الواقع العملي، بل تنتج عنه أفعال و أعمال متناسقة معه في علاقاتهم مع الله و علاقاتهم مع الناس، و أول و أهم عمل يقومون به في علاقاتهم مع الله هو إقام الصلاة، و قد عبر بلفظة " يقيمون " بدلا من " يؤدون " - مثلا - لأن الإقامة تتطلب الإتقان و الإحسان فقد ورد " عن ابن عباس،" و يقيمون الصلاة" قال: إقامة الصلاة تمام الركوع و السجود، و التلاوة و الخشوع، و الإقبال عليها فيها" (٧٦٣)

و الخاصية الخامسة الإنفاق في سبيل الله { وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } و هي متعلقة خصوصا بعلاقتهم مع الناس، " فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم ، لا من خلق أنفسهم و من هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عيال الخالق ، و الشعور بالأصرة الإنسانية ، و بالأخوة البشرية .. و قيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح ، و تركيتها بالبر. و قيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن" (٧٦٤)

و الخاصية السادسة عدم التفريق بين رسالات الله تعالى { وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } فليسوا بأهل التفريق و التشتيت بين الأنبياء و الرسل و أتباعهم، فقد حازوا فضل الانتماء إلى كل رسالات الله تعالى من لدن

آدم ن إلى إبراهيم ن إلى خاتمهم محمد p. ف « الأنبياءُ إخوةٌ مِنْ عِلَاتٍ وَ أُمَّهَاتِهِمْ شَتَّى وَ دِيْنُهُمْ وَاحِدٌ » (٧٦٥). و هذا ما وقاهم ما وقع فيه اليهود من بغض للنصارى، و ما وقع فيه النصارى من بغض للمسلمين.

و الخاصية السابعة: اليقين بالآخرة { وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } فأداؤهم لتلك الأعمال و التكاليف هو أداء مطمئن، لأنهم يعلمون أن ما يقدمونه من خير لن يذهب سدى، و اجتهادهم في توقي الشر ليس بشقاء باطل، لكن كل ذلك له يومه الذي يوفون فيه أجورهم بغير حساب، يوم يفزع الناس و هم آمنون، و يخاف غيرهم من العذاب و لا يخافون.

(٧٦٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد: ١، ص: ٣٩-٤٠.

(٧٦٣) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م، ج: ١، ص: ٢٤١.

(٧٦٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد: ١، ص: ٤٠.

(٧٦٥) رواه مسلم في الجامع الصحيح، عن أبي هريرة، باب فضائل عيسى عليه السلام.

فمن كانت هذه هي صفاتهم فهم النموذج النفسي المثالي فوق الأرض {أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} و يفيد حرف الجر "على" الفوقية، و هو يشير إلى استعلاء هؤلاء المؤمنين على غيرهم ممن خالف منهمجهم، فهم فوقهم عند الله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. (٧٦٦) و هي ليست فوقية ظالمة مستكبرة كفوقية الفراعنة حين قالوا: {سَنُقَلِّبُ أبنَاءَهُمْ و نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ و إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} {١٢٧} (٧٦٧) لكنها فوقية مهتدية على طريق الله تعالى: {عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ} و تُسب الرب سبحانه إليهم تشريفا و تكريما لهم. و استعمل لفظه الرب دون غيرها من الألفاظ لأن الرب هو الخالق، و الذي خلق هو الذي هدى، كما عرفه موسى ٥ بقوله: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ}. (٧٦٨) و نلاحظ أن الحديث عن هؤلاء ابتداء بالهدى {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، و انتهى به {عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}، و كذلك طريق هؤلاء يبتدىء بالهدى و ينتهي به. و ختم الحديث عنهم بقوله: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} فهم ليسوا مهتدين فقط بل هم زيادة على ذلك مفلحون، و أضاف الضمير "هم" لتأكيد صفة الفلاح لهم، و عرف اللفظة بالألف و اللام ليقتصر الفلاح عليهم، فمن سار على طريقهم فهو مفلح و من خالفهم فهو في خسران مبين.

"و لفظه "المفلحون" التي تعبر عن الفوز و النجاح...تبوأَت مكانا في الآية يتناسب مع ما سبق قبلها من مفردات فكانت خاتمة ملائمة لما قبلها : معنى و لفظا و تناسقا بما تستوجبه تلك المعاني من جزاء في صيغة فنية تراعي السياق و الجو العام للآيات" (٧٦٩)

(٧٦٦) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٧٦٧) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

(٧٦٨) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٧٦٩) محمود سليم، الصورة النفسية في القرآن الكريم، ص: ٢١٣.

المبحث الثاني: الفئات المؤمنة

قال تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } { ٣٢ }
سورة فاطر

لم يجعل الله المؤمنين جميعهم على قالب نفسي واحد، و لم يستنسخهم استنساخاً من نفس واحدة كما قد يتصور البعض، أو كما قد يريد البعض الآخر أن يصورهم لنا، بل راعى القرآن الكريم الخصوصيات الفردية، و الشخصية لكل فرد، و لذلك فإننا نجد الصحابة أشكالا و ألوانا و مواقف مختلفة، و هذا الاختلاف إنما هو اختلاف تنوع و ليس اختلاف تضاد.

فالحق واحد، لكن تفاعل النفوس معه مختلف، و من هذا التفاعل تنتج مختلف النماذج الإيمانية المختلفة.

فهناك أصحاب الهمة العالية، و هناك ضعيف الهمة، و هناك من لا همة له أصلاً، و الإيمان يسع ذلك كله في الأصل. و في الحديث: الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا^(٧٧٠)

و لعل لهذا السبب كانت الجنة درجات، ، كما قال تعالى: { يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ }^(٧٧١) و كما ورد في الحديث: « من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة. قال ابن النحّام: يا رسول الله و ما الدرجة؟ قال أما إنها ليست بعنبة، و لكن ما بين الدرجتين مئة عام^(٧٧٢) »

و قد فاضل الرسول p بين أصناف من المؤمنين من حيث القوة، فقال: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَ فِي كُلِّ خَيْرٍ »^(٧٧٣)

و قد نوهت سورة فاطر بأصناف هذه الأمة الثلاث، و هم ظالمون لأنفسهم . و المقتصدون، و السابقون بالخيرات بإذن الله. فقد اختار الله هذه الأمة لتكون { خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }^(٧٧٤) و لذلك فقد أورثها آخر كتبه و في قوله: { أَوْرَثْنَا } رفعة لهذه الأمة كما ورد في قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ « نَحْنُ الْأَخْرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِ أَتْهُمْ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَ أُوْتِينَاهُ »

^(٧٧٠) البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في باب قول الله تعالى { لقد كان في يوسف و أخوته آيات للسائلين } .

^(٧٧١) سورة المجادلة، الآية: ١١ .

^(٧٧٢) رواه النسائي في سننه الكبرى، كتاب الجهاد، باب ثواب من رمي بسهم في سبيل الله، عن كعب بن مرة .

^(٧٧٣) رواه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب الأمر بالقوة و ترك العجز، عن أبي هريرة .

^(٧٧٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠ .

مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ فَهُمْ لَنَا فِيهِ
تَبِعُ قَالِيَهُوْدُ غَدًا وَ النَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» (٧٧٥)

و عبر سبحانه عن القرآن بلفظة: { الْكِتَابَ } و في ذلك تنويه به و إشادة ،
فهو غني عن أي تعريف، و قد عرفه بالألف و اللام زيادة في التعظيم.
و كل هذه " كلمات ... توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله؛ كما توحى إليها
بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء و عن تلك الوراثة. و هي تبعة
ضخمة ذات تكاليف...

إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة؛ ثم أكرمها بفضله في
الجزاء حتى لمن أساء: (فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم سابق
بالخيرات بإذن الله) . .

فالفريق الأول - ولعله ذكر أولاً لأنه الأكثر عدداً - (ظالم لنفسه) تربو
سيئاته في العمل على حسناته . والفريق الثاني وسط (مقتصد) تتعادل سيئاته
وحسناته . و الفريق الثالث سابق بالخيرات بإذن الله)، تربو حسناته على سيئاته
. . و لكن فضل الله شمل الثلاثة جميعاً . فكلهم انتهى إلى الجنة و إلى النعيم
الموصوف في الآيات التالية. على تفاوت في الدرجات ... " (٧٧٦)

فهذه أمة محمد p " من الصحابة و التابعين و تابعيهم و من بعدهم إلى يوم
القيامة ... اصطفاهم الله على سائر الأمم و جعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء
على الناس، و اختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله و حمل الكتاب
الذي هو أفضل كتب الله ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم و هو المرجأ لأمر الله.
و مقتصد: هو الذي خلط عملاً صالحاً و آخر سيئاً و سابق من السابقين" (٧٧٧).
و هذا خلافاً للأمم الأخرى الذين قدم ذكرهم في السورة من إرساله سبحانه في
كل واحدة منهن رسولاً، و مع أنهم جاءوهم بالبينات و الزبر و الكتاب المنير إلا
أنهم كذبوا برسولهم.

و قدم سبحانه الظالم لكثرتهم ثم المقتصد و هو أقل ممن قبله ثم السابقين و
هم الأقل. و قد قال تعالى فيهم: { وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ } { ١٠ } أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ
{ ١١ } فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ { ١٢ } ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى { ١٣ } وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ { ١٤ }
(٧٧٨)

و عبر سبحانه عن الظالم بعبارة: { ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ } تفريقاً له عن الظالم ظلماً
تاماً، و قد اعتبره الله مشركاً كما قال: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } { ١٣ } (٧٧٩) و
لذلك حرم تكفير صاحب الكبيرة من هذه الأمة كما قال علماء العقيدة: "و لا
نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، و لا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب

(٧٧٥) رواه الإمام مسلم في باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة.

(٧٧٦) سيد قطب، الظلال، مجلد، ٥، ص: ٢٩٤٤.

(٧٧٧) الزمخشري، الكشاف، ٦٣٤.

(٧٧٨) سورة الواقعة، الآيات: ١٠ - ١٤.

(٧٧٩) سورة لقمان، الآية: ١٣.

لمن عمله " (٧٨٠) . و نجد نفس الاستعمال في آيات الأحكام التي لا يتعلق بها كفر أو إيمان ما لم يتم إنكارها، و ذلك قوله تعالى:
 { وَإِذَا طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } {٢٣١} (٧٨١)

و قوله سبحانه: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } {١} (٧٨٢)

فالظالم لنفسه في القرآن الكريم غير الظالم مجردا. إلا أن هذا لا يعني بساطة الأمر بالنسبة لهؤلاء الظالمين لأنفسهم ، بل أمرهم خطير لا بد أن ينتبهوا إليه. فظلم النفس قد يجر إلى العقاب في الدنيا و العياد بالله تعالى، كما في قوله سبحانه: { وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا } {٣٥} فكانت عاقبته أن { أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا } {٤٢} (٧٨٣)
 كما قد يجر إلى عذاب النار في الآخرة: قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } {٩٧} (٧٨٤)

و هكذا فإن خيرية هذه الأمة لا تعني لها صكا للغفران على بياض لمن ينتسب إليها. بل كلُّ و عمله. و من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه.
 و ليس لأحد أن يقول كما { قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ } (٧٨٥) أو: { لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } (٧٨٦) فقد رد عليهم سبحانه بقوله: { قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ } و بقوله: { قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {٨٠}
 أما المقتصدون، فهم المتوسطون في العمل، المقتصدون على الضروري منه، و ليسوا كذلك بضامنين النجاة، قال تعالى: { وَ إِذَا غَشِيَهِمْ مَوْجٌ كَالظُّلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ } {٣٢} (٧٨٧)

(٧٨٠) صدر الدين الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص: ٣١٦.
 (٧٨١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
 (٧٨٢) سورة الطلاق، الآية: ١.
 (٧٨٣) سورة الكهف، الآية: ٤٢.
 (٧٨٤) سورة النساء، الآية: ٩٧.
 (٧٨٥) سورة المائدة، الآية: ١٨.
 (٧٨٦) سورة البقرة، الآية: ٨٠.
 (٧٨٧) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

و في قوله: { فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ } فيه إيجاز بالحذف، و المعنى: فمنهم مقتصد و منهم كافر، دل على المحذوف قوله تعالى: { وَ مَا يَجِدُ بآيَاتِنَا إِلَّا كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ. }^(٧٨٨)

قال ابن زيد^(٧٨٩): هو المتوسط في العمل. " و هذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال و الأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، و الدُّوب في العبادة، و المبادرة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا " ^(٧٩٠)

أما السابقون بالخيرات فهم أقل الأصناف، لكن هذه الأمة لا تخلو منهم في أي وقت و دهر، و منهم الأبدال الذين ذكرهم رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ وَ هُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلًا يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ وَ يُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمُ الْعَذَابُ» ^(٧٩١)

و قد ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم خصائصهم و صفاتهم النفسية فقال: «إِنَّ بَدَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ وَ لَا صِيَامِهِمْ وَ لَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ وَ سَخَاوَةِ أَنْفُسِهِمْ» ^(٧٩٢)

فهم أهل صلاة، و أهل صيام، لكنهم أهم ما فيهم هو سلامة الصدور و سخاوة الأنفس.

و هي درجة يسعى - في الأصل - كل مسلم للوصول إليها، و لذلك نحن مطالبون في كل صلاة بالدعاء: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } { ٦ } صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ { ٧ } ^(٧٩٣)

و هؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم الذين ذكرهم في قوله سبحانه: { وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسَنَ أَوْلِيَكَ رَفِيقًا } { ٦٩ } ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا } { ٧٠ } ^(٧٩٤)

فيكفي للوصول إلى درجة السابقين طاعة الله و طاعة الرسول p. و في هذه الآية قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم و سبقهم. كما تدرج من الفئة القليلة إلى الكثيرة

^(٧٨٨) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ٢١، ص: ١٦٥.
^(٧٨٩) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، أخو أسامة، و عبد الله، وكان عبد الرحمن صاحب قرآن و تفسير، جمع تفسيراً في مجلد، و كتاباً في الناسخ و المنسوخ. توفي: سنة اثنتين و ثمانين و مائة. انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط و آخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط: /، س: /، ج: ٨، ص: ٣٥٠.
^(٧٩٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: ٦، ص: ٣٥١.
^(٧٩١) رواه أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب r في باب فضائل قوم شتى من أهل الشام.
^(٧٩٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن r في باب في الجود و السخاء.
^(٧٩٣) سورة الفاتحة الأيتان: ٦-٧.
^(٧٩٤) سورة النساء، الآية: ٦٩ - ٧٠.

فبدأ بالنبیین وهم أقل الخلق ثم الصدیقین و هم أكثر ثم الشهداء ثم الصالحین فكل صنف أقل من الذي بعده، فهو تدرج من القلة إلى الكثرة و من الأفضل إلى الفضل. و لا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلّ عددهم.

فهكذا قسم الله صنف المؤمنین بحسب درجاتهم، و صورهم في صورة هرمية، كلما ارتقيت في الهرم قلت مساحته.

كما صور القرآن الكريم أصناف المؤمنین بشكل آخر حسب الطابع الشخصي الغالب على كل شخص منهم، و فيما يلي بعض هذه الأصناف و النماذج.

المبحث الثالث

نماذج من الشخصيات المؤمنة

١ - المؤمن التائب من ذنبه: آدم ؑ

قال تعالى: { وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } { ٣٥ } فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } { ٣٦ } فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } { ٣٧ } سورة البقرة

و قال سبحانه: { وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } { ١٩ } فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَ قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجْرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } { ٢٠ } وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } { ٢١ } فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجْرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجْرَةِ وَ أَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } { ٢٢ } قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ

تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ { ٢٣ } قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ { ٢٤ } قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا
 نُخْرِجُكُمْ { ٢٥ } يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسُ
 التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ { ٢٦ } يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
 الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ
 يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 { ٢٧ } سورة الأعراف

و قال جل جلاله: { وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِي وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا
 (١١٥) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى { ١١٦ } فَقُلْنَا يَا آدَمُ
 إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى { ١١٧ } إِنَّ لَكَ أَلًا
 تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى { ١١٨ } وَ أَنْتَ لَا تَضْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى { ١١٩ }
 فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَا يَبْلَى
 { ١٢٠ } فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
 وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى { ١٢١ } ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى { ١٢٢ } قَالَ
 اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا
 يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى { ١٢٣ } وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ
 نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى { ١٢٤ } سورة طه

جاء الحديث عن هذا النموذج النفسي في صورة قصة متناثرة الفصول " في آيات متفرقة من القرآن الكريم و سور عديدة منه. نقرأ هذه القصة في في عدة آيات من سورة البقرة ، و في سورة آل عمران، و المائدة، و الأعراف، و الإسراء، و الكهف، و مريم، و طه، و يس. و قد جاء حديث القرآن عنه مقرونا بالحديث عن إبليس عليه لعنة الله. و مع أن حديث القصة القرآنية عن الشخصيتين جاء مقترنا في سرد الأحداث، إلا أننا نلاحظ مقارنة جلية بين معصية إبليس، و معصية آدم. فإبليس تطاول، و أصر و تبجح بينما آدم ندم و تاب و استغفر. و هذا فرق جوهري بين الإنسان و الشيطان.

و ما ذلك إلا لأن التوبة في القرآن الكريم تمثل خاصية جوهريّة في شخصية الإنسان المسلم، فقد أكد القرآن الكريم عليها، و حبيب فيها، و جعلها مفتوحة لكل أحد مهما كان ذنبه عظيماً. و لو كان قتل نفس، أو حتى شركا بالله تعالى. مع أن الله عز و جل قال في كتابه: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } { ٤٨ } (٧٩٥).

و هذا كله خلافا للأديان المحرفة الأخرى كاليهودية التي منعت التوبة على كل من لم يكن إسرائيليا بالمولد. فلا يحق لأي أحد من "الغويم" أن يتوب و يدخل في اليهودية. و لذلك كانت اليهودية هي أقل الديانات انتشارا.

و أما النصرانية فلا يتوب المذنب فيها من ذنبه إلا على يد القس، بعد أن يعترف له بالذنب بكل تفاصيله في حجيرة الاعتراف في الكنيسة! مهما كان هذا الذنب صغيرا أو كبيرا، و مها كان هذا الذنب محرجا أو مخجلا فلا بد من سرد كل تفاصيله على القس. و مهما كان المذنب رجلا أو امرأة فلا بد له من هذا الاعتراف و هذه المجاهرة بالذنب! و إلا فلا توبة له.

أما في الإسلام فباب التوبة مفتوح على مصراعيه لكل المذنبين و المنيبين ليتوبوا من ذنوبهم دون حاجة إلى المجاهرة بهذا الذنب أمام أي أحد من المخلوقين. فإله تعالى لا حاجة له إلى أية واسطة توصل إليه اعترافات المذنبين، و لم يوكل سبحانه، أي من مخلوقاته ليغفر الذنوب نيابة عنه. و الحمد لله رب العالمين.

و يشكل هذا الاختصاص و هذا التميز لمفهوم التوبة في القرآن الكريم سببا من أسباب قوة الإسلام، و سعة و سرعة انتشاره بين الناس. قال سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (٧٩٦)

و لقد جاءت القصة في سور متعددة بغرض خدمة أهداف السياق في كل سورة، و بغرض تسليط الضوء على جوانب مختلفة من القصة في كل سورة. و أول ما ذكرت القصة كان في سورة البقرة، في قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} (٣٥) (٧٩٧) و قد جاء الحديث هنا في سياق ذكر أصناف الناس الثلاثة ثم التعليق عليهم و بعده جاء الحديث عن سبب هذا الانقسام الراجع إلى بدء الخليقة، فجاء الحديث عن خلق آدم و ما اكتنفته من أحداث، ثم تحدث القرآن عن دخول آدم الجنة، و غفاته عن ما كان يبطنه له الشيطان من الحسد و ما كان يريده به و ذريته من الشر.

و النهي في الآية عن الأكل من الشجرة إنما هو نموذج مصغر من الشريعة التي ستكلف بها الإنسانية جمعاء بعد ذلك. و يبدو أن هذا التكليف لم يكن إلا بعد خلق حواء، فكأن الشريعة جاءت للتنظيم الاجتماعي للإنسان. إذ لا معنى للستر المقصود من هذا التكليف دون وجود طرف آخر يُستتر منه. فنحن نجد دائما في قصة آدم أن النهي كان للطرفين { وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجْرَةَ }. أي الأكل من ثمارها، و فيه تعليق النهي بالقرب منها، دون التصريح بالأكل لقصد

(٧٩٦) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٧٩٧) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

المبالغة في النهي عنه. و لقد صد توقي الشر و الابتعاد عنه قدر المستطاع، إذ الوقاية خير من العلاج.

كما أن هذا النهي رمز "للمحذور الذي لا بد منه في حياة الأرض. فبغير محذور لا تنبت الإرادة، و لا يتميز الإنسان المرید من الحيوان المسوق، و لا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد و التقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. و الذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، و لو بدوا في شكل الأدميين!"^(٧٩٨)

{ فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ } فهي زلة عظيمة، لكنها بفعل فاعل، و تدبير مجرم، و لذلك عُدِّي الفعل بالهمزة، ليصور لنا هذا الذي يدفع الإنسان من خلفه ليوقعه في المهالك. و يصور لنا قابلية الإنسان للزلل.

و في قوله: { عَنَّا } إشارة إلى السقوط من عل، فحرف الجر " عن " هنا يفيد وصف هذا العلو الذي كانا فيه، و هذا السقوط الذي وقعا فيه.

و لقد استغل إبليس نقاط الضعف البشرية في آدم و زوجته، ليوقعهما في هذا الخطأ، فقال لهما: { مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } { ٢٠ } وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ { ٢١ } فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ {^(٧٩٩)

فقد استغل الرغبة المكونة في فطرة الإنسان للصلاح، و الرغبة في الخلود ليغرر بهما، و يبدو أن هاتين الرغبتين كانتا أصلاً متأصلتين في إبليس و لكن بشكل سيء، فقد كان من الجن لكنه كان مع الملائكة، و لعله كان يرغب في التحول إلى ملاك ليكتسب حظوة عند الله لا ليكون طائعا له. و رغبته في الخلود تتجلى واضحة في قوله: { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } {^(٨٠٠) فقد رغب في تجاوز يوم الدين إلى يوم يبعثون ، فيكون حقا خالدا، لكن الجواب الإلهي كان: { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } { ٣٧ } إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ { ٣٨ } {^(٨٠١). و هو يوم قيام القيامة و ليس يوم البعث.

كما كان للنسيان سببا كبيرا في هذا الخطأ، قال تعالى: { وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } { ١١٥ } {^(٨٠٢) فقد أخبره الله بشأن إبليس من قبل، إذ قال له: { يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } { ١١٧ } {^(٨٠٣) لكن آدم نسي العهد و استمع إلى قول إبليس، فكانت النتيجة

^(٧٩٨) سيد قطب، الظلال، ج: ١، ص: ١٦٦.

^(٧٩٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٠ - ٢٢.

^(٨٠٠) سورة الحجر، الآية: ٣٧.

^(٨٠١) سورة الحجر، الآية: ٣٧ - ٣٨.

^(٨٠٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

^(٨٠٣) سورة طه، الآية: ١١٧.

أَنْ {أَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} {٣٦} (٨٠٤)

لكن آدم تلقى من ربه كلمات بها نهض من عثرته و أقبل من زلته (*):
{فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ

رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {٣٧} (٨٠٥)

و عليه فإن قصة آدم مع " الشجرة المحرمة ، و وسوسة الشيطان باللذة ،
و نسيان العهد بالمعصية، و الصحوة من بعد السكره، و الندم و طلب المغفرة .
إنها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة!" (٨٠٦)

و ما آدم إلا نموذج للمؤمن الذي يخطئ ثم يسارع إلى التوبة من قريب،
بغير إصرار على الذنب. إذ كما قالوا: لا كبيرة مع استغفار و لا صغيرة مع
إصرار. وَ مَنْ يُشَابِهْ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ.

٢ - المؤمن المسالم: ابن آدم المظلوم.

قال تعالى: { وَ آتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } {٢٧}

(٨٠٤) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(*) انظر موضوع التوبة في الفصل السابق من الباب السابق.

(٨٠٥) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٨٠٦) سيد قطب، الظلال، ج: ١، ص: ١٦٧.

لِئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ { ٢٨ } إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ
جَزَاءُ الظَّالِمِينَ { ٢٩ } فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ
{ ٣٠ } فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا
وَيْلَنَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ
{ ٣١ }

سورة المائدة

وردت هذه الآيات الكريمت في سياق الحديث عن بني إسرائيل بين
الحديث عن نكوصهم عن دخول الأرض المقدسة، و بين الحديث عن ما
كتبه الله على بني إسرائيل من خطورة جريمة قتل النفس و جزاء القتل
المفسدين في الأرض. و كأن القرآن الكريم يريد أن يصور لنا من خلال هذا
الحدث جانبا من طبيعة بني إسرائيل التي تعتدي على كل مسالم من أجل
الوصول إلى أهدافهم الدنيئة. و الظهور بمظهر المتفوق على الآخرين مهما
كانت الحقائق ظاهرة أمام الناس تدينهم و تبين وضاعتهم.
فكانهم ورثوا هذه الطبيعة الهمجية عن أبيهم "قابيل"، و كأنهم
ينحدرون من سلالته، سواء كان ذلك وراثة حقيقية، أم كان ذلك صورةً إذ
ورثوا أفعاله من بعده.

و إذ يورد الله تعالى هذه القصة فليس للتسلية أو التاريخ المجرد من
كل تحليل، لكنه يتلوها علينا { بِالْحَقِّ } للتأمل فيها و لأخذ العبرة منها، و
استلهام الدروس منها، و معرفة طبائع كثير من البشر من خلالها. و
هذا من أهم أهداف القصص القرآني.
و قد جاءت هذه الآيات في شكل مقابلة بين صورة الإنسان المسالم، و
صورة الإنسان المعتدي. حيث برز الاختلاف بين الطرفين بشكل صارخ
لوقوع التباين بين اللونين المتجاورين: لون أبيض ناصع، يجاوره لون
أسود قاتم. فهذا يقول: { لِأَقْتُلَنَّكَ } و ذاك يقول: { مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
لِأَقْتُلَنَّكَ }.

فمع أن الجو المحيط بالشخصيتين هو جو عبادة و تقرب إلى الله بالقربان،
إلا أن النفوس القائمة لا تراعي لأي محل قداسة، و مع أن بين الطرفين قرابة،
فهما كلاهما { ابْنِي آدَمَ }، إلا أن النفوس المجرمة، لا تراعي و لا ترقب في أحد
إلا و لا ذمة.

أما النفوس البريئة فتعلم علم يقين أن النجاح في الدنيا و الآخرة إنما
طريقه التقوى: { قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }.

و هذه التقوى إنما هي نتيجة الخوف من الله تعالى و ليس الضعف كما قد يتصور البعض من أصحاب النظر القاصر. ففوة التحكم في النفس أشد من قوة العضلات. و في الحديث الشريف يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ.»^(٨٠٧)

فهو قادر على الدفاع عن نفسه، لكنه كان مخيراً بين أمرين، أن يكون قاتلاً أو أن يكون مقتولاً، فاختار إستراتيجية الآخرة {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِيْمَتِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} {٢٩} فقولهُ أريد أي أختار، فقد اختار أن يبوء غيره بالإثم على أن يبوء به هو، و لذلك ورد في الحديث: «كُنْ خَيْرَ ابْنِي أَدَمَ»^(٨٠٨). كما ورد و في حديث آخر: «إِنَّهُ سَتَكُونُ بَعْدِي أَحْدَاثٌ، وَ فِتْنٌ، وَ اخْتِلَافٌ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ المَقْتُولِ لِمَا القَاتِلُ فافعل»^(٨٠٩).

و لقد كان الأمر في الأول تهديدا بالكلام بالقتل، ثم تحول إلى تنفيذ بالفعل بعد أن سهلت النفس الظالمة على صاحبها ارتكاب الجريمة النكراء. {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} {٣٠} فقد خسر أخاه كما خسر والديه و إخوته بإسخاطهم عليه، كما خسر نفسه بارتكابه لهذه الجريمة، و سنّه لهذا الإثم العظيم الذي فتح به على نفسه حساباً متراكماً إلى يوم القيامة، و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»^(٨١٠)

و لقد كان دافعه في هذه الجريمة أسوأ أشكال الحسد، فمن الحسد تمنى نعمة الغير، لكن هذا ما تمنى إلا زوال نعمة أخيه عنه دون أن يرجو انتقالها إليه، لأنه علم أنه ليس أهلاً لها. و هذا كما قلنا من قبل مما ورثه بنو إسرائيل عنه، فقد حسدوا أخاهم يوسف على حب أبيه له، و حسدوا المسلمين على ما آتاهم الله من فضله {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَ الحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} {٥٤}^(٨١١)

و لقد كان دون الغراب في الشفقة على مقتوله، قال تعالى: {فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} {٣١}

^(٨٠٧) رواه مالك في الموطأ، عن أبي هريرة، في باب ما جاء في الغضب.

^(٨٠٨) أبو داود في سننه باب في النهي عن السعي في الفتن، و ابن حبان في صحيحه باب ما جاء في الفتن.

كلاهما عن أبي موسى الأشعري ج ٢.

^(٨٠٩) أخرجه الحاكم في مستدركه عن خالد بن عرفطة في كتاب الفتن و الملاحم.

^(٨١٠) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه باب قول النبي صلى الله عليه و سلم (يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه) إذا كان النوح من سنته.

^(٨١١) سورة النساء، الآية: ٥٤.

ندم لكنه لم يندم على سوء فعلته، لكنه ندم على مستواه المنحط أدنى من مستوى الغراب. فأقصى رجائه كان أن يكون في مستوى الغراب {أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ} أما مستوى الإنسانية فشيء لم يفكر فيه هذا الشخص، و لا ينتظر من أمثاله أن يفكروا فيه!

٤ - المؤمن المبتلى الصابر على أذى الناس

كم ذا يتعرض المؤمن إلى الأذى في حياته؟ و قد قال رسول الله ﷺ و لقد أعطى لنا القرآن الكريم نماذج بشرية كثيرة للصبر على أذى الناس، ألا أن نموذج يوسف ٧ يعد من أقوى هذه النماذج إذ أنه أُوذي من طرف أقرب أقربائه الذين هم إخوته من أبيه يعقوب ٧، الذين يفترض أن يكونوا هم المدافعين عنه بحكم الفطرة السليمة، لكن الفطر المعوجة لا ينتج عنها إلا الأذى للآخرين، و حتى إلى أقرب المقربين، فقد دفعهم الحسد لأخيهم أن قالوا لبعضهم: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} ٩ {٨١٢} فقد كان القتل هو خيارهم الأول، بما ينبئ عن مدى ما بلغه حسدهم له، و بما ينبئ عن ما بلغه فساد أنفسهم.

لكن رحمة الله قريب من المحسنين، و الله أعلم بعباده و عو أعلم حيث يجعل رسالته {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} ١٥ {٨١٣} ثم استعبد و بيع بثمن بخس في سوق النخاسة! {وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} ٢٠ {٨١٤} ثم أُوذي من قبل امرأة العزيز، {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} ٢٣

فقد اجتمعت عليه أجنحة المكر المختلفة: راودته عن نفسه بالرفق و اللين، و ذلك أدعى للاستجابة. و التي هو في بيتها، فهو تحت رحمتها. و غلقت الأبواب فلا فرار له منها، و ليس معها أحد من البشر. و قالت: هيت لك بالتصريح دون التلميح، و ذلك يظهر مبالغتها في مكرها، إذ الأصل في المرأة الحياء و الخجل. و قد استعمل القرآن الكريم الكلمة القبطية {هَيْتَ} - كما قال

(٨١٢) سورة يوسف، الآية: ٩.

(٨١٣) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٨١٤) سورة يوسف، الآية: ٢٠.

ابن عباس (*) - ليصور المشهد كما هو، و كذلك استخفافا بهذه الوضاعة التي وصلت إليها هذه المرأة.

لكن الله عصمه منها و من شرها { وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ { ٢٤ } فلم ينف القرآن الكريم عنه صفة البشرية، و لم يعرضه في صورة مثالية خيالية، لكن ذكر لنا ما اعتمل في نفسه من الهم، لكن إيمانه بالله عصمه من الزلل. فما اختاره الله للنبوة إلا لأنه كان أهلا لها. و الله أعلم حيث يجعل رسالته. و لقد حاول بعض المفسرين نفي هذا "الهم" النفسي بشتى الطرق و التأويلات، لكن يوسف عليه السلام لم ينفه عن نفسه إذ قال: { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ { ٣٣ } و لو لم تكن له نفس بشرية لما فر منها !

و مع فراره منها، إلا أنها لم تستسلم لهذا الرفض الذي لم تكن تنتظره { وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { ٢٥ }^(١٥) فمع الفضيحة لجأت مباشرة إلى تبرئة ساحتها و إصاق التهمة بالبريء. و هذا يدل على أنها فكرت من قبل في مثل هذا الموقف. و أنها قلبت الأمور على وجوهها المختلفة، و خطت من قبل للجريمة و لاحتمال انكشاف أمرها. فجو الارتباك الذي يحصل مع الفضيحة لا يدع مجالاً للتفكير بهذه السرعة المذهلة و إيجاد المخرج بهذه السهولة. فيبدو أنها جهزت الخطة رقم: أ، و جهزت لنفسها الخطة رقم: ب لاستعمالها في حالة حدوث المكروه بالنسبة لها. و هذا من مكرها العظيم! و مما يؤكد لنا شدة مكرها، و إحكام تخطيطها، و عظم مكائدها ما فعلته بنسوة المدينة اللواتي قلن { امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ { ٣٠ } فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعَدَّتْ لَهُنَّ مَتَكًا وَ أَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَ قَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ { ٣١ } قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ { ٣٢ }

و بذلك ازداد الأذى و امتد إليه من صواحب امرأة العزيز، فهن و أن لم يصرحن بالأذى، إلا أنهن لمحن إليه في قولهن أمامه: { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ { ٣١ }

(*) انظر: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد البصري البغدادي الماوردي (المتوفى: ٤٥٠ هـ) النكت و العيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ط: /، س: /، بيروت، لبنان. ج: ٣، ص: ٢٣.
^(١٥) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

و هنا التجأ مباشرة إلى الله تعالى ليعينه على تجاوز هذه المحنة العصبية التي توشك أن تنزل به من مقام النبوة إلى درك الجهالة. { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنِّي لَأَتَّصِرُ بِكَ يَا رَبِّ السَّعِيدُ } { ٣٣ } فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ { ٣٤ } (٨١٦)

فقد رضي بالسجن بغير ذنب و لا جريرة، لكن ليستعصم به عن أذى هؤلاء النسوة المنحرفات. بل و لقد أصبح السجن بالنسبة له محبوبا و له مكان في قلبه، ما دام معتصما يعتصم به من الرذيلة.

و ألقى في السجن بضع سنين ظلما و عدوانا. بغرض التغطية على فضيحة امرأة العزيز. { ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُؤُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ } { ٣٥ } (٨١٧)

إلى حين أن تهدأ الفضيحة و ينسى الناس أمر امرأة العزيز. و هكذا في بلاد الظلم يدفع البريء ثمن جريرة المجرم!
كل هذا الصبر لا يذهب جفاء عند الله تعالى، فقد رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة مقاما عاليا، و غدا في مقام عزيز مصر.

لكن حتى و هو في مقام العزيز يصله الأذى بني إسرائيل، من إخوته، و يتهمونه بالسرقة و هو ينظر إليهم! قال تعالى: { قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } { ٧٧ } (٨١٨)

أي صبر هذا الذي يتميز به هذا النبي، كيف استطاع أن يسرها في نفسه؟! و إننا لنكاد ندخل المشهد و نرد على هؤلاء المفترين بأنفسنا. و لكن الله يرسم لنا هذه اللوحة النفسية الرفيعة ليعلمنا الصبر على رعاك الناس و أذاهم، خصوصا في مسارعتهم بالتهم بغير دليل! و ما أكثر ما يصادف الإنسان المسلم أمثال هؤلاء في الحياة، أناس أفواههم كأفواه الأفاعي و الحيات تنفث السم في كل الجهات! و الحل الوحيد معهم هو تبين مقامهم الوضيع و شغلهم بالدفاع عن أنفسهم، فلا يكون لهم وقت ليهاجموا فيه الآخرين بغير حق، و هذا ما فعله يوسف و معهم: { قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا }.

و هكذا صور لنا الله سبحانه و تعالى هذا النموذج البشري الفذ للإنسان المؤمن الصابر على أذى البشر، لكن بتصوير واقعي بعيد عن الخيالات و المثاليات، إذ لو كان الأمر كذلك لكان ضربا من الأساطير التي لا تنفع في أن تكون مثلا يحتذى به، و هذا هو الغرض الأساسي للقصاص القرآني.

(٨١٦) سورة يوسف، الآية: ٣٣ - ٣٤.

(٨١٧) سورة يوسف، الآية: ٣٥.

(٨١٨) سورة يوسف، الآية: ٧٧.

٣ - المؤمن المستضعف وسط الكافرين

قال سبحانه: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَوَعْمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } { ١١ } سورة التحريم

هذا مثل ضربه الله تعالى لمتانة إيمان المؤمنين و عدم التأثر ببيئة الكفر. إنها امرأة فرعون، نموذج الصمود و التحدي أمام عتو الكفر و عمالقة الكافرين، فكانت بحق مثلاً و نموذجاً يحتذى به المؤمنون على مر التاريخ من بعدها إلى يوم القيامة. إنها ليست إمعة، تقول إن أحسن الناس أحسنت و إن أسوأوا أسأت، بل قد وطنت نفسها على الحق، فأحسنت أيما إحسان لما أساء المحيطون بها. و لم يغيرها المنصب و الجاه و السلطان، فقد كانت المرأة الأولى في بلدها، و أرضها، لكنها استبدلت ذلك كله بالذي هو أعلى و خير. فماذا ينفع جاه و سلطان لفترة محدودة أمام عطاء الله الذي لا حد له؟ و ماذا يساوي ملكٌ فان أمام ملك دائم. فقد تيرأت من كل باطل زائل، و من أصحابه كلهم مهما كانت قرابتها بهم، سواء كان ذلك زوجها، أو كانوا خدماً لها، و التجأت إلى الله تعالى وحده تطلب قربه.

و أول طلب لها كان { رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ } و قد سبقته على كل طلباتها الأخرى. لأن المعاد عندها أهم من الآن. فالمهم هو المصير و المال. أما الحاضر فما هو إلا جسر إلى غد. و بدأت هذا الدعاء بطلب البناء. فقد كان الناس يومها - و في كل العصور - يتفاخرون بما يبنونه في هذه الدنيا. و خصوصاً الفراعنة الذين عاشت وسطهم فقد كان البناء شغلهم و فخارهم الذي يفتخرون به على غيرهم، يشهد لذلك آثارهم التي بقيت إلى اليوم تدل على أعمالهم، من قصور مشيدة و مزخرفة و أهرامات شامخة بطول ناطحات السحاب اليوم.

أما هي فقد علمت أن

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها^(٨١٩)
فطلبت من الله بناءً، لكنها حرصت على خير جار، فاخترت جوار الله
تعالى وقربه، فقالت: {عندك} و سبقتة على ما تطلبه، فاخترت الجار قبل
الدار. و قالت: {بيئاً} فلم تحدد نوعية هذا البيت فلم تقل مثلاً قصراً أو ما شابهه،
بل تركت الأمر لله تعالى و فوضت أمرها له سبحانه، و هو أعلم بما أعده لعباده
في جنته مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر. المهم أن
يكون {بيئاً في الجنة} و فقط. {فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز
{^(٨٢٠)

و في قولها: {بيئاً} جانب من بشريتها و عفويتها في الدعاء، فالمرأة
الصالحة أول ما تبحث عنه هو الستر، و الستر لا يتحقق لها إلا في بيت.
ثم طلبت النجاة من القائد الكافر {من فرعون} المفسد المتسلط على رقاب
الناس المتجبر على خلق الله. طلبت النجاة منه كشخص لا خير و لا بركة فيه.
كما طلبت النجاة من عمل فرعون {و عمله}. ولم تستعمل لفظة " فعل
فرعون " بل " عمله " و هذا دليل على خطورة ما كان يقوم به فرعون. فهي
أقرب الناس إليه و أعلمهم بما يقوم به من تخطيط رهيب و كيد و تنفيذ.
و طلبت النجاة من قوم فرعون الظالمين لأنفسهم و لخلق الله تعالى.
فلولا هم لما كان لفرعون سلطته و سطوته على الناس.
و لقد كررت طلب النجاة مرتين {و نجني}... {و نجني} و ذلك لإحساسها
بخطر وضعها، فهي وسط الكفار المحيطين بها و يمكن أن يفتنوها عن دينها في
آية لحظة. و لا ينجيها من كل هذه الأخطار إلا رب العالمين.
و هذا المثل المضروب هنا لا ينفك عن السياق الوارد فيه فقد جاء مقابلاً
لمثل {امرات نوح و امرات لوط} ليبين سبحانه أنه لا تزر وازرة وزر
أخرى و لو كان ذا قربي، و لا يشفع مؤمن لكافر مهما كان قربه منه. و أن
الولاء و البراء لا يكون إلا على أساس الإيمان.
و عزز الله هذا المثل بمثل {مريم ابنت عمران} في صلاحها الذي رفعها
إلى مرتبة الكمال، فهما مثلان متقابلان على عادة القرآن الكريم في رسم
الشخصيات، إذ نجد في معظم قصصه الشخصية الصالحة تقابلها الشخصية
الفاصلة، و ذلك بغرض رسم الصورة رسماً واضحاً جلياً بارزاً للناظرين.

^(٨١٩) علي بن أبي طالب ع، الديوان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط:، ٢٠٠٧، ص: ١١٧.
^(٨٢٠) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

٥ - المؤمن الغني بالله

قال تعالى: { وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ } { ١٥ } وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَ أَوْتَيْنَا مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ إِن هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } { ١٦ } وَ حُسْرَى لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } { ١٧ } حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ } { ١٨ } فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدِيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } { ١٩ } وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } { ٢٠ } لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأُدْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } { ٢١ } فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ } { ٢٢ } إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } { ٢٣ } وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيِّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } { ٢٤ } أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ } { ٢٥ } اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } { ٢٦ } قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } { ٢٧ } اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } { ٢٨ } قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } { ٢٩ } إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { ٣٠ } أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ } { ٣١ } قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون } { ٣٢ } قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو فِئَةٍ وَ أَوْلُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } { ٣٣ } قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ { ٣٤ } وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ { ٣٥ } فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ { ٣٦ } ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ { ٣٧ } قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ { ٣٨ } قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْحِجْرِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ { ٣٩ } قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ { ٤٠ } قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَّا يَهْتَدُونَ { ٤١ } فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ { ٤٢ } وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ { ٤٣ } قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ { ٤٤ } سورة النمل

هذا نموذج آخر للمؤمنين، و هو نموذج جدير بالتأمل، باعتبار عامة الناس يظنون أن الله قد كتب الفقر و الشقاء في الدنيا على المؤمنين. لكن القرآن الكريم هنا يؤكد لنا أن الإيمان يسع الناس جميعا، فقيرهم و غنيهم. فهذا سيدنا سليمان نموذج للمؤمن الممكن في الأرض، و كيف سخر هذا التمكين بحكمة بالغة في الدعوة إلى الله تعالى. و يبدأ الحديث عنه بذكر أصله فهو ابن داوود، النبي الملك الذي قتل جالوت و آتاه الله الملك.

و ورث سليمان داوود في ملكه من بعده، و زاد على أبيه الفهم { فَفَقَّهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ } وَ كُنَّا آتِينَا حُكْمًا وَ عِلْمًا { ٧٩ }^(٨٢١) وَ عُلْمٌ مَنْطِقِ الطَّيْرِ { وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلْمُنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } وَ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَصِيبًا { وَ أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } { ١٦ } .

كل هذا الفضل و الغنى لم يخرج به عن سواء السبيل، و لم ينزع عنه تواضع الأنبياء حتى أمام النمل، فها هو ذا يمر { عَلَى وَادِ النَّمْلِ } و يسمع نملة تخاطب زميلاتها { يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَّا يَشْعُرُونَ } { ١٨ } فَتَنَبَّسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدِيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَدْخُلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ { ١٩ } فكان ضحكه التبسم، فلا هو بالعبوس الذي لا يعرف الضحك إليه سبيلا، و لا هو بالمستهتر الذي يضحك في كل وقت، و لا هو بالهستيري الذي يضحك مقهقها، يُسمع ضحكه من مسافة بعيدة.

(٨٢١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

فكأنه ضحك تعجبا لانضباط هذه النملة التي يبدو أنها كانت مكلفة بالحراسة و ضمان أمن زميلاتها، أو كانت يقظة أكثر من زميلاتها فنبهتهن إلى الخطر الداهم قبل وقوعه. و التمسّت لنبي الله العذر، فهو لا يقصد الفساد في الأرض لكن إذا حطمهن فدون قصد و دون شعور، إذ استعملت الفعل "حطم" المخفف، بتحريك الطاء دون تشديد، و هو غير " "يحطّم" الذي يفيد قصد الفعل. و أكدت الفعل بنون التوكيد الثقيلة من باب حث زميلاتها من النملات لاتخاذ الإجراءات الملائمة أمام هذا الخطر الداهم، و لا تتراخى أمامه.

ثم هو يأخذ العبرة مما يرى أمامه مهما كان حجمه، و لو كان في حجم النملة. فبعد هذه الابتسامة مباشرة إذا به يتوجه إلى الله تعالى سائلا إياه أن يلهمه و يدفعه إلى شكر نعمه العظيمة عليه و على والديه، و أن يعمل الصالح الذي يرضاه عز و جل. و قد نكر {صَالِحًا} من باب الحرص على فعل الصلاح مهما كان حجمه دون احتقار، فكأنه قال: "إلا صالحا". و زاد {ثَرَضَاهُ} من باب التسليم لله في جميع الأمور و تخبيره حتى في أمر الصلاح، فالصلاح كثير، و بعضه أصلح من بعض، و الله وحده يعلم أيها أصلح. و يختم الدعاء بطلب الدخول في عباد الله الصالحين، فالصلاح هو همه الأول و الأخير، و العيش في كنف الصالحين هو آخر أمنيته {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.

و التفكير في الخلق و التضرع إلى الله لا يشغل هذا النبي الملك الغني عن أداء واجباته القيادية، و على رأسها تفقد الرعية و الجند بوجه خاص، مهما كانت رتبة الجندي و لو كان هدهدا. و هو ليس تفقد شكلي سطحي بل هو تفقد حقيقي بالمعانية، مع عدم التسرع في الاتهام للغائبين، و توجيه التهمة إلى النفس قبل الغير { وَ تَقَفَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ } فبدأ بالتشكيك في بصره قبل أن يوجه التهمة لهذا الجندي الصغير { أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } و بعد التأكد من وقوع هذا الجندي في الخطأ يأتي الحزم في المعاملة لضبط صفوف الجيش: { لَأَعْدِبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأُدْبَحَنَّهُ }

مع إعطاء الفرصة للمتهم بالدفاع عن نفسه بما يراه من أدلة تبرئه أمام القاضي: { أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }.

و يبدو أن هذا الجندي لم يكن متعمدا خطأه و إنما تأخر عن موعد اللقاء أو الاجتماع لأسباب و جبهة متعلقة بمهمة استطلاعية، لعلها من واجباته الخاصة: { فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ حِثُّكَ مِنْ سَبَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ } فيبدو من حرف "الفاء" أن الهدهد قد حضر المجلس قبل أن ينفض، و بلغه التهديد و الوعيد فأسرع إلى تقديم العذر ممهورا بالحجة البالغة المتمثلة في تقريره الاستخباراتي عن مملكة سبأ باليمن و هي أبعد ما تكون عن الأرض المقدسة)

حوالي ألفي كيلومتر) (*) { إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء و لها عرش عظيم { ٢٣ } فبدأ بأعجب شيء وجده و هو أن الذي يملكهم امرأة، و هذا نادر في ذلك الزمن، كما هو قليل اليوم، و هي ذات غنى، و لها عرش عظيم. ثم انتقل إلى أخطر أمر و ختم به و هو على حد قوله: { وجدتها و قومها يسجدون للشمس من دون الله و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون { ٢٤ } ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون { ٢٥ } الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم { ٢٦ } .

و يراعي القرآن الكريم تعبير هذا الهدهد على قدر فهمه للأمر، فهو طائر لاحم، و هو - كما عاينته - غالبا ما نجده يفتش في الأرض عما هو مخبوء فيها من الحشرات و الديدان يقنات بها، و ما دام طائرا فهو يعلم أن في السماء كذلك أمور مخبوءة لا يراها الرائي حتى يكشفها الله له. { ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون } (٨٢٢) و استعمل صيغة المخاطب في قوله: { ما تخفون و ما تعلنون } و في ذلك تعريض منه بالبشر، فهم يعلنون أشياء و يخفون أشياء أخرى. فكأنه يقدم دليل براءته، و هو أنه مجرد حيوان، لا يعرف اللف و الدوران، و لا الكذب أو النفاق، فهذه من صفات البشر، و ليس من صفات الهداهد!

و قد كرر كلمة { وجدت } مرتين. و الذي يجد هو الذي يبحث، و هذا يؤكد هذه الخاصية في هذا الطائر كما قلنا فهو دائم البحث و التفتيش، كما أن المهمة الموكولة إليه، و هي الاستخبار تتطلب السعي نحو الخبر و الحدث و عدم انتظاره حتى يأتي لوحده من تلقاء نفسه!

و نلاحظ استدراك الهدهد على عرشها العظيم، فمهما كانت عظمة عرشها، فإن هذا لا يؤثر في نفسه، لأن صاحب العرش العظيم هو الله تعالى المستحق للعبودية.

و القائد الحكيم بل القاضي الحازم لا يقبل أي كلام دون التأكد منه: { قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين } { ٢٧ } . و على ما نعتقد أنه لا يتصور كذب من حيوان غير مكلف شرعا، لكنها العادة المتأصلة في نفس هذا القاضي U الذي بدأ الحكم في القضايا صغيرا، منذ قضية { الحرث إذ نقشت فيه عنم القوم } (٨٢٣)، و لعل قصة { الخصم إذ تسوروا المحراب } { ٢١ } (٨٢٤) التي وقعت لأبيه ما زال أثرها واقعا في نفس سليمان U. فإن أباه قد صدق الخصم الأول بمجرد

(*) تم القياس بواسطة برنامج: Google Earth و برنامج Microsoft Encarta 2009 - Collection DVD . بين بيت المقدس و مأرب و كانت النتيجة ≈ ٢٠٩٠ كلمتر.

(٨٢٢) سورة سبأ، الآية: ٢٥.

(٨٢٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٨.

(٨٢٤) سورة ص، الآية: ٢١.

تقديمه دعواه دون التحقق من صحتها. كل هذا يفسر لنا هذه العبارة من سليمان
و لماذا عامل الحيوان معاملة الإنسان.

ثم قال له: { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ } { ٢٨ } فقد حملة نقل هذا الكتاب إلى سبأ و كلفه بمواصلة مهمته
الاستخباراتية: { ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } { ٢٨ } و من خلال رد
هؤلاء القوم يتأكد سليمان من حقيقة تقرير الهدد.

و تتلقى الملكة الكتاب فتقول: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أُقِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ
{ ٢٩ } { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { ٣٠ } أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَ
أُنُونِي مُسْلِمِينَ } { ٣١ } قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفُنُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا
حَتَّى تَشْهَدُونَ } { ٣٢ }

فهي امرأة حكيمة كما يروى عنها و كما تدل عليها الآيات الكريزمات، فهي
تخبر ملأها بالحادثة، و تصف الكتاب بما هو أهل له، و تخبر بمضمونه، و
تطلب المشورة فيه.

و يأتي رد الملأ - و يبدو أنهم من الرجال - فيعبرون عن ما يحسونه في
أنفسهم من القوة الذكورية، و لكن مع احترام لهذه الملكة الحكيمة التي تحظى
لديهم بالتقدير: { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَ أَوْلُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ } { ٣٣ }

فيأتي ردها، من خلال التجارب التاريخية السابقة المعروفة لديهم: { قَالَتْ
إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذْلَةً وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
{ ٣٤ } و نرجح أن يكون قوله تعالى: { وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } { ٣٤ } تعليق على
قولها، و ليس من قولها، فهذه حقيقة تاريخية و سياسية معاشة، فما دخل
المستدمر بلدا بأي حجة كانت إلا و أفسد فيه، بل أفسده على الكلية على حد
تعبيرها، فهي لم تقل: " أفسدوا فيها" و لكن: { أَفْسَدُوهَا } و هذا لما يتميز به
المستدمرون من الحقد على الآخرين، و الحسد لهم على الخير الذي حباهم الله
به، فهم لا يحبون الخير إلا لأنفسهم، و لا يحبون أن يروا لغيرهم أي إنجاز
حضاري يذكر الشعب المستضعف بتاريخه و إنجازاته.

و ما داموا قد أكلوا الأمر إليها، فستبدأ بسبر أغوار هذا الملك، عن طريق
إرسال هدية لتعرف رد فعله: { وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
الْمُرْسَلُونَ } { ٣٥ } فهي غير متسرعة في رد فعلها، و تؤثر الطريقة اللينة على
الخشونة، و هي ذات بال طويل فستتظر الرد مهما طال وقته: { فَنَظِرَةٌ بِمَ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } { ٣٥ }

و هنا يأتي رد النبي الملك الغني. فليس له أية أطماع مادية أو توسعية في
ممتلكات غيره،

و لا تغريه الهدايا، و إنما تهمة مصلحة الآخرين، فالصلاح كما رأينا من
قبل هو مبدؤه،

و غايته، و ما كان الفساد يوماً من أفعاله، فقد رأيناها قبلاً كيف لا يجرؤ حتى على قتل نملة. قال تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا أَنَا بِاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ } { ٣٦ } ارجع إليهم فلنأتيهم بجنودٍ لا قبل لهم بها و لنخرجهم منها أدلةً و هم صاغرون { ٣٧ } .

ثم توجه إلى جنوده و { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } { ٣٨ } قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ { ٣٩ } قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ { ٤٠ } فهو لما رأى النعمة زاد تبتلاً إلى الله و اعترافاً له بفضله عليه، و دون أن يغتر بها، فما من نعمة إلا و سيسأل عنها ماذا عمل فيها؟ فلا بد أن يهيئ الجواب لها من اليوم.

ثم أراد أن يختبر مدى فهمها، و مدى قابليتها لإدراك حقائق الكون الكبرى، فكان الامتحان لها بأن { قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } { ٤١ } فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ { ٤٢ }

فعلم بذلك مدى راحة عقلها بهذا الجواب المموه على قدر تمويه عرشها! لكن مستواها العقلي في إدراك الحقائق كان كذلك مموها بما ورثته من قومها من الكفر و الشرك، { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } { ٤٣ }

فجاء الاختبار الثاني الأشد و الأقوى: { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } { ٤٤ }
فقد صمدت أمام الصدمة الأولى، لكن الصدمة الثانية رجتها رجاء، و علمت حقا أن الذي تقف أمامه ليس ملكاً عادياً، و لكن نبي مرسل من الله الأحد. فما كان منها إلا أن أعلنت إسلامها دون أن يطلب منها ذلك صراحة في هذا الموقف كما تضمنته الرسالة من قبل.

فهذه هي طريقة الداعية الواثق من حججه، يعرض حججه في هدوء دون تهويل أو إثارة و يترك الباقي لله أولاً، ثم للمتلقي، فإن كان من الذين يهتدون اهتدى، و إن كان من الذين لا يهتدون زاده الله ضلالاً على ضلاله.

فهذه بعض النماذج النفسية المؤمنة يعرضها لنا القرآن الكريم بمختلف أشكالها و أنواعها كل منها يتكيف بإيمانه مع الظروف الواقعية التي يبتليها الله بها، و لكن في النتيجة كلها تسلك الطريق الصحيح، مهما كانت ظروفه شاقة أم يسيرة.

لهذه النماذج عرضا و طبقا لطلبنا عن
تدريتها للمؤمنون من بعدهم إلى
م القيامة.

الفصل في ما أنزلنا من الآيات الكافرة

ما أنزلنا من الآيات الكافرة: لعل الكافرين
مما أنزلنا من الآيات الكافرة
مما أنزلنا من الآيات الكافرة

الفصل في ما أنزلنا من الآيات الكافرة الخاصة بالآيات الكافرة

قال أتمعنا لى: {م} تنذرهم لئلا
لهي لى لى {بها} صهم ما روهام غشاة واة
اب عظم {٧}

سورة البقرة

لصدف من الناس بأداة التوكيد "نو"
لهو ما نل بيني ان نل لوهو لى p بذل مع هذا
ي الإنذار فلا فائدة منهم.
ة إلى الله التي أمر بها القرآن ،
ول هذه الآية الكريمة؟
ه الآية إنما هي بصدد تصدق بيشر امن
عمال التي تدل على تصديف والإيمان.
معهم في شيء بل إن الإنذار قد
غر الضار و ونفوار لى {ع} لنا الرؤيا

الَّتِي أَرَبْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا { ٦٠ } (٨٢٥)

و ما الغرض من إنذارهم إذا إلا لإقامة الحجة عليهم أمام الله عز و جل، و
إن كان شيء يمكن أن ينفعهم فهي الحجج الدامغة و البراهين الساطعة.
فما ينتفع بالإنذار إذا إلا الصنف الذي ذكر سابقا و هو صنف
المؤمنين { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ } { ٤ }

و سبب كون الإنذار لا ينفعهم هو أن الله ختم على قلوبهم و على سمعهم،
و على أبصارهم غشاوة، فمن كانت هذه حاله، فكيف يرجى له إيمان؟!
و هذا لا يعني أن ضلالهم كان بسبب هذا الختم، و تلك الغشاوة، فقد أذن
الكتاب و قرّر { أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ } { ٣ } (٨٢٦)، فما
لضلالهم من سبب إلا أنهم اختاروا هذا الطريق بأنفسهم، و لذلك فقد سماهم
القرآن "كفاراً" و الكفر في الأصل هو التغطية. قال الأزهري: "الكفر في اللغة
التغطية" (٨٢٧) فالكافر من غطى بنفسه على فطرة الإيمان التي فطر الله الناس
عليها. فهم الذين اختاروا الضلال و فضلوه على الإيمان و الحق، لأسباب
خاصة بهم، ظاهرها أسباب اقتصادية أو اجتماعية، أو سياسية، لكنها في
الحقيقة تؤول كلها إلى أسباب نفسية.

لقد عطلوا وسائل التلقي و التحليل و الإدراك التي حباهم الله بها، فهم لا
يريدون النظر في أمر هذا الرسول الذي أرسل إليهم، و لا يريدون أن يستعملوا
وسائل التمحيص التي لديهم في تقليب ما يعرضه عليهم. و إذا فعلوا فمن أجل
الجدال لا غير. فمن كانت هذه حاله فلا يرجى منه خير أبداً.

و لقد كرر القرآن الكريم لفظ: { عَلَى } ثلاثة مرات، بما يدل على تعدد
أسباب الضلال، فهي ختم على القلب، و غشاوة على السمع و غشاوة أخرى
على البصر، فليست هي غشاوة واحدة فقط، و لا هو سبب واحد بل ثلاث.
كما أنهم واعون جيداً لما هم فيه من الضلال و الخروج عن طريق الحق.
و ها هو قائلهم يقول: { اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } { ٣٢ } (٨٢٨)!! فلم يقولوا - مثلاً - : اللهم
إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه، أو وفقنا إليه، أو أعنا على الالتزام به. و إنما
فضلوا الهلاك بدلاً من كل ذلك.

(٨٢٥) سورة الإسراء، آ: ٦٠.

(٨٢٦) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٨٢٧) ابن منظور، لسان العرب، ج: ٥، ص: ١٤٥، ١٤٦.

(٨٢٨) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

إذا فهذا الختم على القلوب، و تلك الغشاوة على الأبصار إنما هي نتيجة لما اختاروه بأنفسهم لأنفسهم من طريق الكفر و الضلال، قال سبحانه: { وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } { ٢٧ } (٨٢٩)

لكن من اختار الحق و الهدى زاده الله هدى، { وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } { ١٧ } (٨٣٠)، و تلك هي العدالة الإلهية المطلقة.

فهؤلاء الذين أضاعوا منطق التفكير لديهم، و يرفضون الاستماع إلى الحق المبسوط في الكتاب، أو النظر إلى الإشارات المبنوثة في الكون، فهم لا يرتجى منهم خير أبداً، لذلك جعل الله جزاءهم أن { لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

و هكذا فقد ركزت هذه الآية الكريمة على معنى التغطية الذي يوازي معنى الكفر، و في باقي الكتاب آيات أخر و صفت و صورت مختلف الحالات النفسية للكفار، أشرنا إلى بعضها في مختلف جوانب هذا البحث، و لم نخصها بالتحليل هنا خشية الإطالة، و في ما يلي بعض الأمثلة عن النماذج الكافرة المذكورة في القرآن الكريم، نتناولها التحليل و التفصيل إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: الفئات الكافرة

الكفر في الأصل ملة واحدة، سواء كان الإنسان ملحدا لا يؤمن بشيء، أو كان مشركا يعبد أصناما، أو يعبد إلهين اثنين، أو آلهة كثيرة، أو كان منافقا، أو كافرا بما أنزل على محمد μ ، أو آمن ببعض الكتاب و كفر ببعض... فكل ذلك يؤدي إلى جهنم و العياذ بالله، و لذلك أمر الرسول μ و أتباعه أن يخاطبوا جميعا بمضمون سورة الكافرون: { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } { ١ } لا أعبدُ ما تعبدون { ٢ } و لا أنتم عابدون ما أعبدُ { ٣ } و لا أنا عابدُ ما عبدتم { ٤ } و لا أنتم عابدون ما أعبدُ { ٥ } لكم دينكم و لي دين { ٦ }

(٨٢٩) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٨٣٠) سورة محمد، الآية: ١٧.

و الغرض من ذلك هو تحذير المؤمنين من موالاته أصناف من الكافرين على أساس أنهم أقل شرا من بعض. و تبييننا لهم بأن الكفار يتآمرون على المؤمنين في حالة الشدة فينصر بعضهم بعضا على المؤمنين، مع اختلاف مذاهبهم و مشاربهم في الكفر. إلا أن القرآن الكريم إضافة إلى ذلك فصل ذلك كله، و صور كل حالة على حدة حتى يكون الناس على بينة من أمرهم. و من بين هذه الأصناف التي ذكرها القرآن الكريم ما يلي:

المشركون

قال تعالى: { وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { ٣١ } سورة الحج.

و في هذه الآية صورة بيانية رائعة للحالة النفسية للمشرك بالله تعالى، فمن يفعل ذلك { فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } لقد كان في سماء التوحيد عاليا، فهوى إلى درك الشرك، و استعمل له لفظ { خَرَّ } الذي يدل على السقوط الحر الذي لا يوقفه شيء، و هذه اللفظة تستعمل خصوصا لسقوط الميت، كما قال طرفة:

أبي أنزلَ الجبارَ عاملُ رُمحِهِ عَن السَّرَجِ حَتَّى خَرَّ بَيْنَ السَّنَابِكِ
إذ المشرك في حكم الكتاب كالميت، قال تعالى: { أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ
وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ
مِنْهَا } { ٨٣١ }

و قبل أن يصل إلى الأرض، ها هي الطيور الجارحة - التي كانت ترقبه من بعيد - تتخطفه بين السماء و الأرض في سرعة و عنف يعبر عنها حرف التعقيب " الفاء "، و استعمل لفظة {فَنَخْطُفُهُ} بالتخفيف، و في قراءة {فَنَخْطُفُهُ} بالتشديد، و كلا القراءتين تصور لنا جانبا من المشهد و الصورة، فالقراءة بالتخفيف تصور لنا سرعة الخطف، أما بالتشديد فتصور لنا قوة الخطف، و هذا ما نجده لدى الطيور الجوارح، فهي تخطف بسرعة و قوة. و كذلك حال هذا الذي يشرك بالله، فما تلبث الشياطين أن تتلقفه و تدخله في مهاوي الضلالة و الفساد بطريقة سريعة و عنيفة. و جانب آخر من الصورة و هو صورة هذا المتخطف، فهو كالجيفة النتنة التي تتخطفها الطيور الجوارح التي لا تتغذى إلا على الجيف، أو هو كالطير الضعيف الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، و كذلك حال المشرك، فهو بين يدي الشياطين تقبله كيف تشاء. أو هو مشتت النفس بين مختلف نوازعها و أهوائها التي لا تنتهي فلا قرار له و لا استقرار. و لا يشعر بالسكينة و لا بالطمأنينة طول حياته. و قد صور لنا القرآن الكريم هذا القلق اللامتناهي تصويرا رائعا حين شبه أعمال هؤلاء {كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {٣٩} ^(٨٣٢) فهم هائمون في صحراء الشهوات و الآمال العراض التي لا تنتهي، و التنافس على الدنيا بغير حد، و لا يكاد أحدهم ينتبه إلى نفسه حتى يدرك بأنه كالحمار يدور حول الرحي لينتهي في حفرة القبر بغير هدف. و لذلك لا نعجب حين نجد أن أشد الأمراض فتكا بالناس لدى الغرب المشرك هو مرض القلق الذي يؤدي إلى هذه الأعداد الهائلة من حالات الانتحار. ولذلك {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {٢٩} ^(٨٣٣) فمن جعل لهم واحدا كفا الله كل هم، و من أشرك بالله غيره كثرت عليه الهموم و جاءت من حيث يدري و من حيث لا يدري.

و إذا لم تتخطفه الطير في السماء، فإن الجاذبية تسحبه و الريح تطوح به { في مَكَانٍ سَحِيقٍ } في هوة ليس لها قرار، فلا ذكر له بعد ذلك و لا قيمة له تذكر. و ليس من السهل عليه الخروج من مهاوي الضلال بعد إذ دخل فيها. و من يرى المستويات المنحطة التي وصل إليها أهل الشرك مما ننزه بحثنا عن ذكره لِقْدَارَتِهِ و سفالته و نتنه باسم الحية الفردية و غيرها من الشعارات الزائفة، من يرى ذلك أو يعلمه يدرك حقا معنى السقوط الحر الذي تتحدث عنه الآية الكريمة.

^(٨٣٢) سورة النور، الآية: ٣٩.

^(٨٣٣) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

و هكذا صور الله الحالة النفسية لهؤلاء المشركين بهذا المثل الرائع المعبر عن حقيقة ما يعيشونه من انحطاط، و تشتت و عدم استقرار. كلما زدنا علما بحقيقة المجتمع المشرك و مشاكل أفرادها زدنا فهما لهذه الآية الفذة.

الجبارون و المستضعفون

قال تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } { ١٦٦ } وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } { ١٦٧ }
سورة البقرة

تقسم هذه الآية الكريمة الكفار إلى صنفين هما: الجبارون و المستضعفون، فالبعض تزعم الكفر و كان من دعائه و قاداته، و البعض كان سائرا في ركابه، لا يدري إلى أين مصيره، يقول بقول كبرائه كما يقول البيغاء.

و استمتع بعضهم ببعض في الحياة الدنيا. فهذا ينصر هذا، و هذا يدعم ذلك، لكن يوم الحق يتبرأ بعضهم من بعض، و يلعن بعضهم بعضا، فيتبرأ المتبوعون من التابعين، و حجتهم أنهم اختاروا الضلال بأنفسهم و لم يجبروهم على شيء من الكفر.

فكل واحد منهم يهتم بإنقاذ نفسه، و كل يقول نفسي نفسي { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوقَى كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ } { ١١١ } { ٨٣٤ }
ولكن لا أمل في النجاة حين رؤية العذاب، و انقطاع الصلات و العلاقات و الأنساب، و نفاد الحيل و أسباب الخلاص، و لا معدل و لا مصرف حينئذ عن النار.

و حينها يتمنى التابعون أن تكون لهم رجعة إلى الدنيا، ليتبرؤا من متبوعيهم، كما تبرؤوا منهم، و تركوهم في الشدة و العذاب. حينها يعلمون أن الطريق الصحيح كان في طاعة الله و رسوله { يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ } { ٦٦ } وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } { ٦٧ } رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } { ٦٨ } { ٨٣٥ } . و جاءت لفظة الرسول ممدودة { الرسولوا } كما جاءت لفظة { آتهم } ممدودة كذلك و كان يمكنكم أن يقولوا: " انتهم " و ذلك دلالة على نواحيهم في جهنم، فهم يمدون عقيرتهم بالصراخ و البكاء، كما أن في مد { آتهم } تعبير منهم عن حسرتهم الشديدة فهم يريدون أن يشفوا غليلهم من كبرائهم فريدون لهم عذابا

{ ٨٣٤ } سورة النحل، الآية: ١١١.
{ ٨٣٥ } سورة الأحزاب، الآية: ٦٦ - ٦٨.

طويلا كطول المد في هذه اللفظة، أو أطول، و لو وجدوا لفظا أطول من هذا لاستعملوه!

بل إنهم يلعنون بعضهم في النار و يسأل بعضهم لبعض مضاعفة العذاب، قال تعالى: { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } { ٣٨ } وَ قَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } { ٣٩ } (٨٣٦)

فهم لا يرضون لبعضهم رحمة من الله تعالى، و من كانوا قدوتهم في الدنيا أصبحوا ملعونينهم في الآخرة. و ما للمتبعين من رد عليهم إلا أن حملوهم مسؤولية أفعالهم في الدنيا، و بكل وقاحة و تبجح يتشفون منهم و يقولون لهم: { ذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }

و هكذا يريهم الله جزاء أعمالهم حسرات عليهم، فالله يظهر لهم أن أعمالهم في مواجهة الإيمان و أهله التي كانوا يتبجحون بها في الدنيا، يريهم إياها ندامة و حسرة على نفوسهم لما ورطتهم فيه من شقاء و خسران، فهي تذهب و تضحل، ولن يخرجوا من النار إلى الدنيا لشفاء كيدهم و غيظهم من رؤسائهم، لأن دخولهم النار كان بسبب شركهم وحبهم الأنداد بأنفسهم. و كل شاة تعلق من عرقوبها. { كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } { ١٦٧ }

و الملاحظ على هذه الآيات و هي تتحدث عن هذين الصنفين من الكافرين، أنها لا تتحدث عن حالهم في الدنيا و أعمالهم فيها و إنما تتحدث عن مصيرهم في الآخرة و حوارهم المشؤوم فيما بينهم أمام النار و داخلها، و ما ذلك إلا تحذير للإنسان من اتباع غيره بغير علم، إذ قال سبحانه: { وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } { ٣٦ } (٨٣٧) فكل محاسب على ما حباه الله به من وسائل الإدراك و التحقيق و التحقق.

و الهدف الآخر من ذلك هو البيان مسؤولية كل فرد عن عمله، و ليس المتبع أو المأمور ببريء من فعله الذي فعله بدعوى الاتباع للغير أو تنفيذ أوامرهم.

و بهذا يريد القرآن الكريم أن يبني شخصية الإنسان بناءً مستقلا، بعيدا عن التقليد، أو تأثير المجموعة التي ينتمي إليها، و بعيدا عن السلطة التي يحتكم إليها، فلا سلطان على الإنسان بعد سلطان العقل الذي يهديه إلى الحق، و الحق أحق أن يتبع.

(٨٣٦) سورة الأعراف، الآية: ٣٨ - ٣٩.

(٨٣٧) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

الجامدون

قال تعالى: { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ } { ٢١ } بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } { ٢٢ } وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } { ٢٣ } قَالَ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهُدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } { ٢٤ } فَانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين } { ٢٥ }
سورة الزخرف

جاءت هذه الآيات الكريمات في سياق الرد على عقائد الكفار المنحرفة. و قد ركزت هذه السورة الكريمة على عبادتهم للملائكة، و زعمهم أنهم بنات الله تعالى، فكان الرد عليهم قويا مدويا في قوله تعالى: { وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ } { ١٥ } أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ } { ١٦ } وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ } { ١٧ } أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } { ١٨ } وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَنْشَدُوا خَلْقَهُمْ سُنُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْأَلُونَ } { ١٩ } وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } { ٢٠ }
فهذه قضية مردودة عليهم من كل الوجوه، سواء من المنطق العقلي، أو المنطق الإلهي، أو حتى منطقتهم هم ذاتهم!
فالعقل لا يقبل أن ينسب لخالق الوجود صفة الولادة التي هي من صفات المخلوقين المجردين من قدرة الخلق.
و الله لا يقبل أن يكون له أولاد مهما كانوا، فهو منزه عن الشريك و الوريث.

و هم ذاتهم لا يقبلون ولادة البنات و يعتبرونهن عارا عليهم، فكيف يقبلون نسبتهن لله تعالى؟!

ثم جاءت هذه الآيات لتبين لنا و تكشف لنا سبب هذا التمسك بهذه العقيدة الباطلة. و هو جمود هؤلاء على عقائد آبائهم و تمسكهم الشديد بها. و يعتبر هؤلاء الجامدون المقلدون صنفا من أصناف الكفار، و ميزتهم أنهم لا كتاب لهم يستندون إليه في مزاعمهم الباطلة، و لذلك يأتي الاستفهام الإنكاري: { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ } { ٢١ } فهل لهؤلاء كتاب منزل عليهم من ربهم فيه أن الملائكة بنات الله حتى يتمسكوا بهذه العقيدة بهذا الشكل و يجادلون عنها، بل و حتى يقاتلون عليها الناس؟! أم أن السبب في ذلك غير ذلك؟ نعم، إن السبب في التمسك بهذه العقيدة الباطلة هو تقليدهم لآبائهم، و جمودهم على آرائهم بغير تمحيص و لا تحقيق في صحتها أو بطلانها. حتى و إن كانت هذه العقائد متناقضة يضرب بعضها بعضا.

{ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } { ٢٢ } فقد اعتبروا السير على آثار آبائهم اهتداء، و عليه فكل من خالف آباءهم فهو على ضلال مبين! و لنا أن نتساءل بفحوى الخطاب: إذا اختلف الآباء فيما بينهم فمن تتبع؟ و من هو على حق و من على باطل؟ فأبي الآباء أحق بالاتباع من غيره؟ أم أن القضية تحكم منهم، يحكمون فيها كما يشاؤون؟ و ذلك من تكبرهم على الناس و على الحق، و نلاحظ هذا التكبر جليا في تعبيرهم فقد بدؤوا ردهم بحرف التوكيد: إنّ مقرونا بنون المتكلمين الممدودة بالألف، ثم كرروا نفس الصيغة مرة أخرى في ردهم تأكيدا منهم على صيغة الاستعلاء على الحق. و كل كلامهم ألفات ممدودة طويلة تدل على تطاولهم: " إِنَّا "، " وجدنا "، " آباءنا "، " إِنَّا "، " آثارهم " .

و ليس هذا الأمر مقتصرًا على كفار قريش بل إن هذا الصنف من النفوس مطرد على مرّ التاريخ: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } { ٢٣ } فالأمر إذا ليس متعلقا بالحق أو الباطل، بل الأمر متعلق بالمصالح المادية المرتبطة بهذه العقائد، بدليل أن من يدافع عنها هم المترفون من القوم. و دائما حجتهم نفسها، و صيغتهم واحدة، و أسلوبهم واحد. أسلوب التكبر على الناس و على الحق! و في قولهم مقتدون تعظيم منهم لشأن آبائهم، فهم أهل القدوة و الأسوة، العظام الذين لم يعرف التاريخ شيئا لهم، و لم يصل مرتبتهم أحد من قبل!

و إذا تجرأ أحد و زعم أنه يمكن أن يأتي بما لم تأت به الأوائل، كفروا به و لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في صحة ما يزعمه هذا الزاعم { قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } { ٢٤ }

في رواية ورش: {قُلْ} و هي قراءة الجمهور (*) و إذا كانت القراءة الأولى تخبر بما قاله الرسل السابقون لأقوامهم، فإن القراءة الثانية تأمر بما يجب قوله لهؤلاء الجامدين، و عليه تكون المحصلة : قل لقومك ما قال الرسل من قبلك لأقوامهم، و أقم عليهم الحجة كما أقاموها عليهم من قبل. فأمثال هؤلاء الجامدين الذين لا تنفع معهم حجة أو دليل، الذين جمدوا عقولهم و شابهاوا العجاوات التي لا تعقل، ما بقي إلا تخلص الأرض منهم، و تخلص الخلق من شرهم، قال تعالى: {فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {٢٥}

و في هذه الخاتمة لهذا الوصف لهذا الصنف من الناس تهديد و وعيد لمن سار سيرهم من الجامدين و المقلدين الذين عطلوا عقولهم، و تمسكوا بما ورثوه عن آبائهم بغير حجة أو تمحيص. فمن سار سيرهم لا يلومن إلا نفسه إذا لقي مصيرهم.

المبحث الثالث نماذج من الشخصيات الكافرة

١ - امرأة نوح و امرأة لوط نموذج الخائنين

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَ امْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} {١٠}

سورة التحريم

هذان نموذجان ضربهما الله مثلا للكفار ضربهما الله مثلا لتحذير الناس من سوء المصير الأليم الذي سيلقاه الكافر في الدنيا ثم يوم القيامة.

(*) انظر الطاهر بن عاشور، التحرير و التنوير، ج: ٢٥، ص: ١٨٩.

فهاتان المرأتان أكرمهما الله بأكرم زوجين في عهدهما، نبين أرسلهما الله تعالى لقوميهما، و قد عبر القرآن الكريم عنهما بصفة الصلاح، و نسبهما إلى نفسه {عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا} و أضرب عن صفة النبوة و الإرسال، إذ أن صلاحهما يدل على وفائهما لزوجتيهما و قيامهما بواجباتهما تجاههما، و كفى بذلك نعمة. فكان الواجب عليهما أن تشكرا الله على هذه النعمة الجليلة بحسن الإخلاص لزوجيهما. لكنهما كفرتا النعمة و خانتا زوجيهما في الدين، بكفرهما برسالة النبيين، و ليس غير ذلك مما توهمه بعض المفسرين و قد "نقل الجمهور .. ما صح عن ابن عباس أنه قال : ما بغت امرأة نبي قط" (٨٣٨)

فكان جزاء الأولى الغرق مع المغرقين، و كان جزاء الثانية الهلاك مع الهالكين من قومها. و يوم القيامة يقال لهما {ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} و في الآية تحذير للذين قد يتكلمون على شفاعة الأقارب لهم يوم القيامة. فإن الكفر و الشرك بالله لا شفاعة معه لأحد و لو كان القريب زوجا نبيا. أما امرأة نوح فلم يذكرها القرآن الكريم إلا في هذا الموضع. لكن امرأة لوط ذكرت في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} {٥٨} {إِنَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} {٥٩} {إِنَّا أَمْرَأَتُهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} {٦٠} (٨٣٩)

و قوله سبحانه: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} {١٦٠} {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ} {١٦١} {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} {١٦٢} {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا} {١٦٣} {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} {١٦٤} {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} {١٦٥} {وَ تَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} {١٦٦} {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} {١٦٧} {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} {١٦٨} {رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} {١٦٩} {فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} {١٧٠} {إِنَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} {١٧١} {ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ} {١٧٢} (٨٤٠)

و قوله جل جلاله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِهُرُونَ} {٥٦} {فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمَّنْ} {٥٧} {الْغَابِرِينَ} (٨٤١)

و قوله سبحانه: {وَ إِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} {١٣٣} {إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} {١٣٤} {إِنَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} {١٣٥} {ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ} {١٣٦} (٨٤٢)

(٨٣٨) الخازن أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي، (المتوفى : ٧٤١هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م، ج: ٣، ص: ٢٣٥.

(٨٣٩) سورة الحجر، الآية: ٥٨ - ٦٠.

(٨٤٠) سورة الشعراء، الآية: ١٦٠ - ١٧٢.

(٨٤١) سورة النمل، الآية: ٥٦ - ٥٧.

(٨٤٢) سورة الصافات، الآية: ١٣٣ - ١٣٦.

و قد استعمل لهما القرآن الكريم لفظ "امرأة" دون لفظ الزوجة، و السبب في هذا الاختيار كما " قالت طائفة، منهم السهيلي^(٨٤٣) و غيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء «الأزواج» لأنهن لسن بأزواج لرجالهن في الآخرة. و لأن التزويج حلية شرعية، و هو من أمر الدين، فجرد الكافرة منه، كما جرد منه امرأة نوح و امرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا : { وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا }^(٨٤٤) و قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام { فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ }^(٨٤٥). و أجاب : بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع، لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة. فذكر المرأة أولى به. لأن الصفة- التي هي الأنوثة- هي المقتضية للحمل و الوضع، لا من حيث كانت زوجا.

[قال بن القيم] : و لو قيل : إن السر في ذكر المؤمنين و نسائهم بلفظ «الأزواج» أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة و المجانسة و الاقتران، كما هو المفهوم من لفظه لكان أولى. فإن «الزوجين» هما الشيطان المتشابهان المتشاكلان، و المتساويان. و منه قوله تعالى: { أَحْسَبُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَرْوَاجَهُمْ }^(٨٤٦) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم» ... و لهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، و على الكافرة امرأة المؤمن: لفظ «المرأة» دون لفظ «الزوجة» تحقيقا لهذا المعنى ، و الله أعلم... و أسرار مفردات القرآن و مركباته فوق عقول العالمين.^(٨٤٧)

قلت: و الشيء المشترك بين جميع من ذكروا بلفظ " امرأة " و نسبوا إلى أزواجهن، في جميع القرآن الكريم هو كبر السن. أي أنه لم يبق منهن لأزواجهن إلا صفة المرأة فقط. و قد اختلف الغرض من هذا الاستعمال بحسب السياق. أما في الآية التي نحن بصددنا فالغرض منها التحقير، و قد صرح الله بهذا المعنى بالنسبة لامرأة لوط إذ استعمل لها في موضعين لفظة: " عجوز " و ذلك زيادة في التحقير و التقبيح لها أشد من صاحبها " امرأة نوح" فهذه إنما إثمها الشرك و الكفر و سوء التربية لابنها الذي كان معها من المغرقين. فشرها لم يتجاوزها هي و ابنها كما هو ظاهر نص القرآن الكريم. أما امرأة لوط فشأنها أقرب و أشنع، إذ أن خيانتها كانت زيادة على الكفر و الشرك فقد كانت مائلة بقلبها إلى ما يفعله قومها من الخبائث التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، مع أنها لا مصلحة لها في هذا الأمر، و لا مبرر لها على الإطلاق،

^(٨٤٣) السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ = ١١١٤ - ١١٨٥ م) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير. من كتبه (الروض الانف) في شرح السيرة النبوية لابن هشام، و (تفسير سورة يوسف) و (التعريف والأعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام) و (الايضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين) و (نتائج الفكر). انظر: الزركلي، الأعلام، ج: ٣، ص: ٣١٣ - ٣١٤.

^(٨٤٤) سورة مريم، الآية: ١٩.

^(٨٤٥) سورة الذاريات، الآية: ٢٩.

^(٨٤٦) سورة الصافات، الآية: ٢٢.

^(٨٤٧) ابن قيم الجوزية، تفسير القرآن الكريم، تحقيق شيخ إبراهيم رمضان و آخرون، دار و مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط: ١، ص: ١٤١٠.

حتى بمنطق الكفار ذاتهم. لكنها من غيها لم تطع أمر الله تعالى إذ قال لهم: { وَ لَّا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ } لكنها التفقت فأصابها ما أصابهم { إِلَّا أَمْرًا تَكَّ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ } (٨٤٨)

و هكذا نجد أسلوب القرآن الكريم فريدا من ناحية التناسق في عرض النماذج الإنسانية، فرغم أن النموذج الواحد نجد الحديث عنه متناثرا في مختلف السور إلا أن الانسجام بين هذه الأجزاء انسجام تام، و هذا زيادة على التطابق القائم بين المعاني المكررة رغم اختلاف الأساليب التي تناولها بها في مختلف السور.

كما نجد من مميزات هذا الأسلوب: الاطراد في طرق استعمال الألفاظ لمختلف الشخصيات. حيث يراعي القرآن الكريم معنى واحدا للفظة إذا وردت في سياق متشابه، و يختلف هذا المعنى باختلاف نوع السياق. و كل هذا لا يمكن أن يتحقق لبشر مهما أوتي من النباهة و الذكاء و قوة الذاكرة.

فرعون نموذج الاستبداد

قال تعالى: { وَ إِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبُّونَ أَبْنَاءَكَ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ } { ٤٩ } وَ إِذْ قَرَفْنَا بِكَ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكَ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } سورة البقرة

هذا نموذج صارخ للاستبداد عند صنف الكفار من البشر، و قد جاء الحديث عنه ٧٤ مرة في القرآن الكريم (*) و ما ذاك إلا لخطورة هذا النموذج و أثره السيئ على غيره، و سنتناول الحديث عنه من خلال أول آيتين ذكر فيهما في القرآن الكريم، و قد كان ذلك في سورة البقرة، و قد جاءت هاتان الآيتان في سياق الامتنان على بني إسرائيل بمختلف النعم التي أنعم الله بها عليهم، فقد تكررت قبلها عبارة: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} (٨٤٩) مرتين، ثم جاء هذا الحديث عن إنقاذ بني إسرائيل كأول نعمة امتن بها الله على بني إسرائيل ناتجة عن تفضيل الله لهم على غيرهم في عهدهم. و هذا ما يبين لنا خطورة الاستبداد، و أثره السيئ على الناس، فكانت نعمة التخلص من الطغيان و الاستبداد نعمة لا تضاهيها و لا تسبقها نعمة. فأول حديث عن نموذج فرعون في القرآن الكريم، كان حديثاً عن تخلص الناس منه، فكانه بدأ قصة هذا الشخص من نهايتها، فكان هذا استعجال لتخلص الناس من شره قبل أن يعرفوه، على صيغة المثل الشائع: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه!

أو هذا تذكير للناس بأن ليل الطغيان و الاستبداد مهما طال، فهو إلى أفول و زوال. و ما عليهم إلا الصبر، و عدم الرضوخ لهؤلاء المستبدين، و مقاومتهم بثتى الوسائل إلى أن يأتي أمر الله تعالى. أو هذا تشويق للقارئ لأن يعرف أكثر عن هذا النموذج الذي ذكرت نهايته في البداية، و اختصر الحديث عما كان يفعله ببني إسرائيل. أو قد يكون ذكر نموذج فرعون في سياق الحديث عن بني إسرائيل من باب التحقير له، فليس لهذا النموذج شأن، حتى يفرد بالذكر و يبدأ الحديث عنه مباشرة في سياق خاص به، بله أن يذكر في سورة تسمى باسمه! استعمل الصيغة المضعفة بالشدة لتعدية الفعل "نَجَى" دون صيغة الهمزة المضافة في البداية، فقال: {نَجَّيْنَاكُمْ} و لم يقل: "أنجيناكم" و ذلك لأن الأولى أقصر نطاقاً من الثانية، بما يوحي في النفس قصر مدة عملية الإنجاء، و الغرض من ذلك تهوين أمر المستبد على المظلوم الصابر. كما أن الأولى فيها تشديد في النطق و ذلك يوحي بتأكيد أمر الإنجاء و توكيد معنى الامتنان على بني إسرائيل.

و لم يذكر الله تعالى فرعون وحده، بل ذكر {أَلْ فِرْعَوْنَ} و ذلك لأن المستبد لا قيام له إلا بعون و دعم آله من أتباعه الذين يأترون بأمره، و يزينون له استبداده و ظلمه و يبررونه له بثتى الأساليب. و لذلك سبق ذكرهم على ذكر فرعون وحده، فمن أعان ظالماً فهو ظالم مثله. و لذلك كان علماء هذه الأمة يتورعون من كل ما قد يعين الظالم أو يحشرهم في خانته، و قد "سأل خياط ابن

(*) انظر: فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٦٢٦ - ٦٢٧. (٨٤٩) سورة البقرة، الآية: ٤٠، و الآية: ٤٧.

المبارك فقال: إني أخيط لبعض وكلاء هؤلاء يعني الأمراء، فهل يخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ فقال: لست من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة، أعوان الظلمة من يبيع منك الخيوط و الإبر" (٨٥٠) و " قال أحمد بن حنبل للسجان لما سأله: هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال: لا، أنت من الظلمة؛ إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمر." (٨٥١)

أما كلمة { فِرْعَوْنَ } فإن من أحكام التلاوة ترقيق الراء إذا كانت ساكنة و سبقت بكسر، و عليه تنطق هذه الكلمة بترقيق رائها، و منه ينتج لنا فاء مرققة أصلا، و راء مرققة ثم عين مفتوحة و واو ساكنة و أخيرا نون مفتوحة، و اجتماع هذه الحروف بهذه الصفات تجعل من كلمة " فرعون " كلمة ضعيفة توحى بضعف صاحبها و وضاعته. فهو لم يصل إلى ما وصل إليه بقوته أو قدرته، لكن باستخفافه بالناس و طاعتهم إياه، فلو استخفوا به كما استخف بهم، و لو عصوه إذ أمرهم، ما وصل إلى ذلك الحد من الطغيان، قال تعالى: { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } (٨٥٢)

ثم زيادة في المتنان ذكرهم - سبحانه - بما كان يسلطه عليهم فرعون من سوء العذاب. قال تعالى: { يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } و " سامه الأمر سوما كلفه إياه ... و أكثر ما يستعمل في العذاب و الشر و الظلم " (٨٥٣) و قد نكر { سوء } فلم يقل مثلا: " العذاب السيئ " من باب الإبهام بغرض التهويل، بل بغرض بيان هولاه! و أضرب عن الزمن الماضي إلى المضارع { يَسْؤُمُونَكُمْ } بغرض وضع المخاطب مقام الحاضر و المعاش لهذا العذاب السيئ، مع أنه قد مضى عليه أكثر من ألف سنة. فلو لم ينقذ الله آباءهم من ذلك العذاب، لبقوا فيه إلى اليوم، وللقي الأحفاد ما لاقاه الأجداد.

ثم فصل لهم هذا العذاب بعد إبهامه: { يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } بتشديد { يُدَبِّحُونَ } دليل على المبالغة في الذبح، فلم يكونوا يتركون مولودا ذكرا من بني إسرائيل إلا و ذبحوه! بطريقة وحشية تنم عن تلذذ برؤية الدماء البشرية تسيل أمامهم... و هي دماء مواليد صغار لا حول و لا قوة لديهم... و لا يمكن أن يكون هذا إلا من تزيين السحرة الملاعين الذين كانوا هم أصحاب المشورة لدى الفراعنة.

و زيادة على التذبيح فقد كان هناك الاستحياء للنساء لخدمة الفراعنة. و كل هذا يدل على الذل و المهانة التي بلغها بنو إسرائيل أمام استبداد فرعون. و لذلك ختم الآية بقوله:

{ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }

(٨٥٠) أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب و وصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، تحقيق: د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م. ج: ٢، ص: ٣٢١.

(٨٥١) أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق حسن المساحي سويدان، دار القلم - دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص: ٤٣٥.

(٨٥٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

(٨٥٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة "سوم".

و كما تنتهي دائما حياة المستبدين نهاية مأساوية، كذلك كانت نهاية هذا النموذج نهاية مروعة، فكما { عَلَا فِي الْأَرْضِ } فكذلك أغرق في البحر، { وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأُنْجَيْنَاكُمْ وَ أَعْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } و أشد ما في الأمر أن يرى هذا المستبد من كان يستعبدهم أمامه ناجين ينظرون إليه شامتين به، بينما هو من المغرقين.

قارون نموذج البغي

قال تعالى: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } { ٧٦ } وَ ابْتَغِ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } { ٧٧ } قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ

الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ
 {٧٨} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ
 مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {٧٩} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ
 اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ {٨٠} فَخَسَفْنَا بِهِ
 وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُنتَصِرِينَ {٨١} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَّا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ
 الْكَافِرُونَ {٨٢} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
 فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {٨٣} سورة القصص

كما رأينا سابقا نموذج الاستبداد " فرعون " من خلال أول آيتين ذكر فيها
 في القرآن الكريم، نحاول الآن أن نتعرف على نموذج آخر من نماذج الكفار و
 هو نموذج البغاة " قارون ". فكما يكون الاستبداد من الحكام، فإن الأفراد كذلك
 قد يتجاوزون حدودهم و خصوصا عندما يجرى المال بأيديهم. فيتصورون أنهم
 فوق العباد، و أنه مباح لهم ما ليس مباحا للآخرين.

فقد كان قارون من قوم موسى، و كان الواجب عليه أن يحس بما يحس به
 قومه من المذلة و المهانة، و أن يكون عوناً لهم على ما يقاسونه من الشدائد
 بفعل فرعون و آله، لكنه بدلا من ذلك رأى نفسه من صنف آخر و من طينة
 أخرى، بفعل ما آتاه الله من الكنوز الكثيرة، لدرجة أن مفاتيحها على كثرتها لا
 يستطيع حملها المجموعة من الرجال الأقوياء. فكان يتكبر على قومه ناشرا
 الفساد بينهم ليسهل له تحقيق مآربه منهم.
 و حب المال و جمعه - كما رأينا في بداية هذا البحث - طبيعة في الإنسان،
 و قد ركب الله سبحانه في النفس الإنسانية من باب جلب المصالح (*)، لكن
 خروج هذا الحب عن الحد المعقول و المشروع هو المشكلة، بل هو الداء العياء
 الذي لا يشفيه إلا الإيمان الخالص بالله.
 لهذا ذكر القرآن الكريم هذا النموذج للقارونية الكانزة لمال الله عن عباد
 الله. الذين يريدون أن { يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ }^(٨٥٤) فقط، يستعملونه في إذلال
 العباد و استعبادهم. و ذلك من أسوأ البغي على الأرض.
 و قد أحس قومه بأذى هذا الفرد منهم فوجهوا له خمس نصائح:
 { لَّا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } { الأشرين، أهل البطر المغرورين
 بحطام الدنيا الزائل.

(*) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث.
 (٨٥٤) سورة الحشر، الآية: ٧.

{ وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ } فما المال في الدنيا إلا وسيلة لبلوغ
مرضاة الله تعالى، و الفوز في الآخرة.

{ وَ لَا تَتَسَنَّصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } فدين الحق هو دين الوسطية، و لا رهبانية
في الإسلام، و ليس المطلوب من أحد أن يتجرد من كل ماله، { فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا } (٨٥٥)

{ وَ أَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } و الإحسان هو قمة الإتقان في عمل
الخير، و لذلك ذكروا هذا الأمر بعد الأمر بابتغاء الدار الآخرة. و فيه مقابلة بين
إحسان الله و الإحسان المطلوب من الإنسان. و إذ لا مجال للمقارنة بينهما، فما
على الإنسان إلا أن يبذل قصارى جهده في العمل الصالح، مستشعرا النقص فيه
مهما بلغ.

{ وَ لَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } و هذه هي النصيحة
الأخيرة، و قد ختموا بها، و كان الأولى - في الأصل - أن يبدؤوا بها، إذ أن دفع
المفاسد مقدم على جلب المصالح، لكن ختموا بها من باب التلطف في النصيحة،
فلو بدؤوا بها فلربما لم يستمع إلى بقية النصائح، كما أن الكلام ينسي بعضه
بعضا، فيكون آخر الكلام أعلق بالذهن من غيره.

و قد ختمت النصيحة الأولى بعبارة: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ }، و ختمت
النصيحة الأخيرة بعبارة: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } فكان الفرح إذا لم يضبط
بضوابط الشرع أدى إلى البطر ثم إلى الفساد. (*)

أما جواب قارون على النصيحة فكان أن { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي }
فلم يكتف ب " علم " و إنما زاد عليها " عندي " فكانه علم خاص به، اكتسبه
من نفسه. و لو كان حقا علم له وحده، ما جاز له إلا أن ينسبه إلى الله تعالى. و
لذلك كان الرد عليه من جنس كلامه: { أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مَنْ قَبْلِهِ مِنْ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا } فإذا كان لك من العلم ما به جمعت ما
جمعت، ألم يكن لك من العلم ما به تدرى أن ما وصلت إليه، قد وصل إليه
غيرك. بل و وصلوا إلى ما هو أكثر منه، لكنه أدى بهم إلى الهلاك لما لم يؤدوا
حق الله فيه!؟

فليس قارون هو أغنى الناس فوق الأرض عبر التاريخ. بل قد وجد من
كان أكثر جمعا منه. فما قارون إلا " نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس
يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. و من ثم فهو غير مسؤول عما ينفق
و ما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال و ما يصلح، غير حاسب لله
حسابا، و لا ناظر إلى غضبه و رضاه! و الإسلام يعترف بالملكية الفردية، و
يقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها و لا
يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه. و لكنه في الوقت ذاته يفرض منهاجا

(٨٥٥) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(*) راجع مفهوم الفرح في الفصل الثالث من الباب الثاني.

معينا للتصرف في الملكية الفردية - كما يفرض منها لتحصيلها و تنميتها - و هو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، و لا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف و لا في إمساكه حتى التقدير و يفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، و رقابتها على طرق تحصيله، و طرق تنميتها. و طرق إنفاقه و الاستمتاع به. و هو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات." (٨٥٦)

لكن مثل هؤلاء لا تنفع معهم النصائح و المواعظ، فكلما ترفقت بهم زادوا عنادا وإصرارا و تبجحا على الخلق، قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} و حرف الفاء يدل على التعقيب، فكأنه بعد سماعه الموعدة هاهو مباشرة بعدها يعمل بعكسها. و يؤكد لنا ذلك حرف " على " فلم يقل: "خرج إليهم" بل خرج عليهم متعاليا مستكبرا مختالا. و يصور لنا القرآن الكريم ذلك من خلال ما رآه {الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} و قولهم: { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لُدُو حَظٌّ عَظِيمٌ}.

لكن الذين أتوا العلم الحقيقي لم يعترضوا بهذه المظاهر البراقة. و كان تعليقهم: {وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا يُلَاقَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} فأجر الله على الإيمان الخالص و العمل الصالح أفضل بكثير من حظوظ الدنيا و زينتها. و هذه درجة نفسية عليا لا يصل إليها إلا أهل الصبر. و مصداق ذلك هي نهاية هذا المتكبر على الناس، المتعالي على الخلق الذي نسي ساعة أنه طين حقير من هذه الأرض، فكان جزاؤه أن أرجع إلى هذه الأرض و هو ينظر. فإذا كان الناس يرجعون إليها بعد الموت فما هو ذا يرجع إليها و هو حي، يرى مصيره بعينه، بعد أن تناساه زمنا. {فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} فلم يطله الخسف وحده، بل ذهب معه داره و ما فيها من كنوز، حتى يعلم الناس أنه لا المتكبر يخلد، و لا ماله يبقى، و أن كل شيء إلى و زال، و أن {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} {٢٦} {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ} (٨٥٧) هناك أدرك العوام حقيقة ما كان يقوله أهل العلم، و ذلك حسب قاعدة الحسن البصري سيد التابعين " إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم و إذا أدبرت عرفها كل جاهل." (٨٥٨) {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانُ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لَأَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُ لَأُفْلِحَ الْكَافِرُونَ}

و يختم الله قصة هذا النموذج بقاعدة عامة شاملة، تنص على أن البغاة قد يصلون أو يجولون ساعة، لكن الأمور بخواتيمها، و العاقبة للمتقين الذين لا يريدون علوا على عباد الله، بل هم المتواضعون مهما علوا. و لا يريدون فسادا

(٨٥٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص: ٢٧١٢.

(٨٥٧) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

(٨٥٨) البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (المتوفى: ٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: ٤، س: ٤، ج: ٤، ص: ٣٢٢.

بل نيتهم الإصلاح ما استطاعوا { تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَ العَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } .

قادة الضلال السامري نموذجاً

قال تعالى: { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } { ٨٥ }
فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا
أَقْطَلَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي
{ ٨٦ } قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَ لَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْنَاهَا
فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ { ٨٧ } فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ
إِلَهُ مُوسَى فَانْسِي { ٨٨ } أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا
نَفْعًا { ٨٩ } وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي { ٩٠ } قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَى { ٩١ } قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا { ٩٢ } أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
أَمْرِي { ٩٣ } قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي { ٩٤ } قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ { ٩٥ }
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ
سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي { ٩٦ } قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَ انظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي

الْيَمِّ نَسْفًا { ٩٧ } إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا { ٩٨ }
سورة طه

هذا نموذج من النماذج التي أمارت القرآن الكريم عنها اللثام و أخرجها من غياهب التاريخ المنسي إلى واقع العلم، فالتوراة مثلا لا تذكره بشيء بل إننا نجد في التوراة فرية خطيرة تتمثل في تهمة هارون عليه السلام باتخاذ العجل تحت ضغط من بني إسرائيل كما ورد في سفر الخروج (٣٢ ، ١ - ٢٤) (*). و أسوأ من ذلك أننا نجد البعض يتهم موسى ﷺ بإعطاء الأمر لهارون ﷺ بصناعة هذا العجل! (**)

لكن القرآن الكريم يبرئ نبي الله هارون من هذه الفرية إذ يقول تعالى: { وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي { ٩٠ } فنلاحظ أن القرآن الكريم استعمل وسيلتين لتوكيد هذه البراءة باستعمال وسيلتي تأكيد وذلك في بداية الآية الكريمة: { وَ لَقَدْ } فاللام كما يقول أهل النحو موطئة للقسم، و"قد" حرف تحقيق. فكان هناك من يشك، بل و يشكك في هذه القضية، لذلك جاء الكلام مؤكدا توكيدا مزدوجا.

{ وَ كَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي { ٩٦ } هذا اعتراف منه بأن نفسه هي التي سولت له هذا الفعل الشنيع، و في ذلك دلالة على خطورة أمر النفس و وجوب الحذر منها و مما قد تسوله للفرد من أعمال خطيرة قد تضر حتى بعقيدته و إيمانه، بل إنها قد تضر بعقيدة و إيمان الجماعة كلها، كما هو واضح في هذه الحالة. فقد خرج القوم معظمهم عن الإيمان و التوحيد بفعل ما سولت نفس واحدة لفرد واحد، فاستشرى الضرر حتى شمل العامة كلها. و ما هذه العدوى التي أصابتهم إلا لتوفر الاستعداد الشركي لديهم، أو ما قد نسميه بالقابلية للشرك. فالسامري لم يأمرهم باتخاذ العجل إلها و لم يجبرهم على ذلك، لكن بمجرد أن { أَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ }... { قَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَ إِلَهُ مُوسَى }. فهم الذين قالوا قبل أن يقول هو! و ما هذا عليهم بجديد. ألم يقولوا لموسى من قبل مباشرة بعد أن خرجوا من بين أطواد مياه البحر و قد أُنجاهم الله من فرعون و جنوده،

(*) Sainte Bible, traduction française par le R. P. de Carrières, imprimerie d'outhenin-chalandre fils, Besançon, France, édition de 1835, tome premier, exode, p: 251 - 252 و كذلك: Claire Halluin et autres, Encyclopédie bordas ,volume: 1, p: 1. (**) انظر المصدر السابق : volume: 10, p: 5435

فبمجرد أن {أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} {١٣٨}! و ما كل هذا إلا لسوء تصورهم للإله، فمن كثرة مخالطتهم لقوم فرعون و تذللهم لهم و انهزامهم النفسي أمامهم و ولعهم بمن غلب عليهم، حتى أنهم تشربوا أفكارهم الشركية و أصبحت مسلمة لديهم في قرارة أنفسهم، فهي بديهية غير قابلة للنقاش، و ما كان ليقول فيها - بل في تفاصيلها - موسى ن قولاً جديداً.

و قد يسأل سائل: ألم يؤمنوا برسالة التوحيد التي جاء بها بموسى ن من قبل؟ و الجواب أنه: {مَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ}، و أنه قد بقي في القوم أناس كثيرون إنما اتبعوا موسى على أساس قومي و ليس عقائدي، و لعلمهم المقصودون بتحذير الله لموسى و هارون عليهما السلام بقوله سبحانه: {فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {٨٩}.

لكن كل هذا لا ينفي مسؤولية السامري في كل ما حدث إذ أنه هو صاحب المبادرة، و رأس الفتنة و قائدها و المشرف عليها، و "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها" (٨٥٩)

و قادة الضلال لا يتحركون و لا يشتغلون إلا في حالة ما إذا وجدوا بيئة تقبل أفكارهم المنحرفة، و إذا وجدوا أنفساً مستعدة لحمل مبادئهم و الدفاع عنها، فما هم إلا ممثلون لواقعهم الاجتماعي، و معبرون عن الضمير الجمعي الشائع في مجتمعهم. و لذلك ورد في الحديث: « كَمَا تَكُونُوا كَذَلِكَ يُؤَمَّرُ عَلَيْكُمْ » (٨٦٠) و في قول الحسن البصري: (أعمالكم عمالكم) (٨٦١)

نلاحظ الحذف لياء المتكلم حين الحوار بين موسى و هارون {أَلَا تَتَّبِعُنَّ} و {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَأَ مَا هَذَا الْحَذْفُ أَوْ التَّرْخِيمُ إِلَّا تَعْبِيرٌ عَنِ سُرْعَةِ الْكَلَامِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَوْقِفُ الْاسْتِعْجَالِي الطَّارِئُ عَلَيْهِمَا وَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ سُرْعَةَ الْبِتِّ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْعَلَ أَمْرَهُ.

المنطق المقلوب: { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } فقد جعلوا ما استحدثوه أصلاً مسلماً لا يتركونه حتى يأتيهم الدليل على بطلانه من موسى ن بينما، كان الواجب أن لا يستحدثوا أمراً حتى يرجعوا فيه

(٨٥٩) قال عنه البخاري: ضعيف. أنظر: الحوت محمد بن درويش بن محمد، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، دار الكتب العلمية، ط: /، س: /، ص: ١٩٨.

(٨٦٠) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب طاعة أولي الأمر، فصل فضل الإمام العادل و ما جاء في جور الولاة. و قال: هذا منقطع و راويه يحيى بن هاشم و هو ضعيف. أقول: و هو رغم ذلك صحيح المعنى. (٨٦١) إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨ م = ١٤٠٨ هـ، ج: ١، ص: ١٤٧.

إلى موسى أو نائبه هارون، لا أن يحدثوه ثم يصروا عليه حتى يستشيروا فيه موسى على حد زعمهم.
و هذا المنطق المقلوب ملاحظ فيهم اليوم كذلك. فهم يعتدون على الناس ثم يصرون على هذا الاعتداء و يسمونه دفاعا عن النفس حتى يأتي من هو أقوى منهم فيجبرهم على التوقف عن الاعتداء!

و هكذا عبر القرآن الكريم عن هذا الصنف من الناس الذين لا يرجى لهم عودة عن الإيمان إلا أن يزيلوا الغشاوة التي تحيط بحواسهم و قلوبهم.
و الملاحظ أن القرءان الكريم قلما يسمي أسماء النماذج الكافرة، و ذلك فتحا لباب التوبة أمامهم، و دفعا للتشهير بهم، إلا من سبق عليه القول، و علم الله أنه لا توبة له، سواء من ماتوا و عفى عليهم التاريخ، أو من كانوا في حكم الموتى، فهؤلاء ذكرهم القرآن الكريم بأسمائهم. كفرعون و أبي لهب.
و الغرض من ذكر هذه النماذج ليس القص للتسلي، و لا الفن للفن، و لكن لأخذ العبرة منها، لذلك فهي نماذج واقعية مأخوذة من التاريخ الإنساني، ضربت مثلا لتكرر أمثالها على مدار الزمن.
مع واقعية القرآن في حديثه عن النماذج الكافرة إلا أن الغرض منها ليس التأريخ للإنسانية، لذلك لا يحفل القرآن الكريم بذكر التواريخ و الأماكن و إنما يهتم باستخلاص العبر.
قد يعرض القرآن الكريم النموذج المعين عدة مرات على مر السور و الآيات، لكن هذا ليس مجرد تكرار متطابق و إنما يختلف أسلوب العرض و زاويته و المشهد المعروض بحسب السياق و مقتضياته.

الفصل في ما دلجنا الك: م ن ا ف ق اة
 لخصه لا نصي به حاشا مع الاذلة ل: ل ا م ن ا ف ق ا ي ن

بِقالل يث و ا ط ي: {الآخِر} و م ا ه م
 ع و ن ي ن ا {لا} ا ن ف س ه م و م ا
 م ز ع ر ن د و ل ب م {٩} ا ل ل ي م ه م ا ك ا ن و ا
 و ن ا ب ل و ن ن ا {١٠} ا ن ح ن م ص ل ح و ن
 ل ن ا ل ا ق {ل ا ل} ي ل ت ه م ع م ر و ا ف ن ا ك م ا
 ه ا ع و ل ك ا ن ل ا ي ع ل م و ن
 ي ن ه م {١١} ا ل و ا ن ا م ع ك م
 ا ق ا ن ه خ ز و ي ن ا ن ه م ي ع م ه و ن
 ت ج ا ه ا ت ه م و م ا ك ا ن و ا
 ن ا د ل م ي ن ا ي ا ل و س ا ت ه و ق ن ا ه ا ل ل ه
 ا ت م ع ل م ي ب ن ف م ن ل ا ل ا ر ج ع و ن
 ب ر ق ا ل ج ع ل و ن ا ص ا ب م ع ف ه ي
 م ح ا ي ط ب ا ل ي ك ا ف ي ر ي ا ن ل ه ا ل ق
 م ق ا م و ا و ل و ش ا ع ا ل ل ه
 ل ه م ك و ل ا ش ا ب ي ع ق س و ي ر رة {٢١} ب ق رة

و م ن ي ن ث م ص ن ف ا ل ك ا ف ر ي ن ، ا ن ت ق ل ت
 ل ن ا س و ه و ص ن ف ا ل م ن ا ف ق ا ي ن .

أول ما نلاحظه على هذه الآيات هو طولها وإسهابها في وصف النموذج القياسي للمنافقين، إذا قارناها بما ورد قبلها من آيات في وصف النموذج القياسي للمؤمنين والنموذج القياسي للكفار. وذلك لأن سورة البقرة من السور المدنية التي عالجت وضعية المجتمع المدني وتحدياته، وقد كان المنافقون في هذا المجتمع يشكلون خطرا كبيرا على هذا المجتمع الإسلامي الفتى، فلا بد من فضحهم وبيان حقيقتهم، وما يحكيونه في الظلام من المؤامرات للغافلين من المؤمنين.

وقد بدأت الآيات بأسلوب مبهم: { وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ } فلم يحدد لنا من هؤلاء الناس، ولم يسمهم ولا حتى صنفهم. فهم نكرة في المجتمع لا شأن ولا قيمة لهم.

فوجد في بداية الآيات وصفا للجانب الباطني النفسي لهم و المتمثل في عدم الإيمان مع ادعائهم له في ظاهر قولهم { مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } و " المتبادر أن يقال: «و ما آمنوا» ليطابق قوله { مَنْ يَقُولُ آمَنَّا } ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم، لإخراجهم من عداد المؤمنين، وأكدته بالباء مبالغة في تكذيبهم." (٨٦٢) و قد نكر { مُؤْمِنِينَ } فلم يقل " المؤمنين " لينفي عنهم كل درجات الإيمان، و لو حتى أضعفه.

و أخطر ما يتصف به هؤلاء هو الخداع { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ } فهم يزعمون شيئا و يبطنون شيئا آخر، و يظنون أنهم بذلك يخادعون الله تعالى باندساسهم مع المؤمنين يقولون ما يقولونه كما يقول الببغاء، ظانين أن هذا سيسفح لهم عند الله يوم القيامة. إلا أن هذا لا ينفعهم عند الله تعالى أبدا. ففي الحديث: «... وَ يُجْلِسُ الرَّجُلُ السُّوءَ فِي قَبْرِهِ فَرَعَا مَشْعُوفًا فَيُقَالُ لَهُ فِيمَ كُنْتَ فَيَقُولُ لَا

أَدْرِي فَيُقَالُ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ فَيَقُولُ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ.» (٨٦٣) و بالتالي فهذا الخداع إنما هو لأنفسهم لا لغيرهم. و قال الشوكاني: "الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه و ما يشعر بذلك" (٨٦٤)

و قد غاير الله في التعبير بين { يُخَادِعُونَ } و { يَخْدَعُونَ } فالمخادعة محاولة الخداع، أما يخدعون فهو الخداع المتحقق فعلا، فلذلك لم يقل: " يخدعون الله.."، و لا قال: " يخادعون أنفسهم " فهم يحاولون خداع الله و اللذين آمنوا، لكن لا يتحقق الخداع إلا على أنفسهم، و لكن لا يشعرون بالفارق بين ما يحاولونه و بين ما يتحقق لهم فعلا!

(٨٦٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٨٠.

(٨٦٣) رواه ابن ماجة في سننه، عن أبي هريرة ر في كتاب الزهد، باب ذكر القبر و البلى.

(٨٦٤) الشوكاني محمد بن علي بن محمد (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: ١، س: ١، ج: ١، ص: ٤١.

"و جاء: يخادعون الله بلفظ المضارع الماضي لأن الماضي يشعر بالانقطاع بخلاف المضارع، فإنه يشعر في معرض الدم أو المدح بالديمومة، نحو: زيد يدع اليتيم، وعمرو يقري الضيف." (٨٦٥)

ثم يبين الله لنا علة هذا السلوك، وهو ما في قلوبهم من مرض النفاق بكل مكوناته من الشك والحسد والغل والجبن... فالنفاق تشكيلة أمراض مجتمعة في قلب المنافق (*).

و رأى الزحيلي أن قوله تعالى: { في قلوبهم مَرَضٌ } "كناية، كنى بالمرض في القلب عن النفاق، لأن المرض فساد للجسد، و النفاق فساد للقلب." (٨٦٦) و نرى أن الأمر على الحقيقة لا كناية فيه لأن مرض القلب أخطر من مرض الجسد، فمرض الجسد يتألم و يشكو منه صاحبه و يطلب له الدواء، أما مرض القلب فكثيرا ما لا يحسه صاحبه و لا يطلب الشفاء منه!

و ما داموا قد اختاروا هذا النفاق بأنفسهم فالله يزيدهم نفاقا على نفاقهم { قَرَأَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } و قد قرأ البعض بتخفيف "يكذبون" و قرأ آخرون بتشديد الذال، و القراءتان متناسقتان، فهم يكذبون على الناس بادعائهم الإيمان، لأنهم في الحقيقة يكذبون بالقرآن.

ثم نجد وصفا سلوكيا لهم يعبر عما يخبئونه في داخلهم: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } { ١١ } { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ } فنتيجة كفرهم هي الفساد في الأرض، و دعوة الآخرين إلى الفساد حتى يستوي الجميع في الضلال، فقد جعلوا من فسادهم إصلاحا، تبريرا لأعمالهم السيئة و دعوة لغيرهم للانضمام إليهم. و في قولهم: "إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ" قصر الموصوف على الصفة، أي نحن مصلحون ليس إلا." (٨٦٧) إذ نفوا عن أنفسهم كل شيء إلا الإصلاح، فلم يتركوا مجالا لإمكانية الخطأ و لو تواضعا كما قال الرجل الصالح شعيب ن: { إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ } (٨٦٨) و ما هذا إلا لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم هم المفسدون، لكنهم يريدون أن يقتنعوا أنفسهم قبل غيرهم أنهم مصلحون!

"و ليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم، و منه مادة حياتكم، و هو سترة أمواتكم، جدير أن لا يفسد فيه، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد." (٨٦٩)

و هم يتصورون أنفسهم بنفاقهم أذكيا و عقلاء، أما المخلصون فهم في نظرهم سفهاء، لكن القرآن الكريم لا يفوت الفرصة ليؤكد أنهم هم السفهاء حقا و

(٨٦٥) أبو حيان، البحر المحيط، ج: ١، ص: ٥١.

(*) هذا ما يصطلح على تسميته أطباء الغرب بلفظة: " syndrome "

(٨٦٦) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٨٠.

(٨٦٧) نفسه، ج: ١، ص: ٨٣.

(٨٦٨) سورة هود، الآية: ٨٨،

(٨٦٩) أبو حيان، البحر المحيط، ج: ١، ص: ٦٠.

لكن لا يعلمون: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ } {

و لهم علاقات خفية بأعداء المجتمع المسلم، كلما خلوا إليهم صرحوا لهم
بأنهم معهم في الكفر و في العداة للمجتمع المسلم. و يبررون ادعاءهم بالإيمان
بالاستهزاء { وَإِذَا لُفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ } { ١٤ } { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ } { ١٥ }

و عبر الله عن حلفائهم من بني إسرائيل بالشياطين، و نسبهم إليهم
{ شَيَاطِينِهِمْ }، فكأنهم قرناءهم الذين يوسوسون لهم بما يرتكبونه من النفاق و
الفساد في الأرض. و قد قال سبحانه: { شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا } { ٨٧٠ }

و اعتبر سبحانه أفعالهم تلك طغيانا، و كيف لا و هذا النبي ﷺ بين ظهرانيهم، و
الوحي يتنزل يبنئهم بما في نفوسهم، و مع ذلك لا يؤمنون!

و في قوله سبحانه: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } " سمى الجزاء على الاستهزاء
استهزاء بطريق المجاز أو المشاكلة: و هي اتفاق الجملتين في اللفظ مع
الاختلاف في المعنى، أو هي مقابلة الكلام بمثله و إن لم يكن في معناه، كقوله
تعالى: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } { ٨٧١ } و الثانية ليست سيئة ولكنه لما قابل بها
السيئة أجرى عليها اسمها، و قوله: { فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } { ٨٧٢ } و الثاني ليس باعتداء. و قوله تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ } { ٨٧٣ } و الأول ليس بعقاب، و إنما هو على مقابلة اللفظ بمثله
و مزاجته له، و تقول العرب: الجزاء بالجزاء، و الأول ليس بجزاء. " { ٨٧٤ }

و لقد ضرب لهم الله تعالى في هذه السورة ثلاثة أمثال هي: مثل التاجر
الفاشل، و مثل النار و النور، و مثل المواجه للعاصفة الرعدية الماطرة.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ }

بدأ المثل بقوله سبحانه: { أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ } فلم
يستعمل أية أداة للتشبيه و لا ما يدل على المثل فقد جاء بصيغة " استعارة
تصريحية، استعار لفظ الشراء لاستبدال الغي بالرشاد، و الكفر بالإيمان،
فخسرت صفتهم، ثم زاده توضيحا بقوله:

{ ٨٧٠ } سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

{ ٨٧١ } سورة الشورى، الآية: ٤٠.

{ ٨٧٢ } سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

{ ٨٧٣ } سورة النحل، الآية: ١٢٦.

{ ٨٧٤ } وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٨٦.

{فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ} و هذا هو الترشيح: و هو ذكر ما يلائم المشبه به." (٨٧٥) و في زيادة الاسم الموصول " الذين " اقتصر هذا التشبيه على المنافقين دون غيرهم، فلا يوجد فوق الأرض أحد غيرهم اشترى الضلالة بالهدى، فقد كانوا على الهدى ثم انقلبوا إلى الكفر {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (٨٧٦) فما أخسرها من تجارة! ثم جاء المثل الصريح بعد ذلك في قوله سبحانه: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } { ١٧ } صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ { ١٨ } و هذا " تشبيه تمثيلي، شبه المنافق بمستوقد النار، و إظهاره الإيمان بالإضاءة، و انقطاع انتفاعه بانطفاء النار. " (٨٧٧) فالمنافقون " لم يعرضوا عن الهدى ابتداء، و لم يصموا آذانهم عن السماع، و عيونهم عن الرؤية و قلوبهم عن الإدراك، كما صنع الذين كفروا. و لكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر و تبيّنوه . . لقد استوقدوا النار، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها و هم طالبوها. عندئذ { ذهب الله بنورهم } الذي طلبوه ثم تركوه : { وتركهم في ظلمات لا يبصرون } جزاء إعراضهم عن النور! " (٨٧٨) و في قوله سبحانه: { صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ } " تشبيه بليغ، أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس. " (٨٧٩)

" و إذا كانت الآذان و الألسنة و العيون ، لتلقي الأصداء و الأضواء، و الانتفاع بالهدى والنور ، فهم قد عطلوا آذانهم فهم { صُمُّ } و عطلوا ألسنتهم فهم { بُكْمٌ } و عطلوا عيونهم فهم { عُمِيٌّ } . فلا رجعة لهم إلى الحق، و لا أوبة لهم إلى الهدى. و لا هداية لهم إلى النور! " (٨٨٠) و قال سبحانه: { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } و لم يقل ذهب بنارهم، فكأنه ترك لهم النار بما فيها من صفة الإحراق، و أخذ لهم النور بما فيه من صفة الإضاءة و الهداية، فقد احترق هؤلاء بالحق و لم ينتفعوا بنوره!

و إذا كان السمع و البصر من وسائل الاستقبال، فلنا أن نتساءل ما بال الحديث هنا عن النطق في قوله سبحانه { بُكْمٌ }؟ و لعل الجواب على ذلك، أن هؤلاء لما تعطلت حاسة السمع لديهم تعطلت آلة النطق التي هي تبع لها، فبكموا عن الاعتراف بالحق الذي عرفوه، و ما دام النطق متعلقا بالسمع فلذلك قدم { بُكْمٌ } على { عُمِيٌّ } . فلم يقل : "صم عمي بكم". و لكل هذا ختم الآية بقوله:

(٨٧٥) نفسه، ج: ١، ص: ٨٦.

(٨٧٦) سورة المنافقون، الآية: ٣.

(٨٧٧) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٩٠.

(٨٧٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٤٦.

(٨٧٩) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٩٠.

(٨٨٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٤٦.

{ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ } أي لا استجابة لهم حالهم كحال عجل السامري الذي وصفه الله سبحانه بقوله: { أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا }.^(٨٨١)

و المثل الثاني

{ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } { ١٩ } يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } { ٢٠ }

و هذا " كذلك ... تشبيه تمثيلي، شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به، و شبه شبهات الكفار بالظلمات." ^(٨٨٢) و قد يكون المقصود بالظلمات الابتلاءات التي تصيب المتمسك به. أما الرعد فهو دلالة على " ما فيه من الوعيد والزجر كالرعد. [و البرق يدل على] ما فيه من النور و الحجج الباهرة التي تكاد .. تبهر المنافقين كالبرق " ^(٨٨٣) الذي يكاد يبهر الأبصار ويخطفها.

فهم لا يريدون سماع ما في كتاب الله من الوعد و الوعيد، و لا يريدون سماع ما فيه من الحجج الباهرة، لأن كل ذلك قد يؤدي بهم إلى الهداية التي قد تكلفهم بعض التكاليف التي يرونها كالموت لهم، لذلك يسدون آذانهم عنها كما يسد آذانه من يخاف أن تهلكه الصواعق، و عبر سبحانه عن ذلك بقوله:

{ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ } و هو " مجاز مرسل من إطلاق الكل وإرادة الجزء، أي رؤوس أصابعهم." ^(٨٨٤) و هو يدل على مبالغتهم في سد الأذان، و تشديدهم في ذلك حتى توشك الأصابع أن تدخل في آذانهم، و لو استطاعوا لفعلوا ذلك من شدة رفضهم السماع من جهة، و من شدة قوة صوت الحق من جهة أخرى. و مع أنهم لا يريدون هذا الحق إلا أنه { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ } أي " كلما غنموا وأصابوا من الإسلام خيراً، اتبعوا المسلمين، وإذا أظلم عليهم فلم يصيبوا خيراً، قعدوا عن الجهاد." ^(٨٨٥)

و بالنظر إلى هذا المثل بشكل مجمل نجد " أن الحركة ... تغمر المشهد

كله: من الصيب الهائل، إلى الظلمات و الرعد و البرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة في المشهد لترسم - عن طريق التأثير الإيحائي - حركة التيه و الاضطراب و القلق و الأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون . . بين لقائهم للمؤمنين، و عودتهم للشياطين. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدى و نور و ما يفيئون إليه من ضلال و ظلام . . فهو مشهد

^(٨٨١) سورة طه، الآية: ٨٩.

^(٨٨٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٩٠.

^(٨٨٣) نفسه، ج: ١، ص: ٩٣.

^(٨٨٤) نفسه، ج: ١، ص: ٩٠.

^(٨٨٥) الماوردي، النكت والعيون، ج: ١، ص: ٨٣.

حسي يرمز لحالة نفسية؛ ويجسم صورة شعورية [خاصة] و هو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس^(٨٨٦) والخاصة: أن هذه الآيات " اشتملت على قوة التعبير و شدة التأثير و روائع التشبيه، ففيها تشبيه القرآن بالمطر إذا أمطر يحيي الأرض، و القرآن يحيي موات النفوس، ... و في الآيات أيضا وعد و وعيد كالرعد قوة و شدة."^(٨٨٧)

و لقد كانت خصصت سورة البقرة في مقدمتها تسعة عشرة آية، قال مجاهد: " أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، و آيتان بعدها نزلتا في الكافرين، و ثلاث عشرة بعدها نزلت في المنافقين."^(٨٨٨)!!
و هذا الإسهاب في الوصف و التعدد في الأمثال إنما كان لتعقيد هذا النموذج الغريب الذي تتغير ألوان جلده بحسب البيئة التي يتواجد فيها، كأنه حرباء تصطاد الحشرات وسط الغابة و تنقي عيون العدو بالتمويه. و إن الحرباء في ذاتها بريئة منهم و من سلوكهم السفيه، ذلك لأن الحرباء إنما تتلون لتتخفى فتحقق ضرورات الحياة و الطبيعة، أما هؤلاء فيتلونون هروبا من الحق و نصره للباطل. و لعل القرآن قد تجنب ضرب المثل بهذا الحيوان لأنه أرفع منهم و أجل، و هم منه أضل! و الله أعلم.

^(٨٨٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ١، ص: ٤٦.
^(٨٨٧) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١، ص: ٩٠.
^(٨٨٨) الواحدي، أسباب النزول، ج: ١، ص: ١٢.

المبحث الثاني: الفئات المنافقة

نلاحظ أن القرآن الكريم لم يضرب للمنافقين أمثلة نموذجية محددة بالأسماء مطلقاً، خلافاً لما كان بالنسبة للمؤمنين و الكافرين، فقد كانت أسماء المنافقين سرا عند الرسول ρ و لم يخبر عنهم أحداً إلا حذيفة بن اليمان، الذي " كان صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم " ^(٨٨٩) " في المنافقين يعلمهم وحده. " ^(٨٩٠)

لكن القرآن الكريم تحدث عن أصناف و فئات عدة من المنافقين، و خصوصاً في سورة التوبة، قال ابن زيد: " و المنافقون أصناف عشرة في براءة " ^(٨٩١)

و قد استعمل معهم الضمائر، و خصوصاً بعبارة: { وَ مِنْهُمْ }. " قال سعيد بن جبیر: سألت ابن عباس - رضي الله عنه - عن سورة براءة فقال: " تلك الفاضحة، ما زال ينزل: " و منهم " " و منهم " حتى خفنا ألا تدع أحداً. " ^(٨٩٢) و الأصل أن المنافقين كلهم صنف واحد، قال جل شأنه: { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا } ^(٨٩٣) و إنما هذا التصنيف غرضه بيان أنواعهم حتى لا يفلت نوع منم من شباك المؤمنين، و يكونوا على حذر منهم جميعاً، و حتى يكونوا خصوصاً على حذر من صفاتهم و أخلاقهم أن يقعوا فيها.

و فيما يلي بعض هذه الأصناف:

^(٨٨٩) عن علقمة قال أبو الدرداء ج: " ألم يكن فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أحد- يعني حذيفة- " رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، و النسائي في كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. و اللفظ للنسائي.

^(٨٩٠) النووي، تهذيب الأسماء و اللغات، ج: ١، ص: ١٥٩.

^(٨٩١) الطبري، جامع البيان، ج: ٢٠، ص: ٣٢٧.

^(٨٩٢) أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج: ٨، ص: ٦١.

^(٨٩٣) سورة التوبة، الآية: ٨٨.

اللمزة

قال تعالى: { وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } { ٥٨ } وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } { ٥٩ } إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { ٦٠ }
سورة التوبة

حينما يتحدث القرآن الكريم عن أصناف المنافقين، تركز آياته على الجوانب السلوكية لهم، التي تنبئ عن بواطنهم القبيحة. فهذا صنف منهم غلبت عليه غريزة حب التملك التي غرسها الله في النفس الإنسانية لغايات سامية، فلم يستطع السيطرة على هذه الغريزة و توجيهها التوجيه الحسن، فتجدهم أغنياء و مع ذلك يحرصون على جمع المال بكل الطرق و لو عن طريق مزاحمة الفقراء على الصدقات، و إنه ليبلغ من حرص بعضهم أن يرضى بأن يعطى له و لو أقل القليل من المال، المهم أن ينال المال من هنا و هناك و هنالك، و لا يهمه أمن حلال أو حرام جمعه، حقا كان أو سحتا. و لذلك عبر عنهم بعبارة { فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا } فلا تهمهم العدالة و لا الإنصاف، و إنما تهمهم أنفسهم حتى و إن أخذوا ما ليس حقا لهم.

و مثل هؤلاء تجدهم يسخرون أسنتهم للهجوم على كل من لم يعطهم مالا. فقد يصفونه بالبخل أو سوء التدبير أو سوء التوزيع أو المحاباة أو عدم العدالة، أو أي تهمة يرضون بها أنفسهم، أو يرجون من ورائها تحقيق مآربهم. قال سبحانه: { وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ }

و هذه الآيات تصف لنا معاناة الرسول p مع هذا الصنف في المدينة المنورة، حيث كان p يعمل على إيجاد التوازن بين الناس من الناحية المادية، مخففا من معاناة الفقراء، و مرسيا لقواعد جديدة في تداول المال في المجتمع. لكن و هو في مثاليته و سموه هذا، يفاجأ بمن يعكر صفو هذه الخطة الاجتماعية الرفيعة بأقوال رقيقة، و ردود أفعال وضيعة: { إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } و " إذا: للمفاجأة، أي و إن لم يعطوا منها فاجؤوا النبي p بالسخط. " (٨٩٤)

و هو رد فعل مفاجئ لكل ذي لب. فمن ذا الذي يجرؤ على إظهار السخط أمام نبي الله تعالى؟!

و في قوله سبحانه: {يَسْخَطُونَ} دلالة على ما في نفوس هؤلاء من مشاعر سلبية حادة و متطرفة، تتم عن نفوس هابطة في درك مصاف البشرية. {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ...} هذه جملة شرط، حذف جواب الشرط فيها، و تقديره: "و لو أنهم رضوا ... لكان خيرا لهم". و قد أضرب عنه لكونه بديهيا لا حاجة لذكره، يفهمه ألوا الألباب، من غير هؤلاء السفهاء. " فهذا هو أدب النفس و أدب اللسان، و أدب الإيمان: الرضا بقسمة الله و رسوله، رضا التسليم و الاقتناع لا رضا القهر و الغلب. و الاكتفاء بالله، و الله كاف عبده. و الرجاء في فضل الله و رسوله والرغبة في الله خالصة من كل كسب مادي، و من كل طمع دنيوي .. ذلك أدب الإيمان الصحيح الذي ينضح به قلب المؤمن. و إن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم، و لم يُشرق في قلوبهم نور اليقين." (٨٩٥)

و هذا لا يعني عدم طلب الدنيا مطلقا و إنما "تدل الآية على أن من طلب الدنيا وحدها آل أمره إلى النفاق، و أما من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله فيه، و كان غرضه من الدنيا أن يتوسل إلى مصالح الدين، فهذا هو الطريق الحق. و الأصل في هذه الأمور المادية الرضا بقضاء الله و قدره، بعد اتخاذ الأسباب" (٨٩٦) و بعد هذا التصوير لهذا الصنف من المنافقين جاء الرد عليهم ببيان أن الصدقات ليست نهبا ينتهبه الأقوياء على حساب الضعفاء و الفقراء و المحتاجين، و إنما هي فريضة من الله قسمها من فوق سبع سموات، بغرض جعل المال في مكانه المناسب لضمان التوازن في المجتمع و تحقيق العدالة الاجتماعية التي جاء الإسلام ليقرر أسسها و يعطي نموذج تحقيقها في الواقع. فحدد سبحانه الأصناف الثمانية التي لها الحق في الصدقات و لا حرج عليها الأخذ منها، أما ما عدا ذلك فهم الأغنياء الذين يجب عليهم دفعها لا طلبها، أو حتى مجرد تمنيتها.

(٨٩٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٦٨.
(٨٩٦) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٢٥٧.

أبواق السوء

قال تعالى: { وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلُّ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } { ٦١ }

سورة التوبة

قد رأينا من قبل صنفا من المنافقين تدفعهم غريزة حب التملك إلى لمر

الرسول ρ

في الصدقات. و أمامنا الآن صنف آخر لا دافع له لأذى الرسول ρ إلا الشر المسيطر على نفوسهم، فهم لا يقابلون الخير إلا بالسوء، "إنه سوء الأدب في حق الرسول، يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات. إنهم يجدون من النبي - صلى الله عليه وسلم - أدبا رفيعا في الاستماع إلى الناس بإقبال و سماحة و يعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته و يهش لهم و يفسح لهم من صدره. فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه، و يصفونه بغير حقيقته، ويقولون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «هو أذن» أي سماع لكل قول، يجوز عليه الكذب و الخداع و البراعة، و لا يفتن إلى غش القول و زوره. من حلف له صدقه، و من دس عليه قولا قبله.

يقولون هذا بعضهم لبعض تطمينا لأنفسهم أن يكشف النبي - صلى الله عليه و سلم - حقيقة أمرهم، أو يفطن إلى نفاقهم، أو يقولونه طعنا على النبي في تصديقه للمؤمنين الخالص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شؤون المنافقين و أعمالهم و أقوالهم عن الرسول و عن المسلمين." (٨٩٧)

و هذا القول من طرف المنافقين ينبئ بصفة من أهم صفاتهم و هي صفة الكذب، ففي الحديث الشريف « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَ إِذَا ائْتَمِنَ خَانَ » (٨٩٨) فمن كثرة كذبهم حتى أنهم لم يستوعبوا عدم تكذيب الرسول ﷺ لظاهر قولهم، فظنوا أنه مصدق لأقوالهم الواهية. و من حماقتهم أنهم يظنون أن عدم التكذيب تصديق! و أن السكوت عن الأحمق رضى به!

إلا أن الحقيقة هي أنه من أهم صفات الشخصية القيادية، أن يكون الشخص مستمعا جيدا حتى يستوعب جميع الناس. و الشخصية القيادية لا تنزل أبدا إلى مستوى منحط فتهم بسفاسف الأمور و تناقش السفهاء على سفاهتهم.

و إن من حكمة الرسول ﷺ أن لا يفضح الناس حتى و إن كانوا منافقين، ليترك لهم مجالا للتوبة. و هذا جانب من رحمته ﷺ.

من حكمته كذلك أن لا يعطي الفرصة للمشركين باستغلال حال المنافقين إعلاميا، والقول بأنه يقتل من آمن به.

و كل هذه المعاني و غيرها نجدها في قوله سبحانه: { قُلْ أَدْنُ خَيْرٍ لَّكُمْ } و كأن في الآية تعريض بالسنة الشر التي قالت مثل ذلك الكلام، فهو أدن خير و أنتم أسنة سوء! و من عجائب القرآن أنه عبر بلفظة: { خَيْرٍ لَّكُمْ } فهو أدن خير للجميع، حتى للمنافقين ذاتهم. فلم يقل: " أدن خير للمؤمنين " بل أدن خير للجميع. و في ذلك دفع بالتي هي أحسن في خطاب المنافقين، عسى أن يستفيقوا إلى ما هم فيه الضلالة و الغي.

ثم تعرّض الآية بهم مرة أخرى فتقول عن الرسول ﷺ أنه: { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ } و في ذلك تعريض بالمنافقين الذين لا يؤمنون بالله تعالى. ثم تعرّض بهم تارة أخرى، فهو: { يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } فهو إذ يؤمن للمؤمنين، فذلك يعني أنه لا يؤمن للمنافقين و لا يصدقهم؟ ثم هو في الأخير { رَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ } فهناك مهم من آمنوا، و هناك آخرون لم يؤمنوا، و رحمته خصت المؤمنين منهم فقط. ثم جاء الوعيد الشديد لهؤلاء الذين يؤذون رسول الله ﷺ بالعذاب في الآخرة: { وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ

(٨٩٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٧٠ - ١٦٧١.
(٨٩٨) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة في باب قول الله تعالى { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين }. و ما ينهى عن الكذب.

اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } و في قوله سبحانه: { يُؤدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ } "أظهر كلمة {رَسُولٌ} [في] مقام الإضمار، تعظيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، و جمعا بين رتبتي النبوة و الرسالة. و أضافها إلى الله زيادة في التكريم." (٨٩٩)^(٨٩٩)
فبهذا الشكل تصدت الآيتان الكريمتان للدعاية المنافقة، و قلبت لهم ظهر المجن، و ردت الهجوم بهجوم أقوى منه، و أظهرت سفاهة المنافقين، و قلة فهمهم، و بينت حكمة الرسول ﷺ و بعد نظره.

المخلفون للوعد

قال تعالى: { وَ مِنْهُمْ مَنَ عَاهَدَ اللَّهُ لِنِئَانِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } {٧٥} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ } {٧٦} فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } {٧٧} أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } {٧٨} سورة التوبة

"هذا صنف آخر منهم قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله و أصبحوا ذوي ثروة و مال كثير ليصدقن منه و لينفقن في طريق البر و الخير. فلما

(٨٩٩) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٢٨١.

أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به و بخلوا، و تولوا عما تعهدوا به و ما كانوا عليه من تقوى و صلاح، و هم معرضون. فأورثهم هذا البخل و خلف الوعد و الكذب { نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ } لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم. " (٩٠٠)

" و النفس البشرية ضعيفة شحيحة، إلا من عصم الله و لا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان، و ترتفع على ضرورات الأرض، و تتطلق من قيود الحرص على النفع القريب، لأنها تؤمل في خلف أعظم، و تؤمل في رضوان من الله أكبر. و القلب المؤمن يطمئن بالإيمان، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد و ما عند الله باق. و هذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال في سبيل الله تطوعا و رضى و تطهرا، و هو آمن مغبته. فحتى لو فقد المال و افتقر منه، فإن له عوضا أعظم عند الله.

فأما حين يفقر القلب من الإيمان الصحيح، فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة، و الخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل. ثم يبقى سجين شحه و خوفه بلا أمن و لا قرار. و الذي يعاهد الله ثم يخلف العهد، و الذي يكذب على الله فلا يفي بما وعد، لا يسلم قلبه من النفاق " (٩٠١)

و قد رأينا في الحديث الشريف السابق الذكر قوله p: «وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» و لقد كنت أفهم هذا الحديث على معنى الوعد للناس، لكن الآية الكريمة كشفت عن بُعد آخر و هو الوعد مع الله تعالى، و من أخلف و عده مع الله فذلك أشد و أنكى.

و لقد كان و عدهم مؤكدا بكل صيغ التوكيد الممكنة قال تعالى: { وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ }

فجاء كلامهم في " صيغة قسم في المعنى، بدليل اللام في قوله: لَئِنْ وَ هِي لام القسم، و أما لام: لَنَصَّدَّقَنَّ فهي لام الجواب. و كلاهما للتأكيد. " (٩٠٢) و إضافة إلى لا التوكيد جاءت كلمة { نَصَّدَّقَنَّ } مختومة بنون التوكيد المثقلة، و كذلك كان الأمر بالنسبة لكلمة: { لَنَكُونَنَّ }. لكنه النفاق يعد و يؤكد الوعد و في الختام يخلفه!

{ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ }

فبمجرد أن جاءهم الفضل من الله تعالى، قابلوا الإحسان بالسوء، فبخلوا على الله بما هو ملك له، و وزيادة على البخل تولوا و انقلبوا و أدبروا عن الحق و نكسوا على رؤوسهم، بل و أعرضوا إذا دعوا إليه.

فكانت النتيجة أن: { أَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } فما أسوأها من عاقبة، إنها نفاق في القلب، و هذا

(٩٠٠) أبو بكر الجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر (المتوفى : ١٤٢٩ هـ) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة : الخامسة، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م. ج: ٢، ص: ٤٠١.
(٩٠١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٧٧ - ١٦٧٨.
(٩٠٢) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٣١٧.

أسوأ أنواع النفاق، فعن "الحسن البصريّ ... قال: النَّفَاقُ نِفَاقَان: نِفَاقُ الكَذِبِ، وَ نِفَاقُ العَمَلِ" (٩٠٣) و من الآية يستفاد أن نفاق الكذب أي نفاق الإيمان قد ينتج عن نفاق العمل.

و أسوأ ما في هذه العاقبة أنها لا رجعة فيها إلى يوم القيامة، فلا توبة لهؤلاء الذين أخفوا الله ما وعدوه و بما كانوا يكذبون على رسوله p. و جاء الرد عليهم بصيغة الاستفهام: { أَلَمْ يَعْلَمُوا } و الغرض منه التوبيخ والتقريع. "أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم السر وأخفى، و يعلم ما يسرونه من الكلام، و يتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، و أنه أعلم بضمائرهم، فإنهم إن قالوا: ليتصدقن بشيء من أموالهم، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، و أنه علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سرّ و نجوى، و يعلم ما ظهر و ما بطن، يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور، يعلم الله كل ذلك و ما أسروه من النفاق و العزم على إخلاف ما وعدوه، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، و على الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟! " (٩٠٤) فعبر عن علمه بصيغة المبالغة { عَلَامٌ } و جمع الغيب على { العُيُوبِ } محلاة بالألف و الهمزة التي تفيد الاستغراق، فما من غيب يعزب عنه سبحانه. و هذا استعمال مناسب للسياق، فهو سياق الخطاب الموجه للمنافقين الذين أصل مشكلتهم في عدم تذكرهم لعلم الله بهم و بما يضمرونه و يخفونه.

الساخرون

(٩٠٣) ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله الأندلسي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، ط: س، ج: ٢، ص: ٥٥٠.

(٩٠٤) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٣٢٢.

قال تعالى: { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {٧٩} اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } {٨٠} سورة التوبة

هذا صنف آخر من المنافقين دينهم تثبيط الهمم، و تدمير القيم، فلا يسلم أحد من لسانهم، فهم يعيبون أعمال الناس مهما كانت، و لو كان العمل خيرا محضا. فقد جعلوا أنفسهم في مكان الديان سبحانه و تعالى يحاسبون الناس على أعمالهم و نياتهم، و لا يرضون لأحدٍ عملٍ خيرٍ أبدا. فمهمتهم هي مراقبة أعمال الخير و الطعن في نيات أصحابها. أما أفعال الشر التي يرتكبونها فيعمون عنها و لا يرونها. و هم بهذا الفعل القبيح إنما يعبرون عن سوء أفعالهم و سوء بواطنهم، كما قال النبي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَ صَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمٍ وَ هَذَا هُوَ النِّقْدُ الْهَدَامُ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ صَاحِبُهُ هَدْمَ غَيْرِهِ، وَ انْتِقَاصَ الْآخِرِينَ بِغَرَضِ الطَّمْسِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْخَيْرَةِ الَّتِي يَعْبَزُونَ هُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا. فَهَمْ يَرِيدُونَ الرِّفْعَةَ لَأَنْفُسِهِمْ، لَكِنْ لَيْسَ بِالْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، بَلْ بِالْحَطِّ مِنْ قِيَمَةِ أَعْمَالِ الْآخِرِينَ حَتَّى يَكُونُوا كُلَّهُمْ سُوءًا.

فمن عمل العمل العظيم قالوا عنه مرأى، و من عمل العمل القليل قالوا أن الله في غنى عن عمله! هكذا يتقولون " على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس، و رضا قلب، واطمئنان ضمير، و رغبة في المساهمة في الجهاد كل على قدر طاقته، و كل على غاية جهده. ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة. لا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ إلا بالبذل عن طيب خاطر. لا يدركون المشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعثا ذاتيا، لتلبي دواعي الإيمان و التضحية و المشاركة. من أجل هذا يقولون عن المكثري: إنه يبذل رياء، و عن المقل إنه يذكر بنفسه، يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرا، و يحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل. فلا يسلم من تجريحهم و عيبهم أحد من الخيرين. ذلك و هم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس، لا ينفقون إلا رياء، و لا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير.

ومن ثم يجبههم الرد الحاسم الجازم:

{ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ..

و يا لهولها سخرية. و يا لهولها عاقبة لشرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين و سخرية الخالق الجبار تنصب عليهم و عذابه يترقبهم؟! ألا إنه

لل هول المفزع الرهيب!" (٩٠٥) " وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم و استهزائهم بالمؤمنين." (٩٠٦)

و في قوله سبحانه: {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} خبر و دعاء أو دعاء و خبر، إذ أن ما دعا الله به فقد أخبر الله به، لأنه متحقق لا محالة بإذنه. و لعل هذا في الدنيا بأن يمدهم الله في طغيانهم، أما في الآخرة فـ {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} و التنكير في {عَذَابٌ}: للتحويل و التخييم للوعيد، فكلما كان الوعيد بالمجهول كان وقعه في النفس أشد. و أشد منه الخطاب للرسول p: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} ففيه طباق السلب، غرضه التسوية بين الأمرين لبتّ اليأس في نفوس هؤلاء من رحمة الله تعالى أو إمكانية أن يغفر لهم.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} "هؤلاء المنافقون الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو، قد تقرر مصيرهم، فما عاد يتبدل:

{فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} ..

لن يجديهم استغفار، فإنه و عدم الاستغفار لهم سواء. و يبدو أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم. فأما هؤلاء فقد أخبر بأن مصيرهم قد تقرر، فلا رجعة فيه :

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} .. {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} .. أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة. و فسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح .." (٩٠٧)

{إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} ..

{سَبْعِينَ مَرَّةً} هذا جار مجرى المثل للمبالغة، و ليس لتحديد العدد. و قد شاع استعمال السبعة و السبعين و السبع مائة و نحوها في التكثير. " (٩٠٨) " لا على أنها رقم محدد. والمعنى العام أن لا رجاء لهم في مغفرة، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة. و القلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا يصلح، و الضلال حين ينتهي إلى أمد معين لا يرجى بعده اهتداء. و الله أعلم بالقلوب." (٩٠٩)

فهذه هي عاقبة السخرية بالمؤمنين، و هذه هي عاقبة تتبع عوراتهم و الافتراء عليهم، و صدق رسول الله p إذ يقول: « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَ لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ

(٩٠٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨١.

(٩٠٦) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٣٢٥.

(٩٠٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٢.

(٩٠٨) الزحيلي، التفسير المنير، ج: ١٠، ص: ٣٢٥.

(٩٠٩) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٢.

المُسلِّمُ تَتَّبَعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَ مَنْ تَتَّبَعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحُهُ وَ لَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ «
(٩١٠)

المخلفون

قال تعالى: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } { ٨١ } فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } { ٨٢ } فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُجُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ } { ٨٣ } وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ } { ٨٤ } وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ } { ٨٥ }

سورة التوبة

و هذا صنف آخر من المنافقين، و هم المخلفون الذين يكرهون الجهاد بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله. و قد قال عنهم سبحانه: { الْمُخَلَّفُونَ }، و لم يقل المتخلفون. فهم كسقط المتاع الذي يخلف في الطريق، نسيانا أو إهمالا لانعدام القيمة فيه أو الفائدة منه!

و بدأ الحديث عنهم بأسلوب تهكمي { فَرِحَ } فحالهم كحال الصبيان و السفهاء الذين تُفرحهم أدنى المكاسب، طانين أنهم قد حققوا شيئا عظيما. فنحن حين نقرأ كلمة فرح ننتظر أن يكون صاحب هذا الفرح صاحب إنجاز عظيم فإذا بنا نفاجأ بأن صاحب الفرح هم "المخلفون" فنصدم بما بين الفعل و الفاعل من هوة، ثم نتطلع إلى أي شيء فرحوا به فإذا بهم قد فرحوا { بِمَقْعَدِهِمْ }، ثم

(٩١٠) رواه البيهقي في شعب الإيمان، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، فِي فَصْلِ تَرَكْتُ تَتَّبِعُ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَ فِي قَبُولِ عُدْرِهِمْ.

نتطلع مرة أخرى متسائلين: أي مقعد هذا؟ لعله مقعد صدق؟ فإذا هو مقعدُ
{خِلافَ} فما هو بالمقعد المتقدم، ثم خلاف من؟ إنه {خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} ρ
!، فنذكر حينها أن الريشة الساخرة ترسم لنا صورة نفوس مهزوزة، و
شخصيات هزيلة شاحبة، لا يرجى منها خير أبدا. إنها صورة كاريكاتورية
تصور لنا تناقضات و مفارقات هذه النفوس العجيبة الغريبة التي لم ترق لتكون
على مستوى موعدها مع التاريخ و مع المبادئ!
فهذا الذي وقعوا فيه يثير الحزن لا الفرح، فهو خسارة بكل المقاييس
المعقولة، لكن النفوس المريضة الهائمة في صحراء الشهوات، ترى السراب
ماءً، و الخذلان ذكاءً، و الخسة مكرمةً!
فهم قد " أدركتهم ثقلة الأرض. ثقلة الحرص على الراحة، و الشح بالنفقة.
و قعد بهم ضعف الهمة و هزال النخوة، و خواء القلب من الإيمان .. هؤلاء
المخلفون... فرحوا بالسلامة و الراحة «خلاف رسول الله» وتركوا المجاهدين
يلاقون الحر و الجهد، و حسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال!"^(٩١)
{ وَ كَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }
و إسكاتا منهم لضمايرهم التي تذكرهم من داخلهم ببطلان نهجهم، هاهم
يبررون لأنفسهم و لبعضهم البعض تخلفهم عن الجهاد بقولهم: { لَا تَنْفَرُوا فِي
الْحَرِّ } و قد جاء هذا التبرير بصيغة الأمر، و ذلك مبالغة منهم في هذا التبرير،
فقد نزلوا أنفسهم منزل الحكماء الذين يفهمون أكثر من غيرهم و يقدمون
للآخرين النصائح، بل الأوامر!
" و هي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال.
إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، و طراوة الإرادة و كثيرون هم الذين
يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، و يؤثرون الراحة الرخيصة على
الكدح الكريم، و يفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز.
و هم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف
الدعوات. ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات و الأشواك،
لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات و الأشواك فطرة في الإنسان، و أنه أذو
أجمل من القعود و التخلف و الراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.
و النص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة: { وَ قَالُوا : لَا تَنْفَرُوا
فِي الْحَرِّ. قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ }.
فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، و يؤثرون الراحة المسترخية في الظلال.
فكيف بهم في حر جهنم و هي أشد حرا، و أطول أمدا؟ و إنها لسخرية مريرة، و
لكنها كذلك حقيقة. فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، و إما
انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله"^(٩٢)

(٩١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٢.

(٩٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٢.

و نتيجتهم هي {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا} و في هذا التعبير مقابلة بين صورة حالهم في الدنيا و حالهم في الآخرة. و هو خبر جاء في صيغة الأمر زيادة في التهكم بهم، و التهديد لهم خصوصا بورود لام التوكيد على فعلي الأمر، فكأنه يقول لهم: إذا كان ضحككم اليوم مؤكدا، فإن بكاءكم غدا مؤكدا مثله. "و إنه لضحك في هذه الأرض و أيامها المعدودة، و إنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة. و إن يوما عند ربك كألف سنة مما يعدون. {جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فهو الجزاء من جنس العمل، و هو الجزاء العادل الدقيق." (٩١٣)

أما التعامل معهم في الدنيا فقد انتهى و حُسم، {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا}. و قد قال سبحانه: {رَجَعَكَ} و لم يقل: "أرجعك"، لأن في "أرجعك" معنى الطرد، و في: {رَجَعَكَ} معنى تسهيل و تيسير الرجوع. و علل سبحانه هذا الحسم بقوله: {إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُجُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}

" قال قتادة: ... مع الخالفين، أي: مع النساء... و قال ابن عباس: "الخالفون" الرجال. قال أبو جعفر: "فأما ما قال قتادة من أن ذلك النساء، فقول لا معنى له. لأن العرب لا تجمع النساء إذا لم يكن معهن رجال، بالياء و النون، و لا بالواو و النون. و لو كان معنياً بذلك النساء ل قيل: "فاقعدوا مع الخوالف"، أو "مع الخالفات". و لكن معناه ما قلنا، من أنه أريد به: فاقعدوا مع مرضى الرجال و أهل زمانتهم، و الضعفاء منهم، و النساء. و إذا اجتمع الرجال و النساء في الخبر، فإن العرب تغلب الذكور على الإناث، و لذلك قيل: {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}، و المعنى ما ذكرنا." (٩١٤)

" هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد - في ساعة العسرة - و تخلفوا عن الركب في أول مرة. هؤلاء لا يصلحون لكفاح، و لا يرجون لجهاد، و لا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة و التغاضي، و لا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلوا عنه راضين... إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق. و الصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان و الضعف و الاضطراب. فالذين يضعفون و يتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف و قاية له من التخلخل و الهزيمة. و التسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، و على الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه المرير... هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم،

(٩١٣) نفسه، ج ٣، ص: ١٦٨٣

(٩١٤) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج: ١٤، ص: ٤٠٣ - ٤٠٤.

وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدا. فليعرف أصحابها في كل زمان و في كل مكان ذلك الطريق .." (٩١٥)

و قد سبق أن قرر الله سبحانه و تعالى هذا المعنى في سورة التوبة من قبل إذ ال سبحانه:

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْعُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٩١٦)

"وكما أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالألا يسمح للمتخلفين في ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا في الصفوف، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أي ظلال من ظلال التكريم: {وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ. إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ}.

فهي تقرر أصلا من أصول التقدير في نظام الجماعة المكافحة في سبيل العقيدة، هو عدم التسامح في منح مظاهر التكريم لمن يؤثرن الراحة المسترخية على الكفاح الشاق، و عدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصف. و مقياس هذا التقدير هو الصبر و الثبات و القوة والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي و لا تلين.

والنص يعلل هذا النهي في موضعه هنا {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ} ... فالصلاة و القيام تكريم. و الجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف في ساعة الجهاد، لتبقى له قيمته، و لتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون في سبيل الله، و بما يصبرون على البذل، و يثبتون على الجهد، و يخلصون أنفسهم و أموالهم لله لا يتخلفون بهما في ساعة الشدة، ثم يعودون في الصف مكرمين!" (٩١٧)

كما أن من معاني الصلاة الدعاء بالرحمة، و هؤلاء لا يستحقون الرحمة و لا الدعاء بها، و لو حتى في حالة الموت حين يفضي لإنسان إلى ربه.

كما لا يستحقون أي " تكريم الباطن ينالونه في عالم الضمير: {وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ} ..

" فالمقصود هنا ألا يقام وزن لأموالهم و أولادهم، لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعوري لهم. و هم لا يستحقونه لا في الظاهر و لا في الشعور. إنما هو الاحتقار و الإهمال لهم و لما يملكون." (٩١٨) فما الغرض منها إلا العذاب لهم بها في الدنيا "بسبب ما يكابدون في جمعها وحفظها من المتاعب، و ما يرون فيها من الأمراض و المصائب، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها، مع كونهم لا يرجون خلفها {وَ تَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ}؛ فلا يستوفون التمتع بها في

(٩١٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٣، ص: ١٦٨٣.

(٩١٦) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٩١٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٣، ص: ١٦٨٣ - ١٦٨٤.

(٩١٨) نفسه، ج: ٣، ص: ١٦٨٤.

الدنيا؛ لقصر مدتها، و لا يجدون ثواب ما أعطوا منها؛ لعدم إيمانهم. و أصل الزهوق: الخروج بصعوبة، لصعوبة خروج أرواحهم، و العياذ بالله. " (٩١٩)

المعدرون

قال تعالى: { وَ إِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } {٨٦} رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } {٨٧} سورة التوبة و قال سبحانه: { وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {٩٠} لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٩١} وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أُحِمْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } {٩٢} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {٩٣} يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سِيرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَ رَسُولَهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } {٩٤} سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } {٩٥} يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } {٩٦} سورة التوبة

و هذا صنف آخر من المنافقين لا تنال منهم خيرا أبدا بل لا تنال منهم إلا الكلام و التبريرات المتنوعة لسوء أفعالهم، محاولين التغطية على نياتهم السيئة في التخلف عن الجهاد في سبيل الله، فتراهم إذا أنزل قرآن يتلى يأمر بالجهاد مع الرسول p يسارعون في الاستئذان للعود مع القاعدين. فيتولى القرآن الرد عليهم و الكشف لنياتهم المبيتة و الفضح لهم و تقريعهم بوصفهم بما هم أهله، و من ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالم، "و الخوالم: جمع خالفة، فإن فاعلة يجمع على فواعل، كقاتلة و قواتل، وضاربة و ضوارب، و الخوالم: النساء." (٩٢٠)

(٩١٩) ابن عجيبة، البحر المديد، ج: ٣، ص: ٨٥.
(٩٢٠) المنير، ج: ١٠، ص: ٣٤١.

" و في هذا طعن برجولتهم، وتشبيه لهم بالنساء." (٩٢١)
و هذا الضعف و الاستجداء و الرضى بالدون من طبيعة النفاق و
خصائص المنافقين التي تظهر و تبرز في ظروف الشدة.
"فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول، الذين يملكون وسائل
الجهاد والبذل. جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيه المقدرة التي وهبها الله
لهم، و شكر النعمة التي أعطاها الله إياهم، ولكن ليتخاذلوا و يعتذروا و يطلبوا
أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة و لا يدفعون عن سكن. دون أن
يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار و هوان؛
مادام فيها السلامة. وطلاب السلامة لا يحسون العار، فالسلامة هدف الراضين
بالدون..."

{ وَ طَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد
من قوة وكرامة وبقاء كريم، وما في التخلف من ضعف و مهانة و فناء ذميم.
إن للذل ضربية كما أن للكرامة ضربية. وإن ضربية الذل لأفدح في كثير
من الأحيان. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضربية باهظة
لا تطاق، فتختار الذل و المهانة هربا من هذه التكاليف الثقيل، فتعيش عيشة تافهة
رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، و تفرق من صداها، يحسبون كل صيحة
عليهم، و لتجدنهم أحرص الناس على حياة .. هؤلاء الأذلاء يؤدون ضربية أفدح
من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضربية الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، و
يؤدونها من أقدارهم، و يؤدونها من سمعتهم، و يؤدونها من اطمئنانهم، و كثيرا
ما يؤدونها من دمائهم و أموالهم و هم لا يشعرون." (٩٢٢)

و ليس القعود و النكول و التخلف و تقديم الأعذار حكرا على أولي الطول
و الغنى، بل كذلك للأعراب نصيبهم من هذا اللون من ألوان النفاق { وَ جَاءَ
الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } { ٩٠ }

فهم جاؤوا ليؤذن لهم في القعود، و تكلفوا لذلك الأعذار الواهية و لذلك
سماهم: { الْمُعَذَّرُونَ } بدلا من "المعتذرون". و آخرون منهم قعدوا بلا اعتذار و
لا عذر، مع أنهم كانوا عاهدوا على الدفاع عن دين الله تعالى أمام الله و أمام
رسوله، لكنهم كذبوا هذا العهد و نقضوه حين الحاجة إليهم. فيتوعدهم الله بالعذاب
الأليم القريب { سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } و السنين تفيد قرب حدوث
الفعل، خلافا لسوف التي تفيد الوعد و الوعيد البعيد.

ثم يستثني القرآن الكريم من لا تقع عليه " التبعة. فليس الخروج ضربة
لازب على من يطيقون و من لا يطيقون. فالإسلام دين اليسر و لا يكلف الله نفسا

(٩٢١) المنير، ج: ١١، ص: ٨.
(٩٢٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٤.

إلا وسعها. والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذه لهم ، لأنهم معذورون :

{لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}.

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعدة في تكوينهم، أو لشيخوخة تقدهم ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به .. ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان، وقلوبهم مخلصه لله ورسوله، لا يغشون ولا يخدعون، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه - دون القتال - من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية في دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين. ليس عليهم جناح، و هم يحسنون بقدر ما يستطيعون، فلا جناح على المحسنين، إنما الجناح على المسيئين.

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة. فإذا حرّموا المشاركة فيها لهذا السبب، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعا، لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

و إنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، و الألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه...

ليس على الضعفاء و لا على المرضى و لا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون، و لا يجد لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة .. من جناح و لا حرج إذا هم تخلفوا عن المعركة .. إنما الجناح و الحرج على الذين يستأذنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القعود و هم أغنياء قادرين، لا يقعدهم عذر حقيقي عن الخروج .. إنما الجناح و الحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالب في الدور ..

هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج، و الاستئذان في القعود، ذلك أنهم ناكلون متناقلون، لا يؤدون حق الله عليهم و قد أغناهم و أقدرهم و لا يؤدون حق الإسلام و قد حماهم و أعزهم و لا يؤدون حق المجتمع الذي يعيشون فيه و قد أكرمهم و كفلهم .. و من ثم يختار الله - سبحانه - لهم هذا الوصف :

{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ}

فهو سقوط الهمة ، و ضعف العزيمة ، و الرضا بأن يكونوا مع النساء و الأطفال و العجزة الذين يخلفون في الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد .. و هم

معذرون .. فأما أولئك فما هم بمعذورين! { وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

فقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور و العلم ، و عطل فيهم أجهزة الاستقبال و الإدراك ، بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول و البلادة و الوخم، و الاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب! و ما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة و الراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع و التذوق و التجربة و المعرفة، فوق ما فرغت من دوافع الوجود و الشهود و التأثير و التأثير في واقع الحياة. و إن بلادة الراحة لتغلق المنافذ و المشاعر ، و تطبع على القلوب و العقول. و الحركة دليل الحياة ، و محرك في الوقت ذاته للحياة. و مواجهة الخطر تستثير كوامن النفس و طاقات العقل، و تشد العضل، و تكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة، و تدرب الطاقات البشرية على العمل و تشحذها للتلبية و الاستجابة .. و كل أولئك ألوان من العلم و المعرفة و التفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة و السلامة الذليلة." (٩٢٣)

كان هذا حالهم قبل الانطلاق إلى ساحة المعركة و الجهاد، حيث كانوا يتمنون عدم رجوع المؤمنين المجاهدين إلى قواعدهم سالمين، لكن حين يخيب ظنهم، و يرجع المؤمنون غانمين سالمين، هناك يسارعون يلفهم الخزي، ذليلين - كعادتهم - إلى تقديم الأعذار أو تأكيد الأعذار السابقة: {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ}.

و هنا يأتي الرد الحاسم عليهم: {قُلْ: لَا تَعْتَذِرُوا. لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ. قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ}!

فقد انتهى عهد " هو أذن " حيث يُستمع إلى كل ما يقولون و يُأخذ بظاهر زعمهم للإيمان، أما الآن فقد ظهرت صفحتهم السوداء أمام الخلق أجمعين، و فضحتهم الأحداث على رؤوس الأشهاد، و تحقق فيهم قوله p السابق الذكر: « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لَأَتَّعَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَ لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَ مَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَ لَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ » و عليه فإذا عوملوا كمنافقين فما ظلموا ولا تُعدي عليهم. " و التعبير عن عدم التصديق و الثقة و الائتمان و الاطمئنان بقوله تعالى : «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» ذو دلالة خاصة.

فالإيمان تصديق و ثقة و ائتمان و اطمئنان. تصديق بالقول و ائتمان بالعقل و اطمئنان بالقلب، و ثقة من المؤمن بربه، و ثقة متبادلة بينه و بين المؤمنين معه. و للتعبير القرآني دائما دلالاته و إيحاؤه." (٩٢٤)

{ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولَهُ } " هل تتوبون عن الكفر أم تبقون عليه، و كأنه إعطاء فرصة [أخرى] للتوبة " (٩٢٥)، و لكن توبة عملية لا قولية فقط، فقد

(٩٢٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٨٥ - ١٦٩٥.

(٩٢٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص: ١٦٩٥.

انتهى حين الكلام والأعذار المزعومة، و بقي العمل، فمن أراد أن يصدّق في دعوى التوبة من النفاق، فما عليه إلا أن يبرهن على ذلك بالعمل لا بمجرد القول.

{ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } فإذا أحسنتم العمل فسنكل نياتكم إلى الله تعالى في هذه الأعمال، و هو الرقيب عليكم في بواطنكم و مقاصدكم بأعمالكم، أهي خالصة لوجهه و حده أم وراءها ما وراءها!

إن في مثل هذا الموقف الحازم، و إعادة فتح الباب للتوبة الخالصة لله تعالى لدافعا قويا للندم على ما فات و العزم على عدم الرجوع إليه، لكن هؤلاء الذين ماتت قلوبهم لن يعتبروا ولن يأخذوا العبرة مما فات، و سيحاولون مرة أخرى مخادعة المؤمنين و سيستعملون آخر ما لديهم من وسائل الخداع و المكر في جعبتهم مرة أخرى فـ { سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } { إِنَّهُمْ رَجِسٌ } فهم ليسوا نجسين فيمكن تطهيرهم من النجاسة، بل هم النجاسة في حد ذاتها، فلا طهارة للنجاسة بذاتها. و غنما نطهر الشيء من النجاسة، فهم لا طهارة لهم، بل هم نجاسة يُتطهر و يُتنزه منها. و الاقتراب منهم يؤدي إلى فساد الطهارة!

و هذا أشد من قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ }^(٩٢٦) فيحتمل "معناه ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، و لأنهم لا يتطهرون و لا يغتسلون و لا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم."^(٩٢٧) أما هؤلاء فلا يحتمل النص المتعلق بهم أي معنى آخر إلا أنهم في حد ذاتهم دنس يتجنب و يتوقى.

و هذا " تجسيم حسي للدنس المعنوي. فهم ليسوا رجسا - أي دنسا - بأجسادهم وذواتهم إنما هم رجس بأرواحهم و أعمالهم. و لكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة و أبين قذارة، و أدعى إلى التقزز و الاشمئزاز، و إلى الاحتقار كذلك و الازدراء! و القاعدون في الجماعة المكافحة - و هم قادرون على الحركة - الذين يقعد بهم إيثار السلامة عن الجهاد .. رجس و دنس. ما في ذلك شك و لا ريب .. رجس خبيث يلوث الأرواح، و دنس قدر يؤدي المشاعر كالجثة المنتنة في وسط الأحياء تؤدي و تعدي!"^(٩٢٨)

«و مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»

^(٩٢٥) الزحيلي، المنير، ج: ١٠، ص: ٣٤٣.

^(٩٢٦) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

^(٩٢٧) الزمخشري جار الله، الكشاف، ج: ٢، ص: ٢٩٠.

^(٩٢٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج: ٣، ص: ١٦٩٦.

فلا مكان للرجس و الدنس و الخبث إلا في نار جهنم كما قال تعالى من
قبل: { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ
جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (٩٢٩)

و هذا هو العدل المطلق معهم، فالخبث يزال و لا يزال إلا بالنار، و قد
فتحت أمامهم أبواب التوبة المتتالية بابا فبابا لكن كما قال بشار بن برد:
لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَ لَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي.

فهكذا إذا صور القرآن الكريم النماذج المناققة تصويرا بارعا يجعل القارئ
ينظر إليهم كأنهم أمامه يتقلبون و يتلونون حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم و
مصالحهم العاجلة.

كما صورهم القرآن الكريم تصويرا باطنيا لا تبلغه آلة من آلات التصوير
الباطني الحديث فصور خواطرهم و كشف نياتهم و نبأنا عن سلوكاتهم حتى قبل
أن يسلكوها.

و نلاحظ كثرة الأمثال المضروبة لتصوير حقيقة المنافقين، و ذلك بسبب
تعقيد نفسية هذا النوع من البشر و غرابة النماذج المختارة منه.
كما نلاحظ استعمال ألفاظ ذات دلالات متطرفة حين الحديث عن المنافقين،
مثل: "يسخطون " "يفرقون " و ذلك للتعبير عما يعترى هؤلاء من مشاعر
سلبية متطرفة، تنم عن نفوس هابطة في درك مصاف البشرية.

و صور القرآن الكريم المنافقين كظاهرة صوتية، فهم يلمزون، و هم يُؤدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ...، و هم يسخرون من المطوعين، و هم يقولون: " لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ "، و هم يَضْحَكُونَ، و هم يَسْتَأْذِنُونَ وَيَقُولُونَ: " دَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ " و هم "يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ" و هم " يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ "... و هذا أبلغ تصوير لحالة هذا الصنف من البشر الذين لا يكادون يحركون عضلة من عضلاتهم غير عضلة اللسان!

خاتمة الباب:

و هكذا نجد أن القرآن الكريم قد أبدع في رسم النماذج النفسية بطريقة فريدة، فلا هو على منهج القصة الفنية التي تنطلق من الخيال و تقصد الإمتاع الفني، و لا هو على المنهج التحليلي العلمي الذي يقصد تحليل النفس و بيان أنواعها؛ بل هو على منهج يجمع بين هذا وذاك، فتجد في عرض الصورة النفسية في القرآن من الفن و الإمتاع الشيء العظيم، كما تجد فيها التحليل العلمي لحقيقة النفس و أنواعها ما لم يصل إليه المحللون النفسيون المحدثون. و في ذلك مراعاة للسامع و القارئ لكتاب الله فكلُّ يأخذ منه بحسب مستواه و توجهه. فيأخذ منه العامي المعنى البسيط، كما يأخذ منه الفنان الجمال و المتعة، و يأخذ منه المختص العلم و زيادة الفائدة.

كما امتاز العرض القرآني بالواقعية الفنية، فهو إذ يعرض النماذج النفسية فإنما يأخذها من الواقع التاريخي، فينتقي نماذج بارزة من تاريخ الإنسانية فيعرضها عرضاً فنياً جميلاً بقصد إبراز جوانب نفسية مهمة منها بغرض أخذ العبرة، فإن كانت نماذج صالحة فليُحتذى بها في مثل مواقفها، و إن كانت نماذج سيئة فلتجنب إساءتها، و الحذر مما وقعت فيه من جهة، و لمعرفة الموقف الصائب من أمثالها من جهة أخرى. و هذا مخالف للقصة الفنية التي تنطلق

غالبا من شخصيات خيالية. و إذا انطلقت من نماذج واقعية فهي تضي عليها من الخيال ما يتطلبه الغرض الفني البشري زيادة و نقصانا.
كما أن منهج القرآن الكريم مخالف لمنهج علم النفس الحديث الذي ينطلق من نماذج خرافية باعتبارها مستخلصة من أغوار النفس الإنسانية التي عبرت عنها في شكل قصص خرافية عبر فيها أصحابها عن تطلعات أنفسهم. مثل قصة أوديب و إكثرا عند فرويد... و هذا في حد ذاته مخالف للمنهج العلمي الذي يحفظ الشاذ و لا يقيس عليه.

كما اختص العرض القرآني للنماذج النفسية الإنسانية بالتناسق الفني، فهو إذ يعرض الصورة النفسية فإنه يعرض مختلف جوانبها في مواقف متعددة في مواضع مختلفة من الكتاب، فمثلا في وصف شجاعة موسى ٧ في قتاله للقبطي، نجد ما يقابلها من وصف حالة الخوف لديه في مواقف أخرى كحين خيل إليه أن عصي السحرة أمامه تسعى { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } (٩٣٠) و نفس الشيء كذلك نجده في عرضه لشخصية موسى القوية { فَسَقَى لَهُمَا } يقابلها مباشرة بعرض الجانب الإنساني الضعيف في هذه الشخصية { ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } (٩٣١) فلا مغالاة و لا مبالغة في رسم الصورة، و لا ميل إلى جانب من الشخصية البشرية على جانب آخر.

و من التناسق الفني التناظر في عرض النماذج النفسية، فالقرآن يعرض هذه النماذج في شكل تقابلي يزيد الصورة وضوحا و جمالا، فحديث القرآن عن آدم دائما يقابل بالحديث عن إبليس في نفس الصورة. و حديثه عن ابن آدم الأول المسالم يقابله بحديثه عن ابنه الآخر المعتدي. و مقابلة صاحب الجنتين من جهة و صاحبه من جهة أخرى. و كل هذا من تقابل الخير و الشر.

كما نجد مقابلات أخرى من نوع آخر لا علاقة له بالخير و الشر، و إنما هي مقابلات مطلقة تقصد أغراضا متنوعة، كمقابلة الإنسان من جهة بالحيوان من جهة أخرى. و هذا نجده في المقابلة بين صورة سليمان ٧ من جهة و الهدهد من جهة أخرى. و مقابلة الملك الرجل سليمان ٧ من جهة، و الملكة المرأة ملكة سبأ من جهة أخرى.

كما جاءت الألفاظ مناسبة لعرض الجوانب النفسية المختلفة للشخصيات المعروضة، فهي منسجمة مع السياق الذي استعملت فيه سواء من حيث المعنى و الإيحاء و الظلال التي ترسمها أو الدقة أو درجة القوة. فكل لفظ في مكانه المناسب الذي لا يمكن زحزحته تقدما أو تأخيرا. و إذا حاولنا ذلك أخللنا بتناسق الصورة المعروضة، و شوهاها و أفسدنا جمالها.

(٩٣٠) سورة طه، الآية: ٦٧.
(٩٣١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

الختامة

الختامة:

ندرس آيات النفس
نجدلنا ذإلقل. ختام هذا
اتلوهلمنة فمینه. خلال هذا

من خلاله أن
لكعردىم كلدرهانسدة
شلهلا سوت نختتالاجفقتد
بحدث إلى أن:

- الإنسان هو غاية الخطاب القرآني، الذي جاء لينظم حياته و شؤونه. و النفس هي جوهر الإنسان. لذلك فإن موضوع النفس الإنسانية في القرآن الكريم هو أخطر مواضيعه، بعد موضوع معرفة الباري تعالى.

_ لقد اهتم القرآن الكريم بالنفس الإنسانية من جميع جوانبها: الجسمية، السلوكية، الروحية. و هذا تناول شامل لا نجده في أي دين أو مذهب آخر، و لا عند أصحاب النظريات النفسية الحديثة. و ما هذا إلا من وسطية القرآن و شموليته.

- مع أن القرآن الكريم تناول مختلف جوانب النفس الإنسانية، إلا أنه لم يتناولها أجزاء و قطعاً منفصلة، بل تناولها ككل متكامل متفاعل بعضه مع بعض.

- كشفت لنا هذه الدراسة عن وحدة التعبير القرآني و تماسكه و انسجامه، و براءته من التناقض و التضارب، كما كشفت عن زيف كثير من الشبهات التي أثيرت حول أسلوب القرآن في تناول المواضيع.

- بينت الدراسة أن القرآن الكريم قد استعمل مصطلحات دقيقة حين حديثه عن النفس الإنسانية، و هي مصطلحات مأخوذة من اللغة العربية المستعملة عي عصر النزول، بما يتطلب فهمها الرجوع إلى تلك الاستعمالات في ذلك العصر، مع مراعاة السياق الذي وردت فيه.

- بينت لنا هذه الدراسة أهمية الإحصاء في فهم القرآن الكريم عموماً و فهم حديثه عن النفس الإنسانية خصوصاً، إذ أن عدد تكرار اللفظة في القرآن الكريم بمختلف أوضاعها يكشف عن معاني لا تدرك إلا عن طريق النظرة الكلية لكتاب الله.

- كشفت الدراسة أن للمفسرين و الدارسين المسلمين القدامى جهود معتبرة في ميدان الآيات النفسية، انطلاقاً من إحساسهم بأهمية دراسة الإنسان في حد ذاته، و أهمية الجانب النفسي بالنسبة للإنسان.. لكن - في كثير من الأحيان - كانت المؤثرات الخارجية من هندية و يونانية حاجباً أمام تقدم هذه الدراسات، و سبباً في ابتعادها عن النص و دلالاته.

- لم يكن اهتمام المسلمين بالجانب النفسي للإنسان مقتصر على علاج الأمراض كما هو الحال في علم النفس الحديث الذي يركز على علم النفس العلاجي، و علم نفس الشواذ الذي لا يستفيد منه إلا المرضى، و الذي يعطي انطباعاتاً خاطئة بتعميم الحالات الشاذة و جعلها قاعدة تحفظ و تقاس عليها الحالات العادية. لكنه اهتمام متكامل بالنفس الإنسانية انطلاقاً من الاهتمام المتكامل للقرآن الكريم بالإنسان. فبالإضافة إلى الاهتمام بعلاج أمراض النفس الإنسانية، فهو يهتم قبل ذلك بالوقاية من هذه الأمراض. و فوق ذلك فهو يهتم بترقية المستوى النفسي للإنسان السوي.

- تعدد تخصصات المهتمين بآيات النفس الإنسانية، منهم المفسرون و منهم الفقهاء و منهم المحدثون، و منهم الفلاسفة...
- تعدد توجهات المهتمين بآيات النفس الإنسانية، فمنهم الصوفي و منهم المعتزلي، و منهم المرجئة، و من مختلف الاتجاهات الأخرى .
- المهتمون بآيات النفس الإنسانية كانوا من مختلف جهات الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها، ممن خرسان حتى الأندلس مرورا بكل الحواضر الإسلامية في هذا العصر.
و هذا التنوع في المهتمين أدى إلى تنوع طرق تناول آيات النفس الإنسانية.

- كما كانت آيات النفس الإنسانية مصدر إلهام لكثير ممن أثرت عنهم أقوال و مواقف على مر التاريخ الإسلامي. إذ أننا نجد في ترجمة كثير من الأعلام حديثا عن مواقف إنسانية رائعة صدرت عن أصحابها دون أن يربطوها بآيات الكتاب، لكنها لا محالة صادرة عنها. و كذلك نجد أقوالا ماثورة صدرت عنهم لكنها في حقيقتها إنما هي انعكاس لآيات الكتاب على أسنتهم.
- لم تظهر الدراسات البيانية للآيات النفسية في القرآن الكريم إلا مع مجيء العصر العباسي، حيث بدأ فيه الاهتمام بالجانب الإعجازي في القرآن الكريم كرد على الشبهات التي كان يطرحها الشعوبيون و المشككون في القرآن الكريم، فكانت هذه الردود و الشروح نواة لبيان فصاحة و بلاغة بيان القرآن الكريم التي لا يمكن لأحد مجاراتها، فكانت الآيات النفسية تدرس ضمن سائر الآيات دون تمييز في هذا الإطار.

و قد استمر هذا الاهتمام البياني في ما يسمى عصر الضعف، فرغم ما أصاب الأمة في هذا العصر إلا أن الدرس البياني لم يتوقف، و إن تعثر بعض الشيء بسبب الاهتمام المفرط من طرف بعض الدارسين بالتقسيم و التبويب و التقعيد الجاف.

- أما في العصر الحديث فنشهد عودة للدراسات البيانية و محاولات لإحيائها من جديد و بعث الروح فيها، مع ميل إلى دراسة الجانب الجمالي للنصوص إجمالا، و محاولة فهم أسلوب القرآن الكريم في التعبير دون الإغراق في النظرة التجزيئية القديمة التي كانت لدى البلاغيين القدامى.

- و هذا لا يعني الانتقاص من جهود القدامى، فقد كانت لهم إسهاماتهم العظيمة في دراسة هذا الجانب من القرآن الكريم. لكن من إعجاز القرآن الكريم أن يظل معروضا على الأجيال تتوارد عليه جيلا بعد جيل، و هو رحب المدى سخي المورد. كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغا، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح، و فوق كل طاقة

- لم نعثر على من يحاول أن يخصص الآيات النفسية على حدة في جميع القرآن الكريم بدراسة بيانية متكاملة. و هذا ما حاولناه في بحثنا هذا.

- تحدث القرآن الكريم عن الإنسان بكل مراحل حياته من قبل الميلاد حتى الموت والبعث، و بين خصائص كل مرحلة، ليكون مستعدا لكل مرحلة بما يناسبها، و يستفيد منها الفرد إلى أقصى الحدود.

- قدم لنا القرآن الكريم نظرية نفسية متكاملة، كشفت هذه الدراسة عن جوانب منها، و ما يزال الباب مفتوحا أمام الدارسين لتدقيق هذه النظرية و كشف جوانب أخرى منها.

- لم يكتف القرآن الكريم بوصف النفس الإنسانية وصفا مجردا، و إنما قرن ذلك ببيان ما قد يعتري هذه النفس من الأمراض، و قدم العلاج لها، و وصف كيفية الوقاية من تلك الأمراض، بل و أعطى لنا الطريقة المثلى لبلوغ هذه النفس أقصى مدى ممكن لها في الرقي و الصلاح.

- تبين لنا كذلك أن ما أمر به القرآن الكريم من التزام الأخلاق الفاضلة، و العبادات المفروضة و النافلة، لم يكن هدفها مجرد التعبد فقط، بل هي كذلك وسائل لتحقيق إنسانية الإنسان، و رفعته الروحية، فضلا عن وقايته من الأمراض النفسية، و علاجها.

و لقد صرح القرآن أحيانا بهذه الأهداف الرفيعة أحيانا كما أشار إليها أحيانا أخرى، و ترك لنا استنتاج البعض الآخر من خلال الممارسة العملية لهذه الإجراءات الوقائية و العلاجية التي أمر بها.

إلا أن أسلوب الإيجاز في وصف هذه العلاجات كان هو الغالب عليها، ليرتك للعقل الإنساني مجالا للتفكر و التدبر فيها، بعيدا عن الحجر على حرية الإنسان في أعمال العقل في النص القرآني.

كما استعمل القرآن أسلوب التصوير الفني في عرض هذه العلاجات، و ذلك تقريبا لمفهومها إلى العقل البشري، و تزيينا لها في منظور النفس الإنسانية. فقد يكون الدواء أحيانا كثيرة مرا مذاقه، فيأتي التصوير الجميل ليخفف مرارة الدواء على النفس، حتى تستسيغه و تقبل عليه، إلى أن تتعوده و تدرك نفعه فلا تنفر منه بعد ذلك حين الحاجة إليه.

- كانت النماذج التي قدمها القرآن شاملة لدراسة جميع جوانب النفس الإنسانية وأحوالها المختلفة، و شاملة لمختلف أنواع هذه الأنفس.

- إمكانية التنبؤ بالسلوك القادم لبعض الأفراد و الجماعات في ضوء المعطيات القرآنية، كالسلوك المؤمن أو الكافر أو المنافق. بما يعين على اتخاذ التدابير اللازمة حين مقابلة أي نموذج قبل أن يصدر منه ذلك السلوك المتنبأ به.

- كشفت لنا هذه الدراسة عن بعض جوانب الإعجاز النفسي في القرآن الكريم.

- مكنتنا في هذه الدراسة من توظيف بعض نتائج علم النفس الحديث، لكن دون الانجرار وراء ما يمكن أن يعتبر إسقاطا أو تعميما خاطئين من طرف

كثير من الباحثين الغربيين في هذا المجال. فاستنتجنا أنه ليس كل ما جاء في الدراسات النفسية الحديثة صحيح، كما أنها ليست كلها باطل، و القرآن الكريم و التحقيق الدقيق هو الفيصل في كل ذلك.

- لا تنحصر الدلالات النفسية في القرآن الكريم على آيات تصف هذه النفس بشكل مباشر، لكننا وجدنا أن كل التوجيهات الإلهية في القرآن الكريم من أوامر أو نواه هي ذات أثر وقائي و علاجي من كثير ممن الأمراض النفسية.
- اختار النص القرآني الألفاظ المناسبة للتعبير عن أحوال النفس الإنسانية، فكان المصطلح القرآني النفسي أبلغ تعبيراً عن غوامض و أغوار النفس الإنسانية.

- وظف القرآن الكريم مختلف الأساليب البيانية اللازمة لكشف طبيعة النفس الإنسانية، و خصوصاً الأمثال، و القصص، و الوصف، و المقابلة...
- استعمل القرآن الكريم الموسيقى التصويرية لعرض مختلف أوضاع النفس الإنسانية، فيختلف الإيقاع الموسيقي حين وصف حالات المؤمنين عن الإيقاع حين وصف حالات المنافقين مثلاً، كما يختلف الإيقاع بين وصف الحالات المختلفة للنفس، فهو يختلف بين وصف حالات الرغبة عنه في وصف حالات الرهبة مثلاً.

- تتعامل القصة القرآنية مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، بعيداً عن المثالية الخيالية في وصف الشخصيات مهما كانت و لو كانت شخصيات الأنبياء.

- ليست القصة القرآنية - التي تناولت النماذج النفسية المختلفة- عملاً فنياً مطلقاً مجرداً عن الأغراض التوجيهية، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق أغراضه الدينية الربانية، فهي إحدى الوسائل لإبلاغ الدعوة الإسلامية و تثبيت الأنفس على الإيمان.

- و في الختام أوصي بمواصلة البحث في هذا الميدان، فأنا لا أزعم أنني قد قلت القول الفصل في هذا الموضوع، و لا يحق لبشر أن يزعم شيئاً من ذلك، إذ أن كتاب الله لا تنقضي عجائبه. و لا يخلق من كثرة الرد.
و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر و المراجع

زيل من *الرحمن الرحيم.

الرحمن ١. بن محمد بن إدريس بن رازي ، تفسير طباطبائي أبي أحمد قديم ربيعة ، صيدا ، لبنان ، ط/س:.

التذكير ٢. من كلام الحكيم الخبير ، زائر ، الطبعة الأولى ٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

العباس ٣. أحمد بن عبد الحلحيرم اني:

ية ، الأقاهرة ، الطبعة الثانية ، الج ٩٩ مع ٩٩ لل تفسير ابن تيمية (رات) لقرآن ، قديم مشق ، الطبعة الثانية ، ٤٠٤ هـ .

قديم حنين محمد المخطوفة دايروت ، ان ، الطبعة ٩/٩٩ هـ ٨٨٤=٩٧٧م.

الدين محمد الرحمن بن علي:

الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ٤٠٤ هـ .

المساحيب سويدان ، دار القلم شق ، الطبعة الأولى ٢ هـ ٤٠٤=٢٠٠م

ابن حزم. الظاهري:

في مدد وأحاديث ملكني فوسد، ارتج: المعارف ، رة ، مصر ، ط ١١٤ هـ ١٩٨٤م .

إحسان عباس ، المؤسسة العربية نان ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٦. ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم و الحكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨.
٧. ابن عاشور محمد الطاهر، تحرير المعنى السديد و تنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (التحرير و التنوير من التفسير)، دار سحنون للنشر و التوزيع، تونس، الجمهورية التونسية، ١٩٩٧ م.
٨. ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، جامع بيان العلم و فضله، تحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان و دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م.
٩. ابن عجيبة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م = ١٤٢٣ هـ.
١٠. ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، ط:/، س:/.
١١. ابن قتيبة، غريب الحديث، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، س:/.
١٢. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي:
- أ - البداية و النهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م
- ب - تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر و التوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.
١٣. ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة: /، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.
١٤. ابن القيم الجوزية:
- أ - الأمثال في القرآن، تحقيق سعد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: ٣، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ هـ.
- ب - تفسير القرآن الكريم، تحقيق شيخ إبراهيم رمضان و آخرون، دار و مكتبة الهلال بيروت، لبنان، ط:/، ١٤١٠ هـ.
- ج - روضة المحبين و نزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: /، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.

- د - عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير، دمشق، سورية،
الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- هـ - طب القلوب، جمع و ترتيب صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق،
سورية، ط: ٤، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- و - مدارج السالكين بين إياك نعبد و إياك نستعين، تحقيق محمد حامد
الفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: /، ١٣٩٣هـ، ١٩٨٣م.
- ز - مفتاح دار السعادة و منشور ولاية العلم و الإرادة، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
- ١٥ . ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، ،
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.
- ١٦ . ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 1،
س: /.
- ١٧ . أبو بكر الجزائري جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر
التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة
العربية السعودية، الطبعة : الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ١٨ . أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي،
البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود و آخرين، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
- ١٩ . أبو طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي، قوت
القلوب في معاملة المحبوب و وصف طريق المرید إلى مقام التوحيد، تحقيق
محمود إبراهيم، مكتبة التراث، ط: ١، ١٤٢٢ = ٢٠٠١م.
- و (نسخة ثانية) تحقيق : د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية،
بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- ٢٠ . أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله بن هلال بن أسد الشيباني،
المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط و آخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان،
الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م
- ٢١ . أحمد إسماعيل أبو العينين، أسرار النفس في القرآن و السنة، دار
الكتاب العربي، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- ٢٢ . أحمد أمين : فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط
١٠: ، ١٩٦٩م

٢٣. أحمد شوقي إبراهيم، الروح و النفس و العقل و القرين، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، محافظة الجيزة، مصر، ط: ٢، ٢٠٠٥.
٢٤. أحمد فائق، مدخل إلى علم النفس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٦٦.
٢٥. أرسطو طاليس، النفس، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، مصر، ط: ٢، ١٩٦٢.
٢٦. الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران:
- أ - حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ.
- ب- معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٢٧. ألبير نصري نادر، النفس البشرية عند ابن سينا، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط: /، ١٩٦٨ م.
٢٨. أمين الخولي مناهج تجديد في النحو و البلاغة و التفسير و الأدب دار المعرفة القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٩٦١
٢٩. الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.
٣٠. أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، مكتبة كلية الآداب بعين شمس، القاهرة، مصر، ط: ٢، ١٩٦٨.
٣١. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة:
- أ - التاريخ الكبير، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.
- ب - الجامع الصحيح، دار ابن كثير، بيروت لبنان، ط: ٣، ١٤٠٨ هـ.
٣٢. بدران أبو العينين، أصول الفقه الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ط: /، س: /.
٣٣. البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر و آخريين، دار طيبة للنشر و التوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

٣٤. البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني،
شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت،
لبنان، ط: ١، ١٤١٠،

٣٥. الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة، الجامع الصحيح،
دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٣٦. التستري أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع، تفسير
القرآن العظيم، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١ هـ
= ٢٠٠١ م

٣٧. التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، ترجمة و تحقيق
رفيق العجم و آخرين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٦.

٣٨. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق، الكشف و البيان
في تفسير القرآن، تحقيق أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢ م.

٣٩. الجرجاني علي بن محمد بن علي الزين، التعريفات، دار الكتاب
العربي، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٠٥.

٤٠. الجوهرى إسماعيل بن حماد، تاج اللغة و صحاح العربية، تحقيق:
أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ =
١٩٨٧ م.

٤١. جمال ماضي أبو العزائم، القرآن و الصحة النفسية، مؤسسة دار
الهلال، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م.

٤٢. حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني، كشف
الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: /،
١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م.

٤٣. الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد النيسابوري المعروف بابن البيع،
المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار
الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م.

٤٤. حفني ناصف، حياة اللغة العربية، مكتبة الثقافة الدينية، المدينة: /
، البلد: /، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م.

٤٥. حقي أبو الفداء إسماعيل بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الخلوتي المولى ، روح البيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٤٦. الحوت محمد بن درويش بن محمد، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط: /، س: /.

٤٧. الخازن أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشحي، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م

٤٨. الخرائطي أبو بكر محمد بن جعفر، مكارم الأخلاق و معاليها و محمود طرائقها، تحقيق و دراسة : د. سعاد سليمان الخندقاوي، مطبعة المدني، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م.

٤٩. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق مهدي المخزومي، دار الهلال، البلد: /، ط: /، س: /.

٥٠. خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة، الجمهورية الجزائرية، ط: /، س: /.

٥١. الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٥٢. الذهبي محمد السيد حسين ، التفسير والمفسرون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م.

٥٣. الرازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر ، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠ م.

٥٤. الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، سورية، ط: /، س: /.

٥٥. رشاد علي عبد العزيز، علم نفس الدعوة بين النظرية و التطبيق، المكتب العلمي للكمبيوتر و النشر و التوزيع، الإسكندرية، مصر، ط: ١، ١٩٩٩ م.

٥٦. رشاد علي عبد العزيز موسى و آخرون، علم النفس الديني، دار عالم المعرفة، القاهرة، مصر، ط: /، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

٥٧. الزحيلي وهبة، التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ

٥٨. زكريا الأنصاري، المنفرجتان شعر ابن النحوي و الغزالي، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، ط: /، س: /.

٥٩. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، ١٩٩٦.

٦٠. الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: /، ٢، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م.

٦١. الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد (المتوفى: ١٣٩٦ هـ) الأعلام، تحقيق زهير فتح، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة ١٩٨٠

٦٢. الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، القاهرة، جمهورية مصر، ط: /، س: ٢٠٠٠.

٦٣. سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن عادل، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.

٦٤. سعد رياض، علم النفس في الحديث الشريف، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع و الترجمة، القاهرة، مصر، ط: /، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م.

٦٥. سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام و الملكية للإعلام و النشر و التوزيع، الجزائر، الجمهورية الجزائرية، ط: /، ١٩٩٢.

٦٦. السلمي محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن، حقائق التفسير، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: /، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.

٦٧. سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: /، س: /.

٦٨. السمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، بحر العلوم، تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٦٩. السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي أبو المظفر،
تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار
الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧ م.

٧٠. سيد عبد الحميد مرسي:

أ- الشخصية السوية، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤٠٦ هـ =
١٩٨٥ م.

ب- النفس مطمئنة، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤٠٣ هـ =
١٩٨٣ م.

ج- النفس البشرية، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٨٢.

د - و نفس و ما سواها، ، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤١٢ =
١٩٩٢ م.

٧١. سيد قطب:

أ - التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط: ١٣،
١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م.

ب - في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة، مصر، ط: ١٠، ١٤٠٢ هـ،
١٩٨٢ م.

ج - مشاهد القيامة في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط:
١، س: /.

٧٢. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:

أ - الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط: /، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م.

ب - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار
الفكر، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٩٩٣.

ج - معجم مقاليد العلوم في الحدود و الرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم
عبادة، مكتبة الآداب، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م.

د - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق: محمد عبد المنعم
رابح، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة: /، ٢٠٠٧ م.

٧٣. شادية أحمد التل، الشخصية من منظور نفسي إسلامي، دار
الكتاب الثقافي، اربد، الأردن، ط: /، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦.

٧٤. الشربيني محمد بن أحمد الخطيب، السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٧٥. الشوكاني محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

٧٦. صابر طعيمة، التصوف و التفلسف، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

٧٧. صالح بن عبد الله بن حميد و آخريين نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، دار الوسيلة للنشر و التوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، س: /.

٧٨. صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرع الصالحى الدمشقى، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار السلام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة، المدينة: /، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م.

٧٩. صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفنى عند سيد قطب ، دار الشهاب، باتنة، الجمهورية الجزائرية، ط: /، ١٩٨٨ م.

٨٠. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م.

٨١. طرفة بن العبد، الديوان بشرح الأعم الشنتمري، تحقيق درية الخطيب و لطفي الصقال، المؤسسة العربية، بيروت لبنان، ط: ٢، ٢٠٠٠ م.

٨٢. الطغرائي، الديوان، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، تركيا، ط: /، ١٣٠٠ هـ.

٨٣. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي:

أ - الإعجاز البياني و مسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٧١.

ب - القرآن و قضايا الإنسان دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٩٩ م.

٨٤. عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط: /، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥ م.

٨٥. عبد الكريم الخطيب، الإنسان في القرآن من البداية إلى النهاية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٩٧٩.

٨٦. العجلوني إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨ م = ١٤٠٨ هـ

٨٧. عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط: /، س: /.

٨٨. العسقلاني أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٨٩م.

٨٩. العسقلاني شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر آباد، الهند، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢ م.

٩٠. عيسى شحاته، العربية و النص القرآني، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط: /، ٢٠٠١ م.

٩١. الغزالي محمد بن محمد أبو حامد :

أ- إحياء علوم الدين، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الجزائر، الجمهورية الجزائرية، ط: ١، ١٤١١ = ١٩٩١.

ب- مدارج القدس في معرفة النفس، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: ٤، ١٩٨٠.

٩٢. الغزالي محمد، الجانب العاطفي من الإسلام، دار الشهاب، باتنة، الجمهورية الجزائرية، ط: /، س: /.

٩٣. الفيروز آبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٢ = ١٩٩٦.

٩٤. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن الكريم دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: / ، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

٩٥. القنوجي صديق بن حسن، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: / ، ١٩٧٨.

٩٦. القيسراني محمد بن طاهر ، تذكرة الحفاظ، دار الصمعي، الرياض ، المملكة ع س ، ط: ١ ، ١٤١٥ هـ.

٩٧. الكتبي محمد بن شاكر ، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٣ م.

٩٨. كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: / ، س: /.

٩٩. الكرمي مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد، قلائد المرجان في بيان الناسخ و المنسوخ في القرآن، تحقيق سامي عطا حسن، دار القرآن الكريم، الكويت، ط: / ، ١٤٠٠ هـ.

١٠٠. مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط: / ، س: /.

١٠١. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد البصري، النكت و العيون، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، ط: / ، س: / ، بيروت، لبنان.

١٠٢. المزي جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ = ١٩٨٥ م.

١٠٣. مجاهد أبو الحجاج بن جبر المخزومي، تفسير مجاهد، تحقيق عبد الرحمن الطاهر، دار المنشورات العلمية، بيروت، لبنان، ط: / ، س: / .

١٠٤. المحاربي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م،

١٠٥ . محمد رشاد خليل، علم النفس الإسلامي العام و التربوي، دار القلم، الصفاة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ = ١٩٨٧.

١٠٦ . محمد رواس قلعه جي و حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية : ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.

١٠٧ . محمد عبد المطلب، عز الدين إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط: /، ١٩٩١.

١٠٨ . محمد قطب:

أ - الإنسان بين المادية و الإسلام، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٢، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م.

ب - دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة: ٩، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

١٠٩ . محمد عثمان نجاتي:

أ - الحديث النبوي و علم النفس، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥ = ٢٠٠٥ م.

ب- القرآن و علم النفس، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥ م.

١١٠ . محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م.

١١١ . محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط: /، ١٤٢٢ = 2001 م.

١١٢ . محمد محمد داود، القرآن الكريم و تفاعل المعاني، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، ط: /، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م.

١١٣ . محمود سليم محمد هياجنة، الصورة النفسية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨ م.

١١٤ . مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل، و دار الأفق الجديدة، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.

١١٥ . مفتاح محمد عبد العزيز، القرآن و علم النفس، منشورات جامعة
قاريونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١١٦ . المناوي محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف،
تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر، بيروت، لبنان،
دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ .

١١٧ . مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر
والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م.

١١٨ . منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة و الأشاعرة، دار نشأه
المعارف، الإسكندرية، مصر، ط: ٣، ١٩٨٦ م.

١١٩ . النَّحَّاس أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي
النحوي، معاني القرآن الكريم، تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى،
مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.

١٢٠ . النسائي أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني،
السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار
الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ، ١٤١١ - ١٩٩١ .

١٢١ . نعيم الحمصي، فكرة إعجاز القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت،
لبنان، ط: ٢، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م.

١٢٢ . النظام النيسابوري الحسن بن محمد بن الحسين القمي نظام الدين
النيسابوري الأعرج ، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا
عميران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦
م.

١٢٣ . النووي أبو زكريا محيي الدين:

أ- الأذكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت،

- لبنان، ط: /، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ب - التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة و النشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م.
- تهذيب الأسماء و اللغات، تحقيق : مكتب البحوث و الدراسات في دار الفكر .دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى ١٩٩٦ م
- ١٢٤ . النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م.
- ١٢٥ . الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، أسباب النزول، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط: /، ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م.
- ١٢٦ . وليم الخولي، الموسوعة المختصرة في علم النفس و الطب العقلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٩٧٦ م.
- ١٢٧ . الهروي أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري ، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.
- ١٢٨ . ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط: /، س: /.
- ١٢٩ . يوسف القرضاوي، العقل و العلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر الطبعة الأولى، ١٤١٦ - ١٩٩٦ م.
- ١٣٠ . يوسف حسن نوفل، جماليات القصة القرآنية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط: ١، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م.

المراجع الأجنبية:

Claire hallouin et autres, Encyclopédie bordas, édition Encyclopédies bordas , Gütersloh, Allemagne, version: /, 1998.
 Microsoft Corporation." *Microsoft® Encarta®* 2006 [CD].
 Microsoft Corporation, Redmond ,État de Washington, U.S.A,
 version:15, 2005
 Sainte Bible, traduction française par le R. P. de Carrières,
 imprimerie d'outhenin-chalandre fils, Besançon, France, édition
 de 1835.

الدوريات

- مجلة البحوث الإسلامية، إصدار الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء و الدعوة و الإرشاد، العدد: ٧٩، من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٧هـ.

- مجلة البيان، إصدار المنتدى الإسلامي ، العدد: ١٥٦، شعبان ١٤٢١هـ = نوفمبر ٢٠٠٠م (السنة : ١٥).